الإخوان المسلمون فى سورية





مذكرات وذكريات

من رحيل الشيشكلى إلى الانفصال ١٩٥٤ - ١٩٦٣

عدنان سعد الدين

مكتبة مدبولى

الإخوان المسلمون في سورية

مذكرات وذكريات

من رحيل الشيشكلي إلى الانفصال

١٩٥٤: ١٩٦٣

اسم الكتاب: الإخوان المسلمون فى سورية
مذكرات وذكريات
من رحيل الشيشكلى إلى الانفصال
١٩٥٤ : ١٩٦٣
المؤلف: عدنان سعد الدين
الطبعة: الاولى ٢٠١٠
رقم الايداع: ٢٠٠٩/٢٠٤٤٤
الترقيم الدولى: ٨ - ٨١١ - ٢٠٨ - ٩٧٧
الناشر: مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
ت: ٢٥٧٥٦٤٢١ ف: ٢٥٧٥٢٨٥٤
Web site : www.madboulybooks.com
E_ mail : info@madboulybooks.com

عدنان سعد الدين

الكتاب الثانى

الإخوان المسلمون فى سورية

مذكرات وذكريات

من رحيل الشيشكلى إلى الانفصال

١٩٥٤ :١٩٦٣

مكتبة مدبولى
٢٠١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم الأديب: عبدالله الطنطاوي

هذا المجلد -من الكتاب الكبير (الإخوان المسلمون في سورية.. مذكرات وذكريات) الذي يعكف على تأليفه- من ذوب قلبه، وعصارة فكره، وصفاء نفسه، وذكاء عقله، وحيوية ذاكرته -الأستاذ الكبير، الأخ عدنان سعد الدين، مهمٌّ، وخطير، لامس قضايا كبيرة، وخطيرة، وأضاء بؤراً حالكة الظلام، وناقش بعض (المحظور) بصراحة، وجرأة، وموضوعية، لأنه يؤدي شهادة لا يستطيع أن يكتمها، أو يسكت عنها، وما ينبغي له، وهو ابن الدعوة، نشأ وترعرع في رحابها، وكان من بُناتها، ثم كان راعيها وقائدها في حقبة حرجة من تاريخ الإخوان، وهو -تاريخ الإخوان المسلمين- جزء مهم من تاريخ سورية الحديث.

يتحدث المؤلف الكبير -في هذا المجلد- عن ثلاث مراحل قلقة من تاريخ سورية المعاصر:

المرحلة الأولى: تبدأ من رحيل الشيشكلي وسقوط نظامه العسكري الديكتاتوري عام ١٩٥٤ إلى قيام الوحدة بين سورية ومصر

عام ١٩٥٨، وفي هـذه المرحلة، تسلـط على الحكم في سـورية، ما سُمّـي بحكم الـتجـمع القـومي. . تجـمع الشـيوعـيين، والـبعـثيـين، والمتخاذليـن، والسائرين في ركب اليسار عامـة. . وقد عانى الأحرار الكثير من ظلم هؤلاء، وافتئاتهم علـى الديمقراطية التي كانوا يزعمون أنهم رعـاتها والدعاة إلـيها، فـيما كانـت ديموقراطيـتهم تلـك، هشّة، زائفـة، عـانينـا -أثناءهـا- ألواناً من الـظلم، والـقهـر، والاسـتبـداد، والإقصـاء، والفوضى التي قـادت الوطن إلى انتكـاسات في كثـير من الميادين السـياسية، والاقتصادية، والاجـتماعية، والثقـافية. . وقد نال الإخوان المسلمـين ما نالهم من أولئك المتسلطـين الأجلاف، فتراجع من تـراجع من الإخـوان، ولكن قـائد الجـماعـة ومفكـرها وخطيـبهـا الدكـتور مـصطفى الـسباعـي، وقف وحده -بـين جمـوع السيـاسيـين المذعورين من الديكتاتوريات العسكرية، واليسارية- شامخاً، مقداماً، لم تضـعف روحه، ولم تَخُرْ عـزيمته، ولـم تلن إرادة القائد فـيه، بل استمر -بجـلده وصبره وقوة إرادته- ملهماً للإخـوان، ولسائر الأحرار المقموعين المقهورين. .

تعرض -الـسباعي- للتـآمر ممن سُـمُّوا (المنشـقين) بقيـادة ضابط المخابرات المـصري الغادر الناكث للعهد: (نجـيب جويفل). . وكان وطء الانشقاق ثقيـلاً، ظاهر المتآمرين على الجـماعة في الداخل وفي الخـارج معـاً. . تعـرض السـباعـي وتنظـيمـه الإخوانـي إلى تآمـر من الداخل، وتآمر من الخارج، تمثل في الحملات المحمومة عليه وعلى جماعته، ومن الغرب ودوائره الاستخباراتية التي حاولت اغتياله، ومن

(اليسار) المزعوم الذي كان يهلّل لتلك الدوائر، ويتمنّى التخلص من الجماعة باغتيال قائدها المقدام..

بعد سقوط الشيشكلي، وعودة السباعي من منفاه في لبنان، بادر إلى رصّ صفوف الجماعة، وتصدّى لمؤامرة المنشقين، ونافح حتى تمّ له إنشاء كلية الشريعة، ولم يهدأ، ولم يدع الساحة السياسية تهدأ، وهو يتصدّى للأحلاف الاستعمارية، ومن حوله أبناء الإخوان يشدّون أزره، ويطيعون أمره حتى لو خاض بهم المنايا.. فقد كان، وإخوانه يتحركون في سائر الميادين، وخاصة الميدان السياسي الذي أخطؤوا تجاهه خطيئة العمر، عندما عصوا قائدهم، وابتعدوا عن العمل السياسي، بحجة التفرغ للعمل التربوي، فخسرت الجماعة، وخسرت سورية الكثير، وعاشت فراغاً ما لبث اليسار أن ملأه، وعيون القائد -السباعي- تفيض من الدمع، على ما كان من تفريط بهذا الميدان الحساس.

تحدث الكاتب الكبير عن هذه المرحلة القلقة المضطربة من حياة سورية، ومن حياة الجماعة، حديث العارف البصير المدرك للخفايا.

والمرحلة الثانية: هي مرحلة الوحدة بين سورية ومصر، تلك التي دفع إليها حبُّ السوري للوحدة، واستعداده للتضحية بالغالي والنفيس من أجلها.. ولكن الذين سعوا إليها، لم يكونوا على مستوى المسؤولية والوعي، فقدّموا سورية الحرة الديموقراطية، قلب العروبة، وظئر الإسلام.. قدّموها على طبق من ذهب، لديكتاتور يعرفونه جيداً، ولكنه استخفّ بهم، فأطاعوه، واستغلّ الظرف السيئ الذي

تعيشه سورية تحت حكم التجمع القومي، وحماقات العسكر، فاشترط عليهم شروطاً غير عادية.. شروطاً مخيفة ومجحفة، ليمسك بيده كل شيء في دولة المخابرات والقمع والقهر..

تحدث المؤلف عن هذه الوحدة.. الطفرة.. التي سلقها العسكر ومن لا دراية لهم بشؤون السياسة والحكم، والمتآمرون على سورية الجمهورية العتيدة الراسخة.. وتحدث عن الأخطاء الكبيرة التي ارتكبها الحاكم بأمره.. تلك الأخطاء التي جعلت الوحدة في مهبّ رياح هوج، وقد حذّر السباعي الحكيم البصير الخائف على الوحدة.. حذّر عبدَ الناصر من تلك الأخطاء، وقال له: لا تستمع للتقارير التي يكتبونها لك، فالوحدة معرضة للضياع.. وابتسم الحاكم بأمره، وربما سخر من نصيحة هذا الأكاديمي الرجعي في زعمه الذي لا يعرف -كما يظن الطاغية- بواطن الأمور.

تحدث المؤلف عن تلك الأخطاء التي جعلت الشعب السوري يتطلع إلى الخلاص من حكم عبد الناصر الشديد الوطأة.. وعن استغلال فئة من الضباط تلك الأخطاء، من أجل فصم عُرا الوحدة.

والمرحلة الثالثة: كانت مرحلة الانفصال الذي فجعنا في أول مشروع وحدوي فرحنا به، على الرغم مما لقيناه من الحاكم وحاشيته من السوريين اليساريين بشكل خاص.

تحدث المؤلف -بإسهاب- عن حماقات الانفصاليين من الضباط الذين هم أعجز من أن يديروا (سوبر ماركت) وتحدث عن ضعف رئيس الجمهورية، واضطراب السياسيين بعامة، أولئك الذين سلموا

مقاليد الأمور في سورية الحبيبة، لانقلابيي الثامن من آذار، بسبب خورهم، وترددهم، وشطط بعضهم على بعضهم الآخر، وكيد بعضهم لبعض، حتى كانت الكارثة التي شاركوا جميعهم في وقوعها.. أعني كارثة انقلاب الثامن من آذار، وتسلّم ثلة من الضباط الطائفيين لأزمَّة الحكم الذي سوف يتحدث عنه المؤلف في المجلد الثالث إن شاء الله تعالى.

كانت المرارات واضحة بين السطور التي خطّها المؤلف عن أولئك الذين ضيّعوا سورية، من الانقلابيين العسكريين المستبدين، ثم من يسار التجمع القومي البائس التعيس، ثم من الذين عبثوا بالوحدة، وأذلوا الشعب السوري، حتى ضاق ذرعاً بالوحدة، وفرح بزوالها، ولكنّ خيبة آماله برجال الانفصال، كانت أشد من الخيبة بالذين حكموا أيام الوحدة، وأساؤوا، وأساؤوا، وأساؤوا، حتى تبرّم بهم وبها من كان يفتديها.

لقد خسرت سورية من عمرها أكثر من نصف قرن، نتيجة عبث العسكر، وارتباطاتهم المشبوهة، توقفت فيها التنمية، وعمّ الفساد، وتوالت الانكسارات والهزائم، وصارت البلاد مزارع للطغاة، وصارت الجمهورية ملكية يتوارثها الأغراب.

تحدّث المؤلف عن كل هذا، كما تحدث عن الطائفية ودعاتها، وعن الباطنية ومخاطرها، بمرارة وألم، وهو الدارس للتاريخ، العارف بالمآسي والكوارث التي نزلت بالأمة على أيدي أولئك العابثين الشعوبيين.

وقد شجب المؤلف الدعوات الطائفية، والباطنية، والمذهبية، وحذّر منها ومن جلاوزتها وهراطقتها، ونبّه إلى خطورتها وخطورتهم على سورية شعباً وأرضاً وقيماً، بل وعلى الأمة عامة.. فهي مرض فتّاك، لا يقتصر ضرره على فئة دون فئة، بل يصيب كل شرائح الشعب والأمة، ولا يكاد أحد ينجو من شروره.. وضرب أمثلة من القديم ومن الحديث، ودعا الجميع إلى أن يعودوا إلى عهود الوئام والازدهار.. كما دعا إلى ضرورة تحصين أبناء الشعب والأمة من مكر الطائفيين وكيدهم.

الكلام عن هذا الكتاب النفيس يطول، ومهما طال، فلن يفيه حقّه، فالمعلومات التي حفل بها واحتواها، لا نكاد نجدها مجتمعة في كتاب ولا في كتب، ولابد من دراسة الكتاب دراسة جادة، وليس قراءة عابرة.

أدعوكم إلى دراسته، وأشدّ على يد المؤلف الكاتب الكبير، وأدعو الله أن يقويه ويعينه ويمدّه بالصحة والعافية والعمر المديد، لاستكمال هذا الكتاب النفيس، وليثري المكتبة العربية والإسلامية بالمزيد من كتاباته وكتبه القيمة وعقله المستنير بنور الله، ثم بتجاربه الغنيّة عبر حياته الحافلة، التي لم يعرف اللهو وضياع الأوقات إليها سبيلاً..

آمين..آمين.. آمين.. والحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا ونبينا وقائدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تقديم

الأستاذ الدكتور المهندس: رائف يوسف نجم[1]

قبل شهرين بتاريخ ١٦-٦-٢٠٠٧ أرسلت تعليقي على المجلد الأول من كتاب (الإخوان المسلمون في سورية). والآن بعد أن أنهيت قراءتي للمجلد الثاني فإنني أؤكد ما توقعته، وهو أن هذا الكتاب هو أفضل ما قرأته عن تاريخ فترة العشر سنوات (١٩٥٤-١٩٦٣) من تاريخ سورية، وأكثر ما استرعى انتباهي من أحداث ما يلي:-

١- أن قرار الإخوان المسلمين الانسحاب من العمل السياسي قبل الوحدة مع مصر ساعد الشيوعيين والبعثيين على ملء الفراغ.

٢- كان الإخوان المسلمون رواد سياسة الحياد الإيجابي بين المعسكرين الرأسمالي والشيوعي.

٣- كان للإخوان المسلمين دور كبير في انتصار ثورة الجزائر.

٤- إن رفض هتلر للعرض المقدم له من الحاج أمين الحسيني

---

(١) وزير الأوقاف والمقدسات الإسلامية الأسبق في المملكة الأردنية الهاشمية.

بشأن دول المغرب أثبت احتقار هتلر للعرب كما كان يكره اليهود.

٥- كشف الكتاب عدداً كبيراً من الدسائس التي حيكت ضد الإسلام والمسلمين وأزال النقاب عن أسماء المعارضين من العرب وغيرهم مثل: أكرم الحوراني، نوري السعيد، ايدن، السي آي إيه.

٦- تأييد الإخوان المسلمين لتأميم قناة السويس رغم الخلاف مع جمال عبد الناصر.

٧- كشف عدداً من الشخصيات المتسلقة ممن اعتبرهم الشعب زعماء مسلمين كبعض الشيوخ الذين التقت مصالحهم الشخصية مع سياسة البعث وزعيمه أكرم الحوراني.

٨- كشف التزوير في الانتخابات الذي كان يقوم به حزب البعث.

٩- دعم الإخوان المسلمين في سورية لأشقائهم في العالم العربي وفي الشرق الأقصى كاندونيسيا والهند والباكستان.

١٠- لم ينس المؤلف أهمية الحركة النسائية في جماعة الإخوان في مصر وسورية والسودان وتركيا وماليزيا والمغرب والجزائر.

١١- شرح المؤلف بأمانة وصدق الأسباب التي أدت إلى الوحدة بتاريخ ٢٢-٢-١٩٥٨ مع مصر. وأهمها الخوف من انزلاق سورية إلى الشيوعية، والأسباب التي أدت إلى الانفصال وأهمها تأميم المزارع والمصانع السورية، وعبث جمال عبد الناصر بالجيش السوري، وكانت النتيجة أن الجيش السوري الذي صنع الوحدة هو الذي أسقطها.

١٢- كشف المؤلف طمع الإنكليز والفرنسيين والأمريكان والهولنديين والسوفييت والفرس بثروات دول الخليج العربي الهائلة، وما خلفته بريطانيا من فساد وخلافات وانقسامات قبلية، وكيف أصبح العرب يعيشون غرباء في هذه المنطقة.

١٣- كشف المؤلف محاولات إعادة الوحدة مع مصر، وأحداث عاشها المؤلف بنفسه.

١٤- كشف المؤلف مساوئ الطوائف الباطنية وتاريخها المناوئ للإسلام ومؤامراتها ضد القادة المسلمين مثل صلاح الدين الأيوبي، وتعاونها مع الفرنسيين وتغلغلهم في القوات المسلحة السورية، مما نتج عنه سيطرتهم على الجيش.

شكراً للمؤلف على تخصيص مساحة واسعة من الكتاب لهذه الطوائف الباطنية حتى يتعرف القارئ على حقيقتها.

إن الكتاب يزخر بالمعلومات التي تغيب عن الكثير من الناس، فجزى الله مؤلفه خير الجزاء، وأثابه حسن الثواب.



المرحلة الثالثة

الإخوان المسلمون بعد عودة الحياة الدستورية
١٩٥٤ - ١٩٥٨

أولاً- نظم التعليم وكلية الشريعة

زاحمت أنظمة التعليم الحديث في ظل سلطات الانتداب الفرنسي أنظمة التعليم القديمة بأساليبه التقليدية في الكتاتيب وفي المدارس الأهلية، ونشأ عن ذلك صراع غير متكافئ بين أنظمة التعليم الحديث بما تملكه من أساليب ووسائل جديدة، ودعم مالي، وسند سياسي، وامتيازات للخريجين الذين يحملون شهاداته، وبين أنظمة التعليم التقليدي، بأساليبه ووسائله القديمة التي تحتاج إلى تجديد وتغيير ومراجعة.

١- عاش خريجو المدارس والمعاهد الشرعية أزمات حادة مستمرة، وشعوراً بالنقص في كل مراحل حياتهم، فشهاداتهم غير معترف بها في دوائر الحكومة، وأبواب التوظيف مغلقة أمامهم،

وعملهم كله مقتصر على إمام مسجد، أو خطيب جمعة، ورواتبهم لا تفي بحاجاتهم، ولا تغطي تكاليف معيشتهم وأسرهم، وجهودُهم كلها أو جُلها منصرفة إلى المطالبة بالاعتراف بشهاداتهم، وفتح باب التوظيف في وزارة التربية لتدريس اللغة العربية والعلوم الشرعية في مدارسها. هذا ما كان يعانيه خريجو الأزهر والزيتونة وفاس والمدارس الشرعية في بلاد الشام والعراق وغيرها. وقد استدرك النابهون هذا الأمر، للخروج من الأزمات التي يعيشها خريجو المدارس الشرعية أو الدينية، كالذي أقدم عليه العارف بالله الشيخ محمود عبد الرحمن الشقفة منشئ ومؤسس المدرسة الشرعية في حماة، إذ طبق الشيخ منهاج وزارة التربية على طلابه، وأضاف إليها العلوم الشرعية الأساسية في القرآن الكريم والحديث الشريف والسيرة والتوحيد والفقه والفرائض، فتخرج طلاب هذه المدارس يحملون الشهادات الحكومية، ويزيدون على طلاب المدارس الرسمية بالدراسة الشرعية، فصار لديهم شعور بالتفوق، بدلاً من الشعور بالنقص، ووجدوا أبواب الجامعات وكذا دوائر الحكومة مشرعة ومفتوحة أمامهم، وإذن فلابد لمن يود اللحوق بركب التعليم الحديث، من حملِ الشهادات الحكومية الرسمية بصورة أو بأخرى، كما فعل الدواليبي والزرقا بعد تخرجهما من المدرسة الخسروية في حلب، إذ أقبلا على دراسة منهاج البكالوريا وحملا شهادتها، فأمكنهما ذلك من الالتحاق بكلية الحقوق في الجامعة السورية، ومن ثم إكمال التحصيل العالي في الجامعات العربية والأجنبية، وحمل شهادة الدكتوراه والتدريس في كليات الحقوق والشريعة في الجامعة السورية كالذي

جرى للدواليبي رحمه الله.

٢- أدرك الشيخ السباعي عمق المأساة الحياتية في أوساط الشيوخ وطلاب المعاهد الشرعية، وحملة الشهادات الدينية، فوضع نصب عينيه العمل على حل هذه الأزمة، وتحرير هذه الفئة من أي شعور بالنقص أو الضعف، وفتح مجالات العمل والتوظيف والدراسة أمامهم مثل بقية المواطنين من حملة الشهادات الرسمية سواءً بسواء، فعزم بكل ما أوتي من قوة على إنشاء كلية للشريعة، تكون صرحاً علمياً شامخاً بجانب كليات الآداب والحقوق والعلوم والصيدلة والهندسة والطب، تساويها وتوازيها، بكل ما تتمتع به من امتيازات في القيمة العلمية والمعنوية، بشهادتها وبفتح أبواب التوظيف لحملتها في الأوقاف والتربية والقضاء والدوائر الأخرى.

كثّف الداعية الكبير جهوده، وبذل قصاراها، حتى أدرك ما يريد بإقرار البرلمان السوري قانون كلية الشريعة، وتأسيس كلية الشريعة في الجامعة السورية بتاريخ ٢٤-١٠-١٩٥٤م، في ظل رئاسة هاشم الأتاسي وحكومة صبري العسلي، وعندما تأخر صدور المرسوم الرئاسي بالقانون، قام الشيخ بزيارة القصر الجمهوري بتاريخ ٢٤-١٠-١٩٥٤م، ملحاً على صدور المرسوم كي تتمكن الكلية من فتح أبوابها، لاستقبال المنتسبين إليها للعام الدراسي ١٩٥٤-١٩٥٥، فكان له ما أراد.

٣- في ٢٠-٤-١٩٥٥م تم افتتاح كلية الشريعة رسمياً في احتفال مهيب على مدرج الجامعة السورية، حضره الرئيس هاشم الأتاسي

بنفسه، وحضر معه رئيس المجلس النيابي ورئيس الحكومة والوزراء، كما شهده السفراء والعلماء، وثلة من كبار الأساتذة في الجامعة السورية، فألقى مؤسس الكلية وعميدها الدكتور الشيخ مصطفى السباعي كلمة في هذا الاحتفال، أوردتها مجلة الشهاب في عددها السادس من سنتها الأولى الصادر في ٥-٦-١٩٥٥م، ونقلها كل الذين كتبوا عن السباعي، وسجلوا سيرته الذاتية، قال الشيخ:

«كان قيام كلية الشريعة في الجامعة السورية حاجة دستورية، وضرورة تاريخية وقومية وعلمية، كما هي ضرورة اجتماعية أيضاً، فالذين يعانون دعوات الإصلاح، ويعملون مخلصين في ميادين السياسة، يشعرون بالانحدار الكبير الذي بلغته أخلاقنا، وبالانحراف المؤسف الذي طبع به سلوكنا الاجتماعي العام، وما دام للشريعة سلطانها القاهر على الجماهير، فإن من الخير لوطننا وأمتنا أن ينبعث هذا التشريع من جديد، ليأخذ مكانه الموجه للسلوك الأخلاقي العام، المنشئ لنظام اجتماعي يخضع لتطور الحياة، كما تخضع الحياة لمقاييس الحق والخير والكمال، إنه ليثقل من خطورة هذه المهمة، تزايد الشعور بالحاجة إلى علماء يزيلون عن الأبصار حجب الجهالة، ويطهرون المجتمع من أوزار التعصب الطائفي الذميم، ويُعلمون الناس أن شرائع الله حب لا بغض، وإخاء لا عداء، وتعاون لا تقاطع، وحياة لا موت، وقوة لا ضعف، وإخلاص لا استغلال، وإصلاح لا نفاق فيه ولا فساد.

وفي آخر الخطاب قال الشيخ: لقد قال التاريخ قبل قليل: ولدت

كلية الشريعة، وسيقول التاريخ بعد قليل: في ذلك اليوم أيضاً عرفت الأمة سبيلها الصحيح إلى تحقيق حلمها الجميل، حلم العيش في وطن تحكمه شريعته، ويسود فيه قانونه، والسير في طريقٍ أوله الخلود وآخره الجنة.

٤- عمل الشيخ السباعي منذ مزاولته مسؤوليته عميداً لكلية الشريعة على إرساء دعائم هذه الكلية على أمتن الأسس العلمية والفكرية، والأساليب الحديثة، لتحقيق الهدف المنشود في تخريج أجيال من العلماء والدعاة والفقهاء والمدرسين الجديرين بحمل لواء الفقه الإسلامي ونشره والتمكين له، وبذلك تكون جامعة دمشق -كما قال الأستاذ مصطفى الزرقا- قد استكملت ركناً كان ينقصها.

لقد وهب السباعي كلية الشريعة بعد تأسيسها من روحه وحيويته وعلمه وتوجيهه أثراً لا ينفد، يتوارثه من يتعاقبون على الكلية أساتذة وطلاباً. لقد كان السباعي يرى أن مناهج كلية الشريعة لا يجوز أن تقتصر على تلقين العلوم وحدها، وأن غاية هذا الصرح العلمي العتيد ليست تخريج العلماء والفقهاء فحسب، وإنما كان يريد أن يكون الخريجون مفكرين ودعاة وعلماء ومجتهدين، لذلك عُني رحمه الله بمناهج التربية والتوجيه في الكلية، فبالإضافة إلى الروح التوجيهية التي كان يحرص السباعي على بثها في المناهج العلمية كافة، عمل على توجيه الطلاب توجيهاً مباشراً، فأحدث درساً أسبوعياً سماه -قاعة البحث- تولى بنفسه إدارة هذه القاعة، وإلقاء محاضراتها التوجيهية، وكان حريصاً على عدم الانقطاع عن قاعة البحث لأي

عـذر، ولو كـان الألم الـشـديد والأوجـاع المـبـرحـة. وكـان إخـوانه وزملاؤه يعجبون من همته وحيويته وإخلاصه واندفاعه لأداء الواجب، رغم ما يعـانيه من آلام تنوء بها الـجبال، فكانوا يرجـونه أن لا يُحَمِّل نفسه مـالا تطيق، ويحاولون ثنيه عن عـزمه إشفاقاً عليه، لمـا يعلمون من شدة الآلام التـي لم تفارقه لحظـة واحدة في مرضه الأخـير، نظراً لما كانت هذه المـحاضرات تكلفه من جهد وتـعب وإرهاق، ولاسيما في أيام الشتاء الباردة، لكنه رحمه الله لم يكن يصغي لذلك، ويقول: خيـر لي أن أمـوت وأنا أقوم بـواجبي نـحو اللـه، من أن أموت عـلى فـراشي، فـالآجال بـيد الـله، وإن ألمـي من حـرمان الـطلاب دروس التـوجـيه أشـد وأقـسى من آلامـي الجسـدية، وحـسـبي اللـه، وعليـه الاتكال[1].

٥- بعد أن تحقق للشيخ السباعي طموحه في إنشاء كلية الشريعة، وانتظام الـدراسة فيهـا، وإمدادها بكبـار العلماء المـقيميـن والزائرين، ومن إقبال الطلاب عـليها من كل أنحاء سورية، ومن الـبلاد المجاورة في بلاد الشام وغيرها، عزم على إنشاء موسوعة الفقه الإسلامي، بغية إحياء الـتراث الفقهي الـعظيم، وبعثـه في قالب جديد وثوب قـشيب، وصيـاغته وتصنـيفه وتبـويبه على أحـدث الأساليب المـتبعـة في أرقى الموسـوعات العلميـة والقانونية فـي العالم، لتكون مـرجعاً لكل فـقيه وعالـم ودارس وباحث ومجـتهـد، ولتلبي حـاجة التـشريع الـذي كان

---

(١) مصطفى السباعي رجل فكر وقـائد دعوة للأستاذ عـبد العزيز الحاج مـصطفى: ٢٥، الطبعة الأولى عام ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م نشر دار عمار.

السباعي وجميع الدعاة والعاملين للإسلام يطمحون ويتطلعون إلى تطبيقه، وصبغ الحياة العامة في جميع مرافق المجتمع والدولة بصبغته الربانية التي تحقق العدل والمساواة والحرية والوحدة والنهوض، واستئناف الدور الحضاري والقيادي لأمة الرسالة لاحقاً، كما كانت سابقاً، وتحقيقاً لهذا الهدف الكبير، ركب القائد الداعية كل صعب، حتى أخرج المشروع إلى حيز الوجود، فكان أول رئيس لهذه الموسوعة التي جمعت كبار الأساتذة من ذوي الرتب العلمية والفقهية والقانونية في الجامعة، وباشرت عملها العملاق، لتحقيق الغايات الكبيرة التي أنشئت الموسوعة من أجل تحقيقها[١].

لقد كانت كلية الشريعة وموسوعة الفقه الإسلامي التابعة لها إنجازاً كبيراً، وفتحاً مبيناً في عالم الفكر والفقه والدعوة الإسلامية، وكانت باكورة هذه المرحلة الثالثة من تاريخ دعوة الإخوان المسلمين في سورية.

ثانياً- الإخوان والعمل السياسي

فهم الإخوان المسلمون منذ النشأة الأولى في مصر وسورية أن السياسة التي ترمي إلى إصلاح المجتمع، وتقويم اعوجاجه، وتصحيح مساره، والارتقاء به إلى مدارج السمو والكمال والازدهار، وإلى رعاية شؤون المواطنين في كل مرافق حياتهم، فهموا ذلك على أنه جزء من الرسالة الإسلامية لا يتجزأ، بل هو من فروض الإسلام

---

(١) المرجع السابق: ٢٤ .

الكفائية التي لا يملك المسلم الداعية أن يتركها أو يهملها، أو يتراخى في الالتزام بها والدعوة إليها، وإلا فقدت الدعوة أهم خصائصها، وأعظم مرتكزاتها، وأضحت ديناً فردياً، يقتصر على الاعتقاد والعبادة الفردية، ولهذا دخلت جماعة الإخوان المسلمين في سورية (بعيد النشأة الأولى) الساحة السياسية من أوسع أبوابها، بقرار صريح وموقف واضح، وبرنامج معلن في إصلاح الفرد والمجتمع والدولة، وبتوجيه من الإمام المجدد الشهيد حسن البنا، فحققت في عام ١٩٤٧ قفزة سياسية تبشر بآمال عريضة، ومستقبل واعد، ثم أحرزت الجماعة انتصاراً كبيراً في عام ١٩٤٩، عندما صوتت عاصمة الأمويين لقائمة الإخوان المسلمين وحلفائهم وأنصارهم، وأعطتهم ولاءها بأكثرية لم يحظ بها أي تشكيل سياسي آخر، الأمر الذي مكنهم من المشاركة الفاعلة في سنّ دستور هو أفضل ما عرفته البلاد العربية من دساتير تحمل روح الإسلام، وتضمن للناس جميعاً الحرية والكرامة وجميع حقوق المواطنة، وفي الفترة التي سيطر فيها العسكر على مقدرات البلاد والعباد، وحكموا المواطنين بالقوة والقهر، لم يتخل الإخوان عن واجبهم في كل بلاد الشام، بل رفعوا المذكرات، وسيّروا المظاهرات، ووزعوا النشرات، وجادلوا وحاوروا الحكومات، فحافظوا بذلك على قوتهم، وعلى ترابط تنظيمهم.

١- في هذه الفترة، أو على وجه أدق في منتصف الخمسينيات نمت قوة اليسار السياسي في سورية وما حولها، وبرز الشيوعيون والاشتراكيون واليساريون كتيار صاعد في العاصمة والمدن الكبرى، وفي أوساط العمال والفلاحين والموظفين والمثقفين، بما يسترعي

الانتباه، ويدعو إلى اليقظة والتأمل في الأسباب التي نهضت بهذا التيار بقدرات غير مسبوقة ولا مألوفة.

إن الأسباب التي أدت إلى ظهور التيار اليساري بقوة في بلدنا سورية كثيرة وعديدة أهمها:

أ- وقوف الاتحاد السوفياتي بجانب العرب في صراعهم مع إسرائيل التي تلقت دعماً غير محدود من الدول الغربية، ولاسيما -إنكلترا وأمريكا وفرنسا- وتزويد السوفيات للدول العربية -مصر وسورية وغيرهما- بصنوف السلاح الذي حرم الغرب منه الدول العربية، لتبقى عاجزة وضعيفة في صراعها مع الصهاينة الذين زودهم الغرب بالأسلحة الحديثة والمتطورة والفتاكة على نطاق واسع، فكان تفوق العدو القليل العدد راجحاً وكبيراً على العرب الذين يزيدون على عدد الصهاينة بأضعاف كثيرة.

ب- في مؤتمر باندونج في أندونيسيا الذي ضم جميع دول العالم الثالث من العرب والمسلمين والأفارقة والآسيويين ودول أمريكا اللاتينية في عام ١٩٥٥، بدا واضحاً فيه دعم الصين الشعبية وعدد من البلاد الاشتراكية للدول العربية في صراعها مع الصهاينة، وفي تطلعها إلى الحرية والاستقلال، وتحررها من التبعية لدول المعسكر الغربي.

ج- عدوان فرنسا وإنكلترا وإسرائيل على مصر في حرب السويس، واحتلالها للقنال، وتعطيل الملاحة، وتمكين العدو الصهيوني من الوصول إلى القنال بدعم الفرنسيين والإنكليز، الأمر الذي أثار حفيظة العرب، وملأهم غيظاً وحقداً على الدول الغربية في

كيدها وعدائها للعرب، ودعمها غير المحدود لليهود الذين اغتصبوا فلسطين، وشردوا أهلها، وألحقوا بسكانها نكبة، بل نكبات ما زال الفلسطينيون وجيرانهم يعانون ويلاتها، في الوقت الذي وجه فيه الرئيس السوفياتي إنذاراً إلى المعتدين بوجوب الانسحاب، وإلا استخدم القوة ضدهم للعودة إلى الحدود التي انطلقوا منها في عدوانهم الأثيم.

د- دعم السوفيات للأحزاب الشيوعية في بلاد الشام ومصر والعراق والبلاد العربية الأخرى بالكوادر والمتفرغين للعمل الحزبي، وبالأموال وإنشاء المكتبات، وإصدار الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية، وبث الدعاية القوية عبر المحطات الإذاعية من موسكو، ومن عواصم الدول الشيوعية -ولاسيما بلغاريا- دعماً للأحزاب الشيوعية العربية ولليسار بشكل مطلق، وإغراق أسواقنا ومكتباتنا بالكتب الشيوعية المترجمة في موسكو للعربية، عن دهاقين الشيوعية، من أمثال ماركس وإنجلز ولينين وستالين وغيرهم.

هـ- استخدام الفيتو الأمريكي مئات المرات في مجلس الأمن، حماية لإسرائيل من أي عقوبة جراء عدوانها المستمر على سورية ومصر ولبنان والأردن، أو لردعها عن أي اعتداء، أو تحذيرها من قصف جيرانها بالطائرات وبالسلاح الثقيل.

هذه الأسباب وغيرها جعلت من التيار اليساري في سورية قوة صاعدة، لا يمكن مواجهتها أو التصدي لها إلا بتيار مبدئي أيديولوجي يرتكز على عقيدة عتيدة ومبادئ راسخة، وكان الإخوان مؤهلين للقيام

بهذه المواجهة، والاضطلاع بهذا الدور بالتعاون مع الجمعيات والعلماء والقيادات الإسلامية الأخرى.

٢- كانت بوادر المواجهة في انتخابات عام ١٩٥٤ البرلمانية ظاهرة للعيان بين التيار اليساري بقيادة الشيوعيين والاشتراكيين، وبين التيار الإسلامي بقيادة الإخوان المسلمين ومن يساندهم من العلماء والجمعيات والقادة المسلمين، وعندما التقى الجمعان، في هذه المعركة السياسية الحاسمة المصيرية، وكان السباعي يتأهب لهذه المواجهة، ويهيب بالجماعة أن تأخذ أهبتها، وأن تستعد للنزول في هذا الميدان كما ذكر الأخ الباحث الأستاذ هاني طايع حفظه الله[١]، فاجأت الجماعة الجميع بالانسحاب من الميدان السياسي، وعدم مشاركتها في الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٥٤ .

كان القرار صدمة أليمة لأبناء التيار الإسلامي، كما كان مفاجأة مذهلة للعدو قبل الصديق، وللبعيد قبل القريب، وكان مصدر حيرة للجميع، فشلوا في تفسيره، وفي فهم الأسباب التي دعت إليه. جاء في كتاب الأحزاب والحركات الإسلامية: إن قيادة الجماعة اتخذت قراراً بعدم الخوض في الميدان السياسي الداخلي، وأن السباعي عارض قرار الجماعة بانسحابها من العمل السياسي، إلا أنه اضطر للالتزام به بوصفه مراقباً عاماً[٢] وقال الباحث الألماني يوهانس

(١) مصطفى السباعي للدكتور عدنان زرزور، هامش الصفحة ٣٢٩ .

(٢) الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية، تحرير د. فيصل دراج وجمال باروت ج١: ٢٥٩ .

رايسنر: انسحب الإخوان في سورية من مجال العمل السياسي إثر انتهاء فترة حكم الدكتاتور أديب الشيشكلي عام ١٩٥٤، فلم يشاركوا في الانتخابات العامة، وحولوا جهدهم إلى التربية، وبقي الإخوان بعيدين عن المشاركة في صنع أهم التطورات السياسية في سورية، بينما تسلم البعث زمام المبادرة بنداءاته نحو وحدة عربية تحررية، وبمبادئه الاشتراكية[١]. وقال باتريك سيل عن وضع الإخوان عام ١٩٥٤-١٩٥٧: إن تأثير حركتهم كان واسعاً، لكن انتشارها السياسي لم يكن فعالاً[٢]. وقال الدكتور عدنان زرزور: يبدو أن الجماعة اتخذت قرارها بعدم المشاركة هذه في ضوء الهزة التي تعرضت لها نتيجة الانشقاق الذي تحدثنا عنه!! ورغبة من القيادة في التفرغ للإصلاح الداخلي[٣]. وقال أيضاً: لم يشارك الإخوان في الترشيح لهذه الانتخابات كما أشرنا من قبل، وإن هذا الأمر يبقى من المواقف السلبية التي ليس في وسعنا فهم دوافعها الحقيقية تماماً، أو من كل وجه، فقد يرقى هذا النص -بعدم المشاركة- إلى درجة الاستقالة من العمل السياسي، الأمر الذي يمكن أن تتعدد فيه التفسيرات والتأويلات[٤].

---

(١) الحركات الإسلامية في سورية لمؤلفه يوهانس رايسنر: ٤٣٧ الطبعة الأولى تموز/ يوليو ٢٠٠٥ .

(٢) مصطفى السباعي للدكتور زرزور: ٣٣٦ .

(٣) المرجع السابق: ٣٢٨ . .

(٤) المرجع السابق: ٣٣٥ .

جاء في تفسير هذا الموقف المحير: أن الإخوان رأوا في العمل السياسي إضعافاً للتوجهات التربوية والدعوية، فقرروا تركه والعزوف عنه، والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه: ما هذه السياسة التي تفسد العمل التربوي والتكوين الدعوي؟ هل هي سياسة؟ أم أنها شيء آخر نمسك عن تسميته باللفظ الذي ينطبق عليه؟ إذا كانت السياسة الإسلامية هي رعاية شؤون الأمة، وتقويم الاعوجاج، وإصلاح الخلل في المجتمع، وحمل الناس بالحسنى والإقناع والموعظة الحسنة على الالتزام بمبادئ الإسلام في حياة الفرد والمجتمع والدولة، والعمل الدؤوب على تطبيق أحكام الشريعة التي تنص على الأمر بالعدل والإحسان والمساواة وتكافؤ الفرص، وحماية الأوطان، وتأمين حقوق المواطنين في حرياتهم، وفي العيش اللائق الكريم؟ فكيف يجوز لجماعة أعلنت التزامها بالإسلام كلاً لا يتجزأ من أول يوم ولدت فيه أن تقع في هذا الخطأ الفادح؟ وتنسحب من الميدان السياسي، في وقت يزحف فيه العلمانيون والشيوعيون والاغترابيون على المجتمع للسيطرة التامة على الوطن، وفرض مبادئهم وبرامجهم التي تستبعد الإسلام من حياة المواطن، ومن شؤون المجتمع؟!!

إن السباعي رحمه الله كان عميق الفكرة، بعيد النظرة، صاحب نهج شمولي في الإصلاح بكل أبعاده، يقرأ الأحداث قراءة متفحصة، ويعبّر عن وجدان الأمة، وعن آمالها وتطلعاتها، ويدرس بتمعن أهداف الخصوم ومناهجهم، وما يرمون إليه في تطبيق خططهم وأيديولوجياتهم، ولهذا سبق عصره -كما ذكرت من قبل- بربع قرن

على الأقل، وتجاوز مواقف كثير ممن حوله، كانت تغلب على أفكارهم الرغبة في الحفاظ على ما هم فيه، وتجنب كل ما يؤذيهم، أو ينال من حقوقهم أو مما تحت أيديهم، أو يفقدهم ما هم فيه من الأمن والاستقرار.

وإذا كان الدكتور عدنان زرزور قد اعتبر قرار الجماعة بمثابة استقالة من العمل السياسي لا مبرر له، فإنني أشعر في دراسة هذا الموقف، بأن انسحاب الجماعة من العمل السياسي وإخلاء الساحة من التيار الإسلامي الذي قاد جماهير المواطنين، ونال ثقتهم، وأسلموه قيادتهم، إنما هو بمثابة الفرار من الزحف، ما زلنا نعاني من أثره وجرائره حتى يومنا هذا، بل قد انعكس سلباً عل مستقبل البلاد والعباد، وفتح الباب على مصراعيه لكل خصوم الدعوة الإسلامية والمناوئين لها، ليحققوا نصراً سهلاً، وليضعوا أيديهم على مراكز القوى العسكرية، والأمنية والسياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية، دون أن يجدوا، أو أن يواجهوا التيار الإسلامي الهادر، الذي كان قد أوقف في النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين زحفهم، وأبدل تقدمهم تراجعاً واندحاراً.

ومن المفارقات العجيبة أن الذين اعترضوا على العمل السياسي، ورفضوا خوض الانتخابات البرلمانية، وأشفقوا على التربية من التراجع والضعف، اعتزل بعضهمّ العمل الدعوي، وانخرطوا في شؤونهم الخاصة وأمورهم المعيشية، وانحاز البعض منهم إلى الحكام والطغاة الذين بدت عداوتهم للإسلام من أفواههم وسلوكهم

وسياساتهم، والذين أذاقوا الناس من العذاب والتنكيل ما يعجز المؤرخون عن الإحاطة به، ليعملوا معهم موظفين ومستشارين يقدمون لهم نصحهم وخبرتهم، ويكونوا في خدمتهم، وظهيراً لهم، وثبت البعض على المبادئ التي نشأوا عليها، ورضعوا منذ نشأتهم سلسبيلها، فذاقوا الإقصاء والتغريب، ومصادرة منازلهم وأموالهم، والكل خارج دائرة القرار، محرومين من حقوق المواطنة في حرية التفكير والتعبير والعمل العام، والقيام بواجباتهم تجاه دعوتهم، وفي خدمة وطنهم وأبناء أمتهم.

حاول بعض المعنيين في أمور الدعوة والعمل الإسلامي من الإخوان وغيرهم أن يستدركوا هذا الموقف الكارثي، فاجتهدوا بدفع الدكتور الشيخ السباعي إلى خوض معركة انتخابية جزئية عام ١٩٥٧ لملء المقعد النيابي الشاغر عن دمشق بعد إسقاط النيابة عن الدكتور منير العجلاني، بعد إجراء محاكمة عسكرية له ولعدد من الزعماء السوريين، بتهمة التآمر على سورية مع حكومة نوري السعيد العراقية، فكان هذا الاجتهاد ضِغْثاً على إبَّالة، وتوريطاً للرجل الكبير في معركة هو أكبر منها، وليس من الجائز خوضها أمام رياض المالكي الذي اتخذ منه اليسار والجهاز الأمني السوري -المكتب الثاني- واجهة بأساليب هابطة سنعرض لها في إبّانها في صفحات لاحقة، لتكون النتيجة تمكن الخصوم من حصون جديدة في سورية، لم يكونوا بالغيها من قبل، ولتنعكس على الجماعة وهناً فوق ما كان أصابها من وهن، وعلى الشيخ القائد الفذ مرضاً عضالاً دائم الألم، رافقه ولم

يفارقه سنين عدداً، ثم أودى بحياته قبل أن يبلغ الخمسين من عمره المبارك، لينتقل إلى جوار ربه مع الدعاة والصالحين والمجاهدين -كما نحسبه والله حسيبه- وحسن أولئك رفيقاً.

٣- لم يعد لمراكز الإخوان في سورية موقف موحد بعد اتخاذ قيادة الجماعة قرارها بالانسحاب من العمل السياسي، وعدم المشاركة في انتخابات ١٩٥٤، فاتخذ كل مركز موقفاً يناسب الظروف التي يعيشها، والكل تغلب المقاطعة على موقفه، ففي دمشق رشح الأستاذ محمد المبارك نفسه للانتخاب بصفته الشخصية، فلم يحالفه الحظ في الجولة الأولى، فاندفع الإخوان في تأييده في الجولة الثانية، فأحرز قصب السبق، ودخل البرلمان -للمرة الثالثة في حياته السياسية- بدعم من الإخوان وعدد من العلماء له ووجهاء الأحياء في دمشق، فكان الصوت الإسلامي المسموع في البرلمان، وكما كان من قبل برلمانياً ناجحاً، ليثبت رحمه الله أنه رجل المهمات الصعبة في المواقف التي تتطلب عزم الرجال، وتحملهم للمسؤولية بقوة ورباطة جأش.

٤- في محافظة حماة كان الموقف أشد تعقيداً من المحافظات الأخرى، كانت المدينة منقسمة بين تيار الكتلة الوطنية الذي قاده الدكتور توفيق شيشكلي، كما قاده في حمص هاشم الأتاسي، وفي حلب سعد الله الجابري، وفي دمشق شكري القوتلي، وهكذا في بقية المحافظات، وبين تيار العائلات من الملاكين الكبار، ذات المكانة الاجتماعية المرموقة، أو ما كان يطلق عليها اسم الذوات، واسم الإقطاعيين بعد ذلك من قبل خصومهم.

في انتخابات ١٩٤٣ -قبل خروج فرنسا من سورية- حدث تفاهم بين التيارين قام به زعماء الكتلة من دمشق، تفادياً لصدام لا تحمد عقباه، في مدينة حماة، وعقدوا اتفاقاً بين الفريقين، تمَّ بموجبه ترشيح اثنين عن كل فريق، بالإضافة إلى نائب يمثل المقعد النيابي المخصص للمسيحيين، فاختار ممثل الكتلة الوطنية الأستاذ رئيف الملقي خليفة الدكتور توفيق شيشكلي، الأستاذ أكرم الحوراني ليمثلا التيار الشعبي الكتلوي، واختارت الفئة الثانية الأخرى -كتلة الذوات- السيد غالب العظم والسيد نجيب البرازي، وكان السيد فريد مرهج نائباً عن المقعد المسيحي.

٥- مر الأستاذ الحوراني في حياته السياسية بمراحل، أهمها: انتسابه للحزب القومي السوري الاجتماعي الذي أسسه أنطون سعادة، وكان المسؤول عن الحزب في حماة من عام ١٩٣٦ إلى العام ١٩٣٨، ثم شكل حزباً محلياً بدعم من قريبه عثمان الحوراني ذي التاريخ النضالي ضد الفرنسيين، وكان في تلك الفترة محامياً خامل الذكر، وكان قد حاول دراسة الطب في بيروت فلم يحالفه الحظ، فانتقل إلى دمشق وحمل شهادة الحقوق من جامعتها، وعندما دفع به رئيف الملقي إلى البرلمان كحليف تابع له، بدأ نجم الحوراني في الصعود كبرلماني ألمعي معارض، وفي نفس الوقت وقف مع الملقي في الصراع المسلح ضد فرنسا عام ١٩٤٥، وعندما جرت انتخابات عام ١٩٤٧، ترشح على رأس قائمة باسم الحزب العربي الاشتراكي الذي أسسه كامتداد أو بديل عن حزب الشباب، فنجح بمفرده، ولم

يحالف النجاح رفيقيه بالقائمة، الدكتور محسن الشيشكلي وخليل الكلاس، وفي انتخابات عام ١٩٤٩ بعد سقوط حسني الزعيم وانتهاء عهده العسكري القمعي، تكتلت المدينة ضد الحوراني بقائمة ضمت عبد الرحمن العظم وحسني البرازي ورئيف الملقي وبدر الدين الحامد، وأديب نصور عن المقعد المسيحي، فحققت فوزاً ساحقاً كاد يطيح بالحوراني وقائمته لولا تدخل القيادة العسكرية التي كان الحناوي على رأسها، بدعوى أن بقاء الحوراني خارج المجلس سيكون سبباً في إحداث أزمة يحسن تفاديها، كما ذكر ذلك أحد أقطاب الانقلاب العسكري بقيادة الحناوي ضد الزعيم، الضابط محمد معروف، وكما أكد ذلك تفصيلاً في كتابه -أيام عشتها- فنجح الحوراني بزيادة طفيفة على الأستاذ بدر الدين الحامد من قائمة العظم والبرازي.

٦- كانت معظم عائلات حماة تناصب الحوراني العداء، وتقف في الانتخابات مع وجهاء كبار الملاكين من الذوات، كما حدث في انتخابات ١٩٤٣ و١٩٤٧ و١٩٤٩، وكان الإخوان والعلماء يخاصمون الحوراني لموقفه البعيد أو المجافي للتوجهات والدعوة الإسلامية، والبعيد عنها فكراً وسلوكاً، وهذا ما دفع بهم إلى تأييد معلن لخصومه، بل إلى تشكيل وفد من وجوه العلماء وقادة الإخوان لزيارة حسني البرازي وأعضاء قائمته، كان لها انعكاس سلبي، كلفت الجماعة ثمناً باهظاً.

٧- إن الجيل الصاعد في حماة من أبناء الثلاثينيات والأربعينيات وما تلاها لا يستطيع أن يجاري الآباء في الالتفاف حول كبار الملاكين

والعائلات ذوات المكانة الاجتماعية المرموقة من أمثال العظم والبرازي والكيلاني، الذين لا يملكون تنظيماً ولا برنامجاً يدعون المواطنين لانتخابهم على أساسه، وبالرغم مما كان المهذبون منهم (من أمثال فريد العظم وأبنائه، ولاسيما عبد الرحمن وأخوه الشهيد رياض) يقدمونه لمساعدة الناس، وعلى الأخص أنصارهم، لم يكن هذا ليقنع الجيل الصاعد الذي تخرج شبابه وشاباته من المدارس الثانوية والكليات الجامعية، فكان منهم الطبيب والمحامي والصيدلي والمهندس، فعاشوا منذ منتصف الأربعينيات إلى منتصف الخمسينيات بما يشبه انعدام الوزن، لا يستطيعون تأييد الحوراني (وحزبه) الخصم الألد لآبائهم -باستثناء عدد قليل نعرفهم بأسمائهم- وليس باستطاعتهم تأييد الإخوان بعد المنزلق أو الفخ الذي وقعوا فيه بعد تأييدهم ودعمهم لمرشحين بعيدين عن الالتزام الإسلامي، ويدورون في فلك الغرب، ويعامل بعضهم الفلاحين بقسوة وغلظة، فلقد كانوا كالحوراني في جفائهم للإسلام ودعوته وشِرْعَته، ويزيدون عليه في ارتباطهم بالسياسات الغربية، وفي قسوتهم على الفلاحين الذين يعملون مزارعين في قراهم.

لم يبلغ هذا الجيل من أبناء الطبقة الوسطى الدرجة من الوعي والنضج تؤهله لعمل سياسي مستقل.

٨- ظلت الجماعة في محافظة حماة تراوح في مكانها بعد زوال عهد الشيشكلي لعدة أشهر، وجموع الطلاب التي التحقت بالجماعة في فترة الشيشكلي السرية لم يتم تفعيلها أو صهرها في الكيان العام،

وكان الحديث الأسبوعي من مساء كل خميس، يقتصر الحاضرون فيه على عدد يتراوح بين الستين والثمانين، وكان عدد المحاضرين فيه محدوداً، يتناوبون على إلقاء المحاضرات، وهم في الغالب، الإخوة: مصطفى الصيرفي حفظه الله، والدكتور عبد الكريم عثمان رحمه الله، وفي بعض الأحيان بديع عدي رحمه الله، والفقير إلى عفو الله كاتب هذه السطور.

استمر الحال هكذا حتى صدر مرسوم رئاسي في ٢٨-٧-١٩٥٤، حدد فيه يوم الانتخابات في ٢٠-٨-١٩٥٤، زاد فيه عدد البرلمان من ١٣٩ إلى ١٤٢ نائباً، فكان لدى الجماعة فرصة مواتية تخرجها من عزلتها، وتقنع الأجيال الصاعدة بالانتماء لها والالتحاق بها، فعزمت على أمر اتخذت فيه موقفاً حاسماً، وتقدّمت به إلى قيادة مركز محافظة حماة بمشروع تعلن فيه عبر بيان عن موقف الجماعة من الانتخابات المزمع إجراؤها، نخاطب به المواطنين على نطاق واسع، نثبت فيه استقلال الجماعة، وعدم تبعيتها لأي شخص أو حزب أو جماعة أو تكتل أو تجمع انتخابي، فكتبت منشوراً تضمن عرضاً لتاريخ سورية في ظل الانتداب وبعيد الاستقلال، وعن المعارك التي خاضها السوريون ضد الفرنسيين، فكان النصر المبين، والاستقلال غير المشروط، ثم نشبت معركة من نوع جديد تدور رحاها حول مبادئ الإصلاح الاجتماعي والبرامج الاقتصادية، والأفكار الثقافية والمناهج التربوية والتعليمية، ثم ختم المنشور بيان الإخوان بقرار قالوا فيه: إن الإخوان المسلمين في حماة لن يمنحوا أصواتهم لأي

مرشح إلا إذا التزم في خوضه معركة الانتخاب بمشروع إسلامي مستمد من المبادئ الإسلامية، ومن أحكام الشريعة الغراء، ومن الثروة الفقهية الثرية، ومن التراث التليد، مضافاً إلى مستجدات العصر ومعطياته في التقدم والنهوض الحضاري، وعندئذ لا نشترط على المرشح أي شروط أو مكاسب لتنظيمنا، وحَمَلَ المنشور ذو اللون الوردي الذي أقرته قيادة المركز هذه الأفكار إلى كل قطاعات الشعب، وغمر الأسواق والأحياء والضواحي.

غادرت سورية بصحبة الأخوين الشيخ عبد الله الحلاق رئيس المركز الذي استشهد في أحداث حماة عام ١٩٨٢، والحاج عبد الغني الساعاتي رحمه الله في رحلة إلى الأردن عن طريق القطار، وعندما وصلنا إلى درعا ذكر الأخوان أن مراقب الإخوان في الأردن الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة موجود في القطار في طريقه إلى بلده عمان، بعد أن مثل شعبة عمان في اجتماعات الهيئة التأسيسية في دمشق، لقد اجتهد في غيبتنا أخ كريم بأن أضاف إلى المنشور عبارة قال فيها: (إننا لا ندعو المواطنين إلى مقاطعة الانتخابات) لنقع في تناقض بين موقفنا، وبين دعوتنا المواطنين إلى المشاركة في الانتخاب، وكان الأولى السكوت عن هذا الأمر، لأن هذه الإضافة قد أضعفت القرار، ولكنها لم تلغ أثره وفعاليته، بل أخذ طريقه، وأثبت أن الجماعة مستقلة بأفكارها، متميزة بسياساتها ومواقفها، بصورة عملية لا تدع أي مجال للشك لدى أي مواطن في مدينة حماة، وفي ريفها وما حولها.

هذا الموقف الحاسم انعكس إيجاباً على قائمة الحوراني، فحصدت أصواتاً كثيرة، ولاسيما في ريف المدينة الذي يسكنه عدد كبير في غربي المدينة من الأقليات الدينية والطائفية، فنجحت قائمة الحزب العربي الاشتراكي بقيادة أكرم الحوراني، وفشلت قائمة المناوئين لها فشلاً ذريعاً.

٩- في مدينة المعرة التي كانت إدارة الإخوان في حماة مسؤولة عن الفرع الإخواني فيها، ظل السيد حكمت الحراكي يمثلها في البرلمان لربع قرن، لا ينافسه على مقعدها أحد، بل كان ينجح بالتزكية، وعندما زاد عدد السكان، خُصص لقضاء المعرة نائبان، فترشح شخص من آل الحراكي هو السيد طالب الحراكي بجانب كبير العائلة حكمت الحراكي، عن عائلة صغيرة العدد، ربما لا يزيد عدد أفرادها عن عشرة أو عشرين فرداً، مما أحدث ردة فعل حادة ضد هذا الاحتكار في تمثيل المنطقة، فاتخذنا قراراً أبلغناه للإخوان في قضاء المعرة بعدم التصويت لأحد كما فعلنا في محافظة حماة، ولأن قيادة الإخوان العليا مقاطعة، ولأننا لم نجد في المعرة من طرح مشروعاً إسلامياً في ترشيح نفسه للانتخابات النيابية، فلم ينجح في الدورة الأولى أحد، من القائمتين، الاشتراكية والحراكية، فكان لابد من دورة أخرى -بالوتاج- فحضر وجهاء من آل الحراكي إلى حماة، وناشدوا الإخوان القادرين على ترجيح كفة على أخرى بما كانوا يملكون من أصوات كثيرة (في كفر نبل القرية الكبيرة والناحية فيما بعد كان للإخوان ٦٠٠ صوت) فأهابوا بالإخوان وناشدوهم، وعرضوا

عليهم ما يريدون!! وقدموا لهم وساطة من وجهاء آل الكيلاني -نقيب الأشراف رحمه الله- وهو ذو علاقة مصاهرة بآل الحراكي، وخاطبوا مروءتهم وشهامتهم أن يقفوا معهم ويساندوهم في هذه المعركة السياسية المصيرية، لكن الجماعة لا تملك الاستجابة، وإلا تكون قد فقدت مصداقيتها التي أكدتها في حماة بتميزها عن الآخرين، وتحررها من أي تبعيّة، ونفيها عن نفسها الارتباط بوجهاء وكبار الملاك، فتكون في دعمها لمرشحي عائلة -إقطاعية- كالمستجير من الرمضاء بالنار- وتكون قد هدمت مشروعها الذي طرحته بحماة، وردت فيه عن نفسها تهماً ظلت تعاني منها منذ عام ١٩٤٩ وحتى العام ١٩٥٤، فكانت النتيجة نجاح مرشَحَي الحزب العربي الاشتراكي، والجماعة تملك مئات الأصوات في مدينة المعرة وقراها والنواحي التابعة لها في خان شيخون وقلعة المضيق وغيرها، وبذلك حصد الحوراني ثمانية أصوات من محافظة حماة، ومن قضاء معرة النعمان، فبلغت كتلة الحزب العربي الاشتراكي خمسة عشر نائباً في البرلمان لأول مرة في تاريخ الحزب، وحقق الحوراني وحزبه نجاحاً كبيراً عاجلاً، وحقق الإخوان المسلمون والجيل الناشئ مكسباً كبيراً آجلاً، إذ انحازت الطبقة الوسطى في حماة والعائلات العريقة، والجيل الصاعد إلى الجماعة، ليكون ثلثا المدينة في مربع الجماعة، ومن أعضائها ومؤيديها، وصارت مظاهرات طلاب المدارس الثانوية والإعدادية من الإخوان هي الراجحة، بل الكاسحة، فقد قدَّر بعض أعضاء إدارة الإخوان في حماة عدد الذين كانوا يخرجون في مظاهرات إخوانية من الطلاب وممن ينضم إليهم هاتفين لدعوة

الإخوان قائلين: الله غايتنا، والقرآن دستورنا، الرسول قدوتنا.. إلخ بأربعة آلاف متظاهر يتدفقون حماسة واندفاعاً، داعمين لقرارات قيادتهم في كل المرافق والميادين، ومنذ ذلك الحين وحماة قلعة حصينة لدعوة الإخوان المسلمين، استعصت على كل المناوئين للرسالة الإسلامية بالرغم مما كلفها ذلك من عنت واضطهاد، وقد كانت بصمات الشيخ السباعي في تثبيت دعوة الإخوان ملموسة ومرئية في حماة وحلب وباقي المحافظات، فما أصدق الكلمة التي ذكرها الشيخ عدنان زرزور عن هذا القائد الكبير: كان السباعي ألمع السياسيين الذين عرفتهم البلاد، وربما كان ألمع برلماني عرفته الجمعية التأسيسية[١]، التي وضعت لسورية دستورها العتيد، (بل ربما كان الأفضل في الدساتير التي عرفتها سورية في طابعها العربي وروحها الإسلامية، واستقلال القضاء وأسس التعليم، والضمان الاجتماعي، وتكافؤ الفرص، ودعم الاقتصاد وإنصاف العمال والفلاحين) لعام ١٩٥٠م.

وفي مدينة حلب ترشح للانتخابات الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله، بصفة مستقل، فضمه الحزب الوطني إلى قائمته ليتقوى به باعتبار الحزب الوطني دون حزب الشعب في قوته الانتخابية في حلب، فنجح الشيخ الزرقا، ودخل البرلمان، وانضم إلى الكتلة الدستورية، ودخل وزارة صبري العسلي فيما بعد في ٢٧-٦-١٩٥٦ .

---

(١) مصطفى السباعي لعدنان زرزور: ٢٥٩ .

أختم هذه الصفحات عن الاضطراب السياسي الذي مرت به الجماعة عام ١٩٥٤ بعد أن أسلمتهم دمشق أمرها، ومنحتهم ثقتها في انتخابات ١٩٤٩، ليدافعوا عنها، ويواجهوا الزحف العلماني واليساري عليها، ليمسك بخناقها، ويغير من معالم شخصيتها العربية الإسلامية، وطابعها الفكري والحضاري، واستقالوا من العمل السياسي حسب التعبير الدقيق للدكتور عدنان زرزور، وخذلوا قائدهم الكبير بعد أن لمع نجمه في الحياة السياسية والمحافل الدولية والحوارات العالمية، وفرض احترام المبادئ الإسلامية، على نطاق عالمي لأثبت معلومتين هامتين:

الأولى: أن السباعي كتب ورقة ضمنها رأيه في ظرف مختوم، قرأه على إخوانه بعد اتخاذهم قرار المقاطعة، قال لهم: سألتزم بقراركم، راجياً أن لا تأتوني باكين شاكين، إذا انسدت في وجوهكم أبواب الوزارات والدوائر والبعثات والوظائف والكليات ذات الأهمية، ولله عاقبة الأمور.

الثانية: أن الحوراني كتب في مذكراته: أن الإخوان رشحوا الأستاذ مصطفى الصيرفي للوزارة في عهد الانفصال، ليدقوا لنا إسفيناً في حماة، يعني أنهم ضعاف لا وزن لهم، ثم أثبتت الانتخابات فيما بعد أنّ الإخوان حصلوا مع أنصارهم على ثلثي أصوات المدينة، وحصل حزبه على الثلث الآخر.

ثالثاً– الإعلام في مفهوم الإخوان

عندما قررت قيادة الإخوان في سورية الانسحاب من الميدان

السياسي، التفت الشيخ إلى ساحات أخرى بديلة مثمرة، استغرقه منها ميدانان عظيمان، الأول: النشاط الأكاديمي الذي بلغ أوجه في إنشاء كلية الشريعة، والموسوعة الفقهية التي انبثقت عنها، فكان لهذا الصرح العلمي العتيد أثره البالغ في تخريج الدعاة والعلماء والفقهاء، كما مر معنا تفصيلاً، والثاني: النشاط الإعلامي الذي أشرب الشيخ قلبه منذ نعومة أظفاره ونشأته الأولى، عندما كان يراسل مجلة الفتح القاهرية وهو ابن اثنتي عشرة سنة، والذي كان يجري في عقله وشعوره مجرى الدم في العروق. فكانت مجلة الشهاب الأسبوعية التي صدر العدد الأول منها في ٢ رمضان ١٣٧٤هـ الموافق ٢٤-٤-١٩٥٥، ولكلمة الشهاب وقع وحنين في فؤاد الشيخ وإخوانه، لأنها تحمل اسم المجلة التي كان الإمام حسن البنا يصدرها قبل ذلك في القاهرة.

١- أعطى الشيخ للمجلة من فكره وقلبه واهتمامه الوقت الطويل والجهد الكبير، وكتب فيها الكثير من الافتتاحيات والمقالات، وملأ فيها الأعمدة والبحوث بأسماء عدة، وعناوين شتى، وكانت حملة عبد الناصر على الإخوان المسلمين في مصر قد بلغت مداها في زج رجالها وأعضائها بالسجون والمعتقلات، وفي مطاردتهم وإعدام قادتهم، فتصدت الشهاب لذلك الظلم، وفضحت سياسات القمع، وما كانت عليه الحكومة العسكرية من وحشية وقهر، فأحرجتها، وعبّأت الرأي العام العربي والإسلامي عليها، غير أن الشهاب كان لها موقف آخر حينما شنّ الإنكليز والفرنسيون والصهاينة عدوانهم الثلاثي على مصر، فوقف الإخوان في سورية بجانب مصر، وانخرط الشيخ

وإخوانه في سلك المقاومة الشعبية، ولبوا نداءها، وتدربوا على السلاح، وأحالوا حرم الجامعة السورية إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، واستنفروا الأمة بالتصريحات ضد الغزو البريطاني الفرنسي، وأهابوا بكل عربي ومسلم أن يقف إلى جانب مصر في محنتها، ويعمل على تضميد جراحها، وبذل التبرعات والإسعافات لشعبها، كما أبرق الشيخ السباعي إلى ملوك ورؤساء الدول العربية بوصفه رئيس المكتب التنفيذي لقادة الإخوان المسلمين في البلاد العربية قائلاً: العدوان الإنكليزي الفرنسي الإسرائيلي على مصر مقدمة للعدوان على حرية العرب والمسلمين وشرفهم ومستقبلهم، أخوةُ الإسلام ووحدة المصير تحتم أن تسارعوا لنجدة مصر، وإلا فإن الله لا يرحم أمة تتخاذل عند النكبات، وأبرق كذلك إلى الهيئات والأحزاب في كل من باكستان وأندونيسيا وأفغانستان وإيران قائلاً: مصر والبلاد العربية تخوض أخطر المعارك ضد الاستعمار والصهيونية، وتدافع عن شرف العالم الإسلامي وحريته، يجب أن يظهر تأييد العالم الإسلامي فعّالاً يثبت قوة الإخاء الإسلامي ووحدة المصير بين البلاد العربية والإسلامية، وهكذا تجاوزت الجماعة مأساتها مع عبد الناصر، وضمدت جراحاتها وكل نكباتها وآلامها والكوارث التي ألحقتها الحكومة العسكرية في مصر بأبناء دعوة الإخوان المسلمين، فعقد المكتب التنفيذي لقادة الإخوان المسلمين في البلاد العربية اجتماعاً طارئاً درس فيه الموقف، فزار وفد من قادة الإخوان يضم كلاً من الدكتور مصطفى السباعي، والشيخ محمد محمود الصواف، والأستاذ عصام العطار، ومن

الإخوان المصريين الأساتذة: عبد الحكيم عابدين، وسعيد رمضان، وسعد الدين الوليلي، وكامل الشريف، فقابلوا السفير المصري بدمشق، وأعلموه بأن الإخوان المسلمين في كافة البلاد العربية يضعون كافة إمكاناتهم لنصرة مصر، ومؤازرة جيشها الباسل في دفاعه عن أرض الوطن. ثم تسامى هؤلاء القادة إلى منزلة عالية في قهر النفس، ونكران الذات، فأرسلوا إلى جمال عبد الناصر البرقيتين التاليتين:

الإخوان المسلمون في البلاد العربية الذين يرون في العدوان الصهيوني الإنكليزي الفرنسي أخطر مؤامرة على حرية العرب والمسلمين وكيانهم وجهادهم للتحرر من الاستعمار يحيون بطولة الجيش المصري في المعركة القائمة، ويعلنون أنهم يضعون إمكاناتهم كلها لنصرة مصر ضد العدوان الصهيوني والمؤامرة الاستعمارية المفضوحة، ويؤكدون استعدادهم لكل التضحيات الكفيلة بصيانة مصر، وانتصار حق العرب والمسلمين على باطل الصهيونية والاستعمار ﴿ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾.

عن المكتب التنفيذي لمؤتمر قادة الإخوان المسلمين في البلاد العربية: مصطفى السباعي، محمد محمود الصواف، محمد عبد الرحمن خليفة.

سيادة الرئيس جمال عبد الناصر - القاهرة:

قلوبنا مع الجيش الباسل والشعب الأبي في جهاده ضد الاستعمار والصهيونية، نعلن باسم إخواننا أن دماءنا وجميع ما نملك تحت

تصرف الوطن في أي ميدان يوجهنا إليه، وكفى بالله نصيراً.

عبد الحكيم عابدين، سعيد رمضان، سعد الوليلي، كامل الشريف -دمشق في ٢٧ ربيع الأول ١٣٦٧، ١٣ تشرين الأول ١٩٥٦[١].

كذلك تحرك الإخوان داخل سورية، فزار قادتهم رئيس الجمهورية بالنيابة ناظم القدسي، ودولة رئيس مجلس الوزراء -الحاكم العسكري- صبري العسلي- والسفارة المصرية كما مر معنا منذ قليل، وكان قادة الإخوان في مصر، اللاجئون إلى دمشق يزورون السفارة المصرية لأول مرة مذ طاردهم عبد الناصر وأسقط عنهم الجنسية المصرية، ثم صرح الأستاذ سعيد رمضان سكرتير عام المؤتمر الإسلامي أن المؤتمر قد اتصل بجميع فروع المؤتمر الإسلامي برقياً في البلاد[٢] العربية والإسلامية داعياً إياها لاستنفار الشعوب والجماهير للوقوف إلى جانب مصر في معركتها الكبرى، ثم قصد أعضاء الوفد من المؤتمر الإسلامي، القصر الجمهوري لهذه الغاية.

٢- وكانت بريطانيا قد دعت ثماني عشرة دولة إلى لندن باعتبارها مستفيدة من الممر المائي، ومؤيدة لتدويل القنال، لتشارك فيما سمته بريطانيا مؤتمر لندن، وكان الأستاذ السباعي في رحلة علمية إلى

---

(١) مجلة الشهاب العدد ٧٥ أول تشرين الثاني ١٩٥٦ .

(٢) المرجع السابق.

أوربا، فأبرق الأستاذ الكبير عصام العطار باسم المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في سورية إلى إنكلترا وفرنسا وأمريكا، وإلى كل دولة من الدول الثماني عشرة، البرقية التالية: الإخوان المسلمون في سورية يستنكرون فكرة العدوان على العرب والمسلمين المتمثلة في مشروع إيدن، لإدارة قناة السويس، ويرون فيه انتهاكاً لحرية الشعوب وسيادتها على مرافقها، وخرقاً لميثاق الأمم المتحدة، وخروجاً على مبادئ العدالة والسلم، وهم ينصحون بالرجوع إلى الحق، والنزوع عن العدوان، والتسليم لمصر بسيادتها على القنال، والتفكير بحق الشعوب في السلام، ويعلنون أن العرب والمسلمين جميعاً صف واحد في الدفاع عن سيادتهم وحريتهم وحقهم المشروع في كل مكان، كما أرسل الأستاذ عصام العطار إلى كل من باكستان وإيران البرقية التالية: الإخوان المسلمون في سورية يناشدونكم الوقوف بجانب مصر في الدفاع عن سيادتها وحقها المشروع في القنال، ويطلبون إليكم عدم تأييد الاستعمار في عدوانه السافر المتمثل في مشروع إيدن لإدارة القناة، وأملنا كبير أن تغلّبوا جانب الحق، ورابطة الأخوة على التعاون مع المستعمر عدونا المشترك، وبذلك تنسجمون مع دعوة الإسلام التي تجمعنا، وتفتحون بين البلاد الإسلامية باب التعاون الحقيقي على حياطة حقهم والدفاع عن سيادتهم ضد أي عدوان.

٣- وقد أرسل الأستاذ سعيد رمضان الأمين العام للمؤتمر الإسلامي إلى حكومات الدول الثماني عشرة البرقية التالية: إن أي

مشروع لحل مشكلة القناة لا يقوم على أساس الاعتراف بسيادة مصر المطلقة على أرضها وقناتها لن يزيد المشكلة إلا تعقيداً، ومشروع إيدن وأمثاله عدوان صريح على مصر، وتحدٍ لميثاق هيئة الأمم.

إن العرب والمسلمين الذين يعتبرون قضية مصر قضيتهم، ينتظرون منكم أن تؤيدوا حقها المشروع، وأن تثيبوا إنجلترا وفرنسا إلى رشدهما، كما أرسل إلى حكومات باكستان وإيران وتركيا البرقية التالية: نناشدكم باسم أواصر الإسلام التي تربطكم بمصر، وباسم آمال المسلمين فيكم، أن تقفوا إلى جانب مصر في قضيتها العادلة، وأن تعملوا على إحباط مشروع إيدن، وكل مشروع آخر، لا يقوم على أساس الاعتراف بسيادة مصر المطلقة على أرضها وقناتها، إن انتصاركم لمصر واجب تفرضه أخوة الإسلام، وإحباط للمؤامرة التي تحرص على أن تباعد بين المسلمين في معالجة قضاياهم المشتركة ضد أي عدوان[1].

٤- وفي المحافظات السورية تحرك العلمانيون والقوميون واليساريون في هجمة على أبناء الجماعة، يعيرونهم بموقف الدول الإسلامية في مؤازرتها للعدوان، ولاسيما تركيا وباكستان، باعتبار الجماعة تدعو إلى التعاون مع هذه الدول على أساس الرابطة الإيمانية، وقد شعرنا -نحن الإخوان- في محافظة حماة بوطأة هذه الهجمة، إذ ليس كل عضو قادراً على تفنيد هذه المزاعم المدلّسة، فبادرنا سراعاً، وأرسلنا البرقية التالية باسم قيادة مركز الإخوان

(١) مجلة الشهاب العدد ٧٠ في ٢٣-٩-١٩٥٦ .

المسلمين في حماة إلى باكستان وغيرها عن طريق سفاراتها في دمشق: السيد سهروردي رئيس وزراء باكستان الإسلامية: إن موقفكم في موضوع قناة السويس، وانحيازكم إلى إنكلترا المعتدية، يتنافى كل المنافاة مع المبادئ الإسلامية التي قامت عليها دولة باكستان، الإخوان المسلمون في محافظة حماة يستنكرون أشد الاستنكار موقفكم، ويطالبونكم بدعم مصر في قضيتها العادلة، واتخاذ القرار الذي تمليه شريعة الإسلام، ومبدأ الأخوة في الإيمان، وعممنا هذا الموقف على جميع الصحف الدمشقية ذات اليمين وذات الشمال، فانقلب السحر على الساحر، وحظيت الجماعة بتأييد جماهير المدينة، وإزجاء الشكر لقيادة الإخوان في محافظة حماة.

كان لهذه المواقف الإخوانية ذات الطابع العالمي، ولأشباهها من الآراء التي صدرت عن الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي أثر ملموس في زعزعة مواقف المؤتمرين الثمانية عشر في لندن، ففي جو من التوتر الشديد والارتباك والحيرة، عقد مؤتمر لندن الثاني جلسته الختامية التي تنذر بالمصير المحتوم للمؤتمر، فقد صرح فيروز خان وزير خارجية باكستان: أنه لن يحضر لجنة الخبراء، وأن خمساً من الدول أصرت على عدم الاشتراك في الهيئة المقترحة لإدارة شؤون القناة، كما صرح وزير خارجية أندونيسيا السيد عبد الغني: أن بلاده تحارب الاستعمار، وأن مؤتمر لندن يرمي إلى هدف استعماري، وأن بلاده لن تقف مكتوفة الأيدي إذا ما وقع اعتداء مسلح على مصر، وأن استخدام القوة سوف يؤدي إلى انفجار الموقف في آسيا كلها،

أما دالس وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية، فقد صرح أنه لا يتمسك بالمرشدين الأجانب، ولا يعارض في عبور السفن قناة السويس بإرشاد المصريين[1].

هكذا فشلت إنكلترا في مؤتمر لندن الذي دعا إليه رئيس وزرائها إيدن، فأقدمت إنكلترا ومعها فرنسا وإسرائيل على حماقة حرب السويس التي أنهت في نتائجها دور بريطانيا وفرنسا كدولتين عظيمتين من الدرجة الأولى في السياسة الدولية، ودفعت بهما إلى الوراء، لتكونا دولتين من الدرجة الثانية، إن لم تكن الثالثة بعد الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية والصين الشعبية.

لقد سدَّتْ مجلة الشهاب ثغرة كبيرة في هذا النشاط الإعلامي بالدفاع عن جميع قضايا العرب والمسلمين، كما عالجت قضايا الساعة كلها، وما تتعرض له الأمة في شرقي آسيا، وما يقع على الأقليات المسلمة من ظلم واضطهاد، فكانت ميداناً فسيحاً لأقلام الإخوة الأدباء والدعاة والمفكرين، وقد أعان الله كاتب هذه السطور أن يشارك في تحرير واحد من أبوابها، تحت عنوان: -عالمك الإسلامي- داومت على كتابته حتى توقفت المجلة عن الصدور.

٥- لم ترو الشهاب ظمأ الشيخ إلى ما يطمح إليه من نشاط إعلامي، وما يغلب عليها من طابع سياسي، فأصدر مجلة (المسلمون) في نفس العام الذي صدرت فيه الشهاب ١٩٥٥ منبراً

---

(١) مجلة الشهاب العدد ٧٠ في ٢٣-٩-١٩٥٦ .

عالياً لكل ما يمت بصلة إلى الحضارة الإسلامية من عقيدة وتشريع وفلسفة وفكر وفقه وثقافة وعلم وأخلاق.

كانت المجلة تصدر في القاهرة باسم -المسلمون- ثم انتقلت مع صاحبها الأستاذ سعيد رمضان إلى دمشق بعد محاربة عبد الناصر لجماعة الإخوان في مصر، ثم حصل خلاف في الموقف السياسي بين الشيخ السباعي والأستاذ سعيد رمضان، انتهى إلى انتقال الأخير إلى جنيف في سويسرا، ليصدر منها مجلة (المسلمون) فأصدر الشيخ السباعي مجلة شهرية بديلة باسم: حضارة الإسلام عام ١٩٦٠ .

قال السباعي في افتتاحية العدد الأول: «نحن أمة لها ماض، وعندها تراث، وبين أيدينا بناء، وفي عقولنا فلسفة ورسالة، وفي عيوننا سناء ونور، وفي قلوبنا إيمان ويقين، وفي أخلاقنا نبل وشرف، وفي نفوسنا تقى وصلاح، فلنا من بين هذه الأمم الناهضة كلها شأن غير شأنها، ومن ثم كانت علينا واجبات أكثر من واجباتها، والأمم الغنية لا تستجدي بل تعطي، والأمم البصيرة لا تقاد بل تقود، والأمم القوية لا تُدفع، بل تدفع، والأمم المفكرة لا تهدم بل تبني، وإذا كنا أمة حضارة قد أسهمت في بناء الصرح الحضاري بأنظف يد، وأكمل عقل، وأسلم قلب، وأكرم خلق، وأقوى مادة، فإن تراثنا الحضاري لا يزال حياً تحتاج إليه الإنسانية التي تعيش اليوم قلقة معذبة، تُطعم وهي تشكو من الجوع، وتشرب وهي تعاني من الظمأ، وتدل على السعادة وهي تتيه في الشقاء، وتتعرف على الصحة وهي تئن من المرض».

تابع الشيخ كتابة الافتتاحيات والمقالات التي تشكل لنا مصدراً ثرياً في شتى الدراسات والبحوث والموضوعات الملحة، مثل: أثر الدعوة في الإصلاح السياسي، والإسلام والحضارة، ومفهوم الإسلام الصحيح الذي أخرج أمة وأقام حضارة، فقال:

«الإسلام وحدانية من أصفى عقائد التوحيد وأكملها وأروعها نقاء، وعقل من أنضج العقول، وأوعاها للعلم، وأكثرها للحضارات بناء، وروح من أشرف ما تتصف به الروح علواً وسمواً وعملاً في الحياة بنّاءً، وخلق من أنبل ما تعرفه الأخلاق سماحة ورحمة وثورة على الظلم وإباء، وتعاون من أروع صور التعاون عدالة وحباً وإخاءً».

وقال الشيخ في العدد الرابع الصادر في تشرين الثاني من السنة الرابعة عام ١٩٦٣ تحت عنوان: نهضتنا بين الأصالة والتبعية: من سنن الله في الكون أن تستفيد كل أمة ناهضة من تجارب الأمم التي سبقتها في الحضارة، وأن تقتفي أثرها في ميادين العلم والصناعة والاقتصاد وغيرها، غير أن الأمة ذات الشخصية المستقلة المعتزة بتراثها الحضاري -كأمتنا- تأبى أن تذوب في كيان الأمم القوية المتقدمة في الحضارة، وتأبى أن تتبعها في كل مناهج حياتها ووسائل معيشتها، فلكل أمة ظروف خاصة بها، وبيئة تنفرد بها عن غيرها، ولكل أمة طراز في التفكير قد تتميز به عن سواها، وقد تلتقي معه، هذا عدا عما لها من تراث حضاري وتشريعي خالد، فإنها تأبى لها كرامتها الشخصية أن تتبع غيرها كالببغاء، دون أن تستفيد من تراثها وحضارتها.

إن أمة كأمتنا في هذا الطور من أطوار نهضتها تستفيد ولا تذوب، وتأخذ ولا تستجدي، وتنظر ولا تنبهر، هكذا تفعل الأمم التي تريد الحياة متصلة بمن سبقها إلى الحياة من آبائها وأجدادها.

وقال رحمه الله في افتتاحية بعنوان: الإسلام والدعاة: هذا تاريخ الإسلام منذ بزوغ فجره إلى اليوم، ما يزال تتلاحق فيه أفواج الدعاة جيلاً بعد جيل، كلما هلك منهم عَلَم قام من بعده أعلام، وكلما هوى منهم في الطريق مصلح تتالى بعده مصلحون، وكلما هزمتهم نكبة ارتفعت رؤوسهم من بعدها شرفاء صادقين، لا تزيدهم النكبات إلا صدق عزيمة وشدة مراس، ودعاة الإسلام اليوم مدعوون لمتابعة طريقهم الذي اختاروه لأنفسهم، وهم عارفون بما يلحقهم من أذى وعدوان، ولعل من أكبر العبر التي أفادوها من تجارب الماضي وأحداثه أن يجعلوا الدعوة إلى الله خالصة -ما استطاعوا- من كل ما يجلب لها العداوات، ويؤلب عليها الخصوم، ويوصد قلوب الناس دون الاستماع إلى صوتها العذب، وهدفها النبيل، وغاياتها المثلى، وقد يكون من تلك العظات، أن لا يدلّوا على الناس إن أحسنوا العمل، وبذلوا النصح، وصدقوا الدعوة، فإن الإعجاب بالعمل محبط للأجر، مجلبة للندم، وأن لا يتهربوا من علاج الأخطاء حين تتضح لهم، فإن الخطأ منار يهدي السالكين إلى الطريق الصحيح، وكثيراً ما أدى تتابع النجاح إلى غرور يقود صاحبه إلى أوعر المسالك، وأبعدها عن الهدى والرشاد.

هذه شذرات ومقتطفات موجزة جداً مما احتوته المجلة من

بحوث نافعة، سكب فيها الشيخ ذوب روحه وعصارة فؤاده، يعضد في جهوده الأستاذ عمر عودة الخطيب رحمه الله، وقد استمر عليها دون توقف أو انقطاع حتى وافته المنية، وانتقل إلى جوار ربه، خلفَتْه فيها ثلة صالحة من أبنائه وإخوانه من أمثال الأستاذ عمر عبيد حسنة، والأستاذ بسام أسطواني، وكان في مقدمتهم وعلى رأسهم الرجل الصالح الدكتور أديب صالح أسبغ المولى عليه ثوب العافية رئيس التحرير بعد وفاة السباعي والدكتورأحمد فرحات مدير التحرير، ظلوا عاملين في المجلة مع الشيخ وبعد وفاته، مخلصين صامدين حتى توقفت المجلة عن الصدور بعد عمرها المديد تحت ظروف قاهرة، غلب فيها الظالمون على شؤون البلاد والعباد في حكم جبري مدعوم بالبطش والآلة العسكرية الرهيبة.

٦- إثر التأييد الجارف الذي حظيت به جماعة الإخوان المسلمين في سورية ومن ساندها من الجمعيات والشخصيات الإسلامية بعد تنفيذ عبد الناصر عقوبة الإعدام بقادة الإخوان المسلمين في مصر، انكفأ التيار العلماني واليساري على نفسه، منتظراً الوقت المناسب ريثما تهدأ موجة التأييد العاطفية، فلم يمض إلا أشهر حتى قام خصوم الدعوة الإسلامية بهجوم معاكس، تجسد في تصريحات بعض الخصوم السياسيين، كان في مقدمتهم وعلى رأسهم أكرم الحوراني، فقد جاء في كتاب: الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية الجزء الأول تحرير: د. فيصل دراج وجمال باروت ما يلي: وقد تعاطف الرأي العام السوري حكومة وبرلماناً وأحزاباً مع الإخوان في مصر، إذ

لم تكن صورة عبد الناصر عام ١٩٥٤ في سورية سوى صورة ديكتاتور متعطش للسلطة، يعمل لحساب الدوائر الأنكلو أمريكية، ومن هنا فتحت سورية أبوابها لقيادات الإخوان المصريين، وبعد إعدام عبد الناصر لقيادات الإخوان وبطشه الكامل بهم نتيجة ما سمي بحادث المنشية في تشرين ١٩٥٤، هاج الرأي العام السوري بمسيرات الاحتجاج، وكان قرار البعث المشاركة في هذه المسيرات، إلا أنه تحت ضغط الحوراني الذي كان يصف الإخوان -بعملاء رجعيين- اكتفى البعث بإصدار بيان إدانة فقط، ولم يمنع ذلك أعضاءه من المشاركة في تلك المسيرات، في حين شارك الشيوعيون بكل قواهم[١] وجاء في مكان آخر من هذا الكتاب: إن أكرم الحوراني قد ضغط على قيادة الحزب عام ١٩٥٤، وتحديداً على الأستاذين عفلق والبيطار كي لا يشارك الحزب في المظاهرة الاحتجاجية على إعدام عبد الناصر لقادة الإخوان في مصر، فاتخذت القيادة موقفاً وسطاً، هو تأييد المظاهرات، لكن دون الاشتراك فيها، وقد وصف الحوراني خلال ذلك الإخوان بالرجعيين العملاء، ودعا إلى مباركة سحق عبد الناصر لهم[٢].

لقد رأى الحوراني في عبد الناصر أملاً كبيراً بعد قتله لأئمة الجماعة، فتغاضى عن كل سياساته الداخلية والخارجية، طالما أنه عزم على إبادة الإخوان في مصر، والقضاء المبرم عليهم.

---

(١) الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية ج١: ٢٦١ .

(٢) المرجع السابق ج١: ٢٦٧ .

كذلك شرعت صحف اليسار والأحزاب العلمانية، ولاسيما صحف الحزب الوطني على تحبير مقالات تهاجم فيها الإخوان المسلمين، فوجدها النظام الناصري مناسبة مواتية طالما انتظرها، ليمد إلى هؤلاء الذين بدأوا يجهرون بالعداء للإخوان وللتيارات الإسلامية الأخرى، فكانت أولى ثمرات هذا التقارب، توجيه دعوة لرؤساء الصحف السورية، وتنظيم رحلة لهم إلى مصر، فحضر أصحاب خمس عشرة صحيفة ورؤساء تحريرها، إلى القاهرة.

كنت إذ ذاك طالباً في السنة الرابعة بكلية آداب القاهرة، وكانت عمليات السحق والمطاردة واعتقال الطلاب، ورميهم في سيارات اللوري، وحملهم إلى المعتقلات، وزجهم فيها تجري على نطاق واسع، وكانت الأسلاك الشائكة تسد مدخل الجامعة، لاصطياد الطلاب الذين يحسبونهم من المعارضين عند اقتحامها، وقد بلغ القمع مبلغاً كبيراً في وحشيته وقسوته.

رتبت المخابرات المصرية زيارة للوفد الصحفي السوري، كانت تهيئ لها الأجواء التي تقنع السوريين أن الكرامة والحرية متوافران، وفي ذات صباح في ساعات الدوام الأولى لم نجد أي أثر للأسلاك الشائكة، أو أي مظهر بوليسي مألوف في داخل الحرم الجامعي، وفي ردهات الكليات، وكان ذلك كما رأينا بأعيننا قبيل وصول الوفد الزائر بقليل، فدخل الوفد الصحفي السوري مع مرافقيه، ليرى كل شيء على ما يرام، وليشاهد حرمة الجامعة مصونة، لا أثر فيها لأي مظهر من مظاهر الإرهاب والقمع، ولم يكد الوفد يغادر الجامعة، حتى عاد

كل شيء إلى ما كان عليه، من نصب الأسلاك الشائكة، وانتشار البوليس في كل زاوية من زوايا الجامعة في داخلها وعلى مداخلها، فاستشطتُ غضباً لهذا التدليس والتضليل الذي يحدث على مرأى عيون الألوف من طلاب الجامعة، وكذا زملائي -وخاصة السوريين- الذين رأوا ما رأيت، فماذا نفعل؟ اتفقت مع الأستاذ خليل السقا عضو البعثة السورية التي كنت فيها، أن نفضح هذا الزيف الذي أتقنته مخابرات جمال عبد الناصر، فتتبعنا أخبار الوفد الزائر عبر الصحف القاهرية، والزيارات التي كانت تُرتّب له، فأدركناه في نادي أو مقر نقابة الصحفيين، فهُرعنا، ودخلنا المقر، واختلطنا بالمحتفلين وبالصحافيين، دون أن يفطن أحد لما كنا نرمي إليه، فقصدت الأستاذ عزت حصرية صاحب جريدة العلم اليومية ذا الميول الوطنية والإسلامية، والذي كان ينشر لنا محاولاتنا الكتابية في أيام اليفاعة والشباب، كما قصدنا الأستاذ راتب الحسامي صاحب جريدة الشعب لسان حزب الشعب، لمعرفة الأستاذ خليل السقا به، وطلبنا من كليهما التحدث معهما على انفراد، وشرحنا لهما أساليب المخابرات في مصر، وكيف قاموا بتضليل الوفد الصحفي، بإخفاء الأسلاك، وتواري البوليس عن الأعين، ثم عاد كل شيء إلى ما كان عليه مباشرة بعد مغادرة الوفد الصحفي للحرم الجامعي، وعرضنا عليهما إحضار بعض الطلاب ليروا آثار السياط والتعذيب على أجسامهم، مع اقتناع السلطة أنهم بعيدون عن أية تهمة، وإلا لما كانت أطلقت سراحهم، وكم كان ارتياحنا كبيراً عندما لمسنا من الأستاذين عزت حصرية وراتب الحسامي اقتناعهما وإدراكهما لسياسة الحكومة القمعية

في مصر، وقالا: لا حاجة لجلب الطلاب ورؤية آثار التعذيب عليهم، لأن الصورة واضحة، والحكم في نظرنا مفضوح ومكشوف.

رابعاً- زيارة القدس وإخوان الأردن

في عام ١٩٥٤ حملت عصا الترحال بصحبة عضوين من إدارة مركز حماة هما الشيخ عبد الله الحلاق رئيس المركز، والحاج عبد الغني الساعاتي رحمهما الله، وجُلْنا في عدد من مدن الضفة الغربية، وألقيت عدداً من الكلمات في القدس ونابلس وغيرهما من مراكز الإخوان المسلمين، وزرنا طولكرم والخليل، ووقفنا على الحدود التي تفصل ما تبقّى من فلسطين بأيدي العرب وبين اليهود، وكانت خلايا حزب التحرير فيما يشبه الهيجان ضد الإخوان المسلمين، تهجماً واتهاماً، كما مر معنا في كتابة سابقة، وحضرنا مهرجاناً خطابياً في القدس يدعو لانتخاب السيد داود حمدان مرشح حزب التحرير، تحت شعار إقامة الدولة الإسلامية.

ثم ترك داود الحزب فيما بعد وعمل مدرساً في قطر، وكان كلوب لا يزال قائداً للجيش العربي في الأردن، وفي عام ١٩٥٦ حملت عصا الترحال مرة أخرى إلى عمان لمشاركة الإخوان في المعركة الانتخابية التي قرر إخوان الأردن خوضها.

١ - في المركز العام في عمان تقدمت مع الأخ رفيق السفر -فريد شققي رحمه الله- إلى قيادة الإخوان لنكون تحت تصرفها، في أي جهد نُكلّف به، فارتاب المراقب العام منا، لعدم معرفته بنا من قبل وعدم تذكره باللقاء الطارئ عام ١٩٥٤، وفي هذه الأثناء دخل

الشيخ السباعي والأستاذ المبارك إلى المركز، فكان السلام عليهما حاراً، فتأكد الإخوان في عمان من صلتنا الوثيقة بالجماعة في سورية، وسرعان ما عَرضوا علينا اختيار إحدى الدوائر الانتخابية للسفر إليها، والدعوة لمرشح الجماعة فيها، قائلين: اذهبوا إلى حيث تريدون، واختاروا إربد أو معان، أو الخليل، فاخترنا التوجه إلى الخليل، وذهبنا على التو إلى القدس، فصلينا في مسجد الصخرة وفي المسجد الأقصى، ثم تابعنا السفر إلى مدينة أو محافظة الخليل لنشارك في الحملة الانتخابية مع مرشح الجماعة الدكتور حافظ عبد النَّبيّ عن مدينة خليل الرحمن، طفنا مع قوافل الجماعة عدداً كبيراً من قرى الخليل، وتحدثت في مساجدها، داعياً بحماسة شديدة إلى انتخاب مرشح الإخوان في هذه المعركة السياسية التي لها ما بعدها في صراعنا مع العدو الصهيوني الغاصب، فالخليل مطمع الصهاينة، واحتلال مسجدها الكبير الذي يعظمه المسلمون في العالم هدف معلن لهم، والبعض يخذِّل الحرس الوطني والمرابطين على الحدود بدعوى الانتظار إلى قيام الدولة الإسلامية، واليهود يزدادون كل يوم شراسة وعنفاً، وهكذا قمنا بنشاط واسع في توعية المواطنين، وتعبئة الناخبين واستنفارهم، ثم كانت الحفلة الختامية الكبرى والأخيرة في وسط المدينة، حضرها جمهور غفير من سكان المدينة، فألقيت فيها مع بعض قادة الجماعة كلمة الختام، فكان مهرجاناً لا ينسى، كتب الله فيه النصر لمرشح الجماعة، ليكون واحداً من كتلة الإخوان المسلمين في البرلمان الأردني في عمان.

٢- بين يدي هذه الانتخابات الحرة، أو قبيل إجرائها، وقع

حادث كبير جداً، تجسد في طرد كلوب قائد الجيش وأعوانه من القوات المسلحة الأردنية، والشروع في تعريب الجيش العربي في المملكة الأردنية الهاشمية، فلاقت هذه الخطوة ارتياحاً كبيراً في الوطن العربي والعالم الإسلامي، فسالت الأقلام بمقالات العز والفخار، وانطلقت الألسنة بالثناء على هذا العمل الوطني العظيم، وكان شيخنا السباعي أول من شرع قلمه بكتابة مقالة في الشهاب[1] جاء فيها:

كيف يمكن أن ينسى الجيل المسلم في بلاد العرب ما كان لجلوب من أثر في ضياع فلسطين؟ أم كيف يمكن أن ينسى ما كان له من أثر في موقف الجيش العربي يومئذ من معركة فلسطين؟ وكيف سلّم جلوب اللدّ والرملة غنيمة باردة لليهود، وقال: أجل إن الجماهير كانت ضعيفة -يومئذ- عاجزة عن أن تعمل شيئاً تجاه (جلوب) وأمثاله، وهذا ما أغراه بالاستمرار في سياسة الخيانة والتآمر على قضية الأمة التي يعيش بين أظهرها، ولكن الجماهير المغلوبة على أمرها الشاعرة بكارثتها، المدركة لنكباتها، العليمة بمواقف أصدقائها وأعدائها، تستطيع أن تفعل الشيء الكثير في المستقبل. إن عواطف المقت والألم والشعور بالمرارة تنقلب في نفوس الضعفاء إلى بركان يغلي ثم ينفجر، هكذا فعل أبناء الأردن، فقد انفجروا بعد زمن على مصدر الخيانة وأعوانه، واستطاعوا أن يحبطوا المؤامرة الجديدة، وأن يشقوا الطريق الجديد، وقال رحمه الله: ولكنه

(١) مجلة الشهاب العدد ٤٤ مطلع شهر آذار عام ١٩٥٦ .

الاستعمار الذي ينهار، وبفقد قدرته على كل شيء حتى على المنطق المتزن المعقول، وأردف القائد الشيخ تغمده الله برضوانه: وبعد: فإن العالم الإسلامي في بلاد العرب وخارجها، إذا صفق لحركة التحرير الأخيرة التي كان لجلالة الملك حسين شرف تسجيلها بيده وإرادته، فإننا لنرجو أن يستمر الأردن في خطاه الجريئة نحو التمرد، وأن يستكمل القضاء على كل الآثار التي خلّفها حكم كلوب في الجيش العربي والسياسة الأردنية، ثم اختتم الشيخ كلامه المفيد: على رؤساء الجامعة العربية، وخاصة الدول الثلاث التي أظهر زعماؤها الرضى التام عن حركة الأردن الأخيرة أن يحققوا سريعاً ما أعلنوه من تقديم المعونة المالية بدلاً من المعونة البريطانية، وعلى شعب الأردن وحده أن يقرر إنهاء هذه المهزلة التي كان كلوب من بناتها لتغدو أكبر من كيد الأعداء لها جسماً وسلاحاً وشعباً وأرضاً. إن على شعب الأردن أن يقرر بنفسه أن يكون أكبر مما هو عليه الآن وأقوى وأمنع.

٣- غير أن البرلمان المنتخب في الأردن عام ١٩٥٦ في أجواء النشوة وتفجر الشعور الوطني، غلب عليه الاندفاع، فحدثت تحركات وأنشطة سياسية، ومهرجانات ومظاهرات، وانطلقت شعارات حادة، وبرز اليسار -على قلة عدد أعضائه في البرلمان- ممثلاً في الشيوعيين والبعثيين- وبالوطنيين المتشددين الذين يملكون كتلة برلمانية كبيرة، وتحرك ضباط الجيش لقلب نظام الحكم، وذهبت حكومة النابلسي إلى أكثر مما يحتمله الوضع في الأردن بنظر الملك حسين وتقديره، فاستدعى قوات بريطانية مظلية لحماية النظام، والتصدي للموجة

اليسارية، وقد شعر الإخوان أنهم مستهدفون في الأردن، وأن مؤامرة حيكت لسحقهم، وأن لديهم مستندات بذلك، ليس العدو الصهيوني بمنأى عنها، فانحازوا في هذه الأزمة إلى مساندة الملك حسين، الأمر الذي أقلق الإخوان في سورية، وأثار الشيخ السباعي الذي لمست فيه الأمة حساسية مرهفة تجاه التدخل الأجنبي في سياستنا وسيادتنا الوطنية، ومحاولاتهم المستمرة في التسلط على بلادنا وعلى مقدراتها، وكان قد دخل السجن في مصر وفلسطين وسورية ولبنان منذ حداثة سنه ثمناً لجهاده ومواقفه الوطنية، وتعبئة المواطنين ضد المستعمرين المعتدين، فوجه الدعوة إلى الإخوان لعقد اجتماع طارئ في مدينة حلب يحضره مندوبون عن كل مراكز الجماعة في سورية، للنظر في هذه الأمور الخطيرة التي يمر بها الوطن العربي، ولاسيما في بلاد الشام، فحضر عن كل مركز مندوبان، كنت أحدهما عن مركز حماة ذات الثقل الإخواني مع الأخ الداعية مصطفى الصيرفي، فرأينا شيخنا يغلي كالمرجل، جراء موقف إخوان الأردن من الأحداث التي شهدها وطنهم، وأن سكوتهم وموافقتهم الضمنية على نزول القوات البريطانية في المملكة الأردنية الهاشمية يمس ثوابت الإخوان وتاريخهم ومواقفهم الوطنية ضد الاستعمارين الفرنسي والبريطاني.

استمر النقاش على مدى يومين، كان الشيخ خلالهما غاضباً ومنفعلاً، وكأن قلبه يحترق على ما أصاب الجماعة من شبهة الموقف السياسي المرفوض في نظره، وفي نظر معظم ممثلي المراكز، غير أن هذه الأزمة سرعان ما انقشعت كما تمر سحابة صيف، ذلك أن

العدوان الثلاثي على مصر، وحّد مواقف العرب شعوباً وحكومات، فوقف العرب وقفة غير مسبوقة كصف واحد في وجوه المعتدين، فكان لاتحاد العمّال دور رائد في مقاطعة بضائع المعتدين، وعدم السماح لتفريغ تجارتهم من السفن التي جاءت بها، فاضطرت إلى العودة خائبة لبلادها، وكانت كذلك مواقف الأحزاب والجمعيات والنقابات وجميع هيئات المجتمع المدني، ووحدات الجيش العسكرية، وأبناء الشعب العربي أجمع من المحيط إلى الخليج، فكان النصر، وكانت الهزيمة السياسية للفرنسيين والبريطانيين والصهاينة، ومن ثم الانسحاب من الأرض التي احتلوها في سيناء وشطآن مصر، ولاسيما مدينة بورسعيد الباسلة المجاهدة.

خامساً- الإخوان وسياسة الحياد

في النصف الثاني من خمسينيات القرن العشرين برز تياران متعارضان في السياسة الخارجية السورية، أحدهما تيار يساري قوامه الشيوعيون والاشتراكيون، ومن ركب موجتهم من رجالات الحزب الوطني، ولاسيما أمين سر الحزب صبري العسلي، وخالد العظم، عمل -هذا التيار- جاهداً على الجنوح بسورية إلى اليسار داخلياً، وإلى الارتباط أو التعاون الواسع مع الاتحاد السوفياتي، وتيار يميني كان يقوده ساسة مخضرمون من أمثال: حسن الحكيم ومنير العجلاني وفرزت المملوك وحسن الأطرش وعدد من نواب حزب الشعب، بذلوا جهداً كبيراً في دفع سورية إلى الارتباط بالغرب، ولاسيما بأمريكا وبريطانيا، ثم ظهر تيار ثالث قاده الإخوان المسلمون

وحلفاؤهم وبعض الساسة، نادى بالحياد بين المعسكرين، دون الارتباط بأي منهما، والاستفادة من التناقض بينهما لتحقيق أهداف استراتيجية مثل استيراد السلاح وكسر احتكاره، ودعم القضية الفلسطينية في المحافل الدولية، والاستفادة من الخبرات أو التقنية المتقدمة في بناء المصانع والموانئ والمطارات ومصافي النفط، وإنشاءات أخرى.

دعا الإخوان المسلمون إلى الحياد بحماسة شديدة بين المعسكرين المتصارعين، وشجبوا جميع الأحلاف والمشروعات التي كانت تهدف إلى ربط سورية بالغرب، مثل: سورية الكبرى والهلال الخصيب والنقطة الرابعة ومبدأ أيزنهاور فيما بعد، وأحبطوها بالتعاون مع بعض السياسيين وأعضاء البرلمان من مختلف الأحزاب والكتل السياسية، وعندما قاطع الإخوان انتخابات ١٩٥٤ ودخلها فقط الأستاذ محمد المبارك كمستقل، وبدعم من الإخوان المسلمين، استمرت الجماعة بالتأكيد على سياسة الحياد، ورفض التحالفات، وكان المبارك هو الصوت المدوي الذي يمثل توجه الإخوان في هذه السياسة، رغم أنه من حيث الشكل كان مستقلاً، فكانت كلماته في المجلس النيابي ذات أثر ملموس في الدعوة إلى الحياد في سياسة سورية الخارجية، بين المعسكرين الدوليين.

في عام ١٩٥٥ وفي سياق حديثه عن حق مصر في شراء السلاح من دول الكتلة الاشتراكية، وبعد زوال حكم الشيشكلي، عاد الأستاذ المبارك يؤكد في البرلمان على سياسة الحياد، وعدم الانحياز إلى أي

من المعسكرين، بل وُصفت سياسة بعض الدول الغربية في التدخل في شؤوننا -بالوقاحة- ورفض المساواة بين الدول التي تناصبنا العداء، والدول التي تساندنا في الكثير من قضايانا في المحافل الدولية[1].

هكذا أكد الإخوان على سياسة عدم الانحياز في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، والتي بدأوها منذ نهايات الأربعينيات، عندما أعلنها الشيخ السباعي في المهرجانات الانتخابية للجبهة الإسلامية الاشتراكية عام ١٩٤٩، فقد ذكر السباعي رحمه الله كما نقلت ذلك جريدة الشهاب في العدد ٢٣ تاريخ ١٦-١٠-١٩٥٥ قوله: نعلن بوضوح: أن علاقاتنا مع الدول الكبرى، يجب أن تكون على قدم المساواة، لا أن نفضل دولة على أخرى. وفي الكلمة التي ألقاها مساء ٣-١٢-١٩٥٦ في الإذاعة السورية قال: نعلن أننا أحرار حياديون في هذا الصراع بين المعسكرين، ولن نرضى لأنفسنا أن يكون هنا الانتقال من دائرة نفوذ إلى دائرة نفوذ أخرى، نحن أمة لها كيانها، ولها فلسفتها، ولها رسالتها، ولن تستطيع تأدية هذه الرسالة إلا يوم نكون أحراراً[2].

سادت هذه السياسة التي أعلنها قادة الإخوان، وتبنتها وتحمست لها يوم كان جلّ الساسة السوريين رافضين لها، أو بمنأى عنها، حتى صارت السمة العامة لسورية في سياستها الخارجية، بل إن الوزارات

(١) السباعي لزرزور: ٢٦٤ .

(٢) الشهاب العدد ٨٠ تاريخ ١٨-١٢-١٩٥٦ .

التي كانت تحيد عنها، أو تحاول الخروج عليها، تفشل، أو تضطر إلى الاستقالة أمام ضغط الشارع والجماهير السورية، كالذي واجهته وزارة حسن الحكيم في تشرين الأول عام ١٩٥١ عندما صرح رئيس الوزراء أنه لا يريد أن يتبع سياسة تسير حسب ضغوط الشارع، أو أنه ليس بحاجة إلى شعبية رخيصة، كالتي أدت إلى ضياع سنجق الإسكندرون، وإلى تقبل الهزيمة في فلسطين، فأثار تصريحه موجة عارمة من الهياج، فقد علق الأستاذ المبارك على تصريح الحكيم بقوله: إنها لا تعبر إلا عن رأي شخصي، ولا تمثل بحال رأي الوزارة، وكان المبارك أحد أعضائها، أما الشيخ السباعي فكان أكثر حدة وشدة بالرد على الحكيم، إذ قال: ليس الشارع، بل الزعماء السياسيون أمثال الحكيم هم الذين قادوا الدولة إلى كوارث الانتداب، وفقدان الإسكندرون، وإلى هزيمة فلسطين[1].

كان الإخوان المسلمون رواد سياسة الحياد بين المعسكرين، والتي كانت مرفوضة أو مستنكرة في أوساط سياسية سورية واسعة، ثم اتسعت دائرتها، وحظيت بتأييد شعبي واسع، بعد أن كلفت الإخوان ومن نحا نحوهم ثمناً غالياً، أدّى إلى سقوط حكومة الدواليبي، وحل البرلمان، جراء سياسة الحياد، إذ يعتقد خالد العظم بأن الدول الغربية اعترفت بحكومة أديب الشيشكلي، لأنها تعتقد بأنه الوحيد الذي كان قادراً على إيقاف التيار القوي لسياسة الحياد في سورية، وعلى هذا النحو يحق الاعتقاد -كما يقول العظم- بوجود

(١) الحركات الإسلامية غفي سورية ليوهانس: ٤٠٣ .

علاقة بين الانقلاب ومسألة الحياد، وتؤكد هذا المعنى جريدتان سويسريتان هما: النويه تسوريخر تسايتونغ، والكريستيان مونيتور في ٣٠-١١-١٩٥١ بأن الانقلاب الجديد الذي قاده الشيشكلي، يعود لمسألة الحياد(١).

هكذا دفعت الجماعة ثمن مواقفها المبدئية غالياً في عقد الخمسينيات من القرن العشرين الذي مضى.

سادساً - عداء العسكريين للإخوان

كان موقف المؤسسة العسكرية في سورية من الإخوان المسلمين سلبياً، فكان الجيش وأجهزة الأمن تناصب الإخوان العداء، بل وتتدخل لصالح خصومهم في الانتخابات النيابية، كالذي حدث في عام ١٩٥٧ كما سيأتي ذكره في حينه، فالضباط في الجيش السوري فئتان، إحداهما خدمت في جيش الانتداب الفرنسي لفترة طويلة، ثم التحقت بالجيش الوطني بعد الاستقلال، فنقلت معها الأفكار والطباع والعادات وأخلاق المحتلين، من شرب الخمر، والانحلال الخلقي، والفكر العلماني، والتقاليد الغربية، وكان حسني الزعيم نموذجاً لهذه الشريحة. والفئة الثانية من الضباط التي احترفت الحياة العسكرية بتوجيه من الأحزاب التي كانت تنتمي إليها، ولاسيما أتباع أكرم الحوراني، وأعضاء الحزب القومي السوري، وأنصار البعثيين والاشتراكيين، وهؤلاء جميعاً قد أشربوا كره الإخوان والتوجه الإسلامي، وخلعوا ربقة التديّن والقيم الإسلامية، فكان الضباط الكبار

(١) المرجع السابق: ٤٠٤ .

من كلتا الفئتين يناصبون الإخوان العداء لتوجهاتهم الإسلامية، غير أن الإخوان تجاوزوا هذه المواقف عن المؤسسة العسكرية، والأجهزة الأمنية، كما تجاوزوا من قبل موقف عبد الناصر من الإخوان وتنكيله بهم، واندفعوا في تأييد مصر والوقوف معها ضد العدوان الثلاثي بكل قدراتهم وطاقاتهم.

لقد أحزن الإخوان ما مني به الجيش السوري من خسارة في المعارك التي خاضها على أرض فلسطين، وما انتهى إليه من فشل في صراعه مع الصهاينة انتهت إلى انسحابه وعودته إلى سورية، ومن ثم إلقاؤه اللوم على الساسة تمهيداً لتدخله في الشؤون السياسية، وسيطرته على مقدرات العباد والبلاد، وتعطيل الحياة البرلمانية، ومصادرة الحريات العامة، الأمر الذي ألحق أشد الأذى بديمقراطية سورية واقتصادها ومسيرتها الحضارية.

تجاوز الإخوان هذه المآسي التي ألحقها العسكريون بالبلاد، بالرغم من أن ما نالهم منها أكثر مما نال غيرهم، فطالبوا بتقوية الجيش ودعمه وتسليحه، وكسر الطوق الذي ضربه الغربيون على بلادنا في الحصول على السلاح، وكسر هذا الاحتكار، وعقد صفقات مع دول المنظومة الاشتراكية، ولاسيما الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا وغيرها، فتبنى الإخوان دعم القوات المسلحة بالأموال المجزية لشراء صنوف السلاح، فأعلنت الجماعة عن أسبوع التسلح، خصصت أيامه لجمع الأموال الكثيرة، والمبالغ الطائلة للحصول على السلاح، وشراء ما يحتاجه الجيش، فاستنفرت

الجماهير، وأهابت بالأغنياء والموسرين والتجار والملاّك والصناعيين وكل أفراد الشعب -كل حسب طاقته- لتقديم التبرعات السخية لجيشنا كي يكون قوياً وقادراً على مواجهة المعتدين، وأقامت في كل مدينة مهرجانات واجتماعات شعبية كبيرة، كان من أهمها التجمع الكبير في مسجد جامعة دمشق، وكان فارس الحلبة فيه الدكتور الشيخ السباعي، فألقى كلمة مؤثرة نقلتها محطة الإذاعة السورية، فكان لها أكبر الأثر في إلهاب عواطف الجماهير، وإثارة الغيرة في نفوسهم، حتى بلغ من تأثر بعض المواطنات المستمعات أن ذهبْنَ فور سماع الخطبة إلى رئيس لجنة التسلح وسلّمنه ما يملكن من حلي ذهبية.

أما خطبة الشيخ -رحمه الله- في حمص فقد كانت بالغة التأثير والروعة، أثارت النفوس والخواطر، فانهمرت الدموع من المآقي، وسالت العبرات على الوجنات فبلغ التأثر بالحاضرين المشاركين في هذا المهرجان منتهاه، وهذه مقتطفات من خطبة الشيخ في أسبوع التسلح في مدينة خالد بن الوليد: تحدث الشيخ عن الخطر الصهيوني، وكيف بدأ عام ١٩٤٨ هزيلاً عندما وقعت الهدنة، ولم يكن لدى اليهود السلاح الكافي، وكيف بدأ اليهود في التسلح منذ ذلك التاريخ، بينما كنا نندب ضياع فلسطين، ونتفجع على مآسي اللاجئين، إلى أن اقتنع العرب مؤخراً بالخطر اليهودي الجاثم على الحدود، وشعروا بأن العرب إذا لم يُقبلوا على التسلح، فالتنين اليهودي سيلتهمهم، واقتنعوا بأن الإقبال على السلاح سيعوضهم بعض الشيء عن تقصيرهم السابق. ثم تحدث الشيخ عن تسليح مصر

من تشيكوسلوفاكيا التي شقت الطريق أمام العرب للتمرد على الاستعمار الغربي، وفك الطوق المضروب حولها، وأشار إلى ما أعقب ذلك من توقيع للميثاق العسكري بين سورية ومصر، وكيف زادت هذه الأشياء -الخطوات- في إقبال اليهود على التسلح، وقال: نحن لا نشك في أن نهاية اليهود ستحين، لأن شجرتهم غرست في الرمال، ولأن دولتهم تقوم على الرعاع من شذاذ الآفاق، إننا واثقون من أن الحق سينتصر، لأننا غُزينا أكثر من مرة في التاريخ، فظلت أمتنا سليمة من الدمار والانحلال، وهذه معاركنا في الجزائر ومراكش، وتلك معاركنا في فلسطين أيام صلاح الدين، تثبت أن عروبتنا باقية لن تزول، وأنها تأبى إلا أن تنتصر في النهاية، ولكن هل نعلل أنفسنا بسِيَر التاريخ؟ وهل نعتمد على إيماننا بأننا سننتصر في النهاية؟ كلا، إن علينا أن نتسلح، وأن نتقوى لمواجهة هذا الخطر الذي يقرع أبوابنا، فإما أن نرى عما قريب نتائج إهمالنا في التسلح والإعداد، فنشهد عما قريب الحاملات تبقر بطونهن، والنساء تنتهك أعراضهن، والأطفال يذبحون ذبح النعاج، كما حدث في دير ياسين وغيرها، وإما أن نأبى أن يحدث ذلك، ونستعد منذ الآن للمعركة، ثم تحدث الشيخ عن معركة القطمون في القدس، وكيف أن إهمال الأثرياء والأغنياء في التسلح قد أفقد العرب أحسن حي في بيت المقدس.

إن تقديم الأموال ليس صدقة ولا تبرعاً تقدم للجيش، لأن أفراد الجيش ليسوا مستأجرين للدفاع عنا، وإنما نحن ندفع لأبنائنا وإخواننا

لحمايتنا، إنكم تدفعون جزءاً من أموالكم ليسلم لكم الباقي، ثم أفتى الشيخ بأنه إذا احتاج الجيش للسلاح، وخلت الخزينة من المال، يمكن أخذ المال من الموسرين مختارين وغير مختارين بالقدر الذي تتطلبه المعركة مع الغزاة والمعتدين(١).

لقد انهالت التبرعات بسخاء على لجان أسبوع التسلح بعد التعبئة الشعبية التي اضطلعت بها الجماعة، وبعد الخطب النارية التي كان يلقيها قادة الإخوان في المحافظات، فكان أسبوعاً ناجحاً بكل المقاييس، وكان عملاً يسجل في تاريخ جماعة الإخوان المسلمين في سورية، ويعتبر من إنجازاتهم الكبيرة، دون أن يلتفتوا إلى ما كان يصيبهم من ضر وأذى من المؤسسة العسكرية ومن الأجهزة الأمنية، وفي مقدمتهم المكتب الثاني أو الاستخبارات العسكرية.

سابعاً- الإخوان وثورة الجزائر

بعد استعمار فرنسي للجزائر استمّر قرناً وبعض قرن، توهم الفرنسيون أنهم باقون في الجزائر إلى نهاية التاريخ، قائلين: إن الجزائر جزء من فرنسا، بتضاريسها -من تحت البحر!- واقتصادها وثقافتها وكل مقومات الحياة فيها، لقد فرضوا لغتهم على الجزائريين في التعليم، وفي دوائر الحكومة، وفي كل المرافق العامة، حتى إن ٩٠٪ من الجزائريين كانوا يتكلمون الفرنسية، ولا يجيدون التحدث بالعربية كما قال مصالي الحاج -زعيم حزب الشعب أقدم الأحزاب

---

(١) الشهاب العدد ٣٢ في١٧-١٢-١٩٥٥ .

الجزائرية الوطنية- في كتيّب قرأته له، وعندما كان الجزائريون يتململون أو يحتجون يقمعون بمذابح مرعبة كما حدث في عام ١٩٤٥ بعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية، إذ طالبوا بحريتهم واستقلالهم، فحصد الجيش الفرنسي من الجزائريين المتظاهرين أكثر من خمسة وأربعين ألف شهيد في الجزائر، وآلاف الضحايا في باريس، رمى الفرنسيون آلافاً منهم في نهر السين، كما نُشر ذلك في وثائق مصورة منذ فترة وجيزة.

١- عندما أطلق القائد الوطني المجاهد كريم بلقاسم الرصاصة الأولى إيذاناً ببدء الثورة على الفرنسيين في تشرين الأول عام ١٩٥٤، كان عدد المقاتلين لا يتجاوز ثلاثة آلاف، معظم أسلحتهم بنادق صيد وأنواع من السلاح القديم، فحبس العالم -ولاسيما العرب والمسلمون- أنفاسه، وهو يراقب هذه الثورة التي شنت حربها ضد دولة عظمى بقدرات متواضعة، فلم يمض عامان على اشتعال الثورة حتى استفحل أمر المقاتلين، فكثر عددهم وسلاحهم، وبرز تأييد العرب والمسلمين وكثير من دول العالم لهم.

صممت فرنسا على سحق الثورة بكل ما لديها من جبروت وآلة عسكرية رهيبة، وطبقت سياسة الأرض المحروقة في كل مكان ظهر فيه المجاهدون وعندما زار سفير الجزائر في الكويت إمارة دبي -قبل ظهور دولة الإمارات- والتقيته في مكتب قطر الذي كنت مديراً له، سألته باعتباره أحد المجاهدين، عن أخطر ما واجهه المجاهدون من فظائع الجيش الفرنسي فقال: هاجمت قوة فرنسية قرية في جبال

الأوراس بتهمة إيوائها للمجاهدين، فأبادتها عن بكرة أبيها، وجعلتها أثراً بعد عين، وقد رأيت بعيني كيف اختلط تراب البيوت الطينية والقش الذي تغطى بها بأجساد السكان الممزقة بحيث يصعب فصل لحوم الضحايا عن بقايا البيوت المهدمة، وقد زالت القرية بسكانها وبيوتها من الوجود.

استعرت المعركة بصورة رهيبة، فكلا الفريقين صمم على الانتصار، فاستنجد المجاهدون الجزائريون بالعرب والمسلمين وذوي الضمائر الحرة، واستنجدت فرنسا بقوات حلف الأطلسي المشكل من ست عشرة دولة، فانضمت القوات الأطلسية أو قسم منها إلى القوات الفرنسية في سحق المجاهدين، فلم يحل عام ١٩٥٦ حتى اتخذ الصراع طابعاً دولياً، فالمجاهدون يتلقون الدعم المالي والسلاح من العراق وسورية ومصر، وقواتهم تعسكر وتتدرب في تونس والمغرب وسورية. والحكومة المؤقتة التي شكلها المجاهدون في المنفى اتخذت لها مقراً في حي القصر العيني بالقاهرة، وكانت فرنسا مركزاً رئيساً لتهريب السلاح وحشد المقاتلين، الذين كان معظمهم بحاجة إلى تعلم العربية، فذهبت إلى القاهرة عام ١٩٥٨ وقمت بزيارة مقر الحكومة كي أقدم نفسي للسفر إلى باريس والقيام بتعليم الجزائريين اللغة العربية التي تخصصت بها، فرأيت مقر الحكومة المؤقتة خالياً، قد غادرته الحكومة الجزائرية احتجاجاً على تدخل عبد الناصر بشؤونها، ومحاولة توجيهها حسب السياسة الناصرية التي كانت مناوئة إذ ذاك للحكومتين التونسية والمغربية، وفي هذا، حسب الرؤية

الجزائرية، ضرر للثورة، وتعرضها لمخاطر لا تحمد عقباها.

٢- في النصف الأول من عام ١٩٥٩ اشتد الصراع بين مجاهدي الجزائر، أو بين مسلمي الجزائر كما كانت تسميهم فرنسا وبين الجيش الفرنسي، وبلغت حد التفاني والتطاحن، فانبرى العالم في كل مكان إلى مساندة الجزائريين في حربهم العادلة ضد وحشية المعتدين، وانطلقت الإذاعات، ولاسيما صوت الثورة الجزائرية من القاهرة في تأييدهم، فكنا نتابع أخبار القتال حتى ساعة توقف الإذاعة في وقت متأخر من كل ليلة.

٣- أما الإخوان فقد اعتبروا هذا الصراع مَفْصلاً حاسماً في الحركات الجهادية والتحررية العربية والإسلامية في العالم، وأن انتصار مجاهدي الجزائر سيشد من عضد المجاهدين، ويمدهم بطاقة هائلة من المعنويات والآمال العريضة في دحر الاستعمار، وأن فشل الثورة سيكون نكسة بل نكبة لا يعلم إلا الله مداها، فعبأوا قواهم، وحشدوا قدراتهم، وانطلقوا في دعم الجزائر بكل قوة يملكونها، أو طاقة متاحة لهم في طول البلاد وعرضها، فبدأوا في إصدار البيانات والبلاغات، وشرعوا في مخاطبة العالم شرقه وغربه عبر الوفود والمذكرات، محذرين من مغبة الهجمة الفرنسية ضد شعب الجزائر.

في ١٥ و١٦ آذار/ مارس سنة ١٩٥٧ اجتمع أعضاء الهيئة التشريعية لجماعة الإخوان في دورتها المقررة في مدينة حلب، وتداولوا أوضاع الجماعة وقضايا الساعة في العالم العربي والإسلامي، فأقروا على مستوى السياسة الخارجية أموراً تخص

الجزائر منها:

أ- إذاعة نداء إلى العالم العربي والإسلامي بوجوب وضرورة المسارعة إلى نجدة الجزائر في معركتها الضارية مع الاستعمار الفرنسي، وتقديم المعونات المادية والمعنوية لشعبها المجاهد، والوقوف موقفاً حازماً من الاستعمار الفرنسي الذي يستهين بكل القيم الأخلاقية والإنسانية فيما يقوم به من أعمال التخريب والتذبيح والتجويع ضد شعب يريد أن يعيش حراً كريماً.

ب- الإبراق إلى ملوك العرب ورؤسائهم، ورؤساء الحكومات العربية والإسلامية للإسراع في نجدة الجزائر والعمل لإيقاف المجازر الوحشية التي يقوم بها الاستعمار الفرنسي هناك.

ج- الإبراق إلى الحكومة الفرنسية باستنكار الأعمال الوحشية التي يقوم بها الجيش الفرنسي في الجزائر من تخريب وتذبيح وتجويع ومصادرة للحريات[1].

٤- وجه الإخوان المسلمون في سورية نداءً إلى الشعب، عالجوا فيه قضايا عدة، مثل الحرس الوطني في الأردن، وكارثة الزلزال في لبنان، والإهابة بالشعب لنصرة الشعب الجزائري، في أشرس حرب يخوضها ضد البطش، وقد جاء في البيان: إنكم يا أبناء الشعب تستطيعون أن تدركوا حقيقة الوضع في الجزائر بعد ثورته في وجه الاستعمار الفرنسي، بما تعلمونه من بطش الفرنسيين وقسوتهم

(١) مجلة الشهاب العدد ٤٦ في ١٥ و١٦ آذار/ مارس ١٩٥٦ .

ووحشية جنودهم، إبان الثورات السورية والحركات الوطنية، فما بال الحكومات لا تحرك ساكناً إزاء المذابح التي تستفحل يوماً بعد يوم، وما بال العرب والمسلمين لا ينهضون لإعانة إخوانهم، وهم يواجهون أحمق استعمار عرفه التاريخ؟

إن الحكومات العربية والإسلامية تستطيع أن توقف المجزرة لو وقفت من فرنسا موقفاً صلباً لا مساومة فيه، وإن شعوبنا العربية والإسلامية تستطيع أن تحمل حكوماتها على المبادرة لنجدة الجزائريين في نضالهم الدامي، فليتحرك الشعب نحو نصرة إخوانه، ولتهتك الحكومات قناع التمدن الفرنسي أمام العالم على قسوته وغلظته وجرائمه، ولتعلم أن معركة الجزائر ستقرر مصير ثلاثين مليوناً من أكرم أبناء أمتنا رجولة وإيماناً وفداء، بل إن معركة الجزائر ستقرر مصير العالم العربي كله، فإذا قدر للاستعمار الفرنسي أن ينتصر -لا سمح الله- فسنرى كيف تستعلي اليهودية العالمية، وتستعدي علينا دول الاستعمار قاطبة.

٥- ثم تحركت المحافظات السورية لنصرة الجزائر، فدعت الجماعة إلى حشد كبير في الجامع الأموي، وجهت باسمه تحية لأبطال الجزائر ومراكش وتونس، وتأييدهم تأييداً تاماً في حركتهم التحررية، ومطالبة الحكومات بالوقوف من فرنسا موقفاً حازماً، يردها إلى الحق عن طريق المقاطعة السياسية والاقتصادية، وإمداد المناضلين من إخواننا في الجزائر والشمال الإفريقي بالأموال والسلاح وكل الوسائل التي تحقق النصر في معركتهم مع الاستعمار الفرنسي

الغاشم[1].

وفي مدينة حماة كان يوم الأربعاء يوماً مشبعاً بالحماسة، فارت فيه دماء الشباب، وثارت عواطفهم والتهبت المشاعر، لقد كان يوم غضبة الشعب لإخواننا الجزائريين، وإنذار الحكومة بتنفيذ مذكرة الإخوان (سلاح، تدريب، تقشف، دفاع سلبي، محاربة الميوعة والانحلال) فقد وزع الإخوان المسلمون النشرات الحماسية، ولصقوا على الجدران في الأسواق والشوارع والأحياء، وعلى أبواب المساجد الإعلانات التي تحض الشعب على التمسك بالأخلاق، وتذكرهم بفلسطين وفظائع قبية ودير ياسين، كما تذكرهم بإخوانهم المناضلين الجزائريين وإرهاب الفرنسيين في الجزائر، ويطالبون الحكومة بطرد ممثلي فرنسا، ومقاطعتها اقتصادياً، وبإغلاق مدارسها، ومساعدة الجزائر مادياً ومعنوياً، وقد قامت مظاهرة كبرى لطلاب الإخوان تميزت بنظامها وقوتها ونبل غايتها، كانت نقطة الانطلاق التجهيز الأولى، ثم سارت تطوف الشوارع من سوق الطويل إلى المرابط إلى المحافظة حيث تكلم المحافظ كلمة رائعة أيد فيها المتظاهرين في مطالبهم الحقة، وأن تطبيق هذه المطالب واجب، وأنه أحد الجنود، ثم ألقى الأخ سعيد حوى كلمة قوية حمل فيها على دول الاستعمار الغاشمة التي زرعت إسرائيل في أرضنا، وناشد الإخوان أن يكونوا كعادتهم جند الفداء، ومبعث الجهاد، وأن ينقذوا الشعب المسكين من حيرته ومحنته، وكانت كلمته تقاطع بالتهليل والتكبير والهتافات

---

(١) مجلة الشهاب العدد ٤٦ في ٢١-٣-١٩٥٦ .

الحماسية، تأييداً لنضال الجزائريين، وشجباً لوحشية الفرنسيين، ثم تابعت المظاهرة طريقها إلى حي الحاضر، مارة بالأسواق الرئيسة، فكانت تلقى التشجيع والتأييد لما عرف عن حي الحاضر من تأييده الكاسح للدعوة الإسلامية، ولتنظيم الإخوان المسلمين، ثم تكلم الطالب عبد الرزاق الشيخ حمود كلمة قوية في وجوب استرداد فلسطين، ومساعدة الجزائر مادياً ومعنوياً، وقال: إنه لعار على أمة عربية مسلمة يتسلط المستعمرون على جزء منها -الجزائر- ثم يكون الجواب احتجاجات وتصريحات ومظاهرات فقط، ثم تابعت المظاهرة سيرها إلى مركز الإخوان، فكان لها أعظم الأثر في نفوس المواطنين[1].

وفي خطوة تصعيدية أخرى في الانتصار لثورة الجزائر، تداعى علماء سورية إلى دمشق للتفكير فيما يجب عمله نحو إخواننا في الجزائر، بعد أن تطورت قضيتها إلى هذا الوضع الخطير، وبعد أن حشدت فرنسا كل قواها لإبادة شعبها المسلم، فقرر العلماء بالتعاون مع الإخوان وبمشاركة جادة معهم وجوب المبادرة إلى نجدتهم بعمل منظم تشترك فيه جميع الهيئات، فانتدبوا الشيخ سيد مكي الكتاني، والشيخ عبد الرؤوف أبو طوق والشيخ أحمد الدقر، والأستاذ سعيد رمضان ليعملوا مع لجنة تحرير المغرب العربي التي يرأسها معروف الدواليبي، فاتفقت كلمة المجتمعين على أن أقل ما تفرضه علينا أخوة الإسلام نحو إخواننا الذين يذبحون رجالاً ونساءً وأطفالاً في مجزرة

---

(١) الشهاب العدد ٤٦ في ٢١-٣-١٩٥٦ .

لم يسبق لها مثيل، هو أن تبادر الحكومات العربية والإسلامية إلى مقاطعة فرنسا سياسياً وثقافياً واقتصادياً، وأن يبادر كل مسلم وعربي إلى الإسهام المادي في نجدة المجاهدين، فإنهم بأشد الحاجة إلى المال والسلاح والمواد الطبية، واتخذوا قرارات ومقترحات من أهمها:

أ- مناشدة العلماء وسائر الهيئات النصرة للجزائر المسلمة المجاهدة.

ب- اعتبار يوم السبت الثاني من رمضان يوماً للجزائر، والعمل على جعله يوماً عاماً في سائر أقطار البلاد العربية والإسلامية.

ج- دعوة الإذاعة السورية إلى مراعاة مشاعر العرب والمسلمين، في وقت يتساقط فيه إخواننا صرعى الإيمان والحرية كل ساعة، فتحرص على روح الجد في برامجها، وعلى تخصيص زاوية يومية لجهاد الجزائر.

د- دعوة أئمة المساجد إلى إقامة صلاة الغائب عقب الصلوات الخمس على أرواح الشهداء الذين تتوالى مواكبهم بالليل والنهار.. إلخ.

والله المسؤول أن يثبت أقدام المجاهدين، ويؤيدهم بروح منه، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز.

أبو الخير الميداني رئيس رابطة العلماء بدمشق، محمد توفيق الأتاسي مفتي حمص، محمد الكتاني نائب رئيس رابطة العلماء بدمشق، حسين سراج عضو المجلس الإسلامي الأعلى، أحمد الدقر

رئيس الجمعية الغراء، فريز الكيلاني من علماء حماة، عبد الله الحلاق رئيس الإخوان المسلمين في حماة، عبد العزيز أبا زيد رئيس الإخوان المسلمين في درعا، محمد هاشم السيد من دوما، أبو السعود عبد السلام رئيس الإخوان في حمص سابقاً، محمد الحامد راعي جماعة الإخوان في حماة، عبد الله عثمان من حمص، (محمد ناجي أبو صالح وعبد الله خير الله ومحمد كامل السرميني) من علماء حلب، وعبد الفتاح أبو غدة نائب المراقب العام للإخوان المسلمين، ومحمد الحكيم قاضي حلب، فخر الدين الحسني عضو المجلس الإسلامي الأعلى، وبركات الضماد مفتي محافظة حوران، والشيخ عبد الرؤوف أبو طوق نائب دمشق ومن علمائها، وعبد الرحمن الباني المفتش الاختصاصي في وزارة المعارف، وعضو قيادي في إخوان دمشق(١).

٦- اتسعت دائرة التحرك الشعبي في نصرة الجزائر، فتجاوزت حدود الشعب السوري وحدود القطر السوري إلى شعوب العالم الإسلامي، فقد عقدت الهيئة العامة للمؤتمر الإسلامي (الذي كان إحدى مؤسسات الإخوان المسلمين) دورته الثانية في دمشق، استمرت أربعة أيام من ١٧-٢١ من ذي الحجة ١٣٧٥هـ الموافق ٢٦-٣٠ من حزيران/ يونيو ١٩٥٦ ليلتقي العالم الإسلامي عبره ومن خلاله، ولتتخذ أكثر من عشرين قراراً وتوصية حول فلسطين، ووجوب تشديد الحصار الاقتصادي على الدولة الصهيونية، وعلى

---

(١) مجلة الشهاب العدد ٤٩ في ١٥-٤-١٩٥٦ .

وجوب قيام وحدة عربية، أو كخطوة أولى على وحدة عسكرية بين الجيوش العربية، وعلى وجوب رعاية أوضاع اللاجئين الفلسطينيين، والتعامل معهم كما تعامل كل حكومة رعاياها ريثما يعودون إلى وطنهم الذي اغتصب منهم، وأبعدوا عنه، وأكد المؤتمر على قراره الذي اتخذه في دورته الأولى بتحديد يوم ٢٧ رجب من كل عام يوماً لفلسطين في جميع أنحاء العالم الإسلامي لجمع التبرعات، وتذكير المسلمين بواجبهم حيال فلسطين.

وكان من أهم مقررات المؤتمر فيما يخص الجزائر:

أ- يقر المؤتمر أن قضية الجزائر هي قضية الساعة بالنسبة للمسلمين جميعاً، ويقرر لذلك وجوب الاضطلاع بها بكل إمكاناته.

ب- يُحيّي المؤتمر الإسلامي العام شهداء الجزائر وجيش التحرير الجزائري وجبهة التحرير الجزائرية، وجميع المعتقلين السياسيين من أجل الجزائر، ويقدر جهادهم الصادق.

ج- يعلن المؤتمر وجوب المقاطعة الرسمية والشعبية لكل ما هو فرنسي، سواء أكان اقتصادياً أم ثقافياً أم اقتصادياً، وإن أي نوع من التعامل أو أي مظهر من مظاهر الود مع فرنسا -وهي تذبح إخواننا الجزائريين- عدوان على حق طبيعي إنساني، ونقض لأخوة الإسلام، وخذلان لجهاد الجزائر.

د- يقرر المؤتمر تعميم مشروع أسبوع الجزائر في جميع البلاد الإسلامية، على أن يترك لكل قطر تحديد موعده، واتخاذ التدابير

اللازمة له.

هـ- يقر المؤتمر الإسلامي العام إرسال الوفود إلى الأقطار المختلفة لتنوير الرأي العام العالمي بحقيقة قضية الجزائر، والاتصال بالحكومات والشعوب لتقديم المساعدة المادية والأدبية ضماناً لاستمرار جهادها، وبلوغ حريتها.

و- يستنكر المؤتمر بشدة من الأمم المشتركة في حلف الأطلسي، سماحها باستعمال أسلحة الحلف في قتل الآمنين، وإبادة شعب يطالب بحقوقه الطبيعية، ويستنكر المؤتمر كذلك أشد الاستنكار الموقف الجائر الذي وقفه مجلس الأمن الدولي عندما رفض النظر في قضية الجزائر التي تعتبر قضية عادلة، ومن أهم ما يهدد السلام في العالم.

ز- يؤكد المؤتمر على أن استقلال المغرب وتونس لا يكون إلا باستقلال الجزائر، ولذا يهيب بالشقيقتين مراكش وتونس بأن تعملا على استئناف الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي، إذا لم تبادر فرنسا إلى إيقاف حربها الغاشمة في الجزائر، والاعتراف بحق الجزائريين في الحرية والاستقلال.

إن المؤتمر الإسلامي ليؤكد لإخواننا المجاهدين الأبطال في الجزائر وفي المغرب الإسلامي أنهم ليسوا وحدهم في جهادهم المقدس، وأنَّ العالم الإسلامي بجميع إمكاناته يقف خلفهم، ويناصرهم في هذا الجهاد.

٧- ولدعم فعاليات المؤتمر في تنفيذ قراراته، وفي قدراته على

تحريك شعوب الأمة الإسلامية بادر إلى تنفيذ أمرين مهمين:

أ- انتخاب الأمين العام والمكتب الدائم (القيادة) للمؤتمر الإسلامي بالاقتراع السري من قبل الهيئة العامة، فكان الأستاذ سعيد رمضان أميناً عاماً، وكان الأستاذ محمد محمود الصواف من العراق، والأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة من الأردن، والأستاذ كامل الشريف من مصر، والأستاذ محمد المبارك والأستاذ السيد مكي الكتاني من سورية، والأستاذ الفضيل الورتلاني من الجزائر أعضاء للمكتب الدائم للمؤتمر الإسلامي.

ب- ربط الحركات الإسلامية وانتظامها في صورة منسقة جدية، فأسس له فروعاً في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، منها:

- فرع المؤتمر الإسلامي في كراتشي برئاسة السردار عبد الرب نشتار حاكم البنجاب السابق، ورئيس حزب الرابطة الإسلامية.

- فرع المؤتمر في رانغون عاصمة بورما، برئاسة الأستاذ داود يوسف مفتي بورما.

- فرع المؤتمر في الملايو، برئاسة السيد إبراهيم السقاف.

- فرع المؤتمر الإسلامي في أندونيسيا، برئاسة الأستاذ محمد ناصر رئيس حزب ماشومي -الإسلامي- والأستاذ أحمد دحلان رئيس نهضة العلماء بالتناوب.

- فرع المؤتمر بالسودان، برئاسة أمينه العام الأستاذ أحمد البيسي.

- فرع المؤتمر الإسلامي في سورية برئاسة الدكتور معروف الدواليبي.

- فرع المؤتمر الإسلامي بالهند برئاسة الأستاذ أبو الحسن الندوي.

- فرع المؤتمر في سيام -بانكوك- برئاسة الأستاذ السيد عبد الرشيد مدير الكلية الإسلامية في بانكوك.

- فرع المؤتمر الإسلامي بالعراق، برئاسة الشيخ أمجد الزهاوي.

وللمؤتمر في غير هذه الأقطار أعضاء مراسلون، وكيانات منظمة لفروع يحرص المؤتمر على أن تستوعب في كل قطر القوى المتعددة للحركة الإسلامية فيه[1].

وفي سياق الحديث عن ثورة الجزائر، وجهود الإخوان المسلمين في العالم العربي، ولاسيما في سورية بالدفاع عن شعب الجزائر ومجاهديها، وعن الجهود الضخمة التي بذلوها في هذا السبيل، وما تحملوه من مسؤولية كبيرة في هذا الصدد أمام الحكومات العربية، وتجاه الرأي العام الدولي، في هذا السياق أسجل أمراً جللاً وحدثاً كبيراً جديراً بالأجيال الصاعدة أن تطلع عليه، لتدرك عمق الحقد الذي يحمله بعض الغربيين في أوربا على الإسلام والمسلمين، بالرغم من شهادة علمائهم ومنصفيهم على تسامح المسلمين، وعلى ما قدموه للبشرية من إنجازات عظيمة، كانت الأساس المكين في النهضة

---

(١) مجلة الشهاب العددان ٦١ و٦٢ بتاريخ (٢٦-٣٠)-٦-١٩٥٦ .

الحضارية في العصر الحديث.

هذا الحديث تتضمنه شهادة سمعتها -وقد كنت طالباً في جامعة القاهرة في خمسينيات القرن الماضي- من الشهيد سيد قطب رحمه الله، نقلها عن رئيس الهيئة العربية العليا المجاهد الحاج محمد أمين الحسيني- قال سيد: كان الحاج أمين قريباً من هتلر في أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانت الحرب على أشدها، تطحن ملايين البشر في أوربا وخارجها، وكان الموقف غامضاً لا يعلم أحد لمن يكون النصر، وعلى من تكون الدّبرة، فعرض الحاج أمين على هتلر مشروعاً يضمن له النصر، أو يجعله راجحاً لصالحه، إذا وعد عرب المغرب بتنفيذ مطلبين لهما، هما: استقلال دول المغرب (تونس والجزائر ومراكش) من جهة، ووحدة دول المغرب من جهة ثانية، فإذا ما أعلن ذلك أمام العرب، وأمام شعوب المغرب، وارتبط علانية بهذا الوعد، يوجه الحاج أمين وزعماء الشعب المغاربي نداءً يدعون فيه أبناء المغرب الذين يحاربون في صفوف الجيش الفرنسي -ويشكلون نسبة عالية في أعداده- إلى التمرد على قيادات الجيش، أو يشكلون فراراً من صفوفه، وبذلك تضطرب الجبهة التي يدافع عنها الفرنسيون، فوعد هتلر بدراسة المقترح أو المشروع، وبعد حوالي ستة أشهر جاء الرد مخيباً للآمال، أبت فيه القيادة الألمانية أن ترتبط بأي وعد من شأنه استقلال دول المغرب ووحدته، بدعوى أن دول المغرب إذا استقلت أو اتحدت تكون أخطر على أوربا من أي عدو آخر، ورضيت ألمانيا لنفسها بالهزيمة الماحقة على إعطاء أي فرصة

للعرب والمسلمين بالاستقلال والوحدة والنهوض.

وفي شهادة أخرى تأتي في هذا السياق، أن أخاً لنا كان مبعوثاً إلى فرنسا ليعود منها بدكتوراه بالهندسة، لكن الأخ ع. ح ضُبط متلبساً بالتعاون مع جبهة التحرير الجزائرية، فطردته فرنسا من أراضيها، فحولت وزارة المعارف السورية بعثته إلى جنيف لتكميل تحصيله، باعتبار اللغة السائدة في جنيف فرنسية، وفي محاضرة كان يلقيها المقيم الفرنسي السابق جورسيل في الجزائر عن جهود بلاده فيها، سأله الحاضرون عقب المحاضرة كما هي عادة الغربيين (وكان الأخ ع. ح حاضراً) قائلين: أنت تزعم أن فرنسا عملت على الارتقاء بالجزائر، وبذلت جهوداً كبيرة في إنهاضها، فلماذا -بعد استعمار دام مائة وثلاثين عاماً- تسود الأمية شعب الجزائر، ولا يوجد في فرنسا أمية؟ ولماذا ينتشر مرض السل في الجزائريين بنسبة عالية تشمل خمس السكان، ولا وجود لهذا المرض في فرنسا؟ لماذا يبلغ دخل الفرد في الجزائر مبلغ كذا، ويبلغ أضعاف أضعافه في فرنسا، وعندما بلغ هذا الحد من الإحراج أجاب بالحدة التي عُرف بها الفرنسيون Anter nous -فيما بيننا- أنسيتم الغافقي؟ أنسيتم معركة بواتييه؟ أنسيتم زحف الشمال الإفريقي على أوربا؟ إن فرنسا تضحي بأبنائها واقتصادها وأمنها من أجل أوربا، من أجلكم، من أجل حماية الغرب من الخطر الإسلامي. هكذا أجاب جورسيل بهذه الصراحة، وكشف مضطراً حقيقة المعركة التي تخوضها فرنسا، ودوافع الحرب التي تشنها على العرب والمسلمين في الشمال الإفريقي.

٨- بلغ نشاط الإخوان الذروة عندما أعلنوا عن أسبوع للجزائر في سورية، تنفيذاً للفقرة (د) من مقررات المؤتمر الإسلامي في دورته الثانية كما مر معنا آنفاً، ومن أجل إمداد المجاهدين بالأموال التي كانوا بأمس الحاجة إليها، وقد تنبأ بعض المراقبين بفشل المشروع، لأن أسبوع التسلح لم يمض على تنفيذه أكثر من ستة أشهر، وأن الشارع السوري لا يتحمل مثل هذا العمل مرتين بأقل من نصف عام، لكن الجماعة قبلت التحدي، ودعت الهيئات والأحزاب والجمعيات والنقابات في سورية إلى تبني هذا المشروع، والمشاركة في إنجازه للتحلي بهذه المكرمة وهذا الشرف العظيم.

تشكلت اللجنة العليا في دمشق من رجال كرام كان على رأسهم الأستاذ المجاهد محمد المبارك بن عبد القادر المبارك العالم اللغوي الكبير عضو المجمع العلمي في دمشق، والذي ولد في دمشق بعد رحيل والده من الجزائر إلى سورية بعد فشل ثورة عبد القادر الجزائري، ثم تشكلت لجان فرعية في جميع المحافظات لتنفيذ هذا العمل النبيل، أذكر مثلاً واحداً عن لجنة إحدى المحافظات، لأنني حضرتها وشاركت بها، وهي لجنة أسبوع الجزائر في محافظة حماة.

تداعى ممثلو الأحزاب والجمعيات والنقابات في المدينة إلى تشكيل لجنة تتولى أمر أسبوع الجزائر، فحضر عن حزب البعث العربي الاشتراكي مندوبان هما أنشط قيادات الحزب، وعن الإخوان رئيس الجماعة، وكنت معه، ومندوبون عن النقابات أبرزهم نقيب المحامين إبراهيم الشيشكلي، ومندوبون عن جمعيات النهضة

وغيرها، فبلغ عدد الهيئات التي حضرت ثماني عشرة، فقرروا اختيار أمين سر للأسبوع، فكلفوني بهذه المهمة، لأنني في إجازة صيفية من عملي كمدرس للغة العربية في مدارس المدينة، ولأنهم ليسوا مستعدين لتعطيل أعمالهم خلال فترة قد تستمر طويلاً، فكان أول خطوة تنفيذية خطوتها، مخاطبة المصلين في جامع السلطان (الذي كنا ننطلق منه في مظاهراتنا، ونوجه منه نداءاتنا، ونلقي فيه خطبنا وبياناتنا) بعيد صلاةِ الجمعة قائلاً: إن أسبوع الجزائر ليس سبعة أيام، بل تمتد أيامه حتى يحقق نجاحه.

استلمنا دفاتر الإيصالات من الأمانة العامة للأسبوع في دمشق من ذوات الليرة والخمس ليرات.. إلخ.. وشكلنا مجموعات من شباب الجماعة لجمع التبرعات، وسمعنا من البعض تثبيطاً بدعوى أن الجمع مرتين في العام ثقيل على الناس، وبالمقابل وجدنا تشجيعاً من آخرين، فالسيد ناصح العظم رئيس غرفة الزراعة خصص لنا غرفة ومكاناً فسيحاً في مبنى غرفة الزراعة على شاطئ نهر العاصي، في أجمل مكان في المدينة، وافتتح التبرع بخمسة آلاف ليرة سورية، فكان مبلغاً مجزياً رفع من المعنويات والآمال بالنجاح، وكان معيار النجاح أن تبلغ تبرعات أبناء المحافظة مئة ألف ليرة، فانطلق شباب الجماعة (يحملون على أذرعهم شارة أسبوع الجزائر) في المقاهي والأسواق والأحياء والمساجد لجمع التبرعات، كما كانوا يلقون الكلمات في بيوت الله مذكرين ومشجعين، وذات يوم حضر شباب من حزب البعث يطالبون بالمشاركة، كيلا يبقى الإخوان وحدهم في

الميدان، فرحبت بهم قائلاً: هذا العمل تكليف لا تشريف، لا يهدف إلى أي كسب حزبي، فاختاروا أي عمل يروق لكم ونفذوه، فأعمالنا تقوم على توعية المواطنين، وحثهم على التبرع، وعلى جمع التبرعات، فشكلوا مجموعة من شبابهم، واستلموا دفاتر إيصالات، وانطلقوا بعد أن أوضحنا لهم كيفية التحرك وساحاته، وفي عصر ذلك اليوم عاد أحدهم ليعيد لنا دفاتر الإيصالات لم ينقص منها إلا القليل، بعد أن رأوا صعوبة هذا التحرك والحرج الذي تلاقيه اللجان، دون تحقيق أي مكاسب حزبية، ثم لم نعد نرى لهم أي أثر أو وجود.

كان من الذين تلقينا دعمهم السيد عبد الله أحمد البرازي الذي كان يطوف بنا القرى، ويصحبنا إلى مضارب خيام البدو، فكان لتحركه ومعرفته الواسعة بالفلاحين والبدو أثر ملموس في نجاحنا.

لم يمض على عملنا شهر وبعض شهر حتى زادت التبرعات التي تلقيناها على مئة ألف ليرة سورية بمبلغ كبير على ما أذكر، فكان أسبوعنا في محافظة حماة ناجحاً بكل المقاييس، مما جعل أعضاء الجماعة واثقين بعملهم، يعتمدون -بعد الله تعالى- على أنفسهم، يحدوهم تصميم كبير على الاضطلاع بمسؤولياهم التي تسند إليهم، فكان الأسبوع درساً مفيداً وتدريباً نافعاً، وعملاً مأجوراً بإذن الله إذا صدقت النيات، وكانت المساعي خالصة لوجه الله تعالى.

في إمارة أبو ظبي كنت مسؤولاً في قسم المناهج المدرسية، وكان الأستاذ رابح مشحوت يعمل قائماً بالأعمال بالسفارة الجزائرية، فتم التعارف بيننا، وكان له بنات صغيرات صَعُب عليهن فهم اللهجة التي

تتحدث بها المعلمات المصريات والسوريات والفلسطينيات، فطلب المساعدة، وصار يأتي بهن إلى المنزل ليتعلمن الدروس المقررة من بناتي وأمهم، فلاحظ بعض المراقبين تردد السيد رابح إلى البيت كثيراً، فسألوه: ماذا يربطك بفلان ذي التوجه الإخواني؟ فشرح لهم أحوال بناته ومعاناتهن الدراسية، وقال: قرأت اسم عدنان سعد الدين في متحف الجزائر ضمن الذين وقفوا مع الجزائر في محنتها وفي ثورتها، ولم أكن قد سمعت هذا من قبل، فأدركت أن المسؤولين الجزائريين قد وضعوا أسماء أمناء أسبوع الجزائر في المحافظات السورية، وعلى رأسهم بالطبع الأستاذ محمد المبارك في متحفهم الوطني، عرفاناً منهم بالمساعي المتواضعة التي بذلوها في نصرة الجزائر، وفي توعية المواطنين (بما عانته من ضنك وتنكيل من الفرنسيين) ومن جمع التبرعات لدعم المجاهدين الجزائريين.

ثامناً: رحلة السباعي إلى أوربا

درجت الجامعات على منح الأساتذة الكبار من كوادرها إجازات دورية للتفرغ للبحث العلمي، أو للقيام بزيارة المكتبات والجامعات والمحافل العلمية للاطلاع على المناهج الدراسية، وعلى إنجازات الآخرين، ولاسيما علماء الغرب، والمستشرقون منهم على وجه الخصوص.

١- بدأ السباعي يشد الرحال إلى الغرب بعد منحه إجازة علمية من إدارة الجامعة السورية، فكانت هذه الرحلة مبعث قلق في جماعة الإخوان السورية، لأنها ستبعد عنهم قائدهم لفترة طويلة قد تمتد ستة

أشهر، وقد ألفت الجماعة قربها من قائدها الذي يشرف على أنشطتها، ويسدد لها خطاها وتحركاتها، فأقامت له حفلاً توديعياً في المركز العام بحي الشهداء في دمشق، حضره مندوبون عن مراكز الجماعة في سورية، كما حضره عدد من الشخصيات الدمشقية كان الشيخ علي الطنطاوي في مقدمتهم، وقد ألقى المندوبون كلمات التوديع، مشيدين بشيخهم وقائدهم مصطفى السباعي، وكان مركز حماة قد كلفني بإلقاء كلمة المركز، فتذكرت كلمة للشيخ ألقاها في مدينة حماة عقب المعركة الكبرى التي نشبت في المدينة بين المجاهدين وبين الفرنسيين لثلاثة أيام متتاليات، وانجلت عن نصر مؤزر للمجاهدين، وكان الفرنسيون ينكلون بالمدن السورية الأخرى، ويدكونها بالمدفعية الثقيلة، ويهدمون المؤسسات الرسمية والبيوت السكنية، كالذي فعلوه في المجلس النيابي السوري، وفي أحياء دمشق، فكأن مدينة حماة قد ثأرت من العدو لما أصاب المدن السورية، قال الشيخ في الساحة الرئيسة في المدينة من شرفة مديرية الشرطة: تساءلت لماذا يهدم الفرنسيون المدن، ويسفكون الدماء، ويقتلون الأبرياء؟ فأجابتني مدينة أبي الفداء: بإسقاط طائراتهم وإحراق سياراتهم، وتحطيم دباباتهم والسيطرة على ثكناتهم، ومصادرة أسلحتهم، فاستشهدت بهذه الفقرات من خطاب شيخنا في المدينة التي أولته ثقتها، ووقفت معه في كل الأزمات التي مرت بها الجماعة، والمكائد التي حيكت ضد الشيخ في قيادته لجماعة الإخوان المسلمين، فكان لكلماته أثر لا يمحى، وذكريات لا تنسى، ذكرت هذا في خطاب الوداع للشيخ الذي غادر دمشق في مطلع نيسان عام

١٩٥٦ في طريقه إلى استانبول ذات الكنوز العظيمة والوثائق الثمينة عن تاريخ الإسلام والمسلمين، ليمكث فيها أحد عشر يوماً، ثم يغادرها إلى روما في ١٥-٤-١٩٥٦ .

٢- تابع الشيخ رحلته العلمية الميمونة الاستطلاعية للجامعات والمكتبات ومراكز البحث، إلى بريطانيا وإيرلندا واسكتلندة وبلجيكا وهولندا والدانمارك والنرويج والسويد وفنلندة وألمانيا والنمسا وسويسرا وفرنسا، وكان مكثه في بريطانيا طويلاً بالقياس إلى الدول الأخرى، لأنه زار فيها جامعات لندن وإكسفورد وكامبردج ومانشستر وأدنبره وجلاسكو.

٣- التقى الشيخ السباعي أعلام المستشرقين، واختلط بهم، وكانت له معهم جولات ومواقف ومناقشات، برز فيها كعملاق بين الأقزام، أو مدرس بين الطلبة الصغار، وهذا ليس تهويلاً مني -يقول الندوي- أو مبالغة، فقد ظل المستشرقون يخافونه، لأنه فضحهم على ملأ من العلماء والمختصين عدة مرات، تعمّد فيها الشيخ مطاردة كبارهم، بعد أن قابل أكثرهم، من أمثال أندرسون، وآربري، والمستشرق اليهودي المعروف شاخت بليدن -هولندا- وكثيراً غيرهم، وزار الجامعات العلمية الكبرى، وقابل رؤساء الأقسام العربية والإسلامية، وكان له مع شاخت قصة طريفة حكاها في مجلته حضارة الإسلام قال فيها: في جامعة ليدن بهولندا اجتمعت بالمستشرق الألماني اليهودي شاخت، وهو الذي يحمل في عصرنا هذا رسالة جولدتسيهر في الدس على الإسلام والكيد له، وتشويه حقائقه،

وباحثته طويلاً في أخطاء جولدتسيهر، وتعمده تحريف النصوص التي ينقلها عن كتبنا، فأنكر ذلك أول الأمر، فضربت له مثلاً واحداً مما كتبه جولدتسيهر في تاريخ السنّة، فاستغرب ذلك، ثم راجع كتاب جولدتسيهر، وكنا نجلس في مكتبته الخاصة، فقال: معك الحق، إن جولدتسيهر أخطأ هنا، قلت له: هل هو مجرد خطأ؟ فاحتد، وقال: لماذا تسيئون به الظن؟ فانتقلت إلى بحث تحليله لموقف الزُهري من عبد الملك بن مروان، وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفي ما زعمه جولدتسيهر، وبعد مناقشة هذا الموضوع قال: وهذا خطأ أيضاً من جولدتسيهر، ألا يخطئ العلماء؟ قلت له: إن جولدتسيهر هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التي تبني حكمها في التشريع الإسلامي على وقائع التاريخ نفسه، فلماذا لم يستعمل مبدأه هنا حين تكلم عن الزهري؟ كيف جاز له أن يحكم على الزهري بأنه وضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاءً لعبد الملك ضد ابن الزبير؟ مع أن الزهري لم يلتق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير؟ وهنا اصفر وجه شاخت، وأخذ يفرك يداً بيد، وبدا عليه الغيظ والاضطراب، فأنهيت الحديث معه بأن قلت له: لقد كانت مثل هذه الأخطاء كما تسميها أنت تشتهر في القرن الماضي، ويتناقلها مستشرق منكم عن آخر على أنها حقائق علمية، قبل أن نقرأ -نحن المسلمين- تلك المؤلفات إلا بعد موت مؤلفيها، أما الآن، فأرجو أن تسمعوا منا ملاحظاتنا على أخطائكم، لتصححوها في حياتكم قبل أن تتقرر كحقائق علمية، وبالجملة، فإن كل ما كتب -الشيخ الجليل- عن المستشرقين ومكائدهم شيء مهم وخطير، جدير بالبحث والدراسة

والمتابعة والاطلاع[1].

٤- لقد أدهش الشيخ المستشرقين بقوة حجته، وغزارة علمه، وحضور بديهته، وسعة آفاقه، ومرانة أسلوبه، وقد عاهده فريق منهم على أن لا يكتبوا عن موضوع إسلامي إلا بعد أن يراجعوه في صحة المعلومات التي وصلت إليهم، أما فريق المستشرقين غير المنصفين، والذين تفرغوا للدراسة والكتابة عن الإسلام بأسلوب الدس والافتراء وتشويه الحقائق، فقد أخافهم السباعي عليه رحمة الله، لأنهم رأوا فيه حجة دامغة، وعقبة صعبة التجاوز، فقد ناقشهم حتى أفحمهم، وجادلهم حتى أسكتهم، وتتبع دسهم وافتراءاتهم حتى لم يبق عليهم ستراً إلا وهتكه، ولا شبهة إلا وكشفها وردّها[2].

لقد تأثر بعض الأوربيين بكلام الشيخ وصدقه وعلمه، فأقبلوا على الإسلام، فبعد الكلمة التي ألقاها الشيخ في جامع باريس أقبل عليه شاب روماني، كان يعمل قنصلاً لبلاده في باريس، فاعتنق الإسلام، وترك العمل الدبلوماسي، وتزعم مجموعة من الشباب الفرنسي الذين اعتنقوا الإسلام عن عقيدة وإخلاص، فزوده الشيخ بنصائحه وتوجيهاته[3].

وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٦٣ قال غوستاف فيشر أحد

---

(١) مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه: ٥٨ - ٥٩ إعداد محمد مصطفى السباعي، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠م - ١٤٢١هـ.

(٢) المرجع السابق: ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) حضارة الإسلام -السنة الرابعة- العدد الرابع تشرين الثاني ١٩٦٣ .

الصحفيين الألمان المختصين بشؤون الشرق الأوسط، بعد لقائه بالشيخ السباعي: أشكرك كثيراً، فقد نبهتني إلى حقيقة كنا غافلين عنها، وهي أننا لا نبهركم بمظاهر الحياة الاجتماعية عندنا، وأنكم تعرفون مساوئها، فتحاولون الابتعاد عنها، كما أشكرك على تصحيح ما كنت أعتقده عن الإسلام، فلقد كنت من قبل أظن أنني أُعرف الناس بالإسلام والمسلمين، وبمشكلاتهم الحضارية، فتبين لي أنني أجهل الشيء الكثير، فشكراً لك.

٥- قبل أن يغادر شيخنا السباعي لندن بعد أن انتهت زيارته العلمية لبريطانيا، وجه رسالة إلى رجال الدين المسيحي هناك، ضمنها ملحوظاته عليهم، ودعاهم فيها إلى تفهم رسالة الإسلام التي سيجدون فيها ما يعينهم على تخفيف مصائب العالم، وأهاب بهم أن يفكروا بالوسائل العلمية لإنقاذ الشعوب من انهيار خلقي محقق، وحذرهم من البرود الذي يقابلون به قضايا الشعوب المناضلة في سبيل حريتها خضوعاً لعوامل قومية أو سياسية، وحثهم على أن يقولوا كلمة الحق التي يوجبها الدين في محنة فلسطين والجزائر وقضية تأميم قنال السويس، وقد جاء في هذه الرسالة:

الدكتور مائيوس عميد كاتدرائية سان بول.

الأربشوب مائيو للطائفة الكاثوليكية.

الأب رئيس أساقفة الكاتدرائية الكاثوليكية في لندن.

يسرني أن أبعث إليكم بهذه الرسالة قبيل مغادرتي إنكلترا إلى أوربا، تأكيداً للأحاديث الشفهية التي تحدثت بها أثناء مقابلتي للكثير

من رجال الدين في هذه البلاد.

إن أهم ما لاحظته على رجال الدين جملة أمور منها:

أولاً: إنهم لا يعرفون من حقائق الإسلام وتعاليمه الصادقة شيئاً كثيراً، بل إن بعضهم لا تزال تسيطر عليه الآراء التي كانت تسيطر على عقول رجال الدين في القرون الوسطى فيما يتعلق بالإسلام ورسوله والمسلمين، ولاشك أن الجهل بدين عالمي يدين به اليوم أكثر من (٥٠٠) مليون (بلغ عدد المسلمين اليوم ٢١٠٠ مليون نسمة) ليس مما يصح أن يتصف به رجل مثقف، فضلاً عن رجال الدين. إن الإسلام يلتقي مع المسيحية في فكرة الإيمان بالله والرسل واليوم الآخر، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وقد كان له من الأثر في التاريخ ما يجعله جديراً بأن يُعنى رجال الدين المسيحي في هذا العصر بدراسته دراسة منصفة بعيدة عن التعصب الأعمى، ولو نظر هؤلاء فيه (أي الإسلام) بمنظار البحث العلمي لوجدوا فيه كثيراً من النظم والمبادئ الكفيلة بإنقاذ الإنسانية من شقائها الحاضر، والإنسانية اليوم تعاني المتاعب والآلام المرهقة، والدين المسيحي يملك من القوة والنفوذ في العالم الغربي -وهو عالم الحضارة- مالا يملكه الإسلام، أفليس من واجب رجال الدين في هذه الديار أن يبحثوا في الإسلام علهم يجدون فيه ما يعينهم على تخفيف مصائب العالم، والتقريب بين شعوبه، لإيجاد حياة أفضل، وعلاقات أكثر سلماً وتعاوناً؟

إننا في كلية الشريعة الإسلامية بالجامعة السورية بدمشق -وهي

كليـة حديثـة- قد جعلـنا من مواد الـدراسة فيـها مادة لدراسـة الأديان وتاريخها وتـعاليمها، وقصـدنا من ذلك أن يكون العالِم المسلم على ثقافة واسعة بالديانات المعاصـرة، وأن يعلم مواطن الاتفاق بينها وبين الإسلام، ليجـد من ذلك مجالاً للتـعاون الديني بين حمـلة الدين على كل ما يحـقق للإنسان سعادته ورغـده، ويبعد عنه الشـقاء والحروب، ومن المؤسف أنني لم أجد في كل مـا زرته من كليات الدين ومعاهده في هذه البلاد كلية واحدة حرصت على دراسة دين عالمي كالإسلام، بل إن الـمؤلـفات التـي يؤلفـهـا بعض رجـال الدين لـتدرّس فـي هذه الكـليات، تـعطي صـورة مشـوهة غـير صـادقة عـن الإسلام والقـرآن والرسول مـحمد علـيه الصلاة والسـلام، لذلك أهيب بكم كـركن من أركـان الكنيسـة المسـيحـيـة في هذه الديـار أن تتـداركوا هذا الأمـر، وتعمـلوا على تفهـم الإسلام، وعلى حـمل رجال الدين عنـدكم على دراسته دراسة منصفة تليق بالرقي الحضاري والعلمي في هذا العصر.

ثانيـاً: إن رجـال الديـن هنا يـعترفـون -كـمـا لاحظـنا ذلـك من أحاديثهـم- بالانهيار الخلقـي الذي استولى على النـاس في هذه البلاد وهو مما تـنكره الأديان، ومنها الدين الـمسيحي، ومع ذلك فـلا يبذل رجال الدين هنا اهتماماً كبيراً بـمعالجة هذا الانحراف الأخلاقي، أكثر من بعض المواعظ يلقيها بعض الكهنة أثناء الصلاة، ولاشك أن أوربا تحـمل قسـطاً كبـيراً من مـسؤوليـة انهيـار الأخلاق في الـعالم، لأنـها صاحبة الحـضارة التي اخترعت من وسائل الاتصـال الفكري والعلمي بين شعوب العالم ما يجعل العالم وحدة متماسكة يتأثر أقصاه بما يأتي

من أدناه، ومن أجل هذا أهيب بكم كرجال دين يدعون إلى مكارم الأخلاق، وتطهير النفس، وتزكية الروح أن تفكروا في الوسائل العلمية لإنقاذ شعوبكم وحضارتكم من انهيار محقق، إذا استمرت في هذا الاتجاه المادي الغرائزي[1].

٦- من الأهداف الكبيرة التي حققها الشيخ من رحلته إلى أوربا، النهوض بالطلاب العرب والمسلمين الذين يدرسون في جامعات الغرب، ولعل بعضهم كان منبهراً بالمظهر الحضاري لحياة الغربيين المادية، فكان على الشيخ أن يعيد لشباب العروبة والإسلام ثقتهم بعقيدتهم ودعوتهم وشريعتهم التي تملك وحدها دون سواها إنقاذ الإنسان من الهوة السحيقة التي يهوي إليها، ومن ثم ليستعيدوا الثقة بأنفسهم، وأنهم قادرون على حمل الرسالة المنقذة، فكان يلقي المحاضرات في المساجد والجامعات ومراكز اتحاد الطلاب، منذراً ومحذراً من أخطار الحضارة الغربية، وما تنطوي عليه من السم القاتل للروح الإنسانية، والنفس البشرية، ولمكارم الأخلاق.

كان تجاوب الطلاب مع المعاني السامية التي دأب الشيخ على بثها في النفوس، ومع التحذيرات من المخاطر التي فتح أعينهم عليها كبيراً، وكان الشيخ يرمي إلى أن يتحول الطلاب إلى علماء ودعاة يحملون راية الإسلام، ومشعل الهداية للغربيين الذين هم في أمس الحاجة إليها، وليعودوا إلى أوطانهم قادة ودعاة ومصلحين.

في شهر آب/ أغسطس عام ٢٠٠٥ كنت أتناول طعام العشاء على

(١) الشهاب العدد ٦٥ بتاريخ ١٩-٨-١٩٥٦ .

مائدة الإمام أحمد المهدي في العاصمة السودانية بدعوة منه في الخرطوم، فذكر أنه كان من الطلاب الذين استمعوا إلى أحاديث الدكتور الشيخ السباعي عام ١٩٥٦ عندما كان يدرس في بريطانيا، وأنه استفاد من علمه، ومن توجيهاته السديدة.

٧- في آخر لقاء بين الدكتور الشيخ مصطفى السباعي والطلاب الذين أقاموا حفل توديع للشيخ في المركز الثقافي الإسلامي في لندن بتاريخ ١١-٨-١٩٥٦ ألقى الشيخ كلمة جاء فيها: لقد اجتمعت بكثير من رجال الدين والمستشرقين والمهتمين بالدراسات الإسلامية والشرقية في هذه البلاد، فرأيتهم يكادون يتفقون على محاربة الإسلام، والإزراء به، إما جهلاً وإما تعصباً، وكلا الفريقين لا يعرف عن حقيقة الإسلام إلا ما يعرفه عوام الناس من الغربيين في القرون الوسطى، إن المسؤولية في ذلك تقع علينا نحن حملة الإسلام، تقع على الأزهر الذي يملك من القوة المادية والعلمية ما يستطيع معها أن يعمل شيئاً كثيراً في هذا الشأن، والمسؤولية تقع عليكم أنتم يا شباب الإسلام في هذه الديار، فكل واحد منكم لو وضع نصب عينيه أن يقوم بنصيبه في إفهام الإسلام لهؤلاء الغربيين لعمل في ذلك شيئاً كثيراً، وهذا واجب يطلبه الإسلام منكم قبل أن تعودوا إلى بلادكم، وهناك واجب أكبر يطلبه الإسلام منكم بعد عودتكم إليها، ذلك هو أن تأخذوا زمام القيادة من أيدي الذين أساؤوا إلى أمتنا حين زعموا لها باسم العلم أن الإسلام لا يصلح لهذه الحياة، وأن أوربا اليوم أبعد ما تكون عن التعصب للدّين، والتعصب على المسلمين، أنتم وحدكم

أيها الشباب مطالبون بأن تُنَحّوا هؤلاء (عن قيادة القافلة) الذين انحرفوا بالقافلة عن الطريق المستقيم إلى طريق وعرة معوجة كثيرة الشعاب والمتاهات، وأشد ما يبعث على الألم من قيادة هؤلاء أنهم، وقد فقدوا في صدر شبابهم، وفي دراستهم العلمية في هذه البلاد كثيراً من أجواء الاستقامة والفضيلة، يريدون أن يحملوا أمتنا على أن تعيش في هذه الأجواء ليظلوا ينعمون باللذة الآثمة والمجون القاتل، كما كانوا ينعمون بها في صدر حياتهم، إنكم تشاهدون بأعينكم كيف يعيش كثير من الشباب الذين تنفق عليهم أمتهم وبلادهم في أجواء من الشهوة الحمراء والتسكع في الشوارع والأندية الموبوءة، مما قصر بهم عن دراستهم، وشغلهم عن الشعور بمصائب أمتهم وبلادهم شعور الرجل الكريم، بالأمس دخلت أحد المطاعم فرأيت إعلاناً كبيراً على أحد جدرانه عن حفلة راقصة يقيمها الطلاب العرب، أتدرون في أي يوم سيقيمون هذه الحفلة؟ إنه يوم ١٦ آب، أي في اليوم الذي تتداعى فيه الدول المستعمرة للافتئات على حق مصر في سيادتها على القنال، أجل في اليوم الذي يرقب فيه العالم كله نتائج هذا المؤتمر يكون فريق كبير من شبابنا مشغولين بالحفلة الراقصة التي دعوا إليها، كنت أتصور أن يكون شباب العرب في هذا اليوم يتبعون أعضاء الوفود في فنادقهم ليغرقوهم بالنشرات التي تؤكد حق مصر بالسيادة على القنال التي هي جزء من أرضها.

هذا مثل تعلمون منه أن الذين يحاربون دعوة الإسلام لا يسلكون إلا طريقاً منهاراً لن نصل منه إلى السيادة والكرامة، إن الذين يعبثون

والنار تحيط بهم وببلادهم سيكونون أشد عبثاً يوم تنطفئ النار، وتزول الأخطار، فلن نُسلّم قيادة الركب للعابثين أيام الخطر، لن نسلمها للذين تخونهم أعصابهم في أوقات الشدة، ويأبون أن يتخلوا عن حظوظ أنفسهم لحق أمتهم وبلادهم، ولن نسمح لهم بعد اليوم أن يتستروا بالعروبة ليطعنوا الإسلام، ويحاربوا دعوته، ويجمعوا كل حاقد عليه، وكل متعصب ضده للتهديم في عقائدنا ومقومات حياتنا.

إن الروح الصليبية ما تزال تملأ نفوس الغربيين ضد الإسلام والمسلمين، لقد قرأتم ورأيتم بمناسبة الأحداث الأخيرة في الجزائر كيف تعتبر فرنسا وحدة المسلمين خطراً على السلم في العالم، فهل هناك شيء أقر لعيون الغربيين من أن نحارب نحن العرب والمسلمين هذا الإسلام الذي يعتبرونه خطراً عليهم؟ وهل هناك أشد غباوة ممن يلقي سلاحه الخطير وهو في قلب المعركة؟ أجل إن الإسلام خطر على الاستعمار الذي امتص دماء المسلمين، وأذل كرامتهم، والذي شتت العرب، ومزق وحدتهم، ومن أجل هذا فنحن مصممون على أن نستعمل هذا السلاح في وجه الغزاة، لنطرد الغاصب من أرضنا.

أمامكم يا شباب الإسلام معركتان: معركة مع أعدائه في الخارج، ومعركة مع بعض المقيمين على أرضه في الداخل، وإن لديكم قوة كبيرة تملكونها وحدكم، ولا يملكها خصومكم، هي قوة الإيمان بالله التي أخرجت آباءكم من جزيرتهم، فجعلتهم وجهاً لوجه أمام المتحضرين المترفين، ثم كان النصر لهم، ولم يكن الخلود إلا إكليلاً على رؤوسهم، لأنهم كانوا يحملون رغم فقرهم وبداوتهم عقولاً

متحررة من الخرافة، وقلوباً ممتلئة باليقين، وبصائر لا ترى الحياة من خلال الخمرة والشهوة والدرهم والدينار، إنما تراها من خلال الخلق الكريم، والرجولة النبيلة، إنها بصائر لا تمتد إلى تراب وأحجار، بل إلى جنة عرضها السموات والأرض، تجري من تحتها الأنهار[1].

٨- كانت رحلة الشيخ إلى أوربا فتحاً مبيناً، فيما يمكن أن نسميه حوار الحضارات، فقد هتك الشيخ ستر المستشرقين الذين قادوا حملة ظالمة في الدس على الإسلام وعلى رسوله الكريم ﷺ، وكان قادة الفكر في أمتنا ولاسيما في مصر، يصغون إلى المستشرقين، ويأخذون أقوالهم، وكأنها تنزيل، ثم يبشرون بها، وينشرونها في كتبهم، وفي الجامعات والمعاهد، فيتلقفها الآخرون من تلاميذ وكتاب وشيوخ، باعتبارها صادرة عن مفكرين كبار من أمثال أحمد أمين في كتابيه: فجر الإسلام وضحى الإسلام، وعندما انبرى الشيخ لهذه الدسائس، وهتك سترها، وكشف عن زيفها في رسالته التي تقدم بها لحمل شهادة الدكتوراه من الأزهر، وفي حواراته مع المستشرقين ورجال الدين في رحلته إلى أوربا في منتصف عام ١٩٥٦، وأحرجهم واضطرهم إلى الاعتراف بأخطائهم، حرر الشيخ كتّابنا من الشعور بمركب النقص أمام أشهر المستشرقين من أمثال جولدتسيهر وخليفته شاخت اليهوديين، فكأنما أزاح عن القلوب والعقول أقفالها، فانبرى العلماء، ولاسيما شيوخ الأزهر، وشرعوا أقلامهم في الردود على المستشرقين غير المنصفين، فكان للشيخ

---

(١) الشهاب العدد ٧٠ في ٢٣-٩-١٩٥٦ .

السباعـي فضل تحرير علمـائنا من مركب النقص، ومن الـخوف ممن كانوا يظنونهم عمالقة، فإذا بهم أقـزام صغار أمام الحقائق الدامغة التي واجههم بها شيخنا رحمه الله.

وإذا لم يكن للـشيخ السباعـي إلا هذا الجهد الذي تـم إنجازه في رحلة علمـية دعوية حوارية اسـتمرت خمـسة أشهر، بالإضافـة إلى ما عرف عن الشـيخ من عمل دعوي محلـي وعالمي، ومقاومة لـلإنكليز في مصـر، وللفرنسـيين في سوريـة ولبنان، وللصـهاينة في فلـسطين، ومن جـهاده الـسيـاسي البـرلمـاني وتأكـيد الـطابع العـربي الإسـلامي لسورية، وإنشاء كلية الشريعة والموسوعـة الفقهية التابعة لها، وبحوثه وتأليفـاته القيمـة التي سدّ بهـا فراغاً في المكـتبة الإسلامـية، وإصداره مـجلة حـضارة الإسـلام التي أضـحت مـرجعـاً لقادة الـدعوة والفـكر الإسـلامي في العـالم الإسـلامي، بالإضـافة إلـى كل هذه الإنجـازات الكبـيرة والأعمـال الجليلة، إذا لم يـكن للشيـخ إلا جهده في إحـباط دسـائس المـستـشرقـين وفـضحـهم وتقـزيمـهم، وتنـوير الرأي العـام الإسلامي بـتدليسـهم، لكان الشـيخ جديـراً أن يكـون كبيـر الدعاة، أو شيخ الدعاة للإسـلام في القرن الرابع عشر الهجري، والـقرن العشرين الميلادي.

تاسعاً: أحداث ذات شأن

تسارعـت الأحداث في سورية بشـكل خطير، ظهـرت بوادرها في منتـصف عام ١٩٥٤ عندمـا أطلق عبد النـاصر لأول مرة شعـار وحدة الأمة الـعربية، فـي موجة تـصاعدية، واسـتدارة حكـومة الضبـاط من

القوميـة المصرية الصـرفة إلى القوميـة العربية، بلغت أوجـها في نص الدسـتـور المـصـري الصـادر فـي ٢٣-٦-١٩٥٦، وهو العـيـد الأول لتـأسيس إذاعـة صوت الـعرب التي أمـسكت بـزمام الدعـاية الإذاعـية للنظام المصـري، والتي أسستها وكالة المخـابرات الأمريكية C. I. A، وتولت تـنظيم شـؤون الدعاية لـتدعيـم شعـبية عـبد النـاصر في مـصر والعالـم العربـي، كما ذكرتْ الباحثة الـمعاصرة الدكتورة أمل مـيخائيل بشور(١).

اشتد النـزاع، وزاد الانقسام بين الزعمـاء السوريين حول كـثير من القضـايا السياسيـة، بالإضافة إلى تدخـل رئيس الأركان شوكت شـقير وضباطه فـي الشؤون السياسيـة، فاستطاع وزير الدفـاع بتأييد البعـثيين وعدد من الضباط إزاحة شقير، وتعيين توفيق نظام الدين مكانه، فكان هذا الأمر ميسوراً، ومر بسهولة، لأن شقير لبناني درزي، حصل على الجنسيـة السورية في عهد حسنـي الزعيم، ثم رقّاه الشيشـكلي، وعيَّنه قائداً لـلمنطقـة الوسطى، متـجاوزاً عدداً مـن الضباط الـذين يتقـدمونه برتبـهم العسكـرية، بدعوى أنه يـطيع دون تردد في أي أمـر، ولو كان ضرب جبل الدروز كـما فعل، فهو في رأي الشيـشكلي بلا ماض ولا مستقبل، لأنه درزي ولبناني!!(٢).

---

(١) دراسة في تاريخ سورية السـياسي المعاصر للدكتورة أمل ميخـائيل بشور: ٣٣١ نقلاً عن كتاب: جـبال من رمل للكاتب الأمـريكي: ولبركرين إيفـلاند، قصة إخفـاق أمريكا في الشرق الأوسط، تعريب د. سهيل زكار، دمشق، دار طلاس ١٩٥٠: ١٧٠- ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق: ٣٥٤ .

١- تسارعت الخطا نحو الوحدة مع مصر، ففي ٣٠-٦-١٩٥٦ زار وفد سوري -برئاسة صبري العسلي وعضوية صلاح البيطار ومحمد العايش- القاهرة لتهنئة جمال عبد الناصر بتوليه رئاسة الجمهورية، فتطرق العسلي إلى الاتحاد بين البلدين، فأظهر عبد الناصر بعض الحذر حول هذا الموضوع!!

وفي ٣-٧-١٩٥٦ اقترح الرئيس شكري القوتلي قيام اتحاد فيدرالي بين سورية ومصر، وعرض على وزرائه مسودة دستور الدولة الاتحادية، وفيها يؤكد على وجوب تمتع كل قطر باستقلاله الذاتي، واحتفاظه بنظام الحكم القائم فيه، وتكون مجالسه وتنظيماته ومؤسساته مستقلة عن تلك القائمة في السلطة الاتحادية.

وفي ٥-٧-١٩٥٦ أي بعد يومين فقط على تقديم القوتلي مشروعه، صادق البرلمان السوري بالإجماع على نصٍ أعدته الحكومة، يدعم القرار الذي أعلنه رئيس الوزراء والقاضي بتفويض لجنة وزارية لمباشرة المباحثات مع الأشقاء المصريين توصلاً إلى اتحادٍ بين سورية ومصر.

وفي أوساط الجماهير السورية نمت مشاعر قومية وعربية معادية للغرب، تأججت بعد تراجع الولايات المتحدة عن تمويل السد العالي، ثم جاءت مسألة القنال، لترفع الموجة المتطلعة إلى مصر، ومعها المد اليساري إلى أقصى مداها[١].

(١) المرجع السابق: ٣٥٥ -٣٥٧ .

٢- استغلت قوى اليسار السوري هذا الموقف (وهذا التفاعل للأحداث) وتوصلت إلى إحراز سيطرة فعالة على الجيش والرأي العام، وحتى على توجهات الساسة السوريين من العناصر المعتدلة التي راحت بدورها تشجب الإمبريالية الغربية خوفاً من أن تتهم بالتعاون معها أو مع عملائها، وتحت ضغط هذه الموجة، أصدر وزير الدفاع في ١١-٨-١٩٥٦ مذكرة تنص على إنشاء قوة مقاومة شعبية، تعمل تحت إمرة الجيش، وعلى فتح باب التطوع في ٢٠-٨-١٩٥٦، فتحرك الحوراني وبكداش والعظم فشكلوا لجنة نواب من كل الأحزاب السياسية تأخذ على عاتقها تنظيم مؤتمر شعبي يدعو إلى التضامن مع مصر في كافة البلاد العربية[١] فتطوع خمسون نائباً من البرلمان، وحوالي مائة ألف من أبناء الشعب، واندفع اليساريون والشيوعيون للتطوع، فوزعت عليهم قيادة الجيش الشعبي السلاح المستورد من تشيكوسلوفاكيا في ٦-١٢-١٩٥٦ ومنعته عن المواطنين الذين عُرفوا بالتوجهات الإسلامية، بل إن الضباط الاحتياط الذين التحقوا بالجيش الشعبي، صدر قرار بتسريحهم وتجريدهم من السلاح الذي وزع عليهم، ولما يمض على استلامهم له يومين أو ثلاثة أيام، وهكذا بدت للعيان توجهات اليسار المسيطر على الجيش الرسمي والجيش الشعبي، والنيات الحاقدة على الإخوان المسلمين وعلى جميع المواطنين من ذوي الاتجاه الإسلامي.

٣- دخلت سورية مرحلة جديدة من التوتر والصراع السياسيين،

---

(١) المرجع السابق: ٣٥٩ - ٣٦٠ .

واقتربت من نفق مجهول، كانت تدفعها الأحداث المتسارعة إليه دفعاً، ففي ليل (٢-٣) -١١-١٩٥٦ اجتاحت عناصر من المخابرات السورية محطات ضخ النفط العراقي، ونسفت أنابيبه، فانقطع ضخ نفط كركوك طرابلس إلى الخارج، فافتخر عبد الحميد السراج في وقت لاحق بأنه أعطى الأوامر لعناصره دون الرجوع إلى الحكومة، إسهاماً منه في معركة القنال.

وفي ٣١-١٠-١٩٥٦ طار القوتلي إلى موسكو على رأس وفد مدني وعسكري كبير، وبعد مباحثات حول دعم موسكو لسورية بالسلاح والخبرات المدنية والإنشائية المهمة، صدر بيان مشترك سوفياتي سوري طالب بانسحاب القوات المعتدية على أرض مصر، ثم عاد القوتلي لتكون الجماهير السورية في استقباله على أرض المطار، فأعلن لهم قائلاً: لقد جئتكم بالسلاح والعتاد الحربي، وسنكافح من أجل كل منزل، وكل قطعة أرض، فهلموا للتطوع.

٤- وجاء الهجوم الثلاثي البريطاني الفرنسي الصهيوني على مصر ليرسخ النفوذ المصري في سورية، حيث أصبح للمصريين قاعدة قوية داخل الجيش حظيت بتأييد الحوراني وبكداش اللذين شددا من ترابط حزبيهما، فأصبح من العسير التمييز بين مواقف الناصريين والشيوعيين، إذ سعت تلك الأطراف مجتمعة إلى إيجاد صدى شعبي صاعق تجاه مواقف السوفيات من أزمة السويس، وإلى التعتيم قدر الإمكان على الدور الأمريكي المعلن في إنهاء الأزمة (فالأمريكان أنذروا المعتدين بوجوب وقف العدوان والانسحاب إلى ما وراء خط

الهدنة على لسان الرئيس الأمريكي آيزنهاور) وكان للإذاعة دور كبير في الحملة ضد نوري السعيد رئيس وزراء العراق واتهامه بالخيانة والتحالف مع اليهود.

٥- في ظل هذه الأجواء، وفي ١٣-١١-١٩٥٦ عقد ملوك العرب ورؤساؤهم مؤتمراً، افتتحوا جلساته في قصر اليونيسكو في بيروت بناء على اقتراح الرئيس اللبناني كميل شمعون، كي تتخذ حكومات الدول العربية موقفاً موحداً من القضايا التي أثارتها أحداث العدوان الثلاثي على مصر، فأجمعوا على تأييد مصر ودعمها، لكن العرب لم يجمعوا على موقف واحد تجاه العلاقات مع بريطانيا وفرنسا، فجاءت صيغة البيان انتصاراً للمقولات المعتدلة، فبعد أن أعرب العرب المجتمعون عن تقديرهم وإعجابهم بعبد الناصر والجيش والشعب المصريين، طالبوا بتنفيذ قرار الأمم المتحدة بانسحاب المعتدين دون قيد أو شرط من الأراضي المصرية، وعودة الإسرائيليين إلى ما وراء خطوط هدنة ١٩٤٩ .

إن هذا المؤتمر الذي انعقد لتقليص الخلاف بين الدول العربية، قاد إلى انقسامها لفريقين، فريق أراد التحرر من الارتباط بالغرب، فتطلع إلى مساعدة الاتحاد السوفياتي، وآخر قد أقلقه النمو المتسارع للنفوذ الشيوعي، فالتفت إلى الولايات المتحدة، طالباً الدعم والمساعدة، وسوف تتسع الهوة بين الفريقين، عندما ستطرح واشنطن على العرب مطلع ١٩٥٧ مبدأ آيزنهاور[١].

---

(١) المرجع السابق: ٣٦٨ .

وزاد الأمر استفحالاً، وأُعطي اليسار زخماً قوياً ليوجه الضربة القاصمة لخصومه من اليمين عند اكتشاف المؤامرة العراقية التي كانت بريطانيا والولايات المتحدة متورطة فيها، والتي اعتبرها الفريق القومي واليساري تكملة للمؤامرة الإمبريالية في مصر.

فقد أعد نوري السعيد بالتنسيق مع إيدن والسي آي إيه مخططاً لقلب نظام الحكم في سورية، انضم إليه مجموعة من الضباط المنفيين، وقادة الحزب السوري القومي الاجتماعي، وشرعوا بالعمل لإحداث انقلاب بالتنسيق مع الملحق العسكري العراقي في بيروت العقيد صالح السامرائي، سرعان ما اتسعت حلقة الدائرة لتشمل عدداً من السياسيين السوريين المنتمين إلى تنظيمات وأحزاب سياسية محافظة مثل حزب الشعب والكتلة الدستورية، وقلة من الحزب الوطني، ثم كلفت الحكومة العراقية معاون رئيس الأركان اللواء غازي الداغستاني إعداد الخطة بتفاصيلها الكاملة.

أشرف الداغستاني على إعداد جيش في معسكر سري في تركيا، عهد بتدريبه إلى العقيد محمد صفا، كما زوّد الحزب السوري القومي بالمال والسلاح لتدريب قوة هجومية من ٥٠٠ عنصر، في معسكر بيت مري بلبنان تحت إشراف العقيد غسان جديد، ثم وسع هؤلاء نشاطهم باتجاه الأقليات الجاهزة دائماً للتمرد، فاتصلوا بزعماء الدروز والعلويين والعشائر البدوية، وراحت تتدفق عليهم الأسلحة والأموال، لاحتلال الدوائر الرسمية والثكنات واجتياح الحدود السورية، ومن ثم احتلال دمشق، بالتعاون مع الضباط العاملين في الجيش السوري،

وفي سائر المدن السورية[1].

في ٢٣-١١-١٩٥٦ بث ناطق عسكري من إذاعة دمشق بياناً كشف فيه النقاب عن مؤامرة لقلب نظام الحكم، وأن جيشاً عربياً قد أُعدّ لاقتحام سورية، وأن كميات كبيرة من الأسلحة قد وصلت إلى سورية من دولة مجاورة، وأن التحقيقات أوصلت إلى اعتقال الذين كانوا يتآمرون لطعن جيشهم ووطنهم وقوميتهم، فأجمعت الصحف السورية على اختلاف ميولها على المطالبة بإنزال أقصى العقوبات بالمتآمرين، وسرعان ما تحركت الفعاليات السورية -اليسارية- لقطف الثمرة، فسعى بكداش والحوراني لإسقاط الحكومة، مع الإعلان عن اعتقال ثلاثة نواب متهمين في المؤامرة هم: منير العجلاني، وعدنان الأتاسي، وحسن الأطرش، مع عدد من المدنيين والعسكريين، فركب اليمينيون الموجة، فصرح القوتلي وعبد الوهاب حومد من حزب الشعب تصريحات بعبارات حادة ضد المتآمرين، مما جعل الفعاليات السياسية اليمينية منقسمة وضعيفة ومكبلة بتهديدات المخابرات والشارع السوري.

٦- في الأيام الأولى من شهر كانون الأول عام ١٩٥٦ أطلق البعث والعظم فكرة إنشاء جبهة برلمانية قومية. وفي ٨-١٢-١٩٥٦ أعلن عن قيام تجمع قومي انصهرت في بوتقته كل الأحزاب والكتل لانتهاج سياسة قومية موحدة، هدفها التصدي للمؤامرات الموجهة من الداخل أو الخارج ضد سلامة البلاد، وبِتَبَنّي برنامج يرمي إلى إصلاح

---

(١) المرجع السابق: ٣٧٣ - ٣٧٥.

النظام الضريبي، وحماية العمال والفلاحين، ومواجهة حلف بغداد، وكان وراء هذا التجمع السياسي، الحلف المصري اليساري العسكري الذي ضم ضباطاً مرتبطين بمؤسسي هذا التجمع، مثل: عبد الحميد السراج، ومصطفى حمدون، وعبد الغني قنوت، وعفيف البزري، وأحمد عبد الكريم، وأمين النفوري. وقد أعلن الشيوعيون بلهفة تأييدهم لهذه الجبهة، فانتمى لهذا التجمع في ١١-١-١٩٥٧ خمسة وستون نائباً من أصل ١٤٢ نائباً، غير أن حزب الشعب أذاع بياناً في وقت لاحق من عام ١٩٥٧ أعلن فيه رفضه المشاركة بالتجمع، أو السماح لأعضائه بدخوله لأنه يشكل في نظره انتهاكاً للدستور، وإلى قلب الحكومة التي قامت على حلف موقع من كل الأحزاب والفئات. أما الحزب الوطني فسرعان ما بادر إلى الالتحاق بالتجمع القومي، وبذلك ركب صبري العسلي الموجة الصاعدة، كما هو شأنه في معظم تاريخه السياسي، وبذلك أضحى من الممكن الإطاحة بالحكومة، واتخاذ الخطوات لعزل اليمين، والسيطرة على السلطة[1].

قدم العسلي استقالته في ٢٢-١٢-١٩٥٦، وكُلِّف بتشكيل حكومة جديدة، وزعت مقاعدها على الحزب الوطني وحزب البعث وكتلة العظم وبعض المستقلين، فعكس تركيبها انزلاق سورية نحو اليسار، وتراجع العناصر المحافظة، وأمسى الحزب الوطني برئاسة العسلي أسير البعث والمكتب الثاني -المخابرات العسكرية- المرتبطين بالناصرية، فكان على الفريق الموالي للغرب أن ينحني أمام التيار

(١) المرجع السابق: ٣٧٦ -٣٨٠ .

اليساري حتى لا يتهم بالخيانة[1].

٧- سيطر التجمع القومي على البرلمان السوري بانتخاب المجلس أكرم الحوراني رئيساً له، ليسيطر على السلطة التشريعية، كما هو مسيطر على السلطة التنفيذية، بالإضافة إلى سيطرته على الجيش، وعلى المخابرات، وعلى الشارع السوري لحد بعيد، وأحكم تسلطه على دوائر الحكومة التي ملأها بأنصاره، كما أحكم سلطانه على سياسة سورية الخارجية وعلى الاقتصاد الوطني في كثير من مفاصله، ونال تأييد مصر الناصرية ودعمها بثقلها الكبير دون تحفظ أو حدود، كما حظي بدعم السوفيات الذين زودوا سورية بالسلاح والخبرات والقروض والإسناد السياسي في المحافل الدولية، فهيمن اليسار على مقدرات سورية، وحجَّمَ القوى اليمينية والسياسية المعتدلة، فضاقت دائرة الحياد التي كانت سائدة في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي.

لقد كانت الفترة التي امتدت من ١٩٥٤ وحتى ١٩٥٨ من أخطر الفترات التي مرت بها سورية منذ استقلالها عام ١٩٤٦ وحتى العام ١٩٥٨ الذي أعلنت في بدايته الوحدة بين مصر وسورية، وكان عام ١٩٥٧ من أخطرها وأشدها تعقيداً، فقد أدخل التجمع القومي الذي ظهر على المسرح السياسي عام ١٩٥٦-١٩٥٧ سورية في نفق مظلم، ودفع بها إلى المجهول في نظر التيارات اليمينية ونظر المثقفين الليبراليين والمحافظين الذين كانوا يشاهدون وطنهم وقد أدركه

---

(١) المرجع السابق: ٢٨١ -٣٨٢ .

الغرق، والأمواج العاتية تتقاذفه، وأبناؤه عاجزون عن إنقاذه، فلم يعد أمام سورية للخروج من مأزقها إلا بتسليم أمرها ومستقبلها إلى جمال عبد الناصر، في وحدة لم يكتب لها النجاح، لأنها أنجزت بسرعة تنقصها الدراسة الواعية، والتنظيم الدستوري المكين، ثم قذفت بها الأحداث الساخنة المتسارعة والفوضى والصراعات الداخلية والضغوطات الخارجية إلى الانفصال عندما انقض عليها العسكريون البعثيون واليسار واليمين بالضربة القاضية، فلم تقو على الدفاع عن نفسها بعد أن خذلتها قيادة سياسية عاجزة مذعورة، فدخلت سورية منذ مطلع عام ١٩٦٣ عصر الظلام الذي لا يدرك ولا يدري أحد متى تنجلي دياجيره، ومتى تزول أيامه الثقيلة، وتنقضي المأساة التي تعيشها سورية منذ أكثر من أربعة عقود، وبالتحديد منذ ٨ آذار/ مارس عام ١٩٦٣ .

عاشراً: الإخوان والعدوان الثلاثي

تفاعل موضوع قناة السويس، منذراً بشر مستطير بدت مقدماته ظاهرة للعيان، فمصر التي رفضت في البدء الاعتراف بمؤتمر لندن، وعدم القبول بشرعية القرارات التي تصدر عنه، أبدت استعدادها لاستقبال اللجنة الخماسية التي انبثقت عنه، في خطوة تعتبر دليلاً تقدمه مصر على حسن نيّاتها. غير أن بريطانيا وفرنسا استمرتا بحشد القوات العسكرية والأساطيل على مقربة من السواحل العربية، وبتشكيل قيادات مشتركة جديدة لإدارة الأعمال العسكرية العدوانية ضد مصر والبلاد العربية، مما يحمل على الاعتقاد بأن أي تساهل مع

الدول الاستعمارية سيؤدي إلى المزيد من الضغط والإرهاب وإجهاض الهبة الشعبية في وجوه المعتدين.

١- لم يلبث المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في البلاد العربية أن عقد اجتماعاً طارئاً في دمشق لبحث الأزمة في موضوع قنال السويس في ٢ صفر ١٣٧٦هـ الموافق ٧-٩-١٩٥٦، وأصدر البيان التالي: إن المكتب التنفيذي لمؤتمر قادة الإخوان المسلمين في البلاد العربية لا يشك في أن الغرض المبيت من وراء هذه الحشود هو الضغط على مصر، والتأثير على أعصاب المفاوضين المصريين ليقبلوا حلاً يحقق أهداف الاستعمار، وليتراجعوا عن الموقف القوي الذي بدأوا به، وأيدهم الشعب المصري بجميع فئاته وطوائفه على أساسه ووقفت بجوارهم الشعوب العربية والإسلامية، والقوى الحرة في العالم بأسره.

إن المكتب التنفيذي يستنكر أشد الاستنكار هذه المظاهرات العدوانية من جانب بريطانيا وفرنسا، ويؤكد أنها لن تزيد شعوبنا إلا ثباتاً على الحق وتمسكاً به، وإذا كانت الدول الاستعمارية تعتقد أنها ستؤثر على أعصابنا، وتعيدنا إلى حظيرتها بما تفعله من أعمال التحرش، فإن شعوبنا قد صممت تصميماً أكيداً على مواجهة العدوان مهما كانت النتائج، ولن تصل هذه الدول إلى تحقيق شيء من غاياتها الخبيثة قبل أن تخوض معنا معركة طويلة الأجل، لن تكون نتائجها في صالحها بحال من الأحوال. والإخوان المسلمون يؤكدون مرة أخرى أنهم على أتم الاستعداد لخوض المعركة ضد المعتدين في قناة

السويس، وضد المصالح الاستعمارية في البلاد العربية الأخرى كافة. كما يهيب المكتب بالحكومات والهيئات العربية والإسلامية أن ترقب الموقف بحذر بالغ ويقظة شديدة، وأن تتكتل لإحباط كل مؤامرة خبيثة، وأن توالي تعبئة قواها لخوض المعركة المشتركة، واضعة نصب عينها أن هذه المظاهرة العدوانية كما يبدو من ضخامتها وتعدد أطرافها، ليست قائمة لمواجهة القناة، لأنه ليس هناك أي أزمة في القناة، ما دامت مصر قد أكدت قرار حرية الملاحة لجميع الدول، ولكن هذه المظاهرة، إنما تقوم لضرب الوعي العربي والإسلامي الذي ينمو بقوة في الآونة الأخيرة، لاسترداد النفوذ الاستعماري الذي أخذ يتداعى تحت معاول شعوبنا الحرة المكافحة. وإذا قدر للحملة العدوانية أن تنجح في قهر الشعب المصري وإرغامه على التنازل عن شيء من سيادته الوطنية، فإن العالم العربي والإسلامي سوف يواجه احتلالاً أجنبياً شديد الوطأة يرده إلى حظيرة الاستعباد، ويضيع عليه جميع الخطوات التي قطعها على طريق التحرر والاستقلال.

٢ - إن المكتب التنفيذي لقادة الإخوان المسلمين في البلاد العربية ينتهز الفرصة لمناشدة حكام مصر أن يثبتوا عند موقفهم بعد أن ظفروا بتأييد جميع الهيئات الوطنية المكافحة، وأن يرفضوا فكرة الإشراف الدولي على القناة بجميع صورها وأشكالها رفضاً صريحاً قاطعاً، فإن أي تراجع سيؤدي إلى نكسة خطيرة، وبالتالي إلى التمكين للنفوذ الاستعماري، ليعاود الوثوب على المراكز التي فقدها في بلادنا، كما يحذر الإخوان من خطورة المناورة التي تلعبها إسرائيل من وراء ستار لضمان حرية الملاحة في القنال لصالحها، بحيث

تشمل حرية عبور السفن الإسرائيلية المعادية. إن إسرائيل لا تزال في حالة حرب مع مصر وباقي الدول العربية. وإن جميع الاتفاقات الدولية بما فيها اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ لا يحرم مصر من حق الدفاع عن نفسها وحفظ أراضيها ومياهها الإقليمية. وإن السماح للسفن الإسرائيلية المعادية بعبور القناة بدعوى حرية الملاحة، فيه مسٌّ أكيد بسيادة مصر، وإهدار لحق شرعي من حقوقها، تمارسه بمقتضى الاتفاقيات الدولية، ويشكل سابقة خطيرة لصالح إسرائيل، وينزل ضربة قاصمة بخطط الحصار الاقتصادي الذي تفرضه الدول العربية على الدولة الصهيونية المعتدية[١].

المكتب التنفيذي لمؤتمر قادة الإخوان المسلمين

في البلاد العربية

٣- تحمل الأستاذ عصام العطار رئيس مركز دمشق العبء بقوة وشجاعة في أثناء سفر الشيخ السباعي إلى أوربا في رحلته العلمية، فكان يلقي خطبه الرنانة المؤثرة -وهو الخطيب المفوه- في مسجد الجامعة الذي استقطب آلاف الشباب المثقف من أبناء الجامعة، ومن أبناء دمشق والمحافظات الأخرى، كما كان يلقي أحاديث الثلاثاء الأسبوعية في المركز العام في حي الشهداء مع عدد من إخوانه أعضاء مركز دمشق، الذين يتناوبون على منبر الثلاثاء، وكان موضوع قناة السويس في تلك الفترة يستأثر بخطب الأخ الأستاذ عصام وكلماته

---

(١) مجلة الشهاب العدد ٦٨ في ٩-٩-١٩٥٦ .

وتصريحاته. وعندما عاد الشيخ من أوربا استأنف نشاطه المعهود، وشرع يدلي بنداءاته وبياناته، بل سارع إلى الانخراط في المقاومة الشعبية حين وقع العدوان الغاشم على مصر، والحض على التدريب وحمل السلاح، فكان صاحب الفضل في تحويل الجامعة إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، وظل يلبس زي المقاومة الشعبية العسكري أثناء العدوان الثلاثي، وكان يرغب أن يجعل منه زياً شعبياً لعموم أبناء الشعب(١). وعندما سأله مندوب إحدى الصحف عن رأيه في التطوع لنجدة مصر، قال: إن كل مواطن في الأمة جندي في المعركة، وإن الإسراع إليها ليس تطوعاً، وإنما هو فرض يحتمه الدين، وتوجبه القوانين العامة(٢). وقال في تصريح له نشرته الصحف الدمشقية: إن صمود مصر في وجه الغزو البريطاني الفرنسي، أضاف صفحة مشرقة في سجل صفحات المجد والخلود لأمتنا، ولا شك في أن مصر في وقفتها الجبارة، إنما كانت عنواناً للروح الجديدة التي تغمر أبناء الأمة العربية والعالم الإسلامي في هذا العصر.

٤- إن مصر لم تتوان -كما قال قائد الجماعة- لحظة عن إنجاد إخوانها ونضالها ضد الاستعمار، فعلينا أن نسرع الآن إلى تضميد جراح إخواننا الذين أصيبوا هناك، وهم في خط النار الأول من معركتنا الكبرى، ومن واجب الهيئات والأحزاب أن تبادر بالتعاون مع الحكومة إلى تنظيم حركة التبرعات والإسعافات الضرورية لمصر،

---

(١) مصطفى السباعي بأقلام محبيه: ١١٤ .

(٢) الشهاب العدد ٧٦ في ٩-١١-١٩٥٦ .

وسيكون الإخوان أسبق الهيئات إلى القيام بهذا الواجب العظيم.

كما أنه رحمه الله بعث إلى ملوك ورؤساء الدول العربية البرقية التالية، بوصفه رئيس المكتب التنفيذي لقادة الإخوان في البلاد العربية: العدوان الإنكليزي الفرنسي الإسرائيلي على مصر مقدمة للعدوان على حرية العرب والمسلمين وشرفهم ومستقبلهم، أخوة الإسلام ووحدة المصير تحتم أن تسارعوا لنجدة مصر، وإلا فإن الله لا يرحم أمة تتخاذل عند النكبات. كما بعث بالبرقية التالية إلى الهيئات والأحزاب في كل من باكستان وأندونيسيا وأفغانستان وإيران: مصر والبلاد العربية تخوض أخطر المعارك ضد الاستعمار والصهيونية، وتدافع عن شرف العالم الإسلامي وحريته، يجب أن يظهر تأييد العالم الإسلامي فعالاً يثبت قوة الإخاء الإسلامي، ووحدة المصير بين البلاد العربية والإسلامية.

وقد قام بعض قادة الجماعة بالطواف على السفارتين الروسية والأمريكية. طالبين منهما أن يكون التأييد لمصر عملياً وسريعاً، كما زاروا مفوضيات الباكستان وإيران وتركيا، طالبين من الوزراء المفوضين إبلاغ حكوماتهم رغبة العرب والمسلمين بإنهاء التحالف مع بريطانيا، وقطع العلاقات معها، ومع فرنسا، استجابة للشعور العربي والإسلامي، كما طالبوا بالإسراع إلى نجدة مصر بكل وسائل النجدة العسكرية والمالية والطبية.

ثم أعد الشيخ كلمة بمثابة النداء إلى شعوب الأمة الإسلامية، عبر الإذاعة السورية قال فيها: نحن أمة لها كيانها ورسالتها، فلن نكون

تبعاً لأحد، وسيكون صراعنا مع الاستعمار عنيفاً حتى نطهر أرضنا من سلطانه... لكن الشيخ نقل إلى المستشفى بعد أن غلبه المرض، فألقيت بالنيابة عنه من إذاعة دمشق[1].

حادي عشر: الإخوان والأيام الصعبة

شهد عام ١٩٥٧ أحداثاً كبيرة وساخنة، وكان عاماً ثقيلاً على جماعة الإخوان المسلمين في سورية، فالمجتمع السوري انقسم إلى تيارين متضادين، تيار يساري يحظى بتأييد الجيش وأجهزة الأمن، وتأييد مصر الناصرية بكل ثقلها ومكانتها الكبيرة التي تبوأتها بعد معركة القناة، وتأييد الاتحاد السوفياتي بقدراته السياسية والعسكرية والحضارية الهائلة، وهو التيار الراجح، وتيار يميني يميل إلى الغرب، ويطلب دعمه في وجه المدّ الشيوعي الذي يجتاح سورية.

وبعد أن كانت سياسة الحياد (التي بشَّرَ بها الإخوان المسلمون، ورفعوا رايتها، وكانوا روّادها ومن أوائل الداعين إليها) هي السائدة في السياسة السورية، ضاقت دائرتها، وقلَّ مناصروها لحساب اليمين حيناً، ولحساب اليسار أحياناً.

١- حصد الإخوان نتائج السياسة التي انتهجوها عام ١٩٥٤ عندما تركوا العمل السياسي، وقاطعوا الانتخابات في قرار لم يستطع أحد من الكتّاب والباحثين والسياسيين أن يجد له تفسيراً أو تأويلاً، لقد زعم الذين أصروا على هذا الموقف أن العمل السياسي يضعف

---

(١) الشهاب العدد ٨٠ في ٨-١٢-١٩٥٦ .

التوجهات والأنشطة التربوية، فخسروا السياسة، ولم يكسبوا التربية، ولو تساءلنا عن الذين اتخذوا قرار الابتعاد عن السياسة ومقاطعة الانتخابات: أين هم الآن بعد خمسين سنة؟ لكانت الإجابة مفجعة نكتفي منها بما مر ذكره في هذه الأوراق.

لقد ترك الإخوان العاصمة التي أولتهم ثقتها وأسلمتهم قيادتها في انتخابات الهيئة التأسيسية لعام ١٩٤٩، صيداً سهلاً للسياسات المناوئة للدعوة الإسلامية، ولاسيما اليساريون والشيوعيون، ولم يكن باستطاعة العاصمة وبعض المدن السورية أن تجمع صفوفها، وتستدرك هذا الخلل، وتشكل جبهة صلبة في وجوه اليسار الزاحف، فكانت كمدينة مفتوحة أمام المنتصرين!!

٢- أعلنت حكومة التجمع القومي عن تشكيل حكومة جديدة برئاسة صبري العسلي شددت فيها من قبضتها على الحكم، كما أعلنت عن إجراء انتخابات تملأ بها مقاعد النواب الذين اتُّهموا بمحاولة قلب نظام الحكم، وأحيلوا للمحاكم العسكرية، وكان الدكتور منير العجلاني عن دمشق أحدهم.

كانت هذه المعركة مصيرية بين اليمين واليسار في نظر الساسة، ستحدد مصير سورية ومستقبلها السياسي، أكثر منها ملء مقعد نيابي أو عدة مقاعد في البرلمان، فلابد -والحالة هذه- من ترشيح شخصية كبيرة تحظى بتأييد السوريين، ولاسيما الناخبون من سكان العاصمة، وكان الشيخ السباعي قد شكل لجنة سياسية استشارية من شخصيات مرموقة، أمثال الدكتور خلدون الكناني وعبد القادر أسود رئيس

محكمة التميز، والدكتور معروف الدواليبي، والشيخ مصطفى الزرقا، والأستاذ الكبير محمد المبارك، والأستاذ نهاد القاسم، والأستاذ عمر بهاء الدين الأميري[1]. ليستفيد الشيخ باعتباره قائداً لجماعة الإخوان من خبراتها وفهمها وتقويمها للأمور، فأشارت عليه هذه اللجنة بترشيح نفسه للوقوف في وجه المد اليساري وتكسير أمواجه، واستقطاب جماهير الناخبين الذين يثقون بالسباعي، ويمنحونه تأييدهم، وأنه لا يوجد من يسد مسدّه في هذا الصراع المصيري، بصرف النظر عن موضوع المقعد الشاغر في دمشق، وعن قيمته الاعتبارية، لأن البرلمان ستنتهي ولايته بعد ستة أشهر، والشيخ يشغل منصباً إدارياً -عميد كلية الشريعة- لا يجيز له ترشيح نفسه، كما أفتت بذلك المحكمة المختصة بعد إجراء الانتخابات، بمعنى أنه لو نجح في الاقتراع لا يحق له دخول البرلمان، والمعروف عن الشيخ السباعي أنه ذو شهامة ومروءة وإقدام غير المبالي في الأمور المصيرية، ولاسيما إذا تعلق الأمر بشؤون الأمة ومستقبل الوطن.

٣- استجاب الشيخ لمناشدة أعضاء اللجنة السياسية الاستشارية ورشح نفسه للنيابة، ولم يكن للإخوان رأي في هذا الترشيح، أو في هذا القرار، لكنهم أجازوا قرار شيخهم للحفاظ على كرامته وعلى مكانته، بالرغم من أن الكثرة كانت مقتنعة بأن هذا القرار كان خاطئاً، لا يقل عن الخطأ الذي وقعت فيه الجماعة بمقاطعة انتخابات عام

---

(١) من شهادة الأستاذ الأميري التي أدلى بها في جدة عام ١٩٨٧ لعدد من مسؤولي الإخوان المسلمين السوريين.

١٩٥٤، فقد رأى فيه خصوم الشيخ الفرصة المواتية لإرهاقه والنيل منه، وتصفية الحسابات معه عندما كان يعبئ الشعب ضد زيفهم وانحرافهم وتبعيتهم للقوى الخارجية.

٤- انتدبت الجماعة لجنة تشرف على الانتخابات في دمشق، كنت واحداً منهم، وسرعان ما أسندت عملي كمدير لإعدادية أبي العلاء في معرة النعمان لمن ينوب عني، ويممت وجهي شطر العاصمة دمشق، بعد أن قمت بجولة في قضاء المعرة، وقفت فيها على جرائم يرتكبها أعضاء حزب البعث الذي يقوده ويسيطر عليه أكرم الحوراني في هذا القضاء من سرقات ورشوات وأتاوات يجمعونها من الفلاحين الضعفاء.

كنا نداوم من الصباح حتى منتصف الليل في دار الحسيبي الذي اتخذته جبهة الشيخ مقراً لنشاطها الانتخابي، وكان القادة الذين يشرفون على سير المعركة، يعقدون اجتماعاتهم كل مساء، يتداولون فيها ظروف المعركة، فكان الدواليبي والزرقا والمبارك والسباعي والمهايني -عن حزب الشعب في دمشق- وبعض المسؤولين عن الأحزاب والنقابات إلى جانب الشيخ السباعي، وبعضهم من الحزب الوطني والتعاوني الاشتراكي، ومن نقابات عمال دمشق الذين كانت قيادتهم ذات توجه إسلامي، ومن العلماء الذين وقفوا بجانب الشيخ في هذه المعركة الانتخابية القاسية.

٥- فتحت صحف اليسار النار بدون تحفظ أو حياء على شخصية السباعي، ولاسيما جريدة النور لسان الحزب الشيوعي وجريدة الرأي

العام لصاحبها أحمد عسه، وصحف البعث والحزب الوطني برئاسة صبري العسلي -لحدٍ ما- وكان الإخوان يتحفظون في ردودهم عِبر جريدة المنار، ومجلة الشهاب، ويتجنبون استعمال الألفاظ النابية، فاعترضنا على الموقف، واعترض كل الذين كانوا يعملون في إدارة هذا الصراع، وطلبنا من إدارة المعركة الانتخابية، ولاسيما من قيادة الإخوان أن يسمحوا لنا بالرد المناسب الذي يسكت سفاهاتهم، ويفند افتراءاتهم، وبعد تردد، أُذن لنا بالرد عملاً بقوله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا مَنْ ظُلم﴾[1] فأصدرنا ملحقاً يومياً لمجلة الشهاب الأسبوعية، كان كالغذاء لمراكز الإخوان في المدن السورية ليعيشوا أجواء المعركة، فكانت السيارات تحمله كل يوم إلى حمص وحماة وحلب واللاذقية والدير وغيرها.

حمي وطيس المعركة بشكل غير مسبوق، فإذا قالت جريدة النور: أنت كذاب يا سباعي، ردت الشهاب مباشرة: أنت خائن يا بكداش، وكان الملحق يسجل كل صباح نماذج من أضاليل حزب الحوراني وانحرافاته الموثقة تحت توقيع -حموي- ثم اتسعت دائرة المعركة حتى شملت لبنان والأردن، فكانت جموع الشباب تُهرع إلى دمشق لتأييد هذا المرشح أو ذاك، ونزل أعضاء المكتب الثاني -المخابرات العسكرية- الذي يشرف عليه عبد الحميد السراج إلى شوارع دمشق ليمزقوا بسياراتهم التي تحمل السلالم العالية والرافعات، اللافتات التي تناصر السباعي، كما زجوا بالسجن لبنانيين

(١) سورة النساء، جزء من الآية ١٤٨ .

وأردنيين يناصرون الشيخ السباعي رحمه الله.

٦- تبين لنا من هذه التجربة المريرة أن قادة الأحزاب التي وقفت بجانب السباعي ليست مؤهلة لمثل هذا الصراع، فالتجمع القومي الذي رشح المالكي كان يتهم السباعي بأنه مرشح مبدأ أيزنهاور، وأنه يؤيد النفوذ الأمريكي، وأنه مع التعاون مع عراق نوري السعيد، وذلك على عكس الواقع كما ظهر ذلك جلياً فيما بعد، فأحمد عسّه أشد المناوئين في جريدته (الرأي العام) قد فضحته محاكمات العراق فيما سمي بالمستمسكات، وذَكَرَتْ أرقام المبالغ التي كان يقبضها من نوري السعيد، وأحد أنصار الحوراني ومن أنسبائه من عائلة حموية معروفة، قبض مبلغاً من شركة التابلاين التي سمح حسني الزعيم لها بتمديد أنابيبها النفطية عبر لبنان وسورية للسكوت عليها وعدم الاعتراض على الامتياز الذي منحه لها حسني الزعيم في ظل حكمه الاستبدادي العسكري، وقد نشرت هذه المعلومة بجريدة يومية بتوقيع مواطن من قلعة المضيق، والحزب الوطني أعلن بتوقيع أمينه العام صبري العسلي في مؤتمر عقده الحزب في مدينة حمص عام ١٩٥١ أنه مستعد لتغيير المواد التي تنص على التمسك بالنظام الجمهوري، واستبدالها بمواد تنص على قبول النظام الملكي تمهيداً للاتحاد مع العراق، وعندما ذكرتُ للجنة القيادية هذه المعلومات، أبدى الجميع اندهاشهم، ولاسيما الشيخ الزرقا رحمه الله قائلاً: أهذا صحيح؟ إذن، فمن الذي يقف بجانب الاتحاد مع عراق نوري السعيد؟ ومن الذي يحمي مشروعات البترول الأمريكية؟

الخلاصة أن هؤلاء القادة هم علماء وفقهاء ومفكرون ودعاة، ولكنهم ليسوا سياسيين بما يتطلبه العمل السياسي، من مكتب سياسي، ومن لجان مختصة، ومن أرشيف يمدهم بالحقائق والوثائق في مثل هذه الصراعات الحادة والمصيرية.

لقد بلغت المعركة السياسية الانتخابية أوجها عندما نشرنا وثيقة خطيرة، كان الأستاذ سعيد التلاوي قد نشرها في جريدته الفيحاء منذ فترة بعيدة، بخط الحوراني، موجهة إلى الجنرال ويغاند قائد جيش الشرق -الفرنسي- في سورية ولبنان في مقر قيادته في بيروت، يقول فيها: إن المئة ليرة سورية التي تخصصونها لفرع الحزب السوري القومي في حماة -وكان الحوراني رئيساً له كما يذكر في مذكراته في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن الماضي- لم تعد كافية للوقوف في وجه الكتلة الغوغائية، ولخدمة الأمة الفرنسية النبيلة[1].

سلمت هذه الوثيقة التي احتفظت بها طويلاً إلى الأستاذ بشير العوف صاحب جريدة المنار الجديد، فنشرها في الصفحة الأولى من جريدته، فهزت الأرض من تحت أقدام الحوراني الذي لم تصادف الحركة الإسلامية في حياتها السياسية منذ ١٩٤٥ وحتى ١٩٦٣ أشد عداء لها منه بما في ذلك الشيوعيون والعلمانيون، فهُرع إلى القصر الجمهوري، وقابل رئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي قائلاً له بحضور عدد من كبار السياسيين المؤيدين للسباعي أو للمالكي

(١) كانت المئة ليرة في تلك الأيام تعدل أكثر من مئة ألف ليرة في قوتها الشرائية قياساً على ما نحن فيه الآن.

-وبحضور الشيخ السباعي-: هذا أسوأ ما رأيت في حياتي، وبعد يومين فقط، أعادت المنار نشر الوثيقة تحت عنوان: خذوها للمرة الثانية.

لم يكن من سياسة الإخوان اللجوء إلى مثل هذه الشدة في إعلامهم، ومع خصومهم، لولا أن اليسار من شيوعيين واشتراكيين تجاوزوا كل الحدود في عدائهم، وفي أقلامهم التي انحدرت إلى مستوى هابط وضيع، مما اضطر الجماعة أن تأخذ بالرأي القائل: لا يفل الحديد إلا الحديد.

٧- كنا نلتقي كل مساء في المركز الانتخابي بإشراف اللجنة العليا، نتابع أحداث المعركة الانتخابية، والتجاوزات التي لم تتوقف، وكانت التقارير تأتي تباعاً عن المطاردات التي تقوم بها مخابرات السراج لمؤيدي الشيخ السباعي، من تمزيق اللافتات والاعتقالات كما مر معنا قبل قليل، ثم جاءنا ما يشير إلى أن الشيخ أحمد كفتارو يشن حملات مبطنة على الشيخ في دروسه التي كان يلقيها في مسجد (يلبغا) وأن تأييده للمالكي بدا ظاهراً بأساليب متنوعة، منها: أن المالكي ومعه مجموعة من مؤيديه قام بزيارة للشيخ كفتارو في مسجده أثناء إلقائه درسه، فسلم على الشيخ وسأله: هل يجوز تكفير المسلم يا مولانا؟

فسأله كفتارو: من أنت؟ أنا لا أعرفك؟ قال: أنا رياض المالكي. فقال الشيخ: شقيق الشهيد عدنان المالكي؟ وشرع يثني على عدنان المالكي، ثم قال: يا بني، لقد كفروني قبل أن يكفروك. هكذا مرت

هذه المسرحية على هذا المنوال، ثم جاءنا خبر أن الشيخ كفتارو رغب إلى بكداش أن يزور المسجد، لكن هذا الأخير رفض هذا الأمر الذي يتعارض مع أفكاره التي تنص على محاربة الأديان، وعلى وجوب القضاء عليها، وفي ذات يوم ذهبت إلى درس الشيخ للاستماع إلى ما ينقل عنه من غمز ولمز ضد الشيخ السباعي، فرأيت وسمعت ما لم أكن أتوقعه، وكانت المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها كفتارو وأستمع إلى كلامه، ولم تكن الحالة التي رأيته عليها مرضية، فما تضمنه درسه من توجه لم نكن نرضاه، فقد غمز جانب الشيخ السباعي قائلاً: يأتون بدكتوراه في الإسلام من باريس. يقصد سفر الشيخ إلى أوربا في رحلته العلمية، والتي كانت فتحاً عظيماً للدعوة الإسلامية، وكفتارو لا يجهل أن شهادة السباعي من الأزهر الشريف، وأن رسالته أقوى ما صدر عن العلماء من دفاع عن السنة المطهرة، وأنها كانت موضع إعجاب من فطاحل علماء مصر، وأن الشيخ أحبط تدليسات المستشرقين ضد السنة النبوية ودورها ومكانتها في التشريع الإسلامي، لكن كفتارو أراد أن يوهم المصلين في انحيازه للمالكي أن الشيخ السباعي يحمل شهادة في الشريعة حصل عليها من باريس.

عدت إلى المركز الانتخابي، وقد تأكدت من هذه المواقف التي يُضلَّل بها المواطنون والعامة في أمور لا تمت إلى الحقيقة بصلة، بل إن وقائع الأحداث على عكسها، في كل ما يمت إلى الشيخ السباعي من صلة في دراسته ودعوته وجهاده ودفاعاته غير المسبوقة في عصره

عن الإسلام وعن دعوته وشريعته السمحاء.

وفي ضحى ذات يوم حضر اثنان من الشيوخ باللباس المألوف عن تلاميذ الشيخ كفتارو، فرحبت بهما واستمعت إلى ما يريدان، قال أحدهما الذي قدم نفسه باسم... الصباغ:

- لو ذهب بعض المسؤولين من المركز الانتخابي لمقابلة الشيخ -كفتارو- للتباحث معه حول الانتخابات والأوضاع الراهنة، قلت: سأنقل هذه الرغبة للقادة في المساء، ولما انعقد المجلس اليومي المعتاد عرضت الأمر على أعضاء اللجنة العليا، فأعرضوا عن الفكرة، وأجابوا بكلام اليائس من كفتارو، ومن مواقفه بعد المعلومات التي توافرت لديهم عن مواقفه، وعن نشاطاته لصالح المالكي ومن يسانده في جبهة اليسار.

٨- ومرت الأيام لنكتشف بعد ذلك أن الشيخ أحمد كفتارو -عفا الله عنا وعنه- قد عقد صفقة مع الحوراني، تم بموجبها تأييد كفتارو لرياض المالكي، لينال منصب مفتي الجمهورية السورية، قال الحوراني في مذكراته: كان الشيخ كفتارو يطمح إلى مركز الإفتاء، وكان يأمل أن يصل إلى هذا المركز، قمت بزيارته، وبحثنا معاً الوضع الانتخابي في دمشق، وضرورة تأييد المالكي ضد مرشح الإخوان المسلمين، فأبدى استعداده للمساهمة في المعركة، لأنه لم يكن على وفاق مع الإخوان، وقد بَرَّ الشيخ كفتارو بوعده[1].

---

(١) مذكرات أكرم الحوراني الجزء ٣: ٢٣١٢ طباعة مدبولي بالقاهرة.

أعلنت الحكومة المنحازة إلى المالكي نجاحه في الانتخابات بفارق ألفي صوت ونيّف فاجتمع الجمهور في المركز الانتخابي غاضبين محتجين على هذه النتيجة غير المتوقعة، فألقيت فيهم كلمة قلت فيها: لا تنزعجوا، فإن دمشق أعطت ثقتها للشيخ السباعي، غير أن التزوير كان كبيراً، فهذا الدفتر الأحمر -ورفعته بيدي اليمنى- يسجل مائة وست عشرة حادثة تزوير شاركت فيها جهات رسمية، كان المكتب الثاني على رأسها.

وفي أثناء عودتي إلى حماة في اليوم التالي، صادفت وجود ضابط كبير من مواطني حماة، كان محسوباً على الشيشكلي ثم على السراج -واسمه عدنان مراد- ودار الحديث بيننا حول العملية الانتخابية، وما شابها من تزوير مفضوح، وذكرت له أسماء عدد من الضباط جاؤوا إلى المراكز الانتخابية بثياب مدنية، وتدخلوا بشكل فظ لصالح المالكي.

وفي وقت لاحق بدأت تفصيلات التزوير تظهر على السطح، فالمقدم حيدر الكزبري - الذي كان أبرز ضباط الانفصال بمحاصرته منزل المشير عبد الحكيم عامر المسؤول عن الإقليم الشمالي -سورية- في ٢٨-٩-١٩٦١ واعتقاله له، غدر به زملاؤه الانفصاليون الذين أجروا اتصالات سرية مع جمال عبد الناصر، وقرروا التخلص منه بأسلوب الحيلة، إذ طلبوا منه إجراء حوار مع بعض المعتقلين في زنازينهم، وعندما دخل الزنزانة أغلقوا عليه الباب وسجنوه، تحدث الكزبري قائد قوات البادية سابقاً، فقال لمن كانوا معه في السجن،

وكان الـذي سمع منه ونـقل عنه مـسجوناً مـعه في الـسجن منذ تـموز ١٩٦٦ وحتى حزيـران عام ١٩٦٧ فقال: إن قواته -قـوات الحيدري- تدخـلت فـي تبـديل مـجـمـوعـة من صـناديـق الانتـخـابات لـصـالح المالكي[١].

على هذا المنوال جرت الانتخابات التكميلية في دمشق وفي بعض المحافظات عـام ١٩٥٧، إذ بلغ فيه اليسار ذروة صعـوده وانتصاراته، ليبدأ العد العكسي لهذا الصعود مع إعلان الوحدة بين مصر وسورية.

ثاني عشر: رحلة الشيخ إلى موسكو

في النصف الثاني من ١٩٥٧ سافر عمـداء كليات الجامعة السورية إلى مـوسكو بدعوة مـن جامعـتهـا، وكانت هذه الرحـلة تختـلف عن سابقتها في عام ١٩٥٦، التي جاء ذكرها تـفصيلاً في صفحات سابقة، وكانت كذلك صورة مغايرة لما كان عليه المؤتمر الإسلامي المسيحي الذي عقد في بحـمدون بلبنان في مراميه وأهدافـه، والذي كان يسعى لحـشد الشـعوب الإسـلاميـة للتـعاون مع الـغرب ضـد الشيـوعيـة في مواجهة الاتحاد السوفياتي.

١- السـوفيات يـودون إطلاع عمـداء كليـات جامعـة دمشـق على إنجـازات الاتحاد الـسوفـياتي فـي ظل الحكـم الشيـوعي من إنـصاف العمال والـحرفيين والفلاحـين، وتأمين العمل لكل مـواطن، كواجب علـى الدولـة التـي وضـعت يـدها عـلى الأرض والـمـصـانع ورؤوس

---

(١) السباعي لعدنان زرزور: ٣٤٢ .

الأموال، فأتيح للشيخ زيارة عدد كبير من الجامعات السوفياتية في مختلف الأقاليم، والتقى أساتذةَ الدراسات الشرقية والتاريخية والاجتماعية، وناقشهم في أقوالهم وآرائهم في الإسلام، كما ناقش غيرهم من الشخصيات السوفياتية، فكشف لهم أخطاءهم، ووضّح لهم رأيه صريحاً في موقفه من الشيوعية في البلاد العربية، كما شرح لهم مواقف الشيوعيين في بلادنا من القضايا الوطنية والاجتماعية، وفضح أخلاقهم وأساليبهم، وكان مما قاله للمسؤولين السوفيات: نحن حريصون على صداقتنا للاتحاد السوفياتي كل الحرص، ولكن هذا لن يمنعنا من محاربة الشيوعية في بلادنا، لأن الشيوعية تريد أن تحرمنا من أقوى أسلحة النصر الفعالة لمقاومة الاستعمار والمظالم الاجتماعية والسياسية، ألا وهي الإيمان بالله وحب الشهادة في سبيله، وشرح لهم فكرة الإسلام الثائر على كل باطل، وعلى كل ظلم واستعباد واستعمار وطغيان وفساد، كما بيّن لهم شناعة الجريمة التي يرتكبها الشيوعيون المحليون في بلادنا عندما يحاربون الإسلام، ووضعهم في موقفهم هذا جنباً إلى جنب مع الاستعمار والصهيونية وعملائهما[١].

كان الشيخ ينظر إلى ما وراء الظواهر التي تبدو لأول وهلة للناظرين، فكان يتعمق حياة المجتمع السوفياتي من جوانبه الثقافية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية، فعاد من هذه الرحلة وفي جعبته

---

(١) مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه، إعداد محمد مصطفى السباعي، الطبعة الأولى لدار الوراق عام ٢٠٠٠: ١٤٣ .

الكثير ممّا أحاط به من حياة المسلمين في آسيا الوسطى أو في الجمهوريات الإسلامية التي جعل منها الروس مقاطعات تتمتع بالحكم الذاتي، وتتبع كلياً سياسات السوفيات في موسكو.

٢- في مطلع خمسينيات القرن الماضي جمعتني ظروف العمل في التعليم مع الأستاذ ع. م رئيس الحزب الشيوعي في محافظة حماة، فأغرقني بالكتب والنشرات والمجلات والدوريات والمطبوعات الشيوعية، التي كان معظمها يصدر في بيروت، مثل مجلة الطريق الشهرية، ونشرة تاس الرسمية وغيرهما، وكنت أقرؤها باهتمام كبير، وأسجل الملحوظات على ما فيها من تناقض وإلحاد ومحاربة للأديان، وتضييق على الملتزمين بالمبادئ والتوجهات الإسلامية، ثم أضفت عليها ما اقتنيته من كتب شيوعية كانت الدار العربية في موسكو تنقلها إلى اللغة العربية، ويقوم الجناح السوفياتي بعرضها وبيعها في معرض دمشق الدولي في كل عام بأسعار زهيدة، فاجتمع لديّ مكتبة في الشيوعية، مثل تاريخ الحزب الشيوعي، والبيان الشيوعي، والقضايا الاقتصادية والدولة والثورة وغيرها كثير من تأليف ماركس وإنجلس ولينين وستالين، وبعض الكتاب العرب، مثل جورج حنا وخالد بكداش وقدري القلعجي -قبل تركه للشيوعية وفضحه مخازيها ومن يقف من المؤسسين اليهود وراءها في لبنان ومصر وغيرهما- وكان البيان الشيوعي الذي أصدره ماركس ورفيقه إنجلز في منتصف القرن التاسع عشر (والذي يعتبره الشيوعيون إنجيل الشيوعية) أول الكتب التي قرأتها، ثم قرأت جميع ما وصل إلى يدي

من الكتب الشيوعية، وأهمها وأخطرها كتاب الديالكتيك، -الجدلية- وبعض الدراسات عن رأس المال لماركس، وكتاب أنا عائد من موسكو لجورج حنا، والذي لفت نظري فيه كما يقول مؤلفه: لقد هجر الشيوعيون المساجد والكنائس، ولم يعد يؤمها إلا الطاعنون في السن، أما الشباب فكانوا يتعدون عنها خشية انتقام الدولة منهم، وحرمانها لهم من فرص العمل المناسبة، ويقول: كانت الكنائس تستقبل عدداً أكبر مما تستقبله المساجد لوجود الموسيقى في صلواتهم، ثم قرأت كتاب الحرية الدينية في الاتحاد السوفياتي الذي قام الجناح السوفياتي في معرض دمشق الدولي ببيعه، فرأيت المادة العاشرة من الدستور السوفياتي تنص على: «أن الدعوة إلى الدين محظورة، وأن الدعوة إلى اللا دين مباحة» فأية حرية هذه التي يبشرون بها وهم يثبتون بنص الدستور الحظر على أي دعوة للإيمان أو أي دين من الأديان!!

٣- قام الشيخ بعد عودته من موسكو بجولة على مراكز الجماعة كعادته بعد كل رحلة يقوم بها إلى خارج سورية، بدأها من مركز الإخوان في حلب الذي تتسع ساحته الواسعة لأعداد كبيرة من أعضاء الجماعة وأصدقائها والمؤيدين لها من العلماء ووجوه المجتمع.

سافرت من معرة النعمان التي كنت مديراً لإعداديتها، لأستمع إلى خطاب شيخنا الجليل، فرأيت المكان قد غص على سعته بالذين هُرعوا للاستماع إلى خطاب المراقب العام، فتحدث الشيخ كعادته حديثاً يأخذ بمجامع القلوب، ويقدم غذاء للأرواح والعقول، ثم عرّج

على أمور تخص الحياة في المجتمع السوفياتي، فكانت لي مفاجأة أو بالأحرى صدمة ما كنت متوقعاً لها، وبعيد انتهاء أستاذنا من حديثه دخلت غرفة الإدارة، وعرضت الأمر على أعضائها، فردّ عليّ بعضهم قائلين: هل أنت وحدك ترى ذلك وتفهمه؟ فغادرت المركز، وتوجهت للتو إلى باب الفرج حيث تنطلق سيارات الركاب إلى المدن السورية الأخرى، وسرعان ما كنت في الطريق إلى حماة، لأقدم لإدارة المركز مطالعتي عن الذي ورد على لسان شيخنا وقرة أعيننا أبي حسان من أفكار عن المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، ستكون حجة علينا أمام خصومنا الشيوعيين، لا نستطيع ردها، لأنها صدرت عن قائد الجماعة والرجل الأول فيها، ومما قاله الشيخ: الحرية الدينية مكفولة في الاتحاد السوفياتي، والشعب راض عن نظامه، والإنجازات لديهم عظيمة تدل على مقدار ما حققوه من تقدم كبير في مضمار الازدهار والنهوض، وذكر مترو موسكو نموذجاً على ذلك، فقررت إدارة المركز صرف النظر عن إقامة احتفال كبير في جامع السلطان كما هو شأنها عندما يزور الشيخ مدينة أبي الفداء، واكتفت بدعوة مجموعة من الأعضاء لا تزيد على عشرين عضواً ليستمعوا إلى حديث المراقب العام في جلسة أخوية تشبه حلقة الدرس التي يلقي فيها الموجه بحوثه، كان الشيخ رحمه الله حاد الذكاء، حاضر البديهة، لماحاً بشكل يلفت النظر، فاندهش مما رأى إذ لم يألف من إخوان حماة مثل هذا الموقف أو هذا التحفظ، لكنه ظل صامتاً، ثم دعي في أعقاب الحديث إلى تناول طعام العشاء الذي أعدته إدارة المركز له، وفي أثناء ذلك، سألت الشيخ: هل الحرية

الدينية مكفولة في الاتحاد السوفياتي، ودستورهم ينص على الحظر إلى الدعوة إلى الإيمان والأديان، وكتّابهم يسجلون تنفيذ هذه النصوص بصرامة وحظر شديدين، وهل الشعب راض عن نظامه، وأنّى لنا أن نحيط بهذا الأمر إذا كان الشعب كله يعيش خلف الستار الحديدي، وأن الابن يتجسس على إخوته وأبويه، وأن الأب يتجسس على بنيه وذويه؟ وأن الإنسان يؤخذ بالشبهة والوشاية إلى ساحة الموت؟ فمن الذي يجرؤ على الإعراب عن رأيه؟ وعن موقفه؟.

فأجاب الشيخ بشدة وحدة مُقرّعاً مدركاً أسباب ما واجهه من تحفظ وصرف النظر عن الاحتفال الكبير، فلذت بالصمت، وتشاغلت بازدراد الطعام، لكن أستاذنا لم يلبث بعد ثوان أن سكت عنه الغضب، فتحدث بروح أبوية هادئة، وأسلوب يفيض بالمودة وروح الأخوة قائلاً: سأوضح هذه الأمور بسلسلة من الأحاديث على صفحات المنار بأقرب الأوقات، فقرأنا له بعد أيام أعظم وأعمق ما خطه قلمه عن مثالب الشيوعية وعيوب النظام الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، ومما جاء في أحاديثه: رأيت جريمة العصر التي لا تشبهها جريمة بحق الشعوب الإسلامية في آسيا الوسطى -الجمهوريات الإسلامية- التابعة لموسكو، فالشعب يجهل تاريخه جهلاً مطبقاً، ولا يعلم - شيئاً عن آبائه وأجداده العظام الذين ملأوا صفحات التاريخ بعلومهم وإنجازاتهم في شتى العلوم والمعارف الإسلامية في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والآداب من أمثال الطبري والبخاري والترمذي والسرخسي ومسلم وكثير غيرهم، كما شاهدت المسلمين

يتسولون على أبواب المساجد في بخارى وطشقند وسمرقند، . . إلخ فسألت المرافقين: كيف يتسول هؤلاء وحق العمل وتأمين فرصه واجب على الدولة باعتبارها تملك الأرض والمصنع والمال المنقول وغير المنقول، فكانت الإجابة الفجّة أو الفظة: لأن هذا -أي التسول- من الحرية الدينية التي يمنحها أو يتيحها الاتحاد السوفياتي للمسلمين من رعاياه.

وهكذا استمر الشيخ في سلسلة مقالاته في فضح سياسات الشيوعيين في إذلال وتجهيل وسحق الشعوب الإسلامية التي تبلغ مساحة الأرض لسكانها خمسة ملايين كيلو متر في أوزباكستان وطاجيكستان وقازاكستان وتركمانستان وقرقيزيا وأذربيجان وغيرها، وسلخها عن ماضيها وتاريخها، وحرمان من يستعصي من المسلمين على الشيوعية من حق العمل، ودفعهم إلى التسول على أبواب المساجد التي لا يؤمها في ظل الحكم الشيوعي إلا الطاعنون في السن، لأن هذا التسول من مقتضيات أو مبادئ الحرية الدينية الخاصة بالمسلمين في ظل نظام الإلحاد الشيوعي!!

رحم الله الشيخ الكبير الدكتور مصطفى السباعي، فقد كان سريع الغضب، ولكنه كان إلى الرضا والصفح والتسامح أسرع، كان أواباً إلى الحق والخير، نزاعاً إلى كل ما يصلح شأن الناس جميعاً، ولاسيما الفقراء منهم والبائسون، وصدق الله العظيم: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾[1].

---

(١) سورة ص- جزء من الآية ٣٠ .

٤- في تزاحم الأحداث وسخونتها عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧ بعد حرب السويس والعدوان الثلاثي ومعارك القناة، وإنذارات الدولتين الكبيرتين: الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية، للإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين بوجوب الانسحاب من شطآن القناة ومن شبه جزيرة سيناء، والعودة إلى ما وراء خط الهدنة، وبعد الانتصار السياسي الذي أحرزته مصر على دول العدوان، وتصاعد خط اليسار كالذي مر معنا تفصيلاً، ولدى الاندفاع السريع باتجاه مصر لإقامة وحدة اندماجية بين مصر وسورية، وبعد تطويق الحركة الإسلامية في سورية، وحرمان أبنائها من حمل السلاح الذي وزعته قيادة الجيش الشعبي على المواطنين، استعداداً لمواجهة الدول الطامعة في أرض الوطن، وإثر نزول القوات الأمريكية في لبنان، والبريطانية في الأردن، إثر هذا كله وغيره من الأحداث الجسام، وجه المراقب العام الشيخ السباعي دعوة إلى ممثلي مراكز الجماعة ليلتقيهم في مدينة حلب، باجتماع طارئ في النصف الثاني من عام ١٩٥٧ للنظر في الأمور الخطيرة التي يمر بها الوطن العربي، ولاسيما في بلاد الشام، فحضر عن كل مركز مندوبان، كنت أحدهما عن مركز حماة ذات الثقل الإخواني الكبير مع الأخ الداعية مصطفى الصيرفي أمد الله في عمره، فرأينا شيخنا يغلي كالمرجل، جراء موقف إخوان الأردن من الأحداث التي شهدها وطنهم، وأن سكوتهم وموافقتهم الضمنية على نزول القوات البريطانية في أرض المملكة الأردنية الهاشمية يمس ثوابت الإخوان وتاريخهم ومواقفهم الوطنية ضد الاستعمارَين: الفرنسي والبريطاني.

استمر النقاش على مدى يومين، كان الشيخ خلالهما غاضباً ومكتئباً، وكأن قلبه يحترق على ما أصاب الجماعة من شبهة في سياستهم المرفوضة في نظره، وفي نظر معظم ممثلي مراكز الإخوان المسلمين في سورية.

كانت بعض المراكز تتناول موضوع نزول القوات البريطانية في الأردن والأمريكية في لبنان بهدوء وبرود، وتلتمس في ذلك بعض العذر، وكان ممثلو اللاذقية ودمشق على هذه الشاكلة، أما المراكز الأخرى فكان موقفها شديداً وحاداً وشبيهاً بما كان عليه الشيخ من غضبة وإنكار، وكان مما قاله الفقير إلى عفو ربه عن مركز مدينة حماة: إن جماعة الإخوان المسلمين في سورية وفي الأقطار الأخرى جماعة وطنية تقاوم الأجنبي، وترفض أي وجود أو نفوذ له على الأرض العربية، فهي جماعة وطنية نقية ذات تاريخ كفاحي مشرف، سَجّلتْ بطولات في كل أرض عربية حاول العدو أن يوجد له موطئ قدم فيها، هكذا كان شأنها في مصر وسورية وفلسطين وغيرها، وهي جماعة جهادية تقاتل المعتدين والمحتلين والظالمين، أما اليوم فإنها ولأول مرة في تاريخ الجماعة تُعرّض نفسها في سياستها للشبهات والمواقف المحرجة، لاقت هذه الكلمات ارتياحاً لدى شيخنا المجاهد، فعقب على ذلك بقوله: هكذا يفكر الذين هم في صراع مع خصوم الدعوة كالذي يواجهه الإخوان في حماة في تصديهم للحوراني ولأفكاره المناوئة للدعوة الإسلامية.

وبعد الانتهاء من بحث موضوع القوات الأجنبية واتخاذ قرار

بإرسال مبعوث أو أكثر للاتصال بقيادة الإخوان في الأردن، ودراسة الموضوع، للخروج من الأزمة واتخاذ المواقف الدعوية والوطنية المناسبة، عرض الشيخ على الإخوان أن يفرغوا له عشرة من الدعاة والمؤهلين للعمل التنظيمي، واثقاً بأن الجماعة إذا وجدت من ينصرف إلى العمل في شؤونها وتنفيذ سياساتها، فسوف تحقق الجماعة نصراً مبيناً في سورية، وقال: في عشر سنين طالبوني بما أعد به أن يكون الحكم في الجمهورية السورية إسلامياً.

رشح إخوان حلب الأخ ع.ا الذي كان يتقاضى راتباً مقداره ٤٠٠ ل.س فإذا بالأخ ع. ع يقول: لا تنسوا أن الأخ يحصّل ٣٠٠ ل.س من العمل الإضافي!! فصدم الشيخ من هذا الحرص ومن هذه الحسابات، فصمت، ولم يعد يتحدث بالموضوع، واكتفى الشيخ بالبحث عن أخ يشغل معه منصب الأمين العام، ويكون له الساعد الأيمن في قيادة الجماعة، فانتحى بي في غرفة مجاورة، وقال: أمستعد أنت للتفرغ لهذا الأمر؟ فقلت: يا سيدي، لدي ثلاث مشكلات إذا كان حلها ممكناً، فأنا في تصرف الجماعة وخدمتها.

الأولى: أنني لست متزوجاً، ولا أزال عزباً.

والثانية: أنني وقعت لوزارة التربية تعهداً بالعمل في مدارسها ثلاثة أضعاف سنوات الإيفاد لجامعة القاهرة، أي اثنتي عشرة سنة.

والثالثة: أن المعركة الفكرية والسياسية على أشدها بين الإخوان وحزب الحوراني الذي يعادي الإخوان بشراسة وأساليب وضيعة، فإذا ما حلت هذه المشكلات، فلتضعني الجماعة حيث شاءت، وإنني

تحت تصرف فضيلة المراقب العام وإخوانه في قيادة الجماعة، بالإضافة إلى أنني أرى نفسي دون هذه المهمة وهذه المسؤولية الكبيرة.

فسكت الشيخ رحمه الله، ولم يعقب على ما سمع، وطُوي الموضوع.

رحم الله أبا حسان، فإنه كان كالشمعة يذوب ويحترق غيرةً وحماسة على دعوة الله وعلى رسالة الإسلام وجماعة الإخوان المسلمين.

ثالث عشر: الإخوان والحركة العمالية

أحرز الإخوان في الحقل الثقافي والتربوي نجاحاً باهراً فانتشرت دعوتهم في أوساط الطلاب والمعلمين والمثقفين والنقابات العلمية من أطباء ومهندسين وصيادلة.. إلخ انتشاراً واسعاً، لم تستطع أي حركة سياسية أن تنافسهم فيه، أو تتقدم عليهم، فكانت قوائمهم في انتخابات الطلاب الثانويين والجامعيين تحقق نجاحاً كاسحاً، وكانت نقابة المعلمين في سورية قد أسلمت قيادتها للإخوان، فكان نقيب المعلمين وعدد من أعضاء النقابة من الشخصيات الإسلامية مثل الأستاذ الشلاح والأستاذ عمر عودة الخطيب وغيرهما، لكن الجماعة لم تستطع أن تحقق مثل هذا النجاح في أوساط العمال والحركات النسائية والحياة العسكرية والأمنية.

١- صمم الإخوان على نشر دعوتهم في الوسط العمالي، وإقناع

جماهير العمال بالمبادئ الإسلامية المنقذة لهم من الظلم والاستغلال، فشحذوا عزيمتهم، وبذلوا نشاطاً كبيراً لجذب النقابات العمالية إلى صفوف الجماعة، فنجحوا في السيطرة على عدد من النقابات الحرفية في العاصمة، وفي عدد من المدن السورية في حلب وحماة وغيرهما، أما عمال المصانع، أو من يطلق عليهم الشيوعيون البروليتاريا أو العمال الثوريين، فقد كان اليسار يعوّل عليهم أملاً كبيراً حسب نظريتهم الشيوعية وأيديولوجيتهم الماركسية، فكان للشيوعيين والاشتراكيين نشاط كبير، ونجاح نسبي تقدموا فيه على حركة الإخوان المسلمين، فقررت الجماعة في منتصف عام ١٩٥٦ أن تستنفر قواها، وتعبئ قدراتها وطاقاتها في حشد العمال وتثقيفهم بالمبادئ الإسلامية التي تكفل حقوقهم وتحميهم من استغلال الأحزاب والمتاجرين بحقوق العمال.

قررت قيادة الجماعة إقامة مؤتمر عمالي على مستوى القطر، وتوجيه الدعوة إلى صفوف العمال كافة في كل المدن السورية، ليستمعوا إلى صوت الإسلام، وإلى أحكامه التي تنصف الناس جميعاً بالعدالة المطلقة والمساواة التامة، التي لا تميز بين الناس على أساس العنصر أو المذهب أو الإقليم أو الحزب.

٢- ففي صباح يوم الجمعة ١٢ ذي الحجة ١٣٧٥ الموافق ٣٠ تموز ١٩٥٦ عقد مندوبو لجان العمال من مراكز الإخوان المسلمين اجتماعاً مع أعضاء قسم العمال في المكتب التنفيذي، وجرى انتخاب بالاقتراع السري لمكتب المؤتمر، ففاز السادة: أحمد كرزون رئيساً،

وعبد القدوس أبو صالح نائباً للرئيس، والمهندس عبد الحميد عرابي أمين سر أول، وعبد الجليل شيخ زين أمين سر ثان، وغالب كعدان محاسباً.

حضر الحفلة الافتتاحية جمهور غفير من العمال والزراع وأرباب المهن الحرة، حتى غص بهم المكان على سعته في مركز حلب، فامتلأت الأسطح والشوارع الفرعية كما تشير الصور التي التقطت في حفل الافتتاح، فأعلن أمين سر المؤتمر عريف الحفلة الأخ عبد الحميد عرابي البدء بآيات مباركات من القرآن الكريم، أعقبه رئيس المؤتمر بكلمة شرح فيها أهداف المؤتمر، مشيراً إلى ضعف الأكثرية العمالية واستغلالها من قبل الأحزاب والدعوات الهدامة، ثم ذكر واجب الإخوان المسلمين في تفهيم العمال مبادئ الإسلام العظيمة التي تقدم الحلول لمشكلاتهم، وقال: إن من أهداف هذا المؤتمر دراسة الوسائل العملية التي يمكن أن يدعو الإخوان -بموجبها- العمال إلى تفهم الإسلام وتوحيد جهود الجماعة وأنصار الدعوة الإسلامية في سبيل ذلك، ثم إبداء أحكام الإسلام في مشكلات العمال المعاصرة، وقال متحدث آخر: لا نحب أيها الإخوة أن يعيش الإسلام هامشياً بالنسبة للحركة العمالية، فنحن عازمون على ترشيد الجماهير العمالية إلى أنه لا حياة ولا كرامة ولا حرية إلا في ظل الإسلام، ونود أن نؤكد أن هذا المؤتمر هو اللبنة الأولى في كل البلاد العربية، وهو الخطوة الأولى -الرائدة- نحو تأسيس مجتمع عمالي مسلم.

ثم تتالى على المنبر مندوبو المراكز العماليون، فقال مندوب مركز حماة: إن آلاف العمال تتطلع إلى هذا المؤتمر كخطوة مباركة لانتشال العمال من الاستغلال الحزبي، ثم تكلم مندوب الإخوان في حمص عن حالة العمال في بلادنا، وقال: إن البرامج والمناهج العملية التي يرسمها الإسلام هي أجدى الطرق لخيرهم.

وقال مندوب مركز دمشق: لقد فشلت كل المدارس الفكرية والدعوات الحزبية في حل قضايا العمال، ووضع الحلول العادلة والمنصفة بين العمال وأرباب العمل، كيلا يقوم العداء بينهما، وأشار مندوب مركز دير الزور إلى أن حركة العمال الإخوانية استطاعت على حداثة عهدها أن تسيطر على سبع نقابات في دير الزور، وقال مندوب مركز اللاذقية: إن غايات المؤتمر تتلخص في كلمة واحدة، هي قطع الشِباك الحزبية المنصوبة لاستغلال العمال، والعمل على نفع العامل وصاحب العمل وخيرهما.

في مساء اليوم نفسه كان مركز الإخوان يعج بالمدعوين من العمال على مختلف مهنهم، مع طائفة كبيرة من الزراع وأرباب المهن الحرة، وعدد كبير من رجالات القانون والصحافة، وبعد الاستماع إلى آي الذكر الحكيم، وقف العامل المزارع السيد عبد الله الخطيب ليعلن أن العمال المزارعين الذين يشكلون أكثرية ساحقة من أبناء الشعب قد هضمت حقوقهم، وبيّن أن الأحزاب الهدامة في البلاد كانت تجود عليهم بالدعوة الكاذبة حتى تجعل منهم سلماً إلى تحقيق مآربها البعيدة عن المصلحة العامة، ثم قال: أيها المسؤولون، إني أطلب

إليكم في هذا المؤتمر، وقد اجتمعتم لتحقيق حقوق العامل، أن تلحظوا وضع العامل الزراعي، وأن توصلوا صوته إلى المسؤولين في الحكومة، خاصة ونحن أمام وزير العدل الذي هللت له قلوب الفلاحين، مستبشرة باستلامه هذا المنصب الخطير، راجين من الله أن ينال العامل في عهده قسطه من العدالة الاجتماعية والمساواة التي نادى بها الإسلام.

وفي جو حماسي رائع، وفي موجة من الهتاف الذي يتصاعد من حناجر العمال الذين يطالبون بعدالة الإسلام، ألقى وزير العدل الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله كلمة قيمة تحدث فيها عن طريقة الإسلام العملية في حفظ حقوق العمال جاء فيها:

٣- قال معالي الوزير الشيخ مصطفى الزرقا في المؤتمر العمالي الأول للإخوان المسلمين: لعل هذا أول مؤتمر من نوعه ينبعث من فكرة تريد لهذا المجتمع أن ينمو فيه الخير نمواً تلقائياً من نفسه ومن جذره ومن عقيدته التي هي الإسلام، لقد ساد في المجتمع العربي -أيها المسلمون- حالة خاصة تعلمونها، وقد قاسيتم وما زلتم تقاسون آلامها وأحزانها وأهوالها، هذه الحالة التي سببها قوم يريدون أن يأتوا بالإصلاحات والمقررات من بلاد الغرب، لأنهم نسوا ما في دينهم من خير عميم وقوة دافعة لا تنفد، وأنه من العار علينا أن نستورد النظم والأوضاع والقوانين، ناسين أن في نظامنا الإسلامي ما هو خير لنا وأبقى، إن في الإسلام علاجاً لكل داء، وإجابة لكل مطالب الحياة الصالحة بمُثلها ووسائلها الروحية والمادية، خذوا بعض الأمثلة التي

تستدلون فيها على حفظ الإسلام لحق العامل خاصة، ولحق الإنسان عامة، فقد رفع -الإسلام- العبيد إلى مصاف الأخوة في وقت كانت نظم الأمم جمعاء، لا تسأل السيد إذا آذى عبده أو قتله، فقد قال رسول الله ﷺ إخوانكم خولكم[1]، و الإسلام قد أقام نظام الزكاة ضماناً كافياً للطبقة العاملة، بل لكل محتاج وفقير، وقد جعلها حقاً واجباً لا منة ولا أذى، دون أن يكون لمستحقيها شركة أو مساهمة في تنمية هذا المال الذي تؤخذ زكاته لتؤمن التوازن الاقتصادي، وتعين على إقامة العدالة الاجتماعية بين الناس. إن الإسلام يجعل للجماعة حقاً في مال الفرد الغني، والإسلام يمنع الاحتكار، فإذا احتكر الإنسان شيئاً اشتراه بماله الخاص حتى إذا قلّ من الأسواق، واحتاجت إليه الجماعة، يؤخذ منه ما احتكر ليباع بالسعر المعتدل الذي يسد حاجة الناس.

إن مبادئ الإسلام لا تبيح أن يكون في المجتمع الإسلامي طبقة أقلية تستثمر جهود الآخرين، لكي تعيش على البذخ، وتتحكم بغيرها، فتجعلهم يتمنون الموت على الحياة لضيق يدهم، الإسلام لا يقبل هذا، لأنه يريد مجتمعاً متماسكاً، ولأن المجتمع الذي يقوم على أساس ظلم الطبقات مجتمع مهدد بالانهيار.

إذا أردنا أن نطالب بحقوق العمال والفلاحين، فإن من واجبنا أن لا نطالب بها على أساس إثارة حرب طبقية تجعل أفراد الأمة أعداء

---

(١) جزء من حديث طويل، أخرجه البخاري رقم (٣٠) ومسلم رقم ١٦٦١ وأبو داود رقم ٥١٥٩ .

متناحرين، إنما علينا أن نُفهم كل فئة ما لها من حقوق، وما عليها من واجبات، ونقنعها بأن الإسلام هو الذي حدد لها ذلك حتى تُقبل عليه راضية مطمئنة، فإذا جئت إلى أرباب العمل، وقلت لهم: يجب أن تنصاعوا إلى أوامر الإسلام، الذي يقضي بأن تعطوا العامل ما يكفيه هو وزوجته وأطفاله لغذائهم وسكناهم وحاجاتهم الصحية، وسائر ما يؤمن لهم الحياة الكريمة، وأن يكون أجرهم مقدراً بحسب حاجياتهم وجهودهم، وبهذا يأمركم دينكم، فإنهم يطأطئون رؤوسهم لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا إنهم غير مسلمين، بل يقومون في الغالب بكل رضى بواجبهم، طامعين في ثواب الله، وخائفين من عقابه، فالحجة عن طريق الإسلام أقوى وأوضح، لأنها تجعل الإنسان يأخذ ماله دون طمع أو تجاوز، ويؤدي واجباته دون تكاسل أو تباغض، وأرجو الله أن يجعل مثل هذا الاجتماع مباركاً ميموناً، فهو أول مؤتمر من نوعه يعالج أدواءنا بالإسلام نفسه، وأحب قبل أن أغادر هذا المكان أن أشير إلى أن المجلس النيابي سيبحث مشروعاً للإصلاح الزراعي، يصون فيه حقوق العمال الزراعيين، والمشروع قيد الدراسة في لجنة القوانين العامة(١).

٤- اتخذ المؤتمر مقررات واضحة وحاسمة في إنصاف العمال والفلاحين، والدفاع عنهم، وتأمين حقوقهم، نوجزها فيما يلي:

أ- تدارس المجتمعون ما عرضته اللجنة القانونية من مقترحات

---

(١) أنى يكون لهم ذلك وسيوف العسكريين مشرعة فوق رقاب السياسيين والمصلحين والبرلمانيين؟!

حول التشريع العمالي، ومدى ملاءمته لعدالة الإسلام الاجتماعية فقرر ما يلي:

- يعلن المؤتمر تبنيه لكل تشريع ينظم حقوق العمال، وينقذهم من أضرار البطالة والاستغلال، ويضمن لهم الحياة الكريمة في حالات المرض والعجز والشيخوخة، بما يتفق وعدالة الإسلام الاجتماعية.

- تستمر اللجنة المكلفة بدراسة قانون العمل على ضوء الإسلام بمتابعة أبحاثها، مستعينة بكبار رجال الفقه والقانون في العالم الإسلامي، لرفع الحيف عن العمال.

- يطالب المؤتمر الحكومة أن تراقب أرباب العمل والمؤسسات العامة من التهرب من التزاماتهم تجاه العمال، وأن تعمل على حماية العمال من التضييق عليهم في التمتع بحقوقهم.

- يهيب المؤتمر بأرباب العمل أن يسلكوا أيسر السبل مع عمالهم، لإعطائهم الحد الأدنى للأجور، كما يهيب بالمراجع المسؤولة أن تحرص على تنفيذ قراراتها بدقة وحزم.

- المطالبة بدعم أجهزة الدولة المشرفة على شؤون العمال، وتزويدها بالخبراء القادرين على حل المشاكل العمالية حلاً عادلاً، ومحاربة البطالة، وتشغيل الأيدي العاملة.

ب- قررت اللجنة التنظيمية ما يلي:

- يحث المؤتمر العمال جميعاً على ضرورة الالتحاق بالنقابات،

وتشجيعها ودعمها، لتتمكن من أداء رسالتها.

- رأى المؤتمر ضرورة الاهتمام بتعليم العامل ومحو الأمية من صفوف العمال، ومطالبة الحكومة بالإشراف على تعليم الأميين، باستخدام المدارس الحكومية ليلاً لتدريسهم، وعلى مراكز الإخوان المسلمين أن تشرع فوراً بفتح المدارس الليلية لمحو الأمية في صفوف الإخوان وغيرهم.

- لما كانت القضايا العمالية من القضايا المهمة، فإن المؤتمر يطالب بإحداث وزارة للعمل والشؤون الاجتماعية بالسرعة الممكنة.

- يطالب المؤتمر الحكومة بمنع استيراد الأصناف والمنتجات التي يمكن أن تنتج مثلها البلاد السورية لحماية الصناعات الوطنية.

- يطالب المؤتمر بتشجيع التبادل الاقتصادي بين سورية وباقي البلاد العربية والإسلامية، والسعي لإزالة الحواجز الجمركية بين هذه البلدان كمرحلة أولى عملية، لتحقيق الوحدة (الاقتصادية) المنشودة، وكعامل رئيسي في مكافحة البطالة بين العمال.

- يرى المؤتمر الحد من استيراد الكماليات التي تكون سبباً في انتقال أموال الأمة إلى أيدي الأجانب.

- يدعو المؤتمر الحكومة بإلحاح إلى إقامة مساكن شعبية للعمال على نمط المساكن الشعبية التي تقام للموظفين، على أن يكون تسديد ثمنها على أقساط تتناسب مع دخل العامل.

- يرى المؤتمر أن الأجدر بالرعاية الصحية هم العمال

الكادحون، فلذا يطالب الحكومة بالعناية بصحة العامل، بتغذية الصيدليات العمالية، وتوزيع البطاقات الصحية المجانية لهم، وزيادة عدد الأسرّة المخصصة لهم في المستشفيات.

- يطالب المؤتمر بسن قانون حماية الفلاح، لحفظ حقوقه من ظلم المستبدين، ونفوذ الجشعين من الملاكين، كما يطالب بتنفيذ ما تعهد به الدستور من توزيع أملاك الدولة على فقراء الفلاحين[1].

لقد كان المؤتمر العماليُّ الأول الذي أقامته قيادة الإخوان المسلمين في حلب، وحضره مندوبون عن العمال من جميع المحافظات السورية، وشارك فيه كل صنوف العمال الحرفيين والزراعيين وعمال المصانع الكبيرة، وشهدته ثلة من كبار الشخصيات السورية من محامين وعلماء وشيوخ كبار إلخ.. كان فتحاً عظيماً في الحقل العمالي والاجتماعي ولو قدّر له أن يستمر لسجلت جماعة الإخوان قفزة نوعية في هذا المضمار، ولحققت انتشاراً واسعاً ونصراً مؤزراً في الوسط العمالي، لا يقل عن مثيله في الوسط الطلابي والثقافي، لولا أن الأحداث تتالت بسرعة مذهلة، انتهت إلى قيام وحدة بين القطرين الشقيقين سورية ومصر، ليتغير كل شيء في حياة سورية، وفي تركيبها السياسي والاجتماعي، وفي مستقبلها وتاريخها الحديث.

---

(١) جريدة الشهاب العددان ٦٤، ٦٥ في ٢٠-٧-١٩٥٦ و٢٧-٧-١٩٥٦.

رابع عشر: الاشتراكية وموقف الإخوان منها

لم تكن كلمة -اشتراكية- في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي تثير من الحساسية وردود الفعل ما أثارته في الخمسينيات والسنوات التي تلت من القرن العشرين، إذ لم تكن الشيوعية قد انتشرت واستفحل أمرها، وأضحت الاشتراكية إحدى مفرداتها وأدبياتها.

كانت الاشتراكية كلمة محببة إلى المثقفين والعامة جميعاً، فأمير الشعراء أحمد شوقي امتدحها، ونسب توجهاتها إلى سيد الخلق محمد ﷺ فقال:

الاشتراكيون أنت إمامهم   لولا دعاوى الناس والغلواء

فكانت الدعاوى والغلو قد بدأت تظهر بعض الشيء في التفسير الاشتراكي، فحذر الشاعر من أن تمس المعاني السامية في الاشتراكية، وقد ساد هذا الرأي لدى عدد من العاملين الدعاة أن الإسلام يتضمن توجهات اشتراكية، فقد صرح الداعية الكبير والعالم الجليل الشيخ محمد رشيد رضا بأن الاشتراكية الحقة ليست موجودة إلا في الإسلام، وقال محمد حسين هيكل: اعتبروا التعاليم الإسلامية الاجتماعية في الإسلام بأنها الاشتراكية، ويعتبر كتاب سيد قطب -العدالة الاجتماعية في الإسلام- الذي صدر في عام ١٩٤٥ أو ربما عام ١٩٤٩ من مؤشرات ذلك[١].

وفي خريف ١٩٤٧ طالب محمد المبارك في البرلمان بسياسة

---

(١) الحركات الإسلامية في سورية لمؤلفه يوهانس: ٣٤٠ .

مبنية على أسس اشتراكية، وهي المرة الأولى التي يعلن فيها الإخوان المسلمون في سورية عن مطالبهم الاجتماعية السياسية باستعمال كلمة اشتراكية[1].

١- جهر الشيخ السباعي بالدعوة الصريحة إلى اشتراكية الإسلام في محاضرة ألقاها في جامعة لندن في ٢٥-٧-١٩٥٦ بدعوة من رابطة الطلاب العرب والجمعية العربية في جامعة لندن حضرها لفيف كبير من العلماء والطلاب ورجال السلك الدبلوماسي العربي، كان في مقدمتهم الدكتور نجيب الأرمنازي السفير السوري في لندن، جاء فيها: في هذا الوقت الذي تضطرب فيه النظم الاجتماعية، وتتصارع في مختلف أنحاء العالم، والذي ينهض فيه العالم الإسلامي من رقاد عميق استمر بضعة قرون، يظن جمهور الغربيين، ومن تأثر بثقافتهم وأفكارهم من المسلمين والشرقيين، أن الإسلام يقف بمنأى عن هذا الصراع، وأنه قد استنفد أغراضه، وليس له من المفاهيم ما يستطيع معها أن يقدم شيئاً جديداً لهذا العالم الحائر، بل يذهب أكثر الغربيين إلى أن الإسلام دين لا يصلح للحضارة، ولا يرفع من مستوى الشعوب، ولا ييسر لمعتنقيه وسائل الحياة المادية الكريمة، بدليل ما يشاهدونه عليها من فقر وجهل وتأخر، وأنا هنا لست في موقف المتحدث عن الإسلام بشكل عام، وعن أنظمته وآرائه وفلسفته وأثره في التاريخ وخدمته للحضارة، كما أني لست في صدد البحث عن أسباب تأخر العالم الإسلامي، والعوامل المختلفة التي أدت إلى

---

(١) المرجع السابق: ٣٤٢ .

ذلك، ولكني سأحاول أن أتحدث عن ناحية واحدة من نواحي التنظيم الإسلامي لشؤون الحياة، وعن خطة الإسلام في رفع مستوى الشعوب، ومكافحة عوامل البؤس والشقاء فيها، وقد أسميت ذلك: باشتراكية الإسلام، لأن للإسلام اتجاهاً اشتراكياً، وقد صغت من هذا الاتجاه النظرية التي سأعرضها عليكم، وليس لي فيه إلا التنظيم وأسلوب العرض، وأنا اعترف بأن الإسلام يختلف عن الاشتراكية في مذاهبها المتعددة بعض الاختلاف، ومن هنا لم يسمح بعض الباحثين حديثاً من العلماء والمفكرين أن يوصف الإسلام بالاشتراكية، خوفاً من أنت تلصق به بعض مآخذ الاشتراكية الشائعة وعيوبها، ولست أرى هذا الرأي، فاتجاه الإسلام الاشتراكي واضح لا ينكره أحد، واستقلال هذا الاتجاه في خطوطه الرئيسية عن أي اتجاه اشتراكي آخر، واضح أيضاً لا ينكره أحد، وحسبنا أن يعلم المسلمون ومن تهمهم معرفة هذا الاتجاه من غيرهم، أن للإسلام أسلوبه الاشتراكي الخاص، ونظرته الشاملة العميقة الدقيقة في توفير الكرامة والرفاهية للشعوب والجماهير في كل عصر وفي كل بيئة، إنه يستطيع أن يقدم للإنسانية في عصرنا الحاضر ما يخفف عنها أوزارها، ويريحها من آلامها، ويهيئ لها الطمأنينة النفسية والتقدم الحضاري والعدالة الاجتماعية التي تنصف كل فئات المجتمع وعناصره، وقال الشيخ في محاضرته: من خصائص اشتراكية الإسلام.

أولاً: شمولها، فهي تتوخى إصلاح المجتمع في كل نواحيه، لا من ناحيته الاقتصادية فحسب، لأن الإسلام يذهب إلى أن المجتمع وحدة لا تتجزأ، فكل ضعف في ناحية منه يؤدي إلى الضعف في

النواحي الأخرى، ولذلك تعمل اشتراكية الإسلام على إيجاد مجتمع قوي في أخلاقه وسلوكه واقتصاده وعلمه وعقله وأسرته وحكومته، والتماسك الذي يبدو في مبادئ هذه الاشتراكية تماسك عجيب، يجعلها منفردة عن غيرها من المذاهب الاشتراكية الحديثة.

ثانياً: ذاتيتها، فهي تضع القوانين، وتعتمد في تنفيذها على يقظة الروح وشعور الضمير بالواجب، ثم تكل أمر حمايتها من العبث إلى الدولة، ومعنى ذلك أن اشتراكية المسلم نابعة من ضميره وعقيدته، وأن لمبادئها قدسية العقيدة وفعل الإيمان العميق في نفسه وشعوره، فهي لا تُفرض على المسلم بقوة الدولة، بل بقوة الإيمان، وإنما مهمة الدولة حمايتها من تلاعب العابثين.

ثالثاً: مرونتها، فهي تضع الخطوط العامة التي لا يجوز تجاوزها، ثم تعالج مشاكل كل عصر بما يتفق وهذه الخطوط بروح عملية واقعية، وبذلك استطاعت اشتراكية الإسلام في الماضي (في عصور الرسالة والخلافة) أن تحل مشاكل وقتها، كما تستطيع أن تحل مشاكل عصرنا الحاضر، بأسلوب واقعي يحقق أهداف هذه الاشتراكية ورسالتها الخالدة، ثم قال الشيخ: وعلى ضوء هذه الخصائص تتكون اشتراكية الإسلام من:

أ- حقوق طبيعية -أساسية- لكل مواطن.

ب- قوانين الكسب والعمل.

ج- قوانين التكافل الاجتماعي التي تفرض اشتراكية الإسلام

توفيرها لكل إنسان يعيش في الدولة الإسلامية، بغض النظر عن عقيدته ولغته وجنسه وعرقه.

وبهذه المفاهيم وهذا الشمول، تؤكد اشتراكية الإسلام على الحقوق الأساسية مثل: حق الحياة -فهو حق طبيعي- لكل إنسان، فلا يستطيع الفرد نفسه انتزاع حياته أو الإضرار بها ﴿مَنْ قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾[1]، وحق الحرية، فالحرية في العقيدة ﴿لا إكراه في الدين﴾[2] وحرية الشعب في اختيار حاكمه ونظام حكمه ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[3] وحرية الشعب في النقد الاجتماعي «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه»[4] وهذه الحرية محدودة -مقيدة- بمصلحة الجماعة ونظامها العام، وما عدا ذلك فالناس أحرار متساوون في حريتهم، ومن هنا قول الخليفة الثاني «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» وحق العلم وهو حق لكل إنسان، وفي هذا الحق جاء الحديث الشريف: «ما بال قوم لا يعلمون جيرانهم، ولا يفقهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون منهم، أما والذي نفسي بيده، ليعلمن قوم جيرانهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، أو

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٢ .

(٢) سورة البقرة، جزء من الآية ٢٩ .

(٣) سورة الشورى جزء من الآية ٣٨ .

(٤) أخرجه مسلم رقم ٤٩ وأبو داود ١١٤٠ والترمذي ٢١٧٣ والنسائي ٨/ ١١١ .

لأعاجلنهم العقوبة»[1] وحق العمل، فالإنسان مخلوق ذو مواهب يستطيع أن يعمل ليستفيد من ثروات الأرض، ويفيد المجتمع بجهوده ومواهبه ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾(٢) وحق الكرامة، كرامة الإنسان في عرضه، وكرامته في مكانته الاجتماعية ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾[3] فإنها تعطي الكرامة للإنسان بوصفه إنساناً بغض النظر عن أي اعتبار آخر.

هذه هي الحقوق الطبيعية الأساسية التي تدور عليها قوانين اشتراكية الإسلام، ومن هنا قال الفقهاء: إن التشريع الإسلامي يدور حول تحقيق الضرورات الخمس الآتية وما يتعلق بها وهي: حفظ الدِّين والنفس والعقل والنسل والمال، وهذا ما عبرنا عنه بحق الحياة والعمل والكرامة، وبذلك تهدف اشتراكية الإسلام إلى محاربة خمس رذائل رئيسية في الحياة وهي: الفقر والجهل والمرض والخوف والمهانة، وتكون اشتراكية الإسلام قد عملت على محاربة رذيلتين أغفلتهما الاشتراكية الحديثة، وهما: الخوف والمهانة، فإن محاربة الفقر والجهل والمرض وحدها لا تجعل المجتمع ولا الفرد سعيداً حتى يوفر له الأمن والكرامة أيضاً، وهذا ما يوجب أو يفرض قوانين التكافل الاجتماعي لفئات في المجتمع لا تستطيع الكسب ولا العمل،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ينظر مجمع الزوائد ١/ ١٦٤ وقال النسائي: ليس به بأس ووثقه أحمد.

(٢) سورة البقرة جزء من الآية ٢٩ .

(٣) سورة الإسراء جزء من الآية ٧٠ .

أو يكون كسبها غير وافٍ بنفقاتها الضرورية، ولهؤلاء جاءت قوانين التكافل الاجتماعي في اشتراكية الإسلام، وأهمها سبعة عشر، منها: قوانين الإرث والزكاة والوقف والوصية ودفع ديون الغارمين.. وغيرها.

ثم تحدث الشيخ السباعي عن مؤيدات هذا النظام الأدبية والحقوقية والمادية، وأجمَلَ عدداً من الملاحظات، فذكر:

- أن اشتراكية الإسلام تقر الملكية الشخصية، لكنها تحدها وتجعلها موجهة لمصلحة الجماعة، وفي حدود منع الاستغلال، وهذا معنى قولنا: إن الملك وظيفة اجتماعية.

- وأنها جزء من عقيدة المسلم، فلها قدسية الدين، وليس فيها خطر تسلط رجال الكهنوت على المجتمع.

- وهي أخلاقية وإنسانية ولكل فئات المجتمع، وأنها كفيلة بنشر السلام.

ثم تعرض الدكتور السباعي إلى الواقع التاريخي لاشتراكية الإسلام، فأثبت بالأدلة التاريخية أنها طبقت ولو لأزمنة قليلة، ولاسيما في جزيرة العرب، وفي خارجها مستشهداً بما قاله المستشرق -دوزي- في تاريخ إسبانيا من أن الفتح الإسلامي كان تحريراً للعبيد والضعفاء والجماهير، وأنه وزع الأراضي على هؤلاء حتى عاشوا في رغد لم يعرفوه من قبل، ثم رد الشيخ على الذين يقولون أن اشتراكية الإسلام لم تطبق بقوله: إن العالم لم يشاهد مجتمعاً لم يبق فيه فقير

إلا في المجتمع الإسلامي، كما حدث في زمن الرسول ﷺ حين أرسل معاذاً إلى اليمن، وفي زمن عمر بن عبد العزيز، وأن المجتمع الإسلامي يومئذ هو المجتمع الوحيد في العالم كله الذي كانت روح اشتراكية الإسلام تسيطر على كل فئاته وأفراده، من حكام وعلماء وقضاة وقادة وجنود وتجار وعمال وأغنياء ونساء وأطفال، بما يؤكد أن اشتراكية الإسلام في الماضي ربّت أجيالاً تؤمن بالعدالة الاجتماعية لكل أفراد الأمة دونما امتيازات أو استثناءات، وختم الشيخ محاضرته بقوله: إن اشتراكية الإسلام تحتاج إلى من يؤمن بها، ويتفهمها تفهماً عميقاً واعياً، ويحيط بمشكلات المجتمع وقابلياته ومتطلباته، ثم إلى دولة تطبق هذه الاشتراكية تطبيقاً حازماً دقيقاً، وبذلك كانت اشتراكية الإسلام ثروة إنسانية كبرى تحتاج إليها الشعوب، وثروة دينية للمسلمين لا يقوم لهم كيان بدونها، وثروة عربية يستفيد منها غير المسلمين العرب كما يستفيد منها المسلمون، وبذلك نجزم بأن الجهل بهذه الاشتراكية في العصر الحاضر نقص معيب، ولو كانت لها دولة تطبق مبادئها لرأينا إعجاب العالم بها، ولا ريب في أن الذين يجاهدون لتفهمها، والدعوة لها، وإقناع الناس بها، وقيام دولة على أساسها هم رسل الإنقاذ والسلام إلى أمتهم، وإلى العالم أجمع، لا جرم أنهم هم الخالدون.

ثم التفت الشيخ العالم الكبير إلى الشباب العرب والمسلمين فقال لهم: هذا تراثكم، وهذه مبادئكم التي أقمتم بها حضارة، وأوجدتم بها دنيا تفيض بالفضائل، وأطلقتم العقل الإنساني من إساره، وحررتم

الشعوب من أغلالها، وكنتم بها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، فماذا أنتم صانعون اليوم؟ وبأية اشتراكية -عدالة شاملة- بعدها تعجبون؟[١]

لقد جاء الحديث مسهباً في هذا المستخلص من المحاضرة لجملة أسباب، منها أن الشيخ السباعي أطلق هذه الصيحة في أوربا، ومن أعلى منابرها الإعلامية في لندن، ليخاطب العرب والمسلمين والناس أجمعين، مبشراً بمبادئ الإسلام المنقذة من الضياع والضلال، ومنها أن شيخنا كان مشبعاً بالآراء التي عرضها، وأن حماسته لها واقتناعه بها قد سيطرت على تفكيره وشعوره وكل قدراته الذهنية، مجردة من كل تأثير اجتماعي أو سياسي أو ضغوط محلية أو دولية، وأهم من هذا أن الشيخ السباعي ألقى هذه المحاضرة قبل ثلاث سنوات من إلقائها على مدرج جامعة دمشق عام ١٩٥٩ وقبل خمس سنوات من قيام الوحدة بين سورية ومصر، ومن ثم تبنّي النظام المصري للكتاب وطبعه وتوزيعه دون إذن من المؤلف أو موافقته، بما يبدّد أي شك، ويدفع أيَّ تهمة أن الشيخ كان يجامل العهد الناصري، أو أنه كان يود كسب ودهم وسلطانهم.

٢- عندما ظهر كتاب اشتراكية الإسلام مكتملاً يملأ مجلداً كبيراً عام ١٩٦٠ أثار من الجدل والخلاف ما لم يحدث لأي كتاب آخر من كتب الشيخ رحمه الله، إذ أن الاشتراكية في هذه الفترة قد أُكسيت معاني كانت بعيدة عنها، فتبناها الشيوعيون والعلمانيون، وأضفوا

---

(١) مجلة الشهاب العدد ٦٥ آب ١٩٥٦ .

عليها، بل ضمنوها كثيراً من المبادئ الشيوعية والأفكار الماركسية، فلم يعد المواطن يُسلّم بها كما كان الحال في أواخر الأربعينيات، عندما طرح الإخوان وأنصارهم البرنامج الانتخابي عام ١٩٤٩ تحت عنوان: الجبهة الإسلامية الاشتراكية.

لقد اكتسبت الاشتراكية ظلالاً في معانيها ومراميها لم تكن من قبل، وأضحت سلماً لليسار ومشتقاته في تحقيق أهدافهم السياسية والأيديولوجية، مما زاد الحرج الذي واجهه الشيخ السباعي، بعد أن أصدر كتابه -اشتراكية الإسلام- والكتاب بدا كمحاضرة ألقاها شيخنا على مدرج الجامعة في ٣٠-٣-١٩٥٩ بلغت ١١٢ صفحة، ثم أعيد طبعها في كتاب احتوى على ١٧٥ صفحة، ثم صدرت طبعة أخرى له في بداية عام ١٩٦٠ تزيد على ٤٢٠ صفحة بما أضافه عليه الشيخ من شروح وزيادات ودراسات، شملت الأحكام والأنظمة والأفكار التي جاء بها الإسلام، لتنظيم حق التملك، وتحقيق العدالة الاجتماعية، والتكافل، وإنصاف الفقراء والمساكين والمعوزين وذوي الحاجات والبائسين والمرضى الذين لا يملكون للعلاج والدواء ثمناً، وتأمين مستلزمات الإنسان في مأكله وملبسه ومسكنه وضرورات حياته، فسمّاها الشيخ باشتراكية الإسلام.

٣- أنكر بعض الباحثين أن تكون في الإسلام نزعة اشتراكية، فرد الشيخ بأن هذا جهل بالإسلام، أوّ مداهنة للغربيين ومن يدور في فلكهم من الأغنياء ذوي الثراء العريض والملاكين الكبار، ثم أضاف الشيخ رأيين آخرين:

أحدهما: أن الاشتراكية نزعة إنسانية تتجلى في تعاليم الأنبياء وأفكار المصلحين منذ أقدم العصور، تسعى شعوب العالم المعاصر إلى تحقيقها، لتتحرر من فواجع الظلم الاجتماعي، والتفاوت الطبقي الفاحش المزري بكرامة الإنسان، وأن الاشتراكية ترمي إلى منع الفرد من استغلال الفئة الضعيفة للإثراء غير المشروع على حساب الجماهير وبؤسهم وشقائهم، وتخليصهم من غوائل الجوع والفقر والمهانة التي تقابلها الرفاهية والترف والقسوة والانحلال الخلقي من جانب آخر.

وثانيهما: هو خوفه على العمال والفلاحين وسائر المواطنين الفقراء، أن تجرّهم الدعاية الشيوعية بعناوينها البراقة الخادعة التي بدأت بالظهور الواضح في أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية، فلمس الشيخ السباعي افتتاناً من بعض أبناء الجيل بكلمة الاشتراكية التي تَعِدُ المواطنين بإنصافهم وتأمين حاجاتهم دون أن يدركوا ما وراء ذلك من أفكار خطيرة، وسياسات بعيدة المدى تقف وراءها دول كبيرة وقوى عالمية كالاتحاد السوفياتي والصين الشعبية ودول المنظومة الشيوعية.. إلخ فدفعته غيرته وحَملهُ خوفُه على العمل لإنقاذ الأجيال الصاعدة (المواطنين الذين أغرقتهم دعاية إعلامية عاتية لا تقاوم) من الشَّرَكِ الكبير الذي نُصِبَ لهم، فاستعار أو استخدم كلمة الاشتراكية، وضمنها المبادئ الإسلامية المعتمدة والمتفق عليها من علماء الأمة، كالعدل والمساواة والإنصاف، وإنقاذ المواطنين من التفاوت الطبقي والظلم الفادح، وتحقيق التكافل الاجتماعي، وتأمين حاجة الإنسان المواطن في التعليم والطبابة والعيش الكريم، ليصرف

الجماهير عن الشيوعية، وما تفرزه من الإلحاد وفساد الأخلاق، وما تبثه من الحقد والصراع بين الفئات، وكان الشيخ يكره بطبعه وفطرته الظلم والفقر، وينحاز في كل تاريخه الدعوي إلى الفقراء والبؤساء لإسعافهم وإنقاذهم من براثن البؤس والفاقة والحرمان.

٤- وعندما اعترض عدد من الكتاب والعلماء والمفكرين على الكتاب، وعلى ما ورد فيه من آراء فقهية حول التأميم وموضوع الملكيات، ولاسيما تسمية اشتراكية الإسلام كعنوان للكتاب، رد الشيخ قائلاً: إن من كان خلافه قاصراً على التسمية، ففي وسعه أن ينزع غلاف الكتاب، ويضع عليه العنوان الذي يشاء، من عدالة أو تكافل أو ما إلى ذلك.. إلخ..

كان من المعترضين من اشتدّ على الشيخ السباعي في نقده، وتناوله بأسلوب حاد، كالشيخ الداعية الغيور علي الطنطاوي، ومنهم من أدرك مرامي الكتاب، وأهداف مؤلفه البعيدة، من إيقاف التيار الشيوعي والمذاهب الاشتراكية المرفوضة، والمستقاة من الماركسية، لتحويل الجماهير إلى ما ينطوي عليه الإسلام من حق وعدل وإنصاف وتكافل وإسعاف ذوي الحاجات، وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ العارف بالله محمد الحامد رحمه الله، الصديق الحميم للشيخ السباعي، ورفيق دربه في الدراسة والدعوة، وأحب الناس إلى قلبه.

دعا الشيخ الحامد عدداً من إخوانه وتلاميذه الذين كان يستشيرهم فيما يواجه من مشكلات، وما يعترضه من أمور تتطلب المشورة وتداول الرأي، فقد كان الشيخ الحامد رحمه الله يدعو الشيخ عبد

الله الحلاق رئيس مركز الإخوان في حماة، والأخ مصطفى الصيرفي حفظه الله، وعبد الكريم عثمان رحمه الله، والأستاذ بديع عدي، والفقير إلى رحمة الله كاتب هذه الكلمات، أو من كان منهم مقيماً غير مسافر، ذكرَ الشيخُ الحامد الشيخَ السباعي بخير، ودعا له دعوات صالحة، وتحدث عن حبه له، واقتناعه العميق بإخلاصه وجهاده وتفانيه في العمل لدعوة الله، ثم قال: لو كان الشيخ مصطفى أمامي لقمت وقبلت ما بين عينيه، لكنني -يقول الشيخ الحامد- أرى في الكتاب ما يوجب عليه توضيح رأيه، وبيان الأحكام الفقهية في بعض بحوثه، ثم عرض نقده للكتاب بأسلوب الفقيه العالم الورع الذي يأخذ بالأحوط في اجتهاده وفي سلوكه، ثم طلب منا أن نتحدث عما لدينا من ملحوظات وآراء حول ما قدمه الشيخ الحامد حول موضوعات الكتاب، ثم انتهى به المطاف أن جمع كل ما لديه من دراسة واجتهاد، ونشره تحت عنوان: نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام.

٥- بيد أن نفراً من كبار علماء المسلمين كان لهم موقف آخر من كتاب اشتراكية الإسلام، من أبرزهم الشيخ الكبير محمد أبو زهرة أحد كبار علماء عصره والذي قال: إن أثر السباعي في الدعوة الإسلامية كبير، ثم أثنى الشيخ أبو زهرة على حسن إفادة الشيخ السباعي من المصادر والنصوص، وعلى المَلَكة الفقهية التي تجلت في كتابه: اشتراكية الإسلام، وقال الشيخ الفقيه علي الخفيف كبير فقهاء مصر، في رسالة بعث بها للشيخ السباعي جاء فيها: لقد قرأت الكتاب

مرتين، وأنا معجب بهذه الروح العلمية، والغيرة الشديدة على الإسلام التي استطعت أن تقنع بها من يقرؤه -اشتراكية الإسلام- بأن الإسلام وحده الكفيل بحل مشكلاتنا، دون الحاجة إلى مذهب آخر، كما تلقى شيخنا السباعي رحمه الله رسالة من الداعية الكبير الشيخ أبي الحسن الندوي جاء فيها: لقد بحثتَ هذا الموضوع بحثاً لم يسبقك غيرك إليه، وقد ساعدك على ذلك إلمامك بالفقه الإسلامي وفروعه، فجاءت آراؤك مؤيدة بنصوص لا مجال للاعتراض عليها، فجزاك الله عن دينه وعباده خير الجزاء. إنني أرى أن يترجم هذا الكتاب إلى جميع لغات العالم الإسلامي، ليعرف المسلمون -وخاصة شبابهم- أن دينهم يغنيهم عن هذه المذاهب المستعارة الهدامة الملحدة[1].

٦- في عام ١٩٦١ أوردت الإذاعة المصرية أجزاء من كتاب اشتراكية الإسلام للشيخ السباعي لدعم عملية التحول الاشتراكي المبني على القرارات التي أصدرها جمال عبد الناصر، غير أن السباعي احتج ضد ذلك بشدة، وبين أن اشتراكية الإسلام تختلف عن الناصرية، وأن هذه الاشتراكية -اشتراكية عبد الناصر- لا تتعارض مع الإسلام فقط، بل تؤدي بالاقتصاد إلى الركود[2].

فالاشتراكية كانت تعني للإخوان المسلمين إصلاحات اجتماعية،

---

(١) حضارة الإسلام: العدد السادس من السنة الثالثة: ٨٤ كانون الثاني ١٩٦٣ .

(٢) الحركات الإسلامية في سورية لمؤلفه يوهانس: ٣٤٨ .

بمعنى عدالة اجتماعية، وتطور اقتصادي[1].

لقد روج المصريون للكتاب، وعملوا على توظيفه من قبل الدولة ترويجاً لاشتراكية هجينة كان يجري تطبيقها في مصر، ثم في سورية أيام الوحدة، فخسرت الصناعة، وتخلفت الزراعة، ولم يكسب العمال والفلاحون، وشاعت المعاناة، وانتشر الظلم الاجتماعي أكثر مما كان عليه من قبل، وقال الشيخ السباعي: أحمد الله تعالى أن هذا الكتاب مطبوع متداول في الأيدي منذ ثلاث سنوات تقريباً، ويستطيع كل من يقرؤه أن يجزم أن استغلال اسم الإسلام لترويج اشتراكية غريبة عنا تستبيح مصادرة الأموال، وقتل فعاليات الأفراد ونشاطهم الاقتصادي، واستغلالاً للمواطنين غير شريف ولا سديد، لأن كل ما في الكتاب يخالف تلك الاشتراكية[2].

وعندما كان الشيخ يعالج من مرضه في مستشفى المعادي في مصر، زاره وزير التربية كمال الدين حسين الذي كان يحرص على ظاهرة التدين، مستأذناً منه بطبع الكتاب وتوزيعه -كما سمعنا ذلك من الشيخ- فلم يوافق الشيخ على ذلك ورفض العرض رفضاً قاطعاً، غير أن حكومة عبد الناصر لم تأبه لرفض الشيخ، وطبعته، وشرعت بتوزيعه على نطاق واسع بثمن رمزي في كل أرجاء مصر، ولما عزم الشيخ على السفر إلى مكة المكرمة، قال لمن حوله: سوف أكتب كتاباً أفضح فيه اشتراكية هؤلاء المضلِلين، ولكن المنية وافته، فانتقل

---

(١) المرجع السابق: ٣٤٩ .

(٢) حضارة الإسلام عدد شباط ١٩٦٢: ٥٦ .

إلى جوار ربه.

٧- تُرى، أما كان يسع شيخنا الجليل أن يعزف عن التسمية التي عَنون بها كتابه -اشتراكية الإسلام- ويختار له عنواناً آخر، ينأى به عن هذه الأزمة، وعما أثاره من خلاف حاد وجدل كبير؟

كان الشيخ يحمل في قلبه همين كبيرين:

أولهما: ما يراه من فقر مدقع وبؤس شديد وحرمان في حياة معظم المواطنين، بينما تملك فئة صغيرة من الأثرياء الكبار وأصحاب الأطيان والأرضي الواسعة القسط الأكبر من ثروة البلاد، وتعيش حياة البذخ والبطر وعيش المترفين، فكان الشيخ يدعو إلى نظام اجتماعي مستمد من الإسلام وطبقاً لأحكامه، ينصف الفقراء والمحرومين، ويؤمن لهم ولأبنائهم حياة وادعة في معيشتهم وتعليمهم وسكنهم، وعلاج أمراضهم.

وثانيهما: خوفه الشديد على الناشئة والأجيال الصاعدة أن تضللهم الدعاية اليسارية، وتتخطفهم الشيوعية والاشتراكية ذات المضمون الماركسي والفكر الإلحادي والتبعية الأجنبية، فعرض شيخنا الاشتراكية بإطار آخر، وبمضمون إيماني، ومنهج إسلامي، لإنقاذ أبناء الأمة من الشَّرك الذي نصبته لهم الأحزاب العلمانية واليسارية، وكان الشيخ على استعداد لتحمل كل ما ناله من تجريح وأذى واتهام لتحقيق هذين الهدفين الكبيرين، أما الذين انتقدوه بالشدة أو اللين، فقد حركتهم الغيرة على الإسلام، وحملتهم الخشية من أن يلتبس الأمر على أبناء الأجيال الصاعدة، فيقعوا في فخ الاشتراكية ذات

المضمون المعادي لعقيدة الإسلام، والذي نصب لهم، فاعترضوا على التسمية ورفضوها، وحذروا الناس من شرورها وآثامها، وما تنطوي عليه أو ما تجلبه في طياتها من كوارث وانحرافات، وكلتا الفئتين -الشيخ ومن شايعه، والعلماء الذين عارضوه- كانت مخلصة، تكلمت وكتبت وأيدت وعارضت بدافع الغيرة على شريعة الإسلام السمحاء، وعلى دين الله القويم.

خامس عشر: الإخوان والمؤتمرات العالمية

كانت جماعة الإخوان في سورية على منهج الإمام حسن البنا في تعريف الجماعة منذ نشأتها بأنها تتصف بالربانية في مصدرها، والشمولية في اتساعها، والعالمية في مساحتها، والجهادية في حماية الملة والأمة، فكان اهتمام الإخوان المسلمين في سورية ليس مقتصراً على شؤون المسلمين والمواطنين في سورية فحسب، بل يمتد إلى الوطن العربي والعالم الإسلامي، وإلى جميع الجاليات الإسلامية في العالم أجمع.

١- من هذا الفهم أو هذا المنطلق أو النهج السياسي، شاركت الجماعة في سورية في جميع المؤتمرات العربية والإسلامية والعالمية التي أتيح لها أن تشارك فيها، ودعمت جميع قضايا الشعب العربي وشعوب الأمة الإسلامية بتحركات واهتمامات وإسعافات ومساعدات لا تقل عن مثيلاتها فيما يحدث في داخل القطر السوري.

أ- من المؤتمرات التي شاركت فيها جماعة الإخوان المسلمين في سورية: المؤتمر الإسلامي الذي دعت إليه باكستان، عام ١٩٥١،

وعُقدت جلساته في كراتشي، وحضره وفد عتيد من قادة الإخوان المسلمين برئاسة الشيخ مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان في سورية، وعضوية الأستاذ الكبير محمد المبارك والأستاذ عمر بهاء الدين الأميري أمين سر الجماعة، وكان الشيخ السباعي والأستاذ المبارك إذ ذاك عضوين في البرلمان السوري، وقد ذكر عدد من الكتاب الذين عُنوا بأخبار الجماعة، وبالسيرة الذاتية لعدد من قادتها، أن مشاركة الإخوان السوريين كانت فاعلة ومؤثرة في نجاح المؤتمر، وما اتخذه من مواقف وقرارات وتوصيات.

ب- وفي عام ١٩٥٣ عقد القادة المسلمون مؤتمراً تاريخياً في مدينة القدس، حضرته ثلة من الشخصيات الإسلامية الشهيرة، من أمثال الحاج أمين الحسيني والأستاذ سيد قطب، وقادة الإخوان المسلمين في البلاد العربية، منهم الشيخ محمد محمود الصواف من العراق، ومحمد عبد الرحمن خليفة من الأردن، وعدد من مصر وبلاد المغرب والسودان وغيرها من أرجاء العالم الإسلامي، فكان الشيخ السباعي على رأس وفد الجماعة في سورية في هذا المؤتمر، وكان للوفد أثر ملموس في إنجازات هذا المؤتمر الذي يعدّ من أكبر المؤتمرات الخاصة بفلسطين في عدد المشاركين فيه ونوعياتهم، وفي المواقف الحاسمة التي صدرت عنه.

ج- وفي عام ١٩٥٤ رأس الشيخ السباعي وفداً كبيراً من سورية إلى المؤتمر الإسلامي المسيحي في بحمدون بلبنان، وألقى خطابه الشهير باسم جميع الوفود الإسلامية، فأحدث زلزالاً في الدوائر

الغربية التي هيأت لهذا المؤتمر، وعولت عليه كبير الأمل في إيجاد كتلة عالمية من المسلمين والمسيحيين للوقوف في وجه الزحف الشيوعي، فخاب أمل جمعية أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية التي كانت وراء عقد هذا المؤتمر، وترتيب برامجه، فأيقظ الخطاب الدول العربية والإسلامية في باكستان وتركيا وإيران التي شارك مندوبون عنها في هذا المؤتمر، وفي غضون ساعات قليلة ترجم خطاب الدكتور السباعي إلى الإنكليزية، ونشرته الصحف والمجلات السورية، وسجلته نشرة المؤتمر كأحد إنجازات الشيخ السباعي الباهرة، وقد مرت في صفحات سابقة تفصيلات هذا الحدث الكبير، ونص الكلمة التي ألقاها الشيخ أو معظم ما ورد فيها[1].

د- وفي نفس العام ١٩٥٦ أوفدت الجامعة السورية الدكتور السباعي في رحلة علمية إلى أوربا استغرقت حوالي خمسة أشهر، مرت معنا تفصيلاتها وإنجازاتها الكبيرة.

هـ- وفي عام ١٩٥٧ ذهب الشيخ السباعي عميد كلية الشريعة مع عمداء كليات الجامعة إلى موسكو بدعوة من جامعتها، فكانت رحلته هذه فتحاً عظيماً مرت معنا -من قبل- تفصيلاتها.

٢- أيد الإخوان المسلمون السوريون جميع قضايا العرب والمسلمين والجاليات الإسلامية في العالم، ووقفوا معها دون أن يغفلوا عن واحدة منها، أو في حق شعوبها في جهادهم لنيل

---

(١) مجلة حضارة الإسلام - العدد الخاص ٤ و٥ و٦ لعام ١٩٦٤: ١٥٣ .

استقلالـهم، أو في دفع الظلم عنهم أو رد العدوان الذي يـقع عليهم، وكانت فـلسطين في مـقدمة الـقضايا الـتي تفانى الإخـوان المسلـمون السوريـون في الدفاع عنهـا، وخوض المعـارك على أرضها، وتـقديم الشـهداء الأبرار دفـاعاً عـن قدسـها وأرضـها المـباركـة ضد الـهجـمة الصهيونية الباغـية، وتعبئة الجماهير لدعمها والوقـوف معها، واستنفار الحكومات والشعوب والرأي العـام العربي والإسلامي والدولي للدفاع المشروع والـواجب عنها، كما مر مـعنا تفصيلاً في الـمجلد الأول من هذه الأوراق.

أ- كان لـمصـر، ولموضـوع وادي النيـل في جلاء الإنـكليـز عن أرضه، ووحدة مـصر والسودان، والوقـوف في وجه العدوان الـثلاثي الإنكليزي والفرنسي والصهيونـي على مصر، واحتلال قنال السويس، وتعطيل الملاحة فيها، كان هذا كله باعثاً على استنفار أعضاء الجماعة وتعـبئـة طاقاتـهم وقدراتـهم، وتحـريك الشـارع في الدفـاع عن أرض الكنانة ذات الخصوصيـة الكبيرة في حياة العرب والمسلمـين السياسية والثقافية على مدى قرون طويلة، فـلم يترك الإخوان وسيلة في دعمها إلا أخذوا بها، كـالبرقيات والمـحاضرات والمقالات والمـؤتمرات في المسـاجد والأندية والجامـعات والساحات، كمـا عقدوا الاجتـماعات الشـعبيـة في المدن والقـرى، ودفعـوا بالعديد مـن مشروعـات الدعم القانوني إلى المجلس النيابي السوري.

ب- ولم يكـن تأييد الإخـوان المسلمـين السوريـين لجهـاد سكان الشـمال الإفـريقي فـي ليـبيـا ضد الاسـتعـمار الإيـطالي، وفي تـونس

والجزائر والمغرب ضد الاستعمار الفرنسي وطغيانه ووحشيته في قتل عشرات الألوف المطالبين بالحرية والاستقلال، لم يكن بأقل من تأييدهم لمصر وشعب وادي النيل، بل إن الجماعة اعتبرت جهاد الجزائريين مفتاحاً للنصر في شمالي إفريقيا، بل وفي القارة الإفريقية كلها، وإن اندحار الجزائريين في جهادهم (لو حدث) فإنه نكبة تحل بالأمة العربية والإسلامية في كل أقطارها، وقد جاء تفصيل ذلك في موضعه من صفحات سابقة.

ج- استعمرت هولندا الدولة الأوربية الصغيرة في مساحتها وعدد سكانها، الأرخبيل الأندونيسي (بتفوقها العسكري والبحري) الذي يتألف من ثلاثة عشر ألف جزيرة، منها ثلاثة آلاف مأهولة بالسكان، وأكبرها مساحة: سومطرة، وأكثرها في الكثافة السكانية: جاوى.

استمر هذا الاستعمار ثلاث مئة وخمس عشرة سنة.

وفي الحرب العالمية الثانية احتل اليابانيون أندونيسيا، وانتزعوها من الهولنديين حلفاء الدول الغربية في حربها مع دول المحور -ألمانيا وإيطاليا واليابان- وعندما استسلمت اليابان بعد ضربها بقنبلتين ذريتين في هيروشيما وناغازاكي، انسحبت اليابان من أندونيسيا بعد أن أبقت السلاح وافراً بأيدي الأندونيسيين، فاشتعلت ثورة عاتية ضد الهولنديين الذين حاولوا العودة إلى استعمار أندونيسيا بمساعدة حلفائهم، لكن الثورة كانت قد عمت وانتشرت كالنار في الهشيم بقيادة أحمد سوكارنو ومحمد حتّي، واستمرت فترة طويلة، قدم الأندونيسيون فيها تضحيات غالية، حتى نالت أندونيسيا استقلالها

كاملاً، وظهرت أكبر دولة إسلامية في عدد سكانها على ظهر الكوكب الأرضي.

انفرد سوكارنو بالسلطة، وأقصى رفيق دربه القائد المسلم محمد حتّي عن السلطة، متعاوناً مع الحزب الشيوعي الأندونيسي ذي العدد الكبير، والمدعوم من جمهورية الصين الشعبية.

في أثناء هذا الصراع المرير بين الاستعمار الهولندي وبين الشعب الأندونيسي، هب الإخوان المسلمون السوريون في استنفار الشعب في سورية، وعقدوا مؤتمراً كبيراً في المركز العام للإخوان في دمشق، لنصرة الشعب الأندونيسي في جهاده المبرور ضد المعتدين الهولنديين وحلفائهم الغربيين، كما جاء في كتاب دروس في دعوة الإخوان المسلمين.

استمر اهتمام الإخوان والدعاة السوريين عبر زياراتهم إلى جاكرتا، ومن خلال المؤتمرات الإسلامية التي كانت تعقد في أندونيسيا مثل مؤتمر الإعلام الإسلامي، والكتابات التي كانت تعرّف السوريين والعرب بهذه الجمهورية العتيدة، وكان من أبرز الدعاة الذين زاروا أندونيسيا وكتبوا عنها: الشيخ علي الطنطاوي، طيب الله ثراه، كما كانت الصلات قائمة بين إخوان سورية والدعاة فيها وبين علماء أندونيسيا وشخصياتها السياسية ذات التوجه الإسلامي، وفي مقدمتهم رئيس الوزراء الأندونيسي الأسبق الدكتور محمد ناصر رحمه الله.

ركز التبشير جهوده على أندونيسيا، وتسابقت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانية وغيرها لتحويل الأندونيسيين من الإسلام إلى النصرانية، وخُصصت الأموال الطائلة، والأساطيل البحرية وطائرات الهيلوكوبتر، واستنفرت آلاف المبشرين وحددت عام ٢٠٠٠ في برامجها لانتشار المسيحية في أرجاء أندونيسيا، وليكون معظم الشعب الأندونيسي قد التحق بالنصرانية، وفي هذه الفترة ضيّق سوكارنو على الدكتور محمد ناصر في العمل السياسي، فتحول محمد ناصر وأنصاره إلى العمل الدعوي، وشكلوا المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية، وقام بزيارات إلى البلاد العربية يدق ناقوس الخطر، وقدِم إلى أبو ظبي فسجلت له حلقتين في التلفزيون، شرح فيهما نشاط المبشرين وأساليبهم وبرامجهم لتنصير الأندونيسيين، وفي آخر زيارة لي إلى جاكرتا، زرته في المستشفى الذي كان يعالج فيه، ثم وافته المنية بعد فترة قصيرة، رحمه الله وأجزل له الأجر، ورفع من مقامه في عليين.

لقد انجلى هذا الصراع بين زحوف المبشرين وما لديهم من عدد وعدة، وبين المجلس الأعلى الإسلامي وعلماء أندونيسيا وجمعياتها الإسلامية عن انتصار ساحق للدعوة الإسلامية في الأوساط الشعبية، ولاسيما في الوسط الطلابي، الذي تحوّل إلى قوة سياسية كبرى في المجتمع الأندونيسي، لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها، وتأكدت الهوية الإسلامية لأندونيسيا التي تعد ربع مليار في أكبر تجمع للمسلمين في العالم أجمع، يلتزمون بمذهب الشافعي رحمه الله.

د- لباكستان خاصية تنفرد بها عن الدول الإسلامية الأخرى في صلاتها بالعالم العربي، وبجماعة الإخوان المسلمين على وجه الخصوص، فمنذ وقت مبكر زار أبو الحسن الندوي (من الهند) سورية وألقى سلسلة محاضرات قيمة على مدرج كلية الشريعة في الجامعة السورية بدعوة من عميدها الشيخ الدكتور السباعي، كما زار في نفس الفترة من مطلع خمسينيات القرن الماضي الأستاذ أبو الأعلى المودودي مراكز الإخوان المسلمين في بلاد الشام، وعندما قدم إلى مدينة حماة كلفني الإخوان بتقديمه إلى الحاضرين تمهيداً لإلقاء محاضرته، وكان للشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله صلات وثيقة مع مفتي باكستان وأبنائه، ومع عدد من العلماء الذين كان الشيخ يزورهم، ويأخذ عنهم، ويزور المكتبات الزاخرة بالمراجع الثمينة في العلوم، ولاسيما في علوم الحديث الشريف، وكانت الجماعة الإسلامية التي أسسها أبو الأعلى المودودي في باكستان وامتدت إلى بنغلادش والهند على صلة وثيقة بالإخوان المسلمين في مصر والسودان وسورية والأردن وغيرها، فكانت الزيارات المتبادلة بين الجماعة والإخوان لا تنقطع طيلة عقود النصف الثاني من القرن الماضي.

احتلت الهند كشمير بالقوة العسكرية، خلافاً للأسس التي تم بموجبها تقسيم شبه القارة الهندية إلى هندستان وباكستان، وقام نزاع بين الدولتين أدى إلى نشوب ثلاثة حروب، فكشمير هي روح باكستان، تنبع منها الأنهار الكبيرة التي تسقي أراضي باكستان، وتشكل مواردها الرئيسة في الزراعة ومصادر الغذاء.

وقف الإخوان السوريون إلى جانب الحق الباكستاني الذي اغتصبته الهند بالقوة في كشمير، فكان الجرح النازف في الجسد الباكستاني منذ حوالي ستين عاماً، وكانت حماسة الإخوان لباكستان في موضوع كشمير لا يقل عن حماستهم في موضوع فلسطين والجزائر ووادي النيل، فقد عبّأ الإخوان المسلمون السوريون الجماهير على كل الصعد الرسمية والشعبية لتأييد باكستان في موضوع كشمير، واستطاعوا حشد البرلمانيين السوريين في هذا الاتجاه، فأرسلوا برقية إلى الحكومة الباكستانية تحمل توقيع خمسين نائباً بالوقوف مع الحق الباكستاني فكان لهذا الصنيع أثر كبير في نفوس الباكستانيين، ظهر جلياً في وقوف باكستان مع سورية والعرب في صراعهم مع الصهاينة المغتصبين.

في عام ١٩٥٥ التقيت الدكتور الداعية أمين المصري الدمشقي في المسجد النبوي قادماً من باكستان، فقال: أقسم بالله العظيم في هذا المكان الطاهر إن العرب لو أرسلوا أربعين مدرساً للغة العربية إلى باكستان لتحولت إلى بلد عربي في عشرين سنة، لأن باكستان بعد انفصالها عن الهند رغبت أن تكون العربية هي اللغة الرسمية للدولة، لكنها لم تجد من يقف بجانبها من العرب في هذا المشروع، فاضطرت إلى اعتماد الإنكليزية لغة رسمية للدولة الناشئة.

هـ- انتزع الإنكليز واحة البريمي من السعودية وضموها إلى المحميات التي يسيطرون عليها في الإمارات وفي مسقط، فأرسل الشيخ السباعي باسم الإخوان المسلمين برقيات احتجاج واستنكار إلى

رئيس الجمهورية السورية، وإلى رئيس وزرائه ووزير خارجيته، وإلى ممثلي الدول العربية و الإسلامية، وإلى كل سفراء أمريكا وإنكلترا وفرنسا وروسيا جاء فيها: الاحتلال البريطاني لواحة البريمي عدوان جديد على العرب والمسلمين، باسم الإخوان المسلمين، أعلن استنكار هذا العدوان الأثيم، كما أرسل إلى الملك سعود برقية جاء فيها: الاحتلال البريطاني لواحة البريمي أثار استياء العرب والمسلمين، المسلمون جميعاً يؤيدونكم في كل خطوة تتخذونها لتحرير البريمي، واسترداد السيادة العربية عليها، فتلقى الشيخ السباعي جواباً جاء فيه: كان لبرقيتكم تأييداً لموقفنا من اعتداء بريطانيا على البريمي أطيب الأثر في نفوسنا، وإن تعاضد العرب وتكاتفهم جميعاً في دفع العدوان عن بلادهم هو الوسيلة الناجحة لحفظ حقوقهم.. إلخ، كما أصدر المكتب التنفيذي للإخوان في سورية بياناً مطولاً باسم الجماعة يشجب فيه العدوان البريطاني، ويعتبره حلقة تضاف إلى سلسلة جرائم الاستعمار الإنكليزي ضد الإسلام والعروبة.

و- وقد أيد الإخوان المسلمون في سورية نضال الشعب العراقي ضد معاهدة بيغن-جبر، كما أيدوا -كما رأينا من قبل- مصر في قضية الجلاء ووحدة وادي النيل، وكفاح شعوب المغرب ضد فرنسا، والإمارات المتحدة وأندونيسيا وباكستان وجميع القضايا العربية والإسلامية التي عرضنا لها، ليؤكدوا عالمية الدعوة، وأن المسلمين كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص كما جاء عن رسول الله ﷺ[1].

---

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين: ١٥٩ -١٦٢ .

ز- في خمسينيات القرن الماضي، وعلى امتداد العقد الخامس، قمت بصحبة إخوة كرام بجولات دعوية في الأردن فكانت الفرصة متاحة لإلقاء محاضرات في مراكز الإخوان في نابلس وطولكرم والقدس الشريف وغيرها، وفي لبنان أعلنت الجماعة الإسلامية في طرابلس عن برنامج رمضاني مسجل على إمساكية الشهر، تضمن أسماء المحاضرين، فكان موضوع المحاضرة التي ألقيتها: التربية الجماعية، وقبل البدء علمت من إخوة المركز أن أعضاء من حزب التحرير في جدل عقيم مع أفراد الجماعة، وأنهم يطرحون أفكاراً تصادم أحكاماً متفقاً عليها بين علماء المسلمين، ومن ذلك أن الإسلام أوامر ونواهٍ، وأن الدعوة إلى الأخلاق محظورة، لأنه لا يوجد في الفقه باب خاص بالأخلاق، وأن عدداً منهم سوف يحضر لسماع الكلمة، فعرّجت على بعض هذه الأفكار الشاذة قائلاً: أين نضع قول نبينا ﷺ: تبسمك في وجه أخيك صدقة، في الأوامر أو في النواهي؟ وإذا بحوالي خمسة عشر من التحريريين الحاضرين ينسحبون من المقر، فصفا الجو، وكفى الله المؤمنين الجدل العقيم والفكر السقيم. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

بعد أن أحرزت الجماعة نجاحاً فائقاً في أوساط الطلاب الثانويين والجامعيين والمعلمين والمثقفين، التفتتْ إلى الوسط العمالي، وكرست نشاطاً كبيراً لهذا القطاع المهم، فنشرت أفكارها وبشرت بمناهجها الإسلامية للنهوض بالعمال وذوي الحرف والشغيلة والفئات الكادحة، فإذا بها تلحق بهذا الركب، وتتجاوز الحركات اليسارية

والأحزاب ذات النزعة الماركسية، فيكون تأييد النقابات العمالية لدعوة الإخوان كبيراً في المدن السورية، ولاسيما في دمشق وحلب وحمص وحماة ودير الزور واللاذقية.. إلخ، ثم توجت الجماعة هذا النشاط في الحقل العمالي بالمؤتمر الذي عقدته في مدينة حلب الشهباء في ٢٠-٧-١٩٥٦ فكان مؤتمراً تاريخياً لا يُنسى بشموله للعمال الحرفيين والزراعيين والنقابيين بأفكاره وتوصياته وقراراته وخططه التي تنصف العمال والكادحين، وتنتشلهم من شراك الأحزاب والحركات التي تستغلهم، وتحقق مكاسبها على حسابهم، وقد مر معنا ذلك تفصيلاً في هذا المجلد -الثاني- من تاريخ الإخوان المسلمين.

سادس عشر: الإخوان والجيش

أما النشاط في الوسط العسكري، فقد عزف الإخوان المسلمون عن الالتفات إليه، وعن تشكيل وحدات أو مجموعات إخوانية من الضباط والمجندين لعدم اقتناعهم بتحقيق أهدافهم عن طريق الجيش أو الانقلابات العسكرية، وكثيراً ما ألمحوا إلى ذلك، أو صرحوا به كما قال قائدهم عصام العطار في وقت لاحق عندما لمس هذا التفكير لدى لفيف من إخوانه: لا نلجأ إلى أسلوب الانقلابات أو التسلط العسكري ولو انتظرنا لتحقيق أهدافنا مئات السنين.

بيد أني أتساءل بعد نصف قرن من التجارب المرة: لو أن الجماعة توقعت ما واجهته بلادنا من نكبات على أيدي الأحزاب الفاشست وأحزاب اليسار (بإقحامها الجيش بالسياسة والقيام بالانقلابات العسكرية، وإلغاء الحياة السياسية والبرلمانية والفكرية والصحفية

وحرية التعبير بالتسلط العسكري والأمني) هل تظل على اقتناعها في الابتعاد عن هذا الميدان، وتركه لمن عاثوا بالوطن فساداً أو خراباً؟!!

سابع عشر: الإخوان والحركة النسائية

أما الحركة النسائية، فإن جماعة الإخوان قد أولتها اهتمامها منذ وقت مبكر، لما للمرأة من دور كبير في تربية الفرد المسلم، وبناء الأسرة المسلمة، وصولاً إلى المجتمع المسلم، فالحكومة المسلمة، ولما اضطلعت به المرأة المسلمة من مهمات في تاريخ الرسالة الإسلامية منذ فجر الإسلام، فقد كانت أم المؤمنين خديجة أول من أسلم من النساء ومن جميع المسلمين، استجابة لدعوة رسول الله ﷺ وكانت سمية بنت خبّاط زوجة ياسر وأم عمار أول من استشهد من المسلمين والمسلمات، وكانت عائشة الصدّيقة بنت الصدّيق معلمة الرجال والنساء، ومرجع علماء الصحابة في الحديث والفقه رضي الله عنهم جميعاً.

لقد بادر الإمام الشهيد حسن البنا -رحمه الله، وأجزل له الأجر- في عام ١٩٣٣ إلى تأسيس قسم الأخوات المسلمات، ولما يمض على ظهور الجماعة خمس سنين، فاضطلع بمسؤولياته الجسيمة في القاهرة، وفي مديريات ومحافظات القطر المصري، وظهرت نساء فاضلات مجاهدات قمن بدور كبير في التربية والتوعية والتوجيه، وتحملن أذى الطغاة شأن الإخوان من الرجال جراء قيامهن بإسعاف العائلات المنكوبة التي فقدت معيليها وكانت الداعية الكبيرة زينب الغزالي -رحمها الله- مثلاً أعلى للأخوات في الصبر والجهاد وما

لاقته من سجن واضطهاد.

وفي سورية لم يتوان الإخوان عن بذل الجـهد في الاهتمام بالنساء اهتـمـامهـم بالرجـال، وبالـعمـل الدؤوب علـى النهـوض بالأخـوات المـسلمات، فـكان السبـاعي رحـمه الله -كـعادته- أول مـن بادر في تأسيس قسم الأخـوات في دمشق في مطلع الخمسينيات، وقد تشكل هذا القسم من نسـاء الإخوان وأخواتهم وبناتهم وتلمـيذاتهم، ثم شرع شيخـنا السباعي في نشـر الدعوة بين طالبـات الجامعة، فوجـه الدعوة إلى محـاضرة، جمع لها الإخـوان حشداً كبـيراً من الطالبات فـي قاعة المحـاضرات كانـت باكورة نشـاط الأخوات في المـعاهد والكلـيات، وعندما ظهـرت كلية الشريعـة للوجود، وأخذت دورها بجـانب كليات الجامعـة الأخرى، انتسب إليها عـدد من الطالبات اللواتي حملـن عبئاً كبيراً في التنظيم، وخاصة في قاعـة البحث التي أعدها الشيخ السباعي عـميـد الكليـة، وخصـصهـا للـبحـوث والدراسات الـرصينـة بإشرافـه وتوجيهـه، والاستعانة بكـبار العلماء وجهـابذتهم، لتخريـج طائفة من العلماء والفقهاء والمفكرين والمجتهدين.

لقد كانت الجامعة محضن تـنظيم الأخوات المسلمات، وميدانهن الواسع لـلتحرك الـدعوي، ظهـرت فيهـا داعيات مـؤثرات في محـيط المـرأة، وكـانـت الأخت نادرة شـنن رائـدة هذا النـشـاط في الـوسط الجامعي بما أحرزت فيه من نجاح في جذب أعداد كبيرة من الطالبات إلى حقل العمل الدعوي في كلـيات العلوم والآداب والحقوق والطب والشـريعة، كـان من أبرزهن وفـي مقدمـتهـن الأخت الصالـحة أمـينة

الشيخة التي تبوأت قيادة الأخوات -فيما بعد- على مستوى القطر، لتزور الأخوات في المدن السورية، وتشرف على تنظيمهن وتوجيههن، وتأخذ بأيديهن إلى الأنشطة التي ترفع من مستوى المرأة في حقل الدعوة إلى الله، والتخلق بآداب الإسلام وقيمه السامية ومثله الرفيعة، لقد كانت الأخت أمينة الشيخة تقوم بهذا الجهد بسمت المرأة الصالحة التي تتسربل بثوب الحياء، وتتحلى بالأدب الجم والخلق الرفيع، يعينها على أداء مهمتها الكبيرة زوجها الأخ الكريم أبو جلال جزاه الله وزوجته الشيخة أمينة -أم ظلال- المثوبة وتقبل مسعاهما الحميد.

كان أستاذنا الدكتور مصطفى السباعي يشجع الأخوات ويرسم لهن ساحات الأعمال الدعوية ليأخذن دورهن في الحياة الاجتماعية والتربوية والسياسية والثقافية، ويفتح لهن صفحات جريدة الشهاب الأسبوعية ومجلة حضارة الإسلام الشهرية، فبرزت منهن كاتبات وشاعرات ودارسات وداعيات جَمعْنَ بين الثقافة الشرعية والعلوم العصرية والفكر الإسلامي الأصيل، كان يقول لهن رحمه الله: أنتن شقائق الرجال، عليكن مهمات جسام في تربية الجيل، وبناء الأسر الصالحة، وكان يطالبهن بالتمسك بأهداب الفضيلة وآداب الإسلام وتعاليمه، ونشرها في محيطهن الأسري والمدرسي والجامعي والوظيفي، ويقول لهن كذلك: أنتن نصف المجتمع، وبصلاح المرأة يصلح النصف الآخر، إن مهمتكن عظيمة، فالمرأة الصالحة تهز المهد بيمينها، وهي قادرة بعون الله أن تهز العالم بيسارها، ويقول رحمه

الله: إن مجتمعنا الذي ينخر فيه الفساد، مستعد لتقبل دعوات الإصلاح والعودة إلى قيم الإسلام، وهذا دوركن مع آبائكن وأزواجكن وأبنائكن وأخواتكن وبناتكن.

لقد كان لقسم الأخوات لائحتها الداخلية وبرامجها الدعوية، فامتد نشاطهن واتسع ليشمل دمشق وحلب وحمص وحماة وسائر المحافظات الأخرى، وكنموذج على نشاط الأخوات المسلمات مدينة حماة التي انبرى فيها لهذا الجهد المشكور الأخ الأستاذ محمد نعسان عرواني نائب رئيس المركز إذ ذاك، وخصص منزله لعقد الاجتماعات الأسبوعية، وعندما ضيقت عليه مديرية المعارف، ونقلته إلى ثانوية السيدة عائشة للبنات ظناً منها أنها تضيق عليه فيما كان يبذله في ثانويات البنين، أتاح له ذلك نشر الدعوة في صفوف الطالبات، والانفضاض عن مدير الثانوية الذي كان يبث فيهن النشاط الحزبي، فإذا بهن ينصرفن إلى جماعة الإخوان، ويصبحن أخوات عاملات في حقل الدعوة الإسلامية.

وبرزت في صفوف الأخوات السيدة أم صالح الشواف التي عرفت بنشاطها الملحوظ، وكذا بعض الأخوات العاملات من آل الكيلاني وغيرهن من الأخوات الصالحات، وقل مثل ذلك في بقية المحافظات السورية والأقضية التابعة لها، وبالرغم من حساسية العمل النسوي ودقته في الجمع بين تحرير المرأة من تقاليد بالية وعادات مستحكمة لا تمت إلى الأحكام الشرعية بصلة، وبين الحفاظ على ضوابط الأحكام الشرعية وآداب الإسلام في المظهر والمخبر واللقاءات، فإن

تنظيم الأخوات المسلمات قد شق طريقه في سورية، كما ظهر ذلك جلياً في الانتخابات، وفي الأعداد الكبيرة التي أعطت أصواتها لمرشحي الإخوان، ولاسيما في الانتخابات التكميلية التي خاض غمارها الشيخ السباعي في دمشق عام ١٩٥٧ للبرلمان، يوم نال الدكتور من أصوات النساء أكثر مما ناله مرشح اليسار والأحزاب التقدمية كما كانت تزعم وتسمي نفسها، والتي تعمل على دفع المرأة إلى مهاوي الفساد والتحلل باسم التمرد والخروج على موروث الأمة وآداب المجتمع.

في هذا السياق، ومما يجدر ذكره أن النشاط النسوي في السودان وتركيا وماليزيا، ولاحقاً في المغرب والجزائر، أثمر تياراً إسلامياً عريضاً طغى على ما عداه من أنشطة نسوية خارج الإطار الإسلامي، فبعد انقلاب سوار الذهب على النميري في السودان وإجراء انتخابات برلمانية نالت الجبهة الإسلامية القومية بقيادة الدكتور حسن الترابي ٩٠٠ ألف صوت، بلغت أصوات النساء فيها خمس مئة ألف صوت، وأصوات الرجال أربع مئة ألف صوت، وحدث مثل هذا في انتخابات تركيا، وفي ماليزيا والمغرب ودول أخرى، وفي هذا دلالة على أن المرأة المسلمة انطلقت في حمل الرسالة الإسلامية والدعوة إلى الله، وحجب أو تهميش الحركات النسائية التي تخرج على مبادئ الإسلام، وتنال منه في خطابها السياسي وفي برامجها الاجتماعية، غير أن الذي ننوه إليه ونؤكد عليه، أن على المرأة المسلمة أن توازن بين نشاطها الدعوي وواجبها الأسري، فالبعض منهن استغرقهن العمل الدعوي، فكان ذلك على حساب تربية أبنائهن وسعادة أسرهنّ.



المرحلة الرابعة

كيف قامت الوحدة وكيف حدث الانفصال
١٩٥٨ - ١٩٦١

في عام ١٩٥٧ اجتاحت سورية أحداث خطيرة، كان من أبرزها، إجراء محاكمة عسكرية للسياسيين والعسكريين المتهمين بالتآمر على الحكم في سورية بالتعاون مع حكومة نوري السعيد في بغداد، وكان منها إقصاء العناصر اليمينية عن المراكز الحساسة، العسكرية والحكومية ذات الأهمية، وانقسامات العسكريين إلى كتل متناحرة أو متربصة في داخل المؤسسة العسكرية في سورية.

أولاً: صعود التيار اليساري

في هذه الفترة القلقة تركزت السلطة بأيدي خالد العظم وعبد الحميد السراج وأكرم الحوراني في ظل رئيس جمهورية ضعيف، يغلب على طبيعته الخوف، ورئيس وزارة ذي مواقف متقلبة، تحركه فيها مراكز القوى، وفي هذه الفترة كذلك توثقت العلاقات السورية السوفياتية، وقوي نفوذ الحزب الشيوعي في الجيش والحكومة، فأثار

هذا الانتشار الشيوعي مخاوفَ القوى اليمينية والاتجاهات الإسلامية ولاسيما الإخوان المسلمون، والحكومات المجاورة الموالية للغرب، فحشد العراق قواته في الشرق، وحركت تركيا جيشها في الشمال، وأبحرت قطع الأسطول الأمريكي باتجاه الساحل السوري، واعتقد قادة الغرب أن سورية سائرة نحو النظام الشمولي -الديمقراطية الشعبية- أي الشيوعية فاتفقوا على دفعها إلى أحضان عبد الناصر، كما هو ظاهر الأمر، إن لم يكن وراء الأكمة ما وراءها من صنع الأحداث التي مهدت لأن تسلم سورية نفسها لعبد الناصر، وتكون في قبضته، ليستريح الغرب من تمرد هذا الشعب في سورية الذي رفض جميع الأحلاف الغربية التي طرحتها بريطانيا -مشروع سورية الكبرى والهلال الخصيب- وتلك التي سعت أمريكا لفرضها وتنفيذها- النقطة الرابعة، مبدأ أيزنهاور- وبذلك تم إسكات هذا الشعب السوري، بعد أن أسلم نفسه باسم الوحدة التي يفتديها بكل غال ونفيس، ويتحمل من أجلها كل عسير، ويقدم في سبيل تحقيقها كل تضحية إلى درجة الفداء والاستشهاد، فباسم الوحدة التي عشقها السوريون وقدموها على انتمائهم الوطني، قبلوا بكل الشروط التي أُمليت عليهم، وانتهت بهم إلى أحداث كبرى، غيرت مجرى الحياة السياسية والاجتماعية في سورية إلى عكس ما كان يتطلع إليه السوريون.

فصم البعثيون تحالفهم مع الشيوعيين وأنصارهم، وقادوا -عن طريق العسكريين- سورية نحو القاهرة، لتحجيم الشيوعية التي استفحل أمرها، وباتت تشكل خطراً على الحياة السياسية وعلى الأحزاب التي اصطفت معها، بما فيها حزب البعث العربي

الاشتراكي، غير أن التجمع القومي البرلماني استمر في تنفيذ ميثاقه الذي التزم به، فنالت حكومة العسلي الثقة بأكثرية ٦٩ صوتاً من أصل ١١٩ نائباً حاضراً، وامتناع نواب حزب الشعب والكتلة الدستورية عن التصويت، فبادرت الحكومة إلى تشكيل لجنة برئاسة إحسان الجابري وعضوية الحوراني والعظم وبكداش لاعتماد نهجها السياسي بصرامة وتصميم، ومن ذلك:

١- إجراء محاكمة عسكرية برئاسة العقيد عفيف البزري، وعضوية المقدمين: أمين النفوري وصلاح يوسف آغا، وكان المدعي العام المقدم محمد الجراح، فكانت هذه المحاكمة -كما فسرها بعض المراقبين والمحللين- إدانة لكل الفعاليات السياسية اليمينية، فسعى اليسار إلى استغلال مجريات هذه المحاكمة لتحطيم السياسيين حتى النهاية، وكان حزب البعث أشد من غيره في شن حملة عنيفة طالبت بإنزال أقسى العقوبات بحق الخونة والمتآمرين حسب اصطلاح الإعلام البعثي، وتطهير البلاد من كل من يعارض سياسة التمرد العربية، فأسكتت هذه الموجة القوى المعارضة التي اضطرت إلى ركوب هذه الموجة، وشن الحملات على المتهمين لتنجو بنفسها من اتهامات مماثلة، كالذي صدر عن حزب الشعب، وعن قوى اليمين الأخرى، غير أن بعض الأصوات جهرت بمناوأتها لسياسة التجمع القومي، كان من أبرزها مظاهرات في مدينة حلب التي يتمتع بها حزب الشعب بنفوذ واسع، دفاعاً عن عدد من قادة الحزب الذين وجهت المحكمة العسكرية إليهم تهمة المشاركة في المؤامرة التي كان

العراق خلفها، من أمثال ميخائيل إليان، وعدنان الأتاسي وغيرهما، كذلك شنت الصحف اللبنانية انتقادات لاذعة اتهمت فيها المسؤولين السوريين بالعمل على التخلص من المعارضة في مؤامرة اصطنعها الشيوعيون والبعثيون ورجال المكتب الثاني لسحق المعارضين الذين يقفون ضد النفوذ الشيوعي في سورية.

طالب المدعي العام بإعدام اثني عشر متهماً، وبالأشغال الشاقة لـ ١٦ متهماً، فقضت المحكمة بالإعدام حضورياً على حسن الحكيم، وصبحي العمري، وعدنان الأتاسي، وسامي كبارة، وهايل سرور، وغيابياً على ميخائيل إليان، وحسن الأطرش، وشكيب وهاب، ومحمد صفا، ومحمد معروف، وصلاح الشيشكلي، وسعيد تقي الدين، كما قضت المحكمة على منير العجلاني بالسجن عشرين عاماً مع الأشغال الشاقة.

روّعت الأحكام القاسية الرأي العام السوري، وأبدى القوتلي تذمره من صرامتها، وتدخلت جهات كثيرة لتخفيضها بمن فيهم البطريرك الماروني ورئيس جمهورية لبنان والملك سعود وعبد الناصر، فتم تخفيف أحكام الإعدام، واستبدل بها السجن لفترات مختلفة.

٢- شجبت سورية مبدأ الفراغ الذي أعلنه الرئيس الأمريكي أيزنهاور في الشرق الأوسط، في خطاب له أمام الكونغرس بتاريخ ٥-١-١٩٥٧ لدعم أي حكومة مهددة داخلياً أو خارجياً بخطر الشيوعية العالمية، وأنكرت الحكومة السورية كذلك وجود فراغ أو خطر شيوعي، مؤكدة أن التهديد الرئيسي للأمة العربية هو التهديد

الإمبريالي والصهيوني.

اختارت واشنطن الملك سعود ليكون مرساة السياسة الأمريكية في الدول العربية، فبدأت حكومة الرياض تقلص ارتباطاتها مع القاهرة، وبدورها عملت واشنطن على إزالة مخاوف الملك سعود من الهاشميين، وإنهاء الخلاف السعودي الهاشمي، أما الأردن فقد اختارت -تحت ضغوط حرب السويس والأحداث الدامية- الدخول في الحلف المصري السوري، وأنهت المعاهدة مع بريطانيا، واستعاضت عن مساعدتها المالية بالتزام مصر والسعودية وسورية بمساعدة مماثلة، تعوض عما كانت تتلقاه من بريطانيا، وراحت الأردن تتحضر لإقامة علاقات مع الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، وشعر الملك حسين بأن سلطته في خطر، جراء الأصوات المؤيدة لمصر، والداعية إلى النظام الجمهوري بين وزرائه وقادة جيشه.

جاء قرار الملك سعود بقبول مبدأ آيزنهاور، ليمهد للملك حسين الطريق لاستعادة المبادرة والعودة إلى سياسة الغرب، وفي اجتماع القاهرة الذي ضم الدول العربية الأربع -مصر والسعودية وسورية والأردن ما بين ٢٥-٢٧ شباط/ فبراير ١٩٥٧ بُعيد عودة الملك سعود من أمريكا، حاول فيه الملك سعود فكّ عرى هذا المعسكر، ودفع سورية إلى قبول مبدأ أيزنهاور، غير أن القوتلي والعسلي صديقي الملك سعود كانا يدركان أن تلك الطريق محفوفة بالمخاطر والمنزلقات، نتيجة تضعضع القوى اليمينية في سورية، فأصبح خيار سورية يحدده انتصار هذا الفريق أو ذاك في صراعهما على السلطة.

٣- بدأت بوادر أزمة وزارية تخيم على سورية بعد أن استردت القوى اليمينية شيئاً من المبادرة على أثر نجاحها في تعديل الأحكام في قضية المؤامرة العراقية، وطالبت بإجراء تعديل وزاري يشارك فيه حزب الشعب، أو بتشكيل وزارة جديدة.

وفي ١٣-٣-١٩٥٧ عاد إلى دمشق فوزي سلو المبعوث السوري إلى الرياض، يحمل رسالة من الملك سعود إلى الرئيس القوتلي، يتهم فيها بعض العناصر السياسية والعسكرية بفتح أبواب سورية أمام الشيوعية العالمية، فكانت هذه الرسالة انعكاساً لازدياد قلق الخارجية الأمريكية عن مسيرة الأحداث في سورية، وخاصة بعد إبرام عقد مع شركة تشيكية في بناء مصفاة للنفط في سورية.

كان القوتلي مدركاً أن المؤامرة العراقية -الفاشلة- قد ثبتت مواقع البعث والسراج في السلطة، وأصبحت تسيطر على ٣٠٪ من ضباط الأركان البارزين، فاتفق -القوتلي- مع رئيس الأركان على إجراء تنقلات ترمي إلى إبعاد العناصر اليسارية عن المراكز الحساسة، وعندما أصدر رئيس الأركان في ١٥-٣-١٩٥٧ مرسوماً بنقل ١٢٠ ضابطاً إلى مراكز بعيدة، رفض العظم -كوزير دفاع بالوكالة- المصادقة على حركة التنقلات، وهدد بتسريح رئيس الأركان، وبعد يومين أعلن الضباط اليساريون تمردهم على الأوامر في قطنا، وطالبوا باستقالة رئيس الأركان، وإلغاء القرارات، وهددوا باحتلال دمشق، وفي الوقت نفسه أعلن ضباط قطاع حوران عزمهم على مهاجمة معسكر قطنا والقضاء على الفتنة، وحشدت الشرطة العسكرية

عناصرها، وتمركزت قوات أمين النفوري في ثكنة داريا، وأصبحت سورية على شفير حرب بين قطاعات الجيش، فتدخل عبد الناصر، وأُلغيت مراسيم النقل، فثبتت هذه الحادثة نفوذ الضباط البعثيين واليساريين، لتصبح أقوى كتلة عسكرية في الجيش السوري، وامتد نفوذ اليسار إلى الشارع السوري، وقد ظهر ذلك جلياً في الانتخابات التكميلية التي وقفت فيها الحكومة بكل أجهزتها ونفوذها مع رياض المالكي مرشح اليسار ضد الشيخ السباعي مرشح اليمين والوسط، وحدث تزوير مفضوح كما مر معنا ذلك من قبل.

٤- تحركت أمريكا، وأرسلت مندوباً عنها للترويج لمبدأ أيزنهاور الذي أعلنت لبنان موافقتها عليه، ليصطف مع العراق، وفشل الانقلاب الذي حاول ضباط أردنيون يساريون القيام به، وأقال الملك حسين حكومة النابلسي، واعتقل عدداً من الضباط، وفر علي أبو نوار رئيس الأركان ومساعده علي الحياري وأنصارهما إلى دمشق، وأمسك الملك حسين بزمام الأمور، فشنت الصحافة اليسارية في سورية أعنف الهجمات على الملك حسين، ثم على الملك سعود الذي وقف بجانب الملك حسين، واتهم خالد العظم في ١٥-٦-١٩٥٧ الملكين حسين وسعود بالعمالة لأمريكا، وأيده في ذلك الحوراني بتصريحات مماثلة.

تأزمت العلاقات بين سورية وبين جيرانها -السعودية ولبنان والأردن والعراق- ونمت مع عبد الناصر الذي تحرك رجاله للانتشار في كل دائرة، وبين كل فئة، وقام محمود رياض يروج لأفكار عبد

الناصر القوميـة التحررية، وينبه إلى ضرورة تقليص الـنفوذ الشيوعي، فبـدت ملامح التـصدع داخل التـجمع بـين حلفاء الـقاهرة وبين خـالد العظم ومناصرية اليساريين، ثم اتسعـت الهوة عندما وقع العظم اتفاقية التـعاون الاقتـصادي بين سـورية والسوفـيات الذيـن أبدوا استعـدادهم لتطـوير الاقتـصاد الـسوري وتنـميته، وبنـاء قطاع السـكك الحـديدية والطرق والري ومحـطات توليد الكهربـاء وغيرها، لتدفع بـسورية إلى أحضـان السوفـيات، وبدورها مـارست واشنطـن ضغوطاً مـكثفـة ضد النظام السوري، فحشدت أسطولها، وحـركت تركيا حليفتها، وسدّت في وجه سـورية أبواب تصدير إنتاجـها الزراعي والصناعـي، وحملت حلفاءها الغربيين على انتهاج سياسة المحاصرة، فردت سورية بإرسال وفد سياسي وعسكري، عقد اتفاقيـة مع حكومة كوسيجين في موسكو لتنفـيذ مشاريع التنـمية في سورية، وتصـدير الفائض الزراعي لتسـديد فـاتورة السـلاح، دون أن يترتـب على ذلك أي تـدخل سوفـياتـي في الشؤون السورية، ودون أن يـقترن ذلك بما يمس السيـادة والاستقلال والحرية.

٥- في مسـاء ١٢-٨-١٩٥٧ أذاع ناطق باسم الجيش نبأ مـؤامرة أعدتها واشنـطن بالتواطؤ مع الرئيس السـابق أديب الشيشكلي والـعقيد إبراهيم الحسيني للإطاحة بالحكومـة، بترتيب من الخبير الأمريكي في الانقـلابات هواردسـتون والمـلحق العـسكري في الـسفـارة الأمريكـية روبرت مـاللوي وفـرانسـيس جيـتـون، وأعضـاء من الحـزب القـومي السوري وبـعض الضباط، فـأبلغت الخـارجية السـورية القائم بأعـمال

السفير الأمريكي في دمشق رغبتها في مغادرة ثلاثة أمريكيين في السفارة خلال ٢٤ ساعة، فردت أمريكا بإبعاد السفير السوري فريد زين الدين والمستشار ياسين زكريا من واشنطن، فقدمت سورية شكوى في ١٢-٨-١٩٥٧ إلى الأمم المتحدة تتهم فيها الولايات المتحدة بالتآمر على النظام السوري.

جرت تبدلات جوهرية في بنية الجيش السوري، أبعِد بموجبها رئيس الأركان توفيق نظام الدين وعدد من كبار الضباط الموالين له، وتولى عفيف البزري -لبناني من صيدا- رئاسة الأركان بعد ترفيعه إلى رتبة لواء، وتسلم السلطة في الجيش فريق جديد من الشيوعيين والناصريين والبعثيين، والمرجح أن البزري كان عضواً منظماً في الحزب الشيوعي.

شنت الصحف الأمريكية والأوربية حملة شديدة على سورية ضد هيمنة الضباط اليساريين على مقدرات الجيش السوري، قال الرئيس الأمريكي في سياق هذه الحملة: إن الوضع في سورية يحتاج إلى مراقبة من قبل العالم الحر حتى لا يصل إلى حال لا يمكن تحمله، ثم تلقّتْ الخارجية الأمريكية أنباء مفادها أن عبد الناصر يعتقد أن سورية سارت إلى اليسار مسافة أبعد بكثير من سياسته الحيادية.

تحول اهتمام الغرب نحو القاهرة القادرة على لعب دور حاسم لتقليص نفوذ الجماعات المؤيدة للسوفيات، فتشارك الغرب مع القاهرة منذ منتصف آب/ أغسطس في الاهتمام بتطوير الأوضاع في سورية، وبرزت فكرة الوحدة بين مصر وسورية كعلاج ناجح للقضاء

على النفوذ السوفياتي، وفي هذا السياق ورد في تقرير صدر عن الخارجية البريطانية في ١٣-٨-١٩٥٧: أننا نأخذ بعين الاعتبار أهمية فكرة الوحدة بين مصر وسورية، لأن أساليب عبد الناصر الدعائية أتاحت له أن يمسك بيده المبادرة في الشؤون العربية، كما جعله قادراً على اتخاذ خطوات حاسمة لتحويل مسيرة سياسة الحكومة السورية(١)**.**

توجه القوتلي في ١٧-٨-١٩٥٧ إلى القاهرة للتشاور مع ناصر، فوجده أكثر منه قلقاً وتخوفاً مما يجري في سورية، فكان على القاهرة أن تتحرك للحؤول دون سقوط سورية في المعسكر الشيوعي، وكخطوة أولى نصح ناصر القوتلي بالعودة إلى دمشق، وأن لا يتنازل عن الرئاسة، بل يسعى إلى اتهام العظم بأنه بالغ في دفع سورية نحو المعسكر الشيوعي.

اعتقد الأمريكان أن احتمالات السيطرة الشيوعية على سورية تزداد بشكل متسارع، وعمدوا إلى وضع الخطط بالتعاون مع الإنكليز وغيرهم لتنفيذ عمل مشترك يطوق مسيرة النظام السوري، وفي ١٢-٨-١٩٥٧ طلبت أمريكا من بريطانيا التعاون لإحداث تغيير في سورية، وأرسلت أبرز خبرائها في الخارجية لوي هندرسون إلى أنقرة ليتاح له الحصول على ما يجري في سورية، كما استنجدت أمريكا بالملك سعود لممارسة نفوذه لنشر دعاية ضد الشيوعية الملحدة، وقد

---

(١) دراسة في تاريخ سورية المعاصر للباحثة أمل ميخائيل بشور: ٤١٤ نقلاً عن تقرير صادر عن السفارة البريطانية في ١٣-٨-١٩٥٧ .

استجابت بريطانيا للمساعي الأمريكية، واقترحت استنفار الدول العربية وتركيا، لإظهار أن ما يجري في سورية خيانة لمبادئ القومية العربية والإسلام، وقال دالس وزير الخارجية الأمريكية: إذا ما تبين أن الدول المجاورة لسورية غير قادرة على التحرك لإنهاء الوضع، فإن من السهل علينا اتخاذ هذه الخطوة، ومن المؤكد أن واشنطن ستتشاور مع لندن قبل اتخاذ أي إجراء، ولسوف تتضح الأمور على ضوء المعلومات التي ستصلنا من لوي هندرسون.

٦- لمس هندرسون من الأتراك والعراقيين والأردنيين واللبنانيين مخاوف كبيرة من تغلغل النفوذ الشيوعي في سورية، وكان تفكيره متجهاً لحض حكومته على التصرف بحزم أكبر في معالجة الشيوعية العالمية، ثم حرض الدول التي زارها بقوله: إن العلاج الملح يجب أن يقع على عاتق جيران سورية المباشرين، وأنه يجب تنبيه عبد الناصر إلى خطورة التطورات في سورية.

وفي ٢٩-٨-١٩٥٧ جرت مقابلة بين السفير الأمريكي هير وجمال عبد الناصر استغرقت ساعة و٥٤ دقيقة، أكد فيها عبد الناصر للسفير بأنه على اطلاع تام بالوضع السوري، وهو ليس بالخطورة التي تراها واشنطن، فكتب السفير في تقريره إلى حكومته عن هذا اللقاء، وقال: من المستحسن إطلاع عبد الناصر بوضوح على وجهة نظر الولايات المتحدة حول التهديد الشيوعي لسورية.

في ٢٥-٩-١٩٥٧ وصل الملك سعود إلى دمشق ليعلن أنه وشعبه مع سورية قلباً وقالباً حتى النهاية، واقترح على القوتلي إمكانية إزالة

سوء التفاهم بين دمشق وواشنطن، ومع ذلك فإن محاولة سعود ولدت ميتة، لأن المصريين كانوا لها بالمرصاد.

وفي ١٣-١٠-١٩٥٧ أنزل عبد الناصر ثلاثة آلاف جندي مصري في مرفأ اللاذقية، ومن جهة أخرى اتهم السوفيات واشنطن بأنها تسعى للسيطرة على سورية بالتعاون مع تركيا، وأن سورية لن تُترك وحيدة، وأن موسكو لن تقف مكتوفة الأيدي أمام التحديات العسكرية التي تتحضر على حدود تركيا الجنوبية، ثم تقدمت سورية بشكوى إلى هيئة الأمم المتحدة ضد التهديد التركي، كما وجه السوفيات مذكرة إلى هيئة الأمم حول الوضع القلق في الشرق الأوسط، فرد الوزير الأمريكي دالس للتو أنه في حال تعرض تركيا لأي اعتداء مسلح، فإن الولايات المتحدة لن تعتبر أرض السوفيات محرمة.

تحرك الملك السعودي مرة أخرى للتوسط بين سورية وتركيا، فجاء الرفض السوري للتو، معلناً رفض سورية لهذه الوساطة بتأثير من المصريين، ثم وضعت الأمم المتحدة الشكوى السورية على الرف، وأسدل الستار على الأزمة تدريجياً، ثم سحبت تركيا في نهاية تشرين الثاني فرقتها التي كانت حشدتها على الحدود السورية، وذلك عندما وجدت واشنطن حلاً جديداً للوضع السوري، **وكتب السفير البريطاني في تقريره السنوي عن سورية: إن التدخل العسكري في الظرف الراهن غير عملي إطلاقاً، وإن أفضل ما يمكن التعويل عليه، هو وحدة سورية ومصر التي ستكون علاجاً ناجحاً لتقليص نفوذ أنصار الشيوعية في الداخل، وعليه يجب شد أزر البعث الذي يدعم**

الموقف المصري لصالح إضعاف نفوذ الشيوعيين السوريين[1].

وفي ٧-١١-١٩٥٧ التقى وزير الخارجية السوري صلاح البيطار -بصفته الشخصية- مع ممثل الولايات المتحدة أودج ومساعد وزير الخارجية الأمريكية رونتري، فصرح بعدها البيطار، بأن لا مصلحة لسورية بمعاكسة الولايات المتحدة، وفي طريق عودته إلى دمشق، ترافق مع رئيس الحزب الاشتراكي الأمريكي توماس الذي راح يلقي المحاضرات في دمشق، تحت رعاية حزب البعث، والتي عبر فيها عن التعاطف الأمريكي مع حركة الاشتراكية العربية المعادية للشيوعية، إذ ذاك كانت خطوط الانفصال البعثي الشيوعي قد ارتسمت، وتعبدت طريق الوحدة مع مصر، ثم ظهرت الحاجة لوضع حد للنظام السوري الذي كان يسوده الخلاف والنزاع والفوضى في الوسطين السياسي والعسكري، فكان الحل هو الهروب من عدم الاستقرار في دمشق إلى استقرار القاهرة، ومن الخوف من الشيوعية إلى عبد الناصر المتصلب في عدائه لها، ومن وحدة الكيان السوري إلى الوحدة العربية، فانتهى كل هذا إلى الوحدة بين القطرين في شهر شباط، فبراير عام ١٩٥٨ .

٧- نشب خلاف بين أطراف التجمع القومي عندما رفض البعث انتخابات المجالس البلدية التي تحدّد إجراؤها في ١٥-١١-١٩٥٧م، وقرر عدم خوض انتخابات المجالس البلدية مع الشيوعيين في جبهة واحدة، فكان قراره هذا إيذاناً بدفن التجمع القومي، والتوجه نحو

---

(١) دراسة في تاريخ سورية لأمل بشور: ٤٣٤ .

الاتحاد مع مصر، ثم شنت الصحف البعثية حملة عنيفة على الشيوعيين، واتهمتهم بأنهم أعداء القومية العربية، كما تناولت الحملة خالد العظم، وأدانت محاولاته تحويل أنظار الشعب من السعي للاتحاد مع مصر إلى الدعاية للاتفاقيات التي عقدها مع الكتلة الشيوعية.

في نهاية ١٩٥٧ انعقد الرأي داخل سورية على أن الشيوعيين أصبحوا قوة نافذة، وأن البلاد على حافة أن تصبح دولة شيوعية، وهذا ما دفع بشريحة واسعة من الفعاليات السورية إلى الترحيب بالوحدة مع مصر.

وفي ١٨-١٠-١٩٥٧ استقبلت دمشق ٤٠ نائباً مصرياً حضروا بدعوة من مجلس النواب السوري للمشاركة في جلسة برلمانية مشتركة ترأسها أنور السادات، واتخذ المجتمعون -سوريين ومصريين- قراراً بالطلب إلى الحكومتن المصرية والسورية لاتخاذ خطوات فورية وجادة للتوصل إلى اتحاد فيدرالي بين القطرين، إلا أن أجهزة الإعلام في مصر تحدثت عن الوحدة الشاملة التي تبناها البيطار -فيما بعد- دون أن تحظى بموافقة حزبه والأحزاب الأخرى، ثم جرت المفاوضات ضمن إطار محدود من النخبة العسكرية الذين تولوا الوصاية على اليساريين وعلى الشعب، وأنجزوا الوحدة.

كان الضباط يقضون الليل في وحداتهم على أهبة التحرك في مواجهة أي مباغتة من جماعة أخرى، اعتقاداً منهم أن البلاد سائرة نحو الانهيار، وأن ثمة احتمالاً بانقلاب شيوعي، وأن الضمان الوحيد

هو الوحدة العاجلة مع مصر، مما دفعهم للتوجه إلى القاهرة، الأمر الذي أتاح لعبد الناصر أن يفرض شروطه، وأن يقبلها العسكريون السوريون بسهولة، ودون تردد.

وفي منتصف كانون الأول/ ديسمبر وصل إلى دمشق حافظ إسماعيل لوضع الترتيبات اللازمة لتوحيد الجيشين، مشيراً إلى أن على سورية أن تتكيف مع النظام المصري إذا ما رغبت بالوحدة، وبعد أن كان البحث جارياً حول اتحاد فيدرالي حوّل الضباط السوريون القرار إلى وحدة تامة وفورية.

وفي ١١-١-١٩٥٨ عقد مجلس القيادة العسكري السوري اجتماعاً طارئاً بدعوة من رئيس الأركان عفيف البزري لحل الخلافات بين الكتل العسكرية، واتفق المجتمعون على أن الحل الوحيد للحال التي تردت بها الأمور هو التوجه إلى القاهرة لإبرام الوحدة.

وفي فجر ١٢-١-١٩٥٨ توجه إلى القاهرة وفد من عشرين ضابطاً برئاسة البزري لإبلاغ ناصر بقرارهم، وعهدوا إلى السراج وآخرين بتبليغ رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس البرلمان ووزير الدفاع مذكرة اتفق الـ ٢٣ ضابطاً على صياغتها، فتم تسليمها صباح اليوم التالي، وهي تحمل في طياتها تهديداً خفياً، فقد كانت أشبه ما تكون ببيان انقلاب عسكري، فقال القوتلي لأمين النفوري وأحمد عبد الكريم اللذين سلماه المذكرة: هل هذا انقلاب عسكري؟ أما العظم فقال للنفوري: لماذا لم تطلعوا الحكومة على قراركم قبل الذهاب إلى القاهرة؟!!

سارعت الحكومة السورية إلى إرسال وزير الخارجية صلاح البيطار إلى القاهرة، لينقل إلى عبد الناصر رغبة الحكومة السورية بالوحدة دون أن تفوضه بإبرام اتفاق.

اجتمع الضباط مع المشير عامر، وحدثوه بمشروعهم، ثم قابلوا عبد الناصر، ووصفوا له -كما قال هيكل- حالة الفرقة في الجيش، وتحرُّكَ حلف بغداد، ونشاطَ خالد بكداش، فرفض عبد الناصر أن تكون هذه الأسباب قوة دافعة للوحدة، فجاؤوا بالبيطار، وعقدوا اجتماعاً في ١٧-١-١٩٥٨ مع ناصر وعامر والبيطار والضباط العسكريين، فعرض ناصر شروطه في الاستفتاء وحل الأحزاب وانسحاب الجيش من السياسة، فعاد الضباط إلى دمشق مذعنين، ساعين إلى نوع من الوحدة توفر لهم قدراً من الاستقلال الذاتي، إلا أن عبد الناصر أرادها وحدة اندماجية، فأتاح له إحجامه السابق، واندفاع السوريين فرض شروطه التي لم يعد بإمكان السوريين التراجع عنها أو الانسحاب منها.

٨- شرعت حكومة العسلي في ٢٥-١-١٩٥٨ في دراسة محضر الاتفاق المبدئي بحضور القوتلي والحوراني والبزري والضباط الذين لم يشاركوا بالمناقشات، بل كان وجودهم للضغط على من تسول له نفسه من الوزراء التحفظ أو الاعتراض.

عاشت سورية فترة حماسية محمومة، شملت الحكومة والشعب والبرلمان والأحزاب، باتجاه تنفيذ الوحدة بين سورية ومصر، بحيث لا تسمح لأي معترض أو مقترح أن يبدي رأياً، أو يجهر بأي لون من

ألوان المعارضة، ولو شكلياً، وعندما تقدم خالد العظم بملاحظاته حول نظام الحكم الرئاسي والاستفتاء الشعبي وتفويض رئيس الدولة بوضع دستور مؤقت، وموضوع الاتحاد القومي الذي سيلغي الأحزاب، ذهبت آراؤه أدراج الرياح، ولم يُلتفت إليها.

عاد البيطار ليعلن أن التحضيرات من أجل إبرام الوحدة قد انتهت، وعندما أبدى بعض الساسة مثل هاني السباعي آراءهم أو وجهات نظرهم ضُرب بها عُرض الحائط، أما أعضاء البرلمان فلم تُعط لهم الفرصة لدراسة مشروع يلغي كيان سورية، وينقلها إلى كيان آخر، أما حزب البعث فقد توهم -كما قال عفلق- أنه سيكون المحرك لهذا الكيان، وسوف يستمر بعد قيام الوحدة كحزب حاكم بالنشاط داخل إطار الوحدة، وأما الحزب الشيوعي فكشف بسرعة معارضته للوحدة الاندماجية -بعد أن وافق على اتحاد فيدرالي- وأعلن بكداش في ٢٩-١-١٩٥٨ أنه لن يحل حزبه بدعوى أنه حزب غير شرعي وغير مرخص له، وسرعان ما غادر سورية إلى الدول الاشتراكية.

في ٣١-١-١٩٥٨ سافر رئيس الجمهورية وغالبية أعضاء الحكومة ورئيس الأركان إلى مصر، وعقدوا في قصر القبة مع المصريين اجتماعاً دام ثلاث ساعات، اتفقوا فيه على صيغة الدستور المؤقت ووقعوا وثيقة إعلان الجمهورية العربية المتحدة، فتلا رئيس الوزراء السوري السيد صبري العسلي على أسماع الجماهير المحتشدة في قصر القبة الوثيقة التي نصت على أن يكون النظام رئاسياً، يتولى فيه السلطة رئيس الدولة، ويعاونه وزراء يكونون مسؤولين أمامه، وبذلك

يكون النظام البرلماني في سورية قد انتهى، وانتهى معه الكيان السوري، ليحل مكانه كيان جديد آخر.

ثانياً: الوحدة بين سورية ومصر

في ٥-٢-١٩٥٨ أقر البرلمان السوري وثيقة إعلان الجمهورية العربية المتحدة.

وفي ٢١-٢-١٩٥٨ جرى استفتاء حول دولة الوحدة، وانتخاب جمال عبد الناصر رئيساً لها، فصوت ٩٩٫٨٪ لصالح الوحدة.

وفي ٢٥-٢-١٩٥٨ استقبلتْ دمشق عبد الناصر استقبال الفاتحين.

وفي ٢٧-٢-١٩٥٨ توجه صانعو الوحدة إلى قبر صلاح الدين، فتعهد ناصر أمام الضريح بتحقيق الوحدة الشاملة، وأنه سيقود العالم العربي إلى النصر، وإلى زوال دولة إسرائيل.

غير أن الوحدة التي تم إنجازها على نار ملتهبة، قد اعترتها أخطاء كبيرة أثرت سلباً على مسيرتها، وانتهت بها إلى كارثة مؤلمة، وخيبة أمل قاسية أصابت دعاة الوحدة ولمّ شمل الأمة بالصميم، ومن ذلك:

١- أن قيام دولة الوحدة على أيدي مجموعة من العسكريين على ذلك النمط غير المألوف، وتطبيق النظام المركزي دون تحضير كلي أو دراسة شاملة كان خطأ فادحاً، إذ تحولت فيه دمشق إلى محافظة كالإسكندرية وحلب.

منح الدستور رئيس الجمهورية صلاحيات واسعة، إذ ترك له

مهمة تعيين أعضاء مجلس الأمة المنوط بهم السلطات التشريعية، وبذلك أصبح رئيس الجمهورية مشرعاً بواسطة نواب معيّنين من قِبَله، ليصبح رئيساً حاكماً دون أي قيد تشريعي.

وفي ٦-٣-١٩٥٨ تشكلت أول حكومة في دولةالوحدة، وارتبطت بالتعليمات الصادرة من القاهرة.

كانت أولى المهمات التي باشرتها قيادة دولة الوحدة هي تصفية مجلس القيادة العسكرية، فتم تحويل عدد من الضباط إلى العمل السياسي، وبعضهم تفرغ للعمل العسكري، وتم تسريح ٤٩ ضابطاً، ثم تمت تنحية رئيس الأركان البزري.

أما حزب البعث، فقد مارس سلطات واسعة في داخل دولة الوحدة، وشرع يلغي منافسيه في المراكز والمناصب الإدارية وفي التنظيمات النقابية والاتحادات، مؤسساً في سورية ما سماه المصريون مزرعة حزب البعث، دون أن يدرك البعثيون أن النظام الذي أقامه عبد الناصر لن يكون فيه وجود لأي كيان سياسي آخر.

٢- في ٢٦-٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩ عقد المجلس الأعلى لدول حلف بغداد اجتماعاً في أنقرة افتتحه نوري السعيد بقوله: إن الشعب السوري لم يُمنح حرية الاختيار، وإلا كان اختار الوحدة مع العراق.

أما الوزير البريطاني فقد استبعد مواجهة دولة الوحدة بالقوة، وقال دالس وزير خارجية أمريكا: لن تتخذ حكومته أية مبادرة للتدخل، ويرى أن نوري السعيد هو الأكثر قدرة على التصرف، فأجاب

نوري: إننا نعتقد بأن على الولايات المتحدة أن تحاول إيجاد حل للمسألة الفلسطينية، فرد دالس: إن هناك صعوبات في هذا الصدد!! عندئذ سأل فاضل الجمالي، عضو الوفد العراقي: **هل حكومة الولايات المتحدة جاهزة لتعطي العرب ما قررته الأمم المتحدة عام ١٩٤٩؟ فأجاب دالس: إن حكومتي لن تقدّم مثل هذه الضمانات، لأن خطة ١٩٤٩ أصبحت خارج الزمن، وإن أفضل ما يمكن التعويل عليه قيام مباحثات منفردة مع كل دولة على حدة!!**

وفي ٨-٣-١٩٥٩ وقع الإمام البدر سيف الإسلام اتفاقية دخول اليمن في اتحاد فيدرالي مع دولة الوحدة، أما الملك سعود، فكان يرى أنه ليس من الحكمة معارضة الوحدة السورية المصرية، وفي منتصف شهر نيسان ١٩٥٩ اعترفت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بسياسة الحياد الإيجابي للجمهورية العربية المتحدة، وقررت أمريكا رفع الحظر عن الممتلكات المصرية المجمدة منذ أزمة السويس، كما قررت إمكانية منح مصر مساعدات مالية وقروض تغطي العجز في ميزانية الجمهورية العربية المتحدة، غير أن هذه العلاقة -بين أمريكا وحكومة ناصر- شابها لوقت قصير ما يشوبها على إثر الثورة الشعبية في لبنان ضد الرئيس شمعون، فعادت واشنطن والقاهرة، واتفقتا على اختيار فؤاد شهاب رئيساً للبنان خلفاً لشمعون، غير أن ثورة العراق في ١٤-٧-١٩٥٨ دفعت بالإنكليز والأمريكان إلى التدخل المباشر لحماية الأردن ولبنان، ثم اعترفت أمريكا بالنظام الجديد في العراق.

بدأت ثورة العراق مؤيدة للوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، وبين عشية وضحاها تحول العراق من حليف إلى منافس عنيد، يشكل تحدياً لعبد الناصر، وللجمهورية العربية المتحدة، فمهّد هذا التطور لسقوط الوحدة، وإحياء الروح الإقليمية في كل أرجاء الوطن العربي.

٣- شدد المصريون قبضتهم على سورية درءاً لارتدادها، واتخذت القاهرة قرارات خطيرة تشبه ما كانت عليه الحالة في مصر، من قانون الإصلاح الزراعي وتحديد الملكية، وإلغاء النظام العشائري، وإخضاع سورية بدرجة أعلى من قبل الحكومة المركزية في القاهرة، وبعد أن كشفت محاكمات بغداد ارتباط العسلي مع النظام الهاشمي في العراق قدم استقالته، فَقُبِلت على التو، وأُقصي بعده الحوراني، ليتم إبعاد النائبين السوريين لرئيس الجمهورية، وغابت تسع عشرة صحيفة سورية من أصل ٢٥ صحيفة، واجتاحت سورية موجة من الجفاف طيلة سنوات الوحدة الثلاثة، فألحقت أضراراً بالغة في زراعة القمح والقطن، أعقبها تهريب الرساميل السورية إلى الخارج بشكل واسع، فتحرك الحزب الشيوعي ضد الحكومة الناصرية، وشنّ عليها هجومات جارحة، فردت الحكومة باعتقال ٢٠٠ شيوعي، وبإغلاق الصحف المناصرة للشيوعيين، وإقصاء عدد من الضباط عن الجيش، وملاحقة بكداش الذي لاذ بالفرار، فشكلت هذه المعارضة المعلنة، وأكثر منها المعارضة السرية والصامتة البداية للأحداث التي تداعت وأطاحت بالوحدة، وانتهت بسورية فيما بعد إلى الانفصال.

بدأ العد التنازلي بالثورة التي أعلنها الشواف في الموصل بدعم من الأجهزة الأمنية في الإقليم الشمالي التي زودت الثائرين بالمال والسلاح والبث الإذاعي، فقضى عليها عبد الكريم قاسم بعد ٤٨ ساعة من قيامها، فقتل قاسمٌ الشواف، وأعدم أكثر من خمسين ضابطاً، وكان الضابط عبد الوهاب الخطيب في المخابرات السورية قد بث أسماء ٢٨ ضابطاً باسم الثوار العراقيين، فتم اعتقال رفعت الحاج سري وناظم الطبقجلي ومحمد عزيز وغيرهم، ومن ثم إعدامهم، فاستحكم العداء بين العراق والجمهورية العربية المتحدة، فحاول البعث الضغط على ناصر لإعادة عناصر الحزب إلى المواقع المهمة، وإبعاد خصومهم السياسيين والعسكريين، فلم ينجحوا، وكان في ذلك تصدع التحالف البعثي الناصري.

٤- أصدر البزري بياناً في ١٠-٥-١٩٥٩ تضمن نقداً لاذعاً لأوضاع الإقليم الشمالي، مما دفع قادة الجمهورية إلى الإسراع في انتخابات الاتحاد القومي، فعقدت الحكومة المركزية لأول مرة منذ قيام الوحدة جلستها بحضور كامل أعضائها، وقررت إجراء انتخابات الاتحاد القومي في كلا الإقليمين في ٨-٧-١٩٥٩، وتشكيل مجلس الأمة في تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٥٩ ليكون الدعامة الأساسية لبناء دولة الوحدة.

اصطدم قرار الانتخاب بمعارضة قادة البعث الذين اعتبروا أن لا ضرورة له في سورية، فحاول السادات حل هذا الخلاف، وفضل عبد الناصر الانتظار، ثم بدا له أن الاستياء من نظام الوحدة موجه نحو

البعثيين، فقرر وضع حد لعنادهم، فجرت الانتخابات، وكانت بمثابة تحطيم لحزب البعث في هذه المرحلة من عمر الجمهورية العربية المتحدة القصير، فقاطع البعث الانتخابات، وسحب بعض مرشحيه من بعض الدوائر، ونال ٢٥٠ مقعداً من أصل ٩٤٤٥ في سورية، تشكل ٢٪ من مجموع مقاعد الاتحاد القومي في الإقليم الشمالي.

أخذ الاتحاد القومي مكانه، ومن خلاله عاد إلى المسرح السياسي بعض قادة الحزب الوطني وحزب الشعب والإخوان المسلمين وغيرهم، فتفككت عرى العلاقات بين عبد الناصر والبعث بسرعة فائقة.

٥- حدث فراغ سياسي بعد انسحاب البعث من الحكومة، فبادرت جماعة الإخوان والأحزاب التقليدية إلى ملئه، فخاض الإخوان انتخابات الاتحاد القومي في معظم المدن السورية دون اتخاذ قرار مركزي، بل تُرك للمراكز حرية اتخاذ الموقف الذي تراه، فأحرز مرشحو الإخوان نجاحاً كاسحاً في كل محافظة أو بلدة قدموا فيها مرشحيهم، ودللوا أن قاعدتهم الشعبية ما زالت قوية وراسخة بالرغم من كل الضغوط التي مارستها سلطات الوحدة، ولاسيما الدوائر الأمنية في سورية، وكان بالإمكان أن يؤدي الإخوان دوراً كبيراً، وأن يكون لهم تأثير نافذ لولا تدخل أجهزة السراج بالتعيينات التي قلبت النتائج رأساً على عقب كما سيأتي لاحقاً.

لقد جرى في هذه الفترة حدث ذو شأن كبير، إذ انتهى عبد الناصر إلى اقتناع بعد افتراق عن الشيوعيين واليساريين والبعثيين أن

الإسلاميين لا يمكن تجاهلهم، ولا ينبغي إهمالهم، لأن مشاركتهم ستملأ الفراغ السياسي أو جزءاً منه، فقرر عقد مؤتمر في القاهرة يضم كبار العلماء والزعامات الإسلامية في سورية ومصر، وحرك لإنجاز هذا العمل أحد المقربين منه السيد حسن التهامي الذي أثار دوره في أجهزة عبد الناصر الكثير من الجدل في قيامه بالاتصالات السرية مع حكام تل أبيب عبر المغرب وقيامه كذلك!! بمحاورة الشيوخ والعلماء من جهة أخرى في هذا التناقض المريب. تحرك التهامي في المدن الرئيسة في سورية ورشح العلماء الموثوقين ذوي الثقل الشعبي، متجاوزاً علماء السلطان في خطوة غير مسبوقة وعمل غير مألوف، وعندما حضر إلى حماة عمد إلى الشيء نفسه، واختار القيادات الدينية الموقرة، فعقدوا اجتماعاً في القاعة الأثرية لآل الكيلاني المطلة على النهر -وتسمى الطيارة- التي ذكرها أبو الحسن الندوي في مذكراته، وعندما حان وقت الصلاة، وقف الجميع لأدائها باستثناء التهامي الذي كان على سفر، فاهتبلت الفرصة، وتكلمت معه بشأن الإخوان المعتقلين في مصر، قلت له: علمت بأن عدد المعتقلين في سجون مصر لا يتجاوز ٣٠٠ سجين، ومن السهل على عبد الناصر عبر أجهزته الأمنية الضخمة أن يجعلهم تحت المراقبة إذا أطلق سراحهم، وكان يخشى نشاطهم، لتكون دعوته للعلماء مقنعة، إذ كيف يدعو كبار العلماء للعمل الدعوي، وأبناء الدعوة الإسلامية يقبعون في غياهب السجون؟ فوعد بنقل الفكرة إلى الرئيس.

اجتمع علماء سورية في دمشق، وكانت الطائرة في الانتظار على

أرض المطار لتقلهم إلى القاهرة، فهدد الحوراني والسراج بالاستقالة إذا تم عقد المؤتمر، فانحنى عبد الناصر للعاصفة، وألغى المؤتمر خشية أن تزداد الأمور المعقدة تعقيداً، فعاد العلماء من حيث أتوا، كل إلى بلده.

وصادف بعد سنوات أن التقيت حسن التهامي في أبو ظبي بزيارة له لوزير الأوقاف ثاني حارب الذي كان ممن درّسته في ثانوية الدوحة، وبعد انتهاء الزيارة قمت بتوصيله إلى فندق هيلتون على شاطئ أبو ظبي، فسمعت منه العجب في هذه المرافقة، ولم يكن معنا أحد، قال التهامي: سمعت عبد الناصر عندما استقبل حاخامات اليهود في مصر، يسخر أمامهم من شيوخ المسلمين!! فأدهشني -يقول التهامي- تصرفه، وأثار في نفسي الامتعاض، وقال كذلك: حدثني عبد الناصر يوماً فقال: يا حسن، عاوزني آخد بالكلام اللي بيقول: ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات؟ ساخراً من الآية الكريمة ورافضاً لها، هذا ما سمعته من حسن التهامي، وإن يكن كاذباً فعليه كذبه!!

٦- أعود إلى موضوع الخلاف الذي استحكم بين عبد الناصر وحزب البعث، وأدى إلى استقالة وزراء البعث، كان مصطفى حمدون أولهم، ثم تبعه عبد الغني قنوت وصلاح البيطار ورياض المالكي وخليل كلاس، ثم أكرم الحوراني، فقبل عبد الناصر استقالاتهم على الفور بتاريخ ٣٠-١٢-١٩٥٩ و٣-١-١٩٦٠، وبذلك انطوى دور البعث في حياة دولة الوحدة، فتحول بعض البعثيين إلى

معارضين، واعتزل آخرون السياسة، وقامت بعض الخلايا السرية، ومنها اللجنة العسكرية التي لعبت الدور الفاعل في انقلاب ٨-٣-١٩٦٣ .

جاء المشير عامر إلى دمشق بسلطات واسعة، فعمل جاهداً لكسب السوريين، فأسس مكتباً للشكاوى والمظالم، وتقرب من التجار ورجال الأعمال، واستبعد توحيد العملة بين الإقليمين، وأنقص رسوم الاستيراد من ٢٠ إلى ١٥٪ على السلع الغذائية، ومن ٥٠ إلى ٣٠٪ على الكماليات، فاستقبلت غرف التجارة والصناعة ذلك بترحاب فائق، ثم عرض المشير على ممثلي الأحزاب الوطني والشعب والإخوان المسلمين التعاون لتنفيذ التوجه السياسي الجديد، غير أن السراج الذراع الأيمن للمشير تصدى لأي معارضة، باعتماد الأساليب القمعية (لكل من ينتقد أو يتذمر) عِبر مكتب الاستخبارات العسكرية ومكتب الاستخبارات العامة، بعد أن زوده زكريا محيي الدين وزير الداخلية المركزي بخبراء ألمان ممن خدموا في النظام النازي، فأصبحت الدولة من أعلاها إلى أدناها في قبضة الأمن.

في ١٤-٢-١٩٦٠ زار عبد الناصر الإقليم الشمالي للاحتفال بالعيد الثاني لقيام الوحدة، فلاقى استقبالاً جماهيرياً حاشداً، وألقى ما يزيد عن خمسين خطاباً، ندد فيها بأعداء الوحدة، وهاجم عبد الكريم قاسم هجوماً حاداً، ووعد بتحرير فلسطين، وأجرى تعديلاً وزارياً قبل عودته إلى القاهرة، أدخل بموجبه وزراء من حزب الشعب، وآخرين من الحزب الوطني.

كان الاتحاد القومي في سورية خليطاً غير متجانس، عمل على تحطيم الوحدة كما زعم عبد الناصر في خطاب له في بتاريخ ١٧-١٠-١٩٦١ -بعد حدوث الانفصال-، أما المشير عامر فقد فشل في تقليص حدة التناقضات بين السوريين والمصريين، كما فشل أكثر من ذلك في التخفيف من استياء السوريين، وكان من أسباب ذلك تدفق آلاف المصريين إلى سورية لملء المناصب في الإدارات والقضاء والتعليم والأمن والجيش، فاتسعت المشاعر المعادية للوحدة، ولاسيما في أوساط الضباط السوريين الذين أحسوا بالمرارة والسخط، ولاسيما بعد إبعاد أكثر من ١١٠٠ ضابط إلى التقاعد، أو إلى وزارة الخارجية، وتم نقل ٨٠٠ ضابط إلى القاهرة، وكذا ٣٠٠٠ من ضباط صف إلى مصر، وشغل المصريون المراكز الحساسة في الجيش، بحيث أصبح الجيش الأول بكامله تحت السيطرة المصرية، فنمت وتفاقمت المشاعر المعادية ضد المصريين حتى قادت البلاد إلى الانفصال، ولم يكن المصريون وحدهم يتحملون هذه السياسات القمعية، فقد كانت أربع شبكات أمن تحت قيادة عبد الحميد السراج المباشرة، فأطلق أيدي ضباطٍ من المخابرات في المحافظات، وأعطاهم صلاحيات غير محدودة، وكأن الواحد منهم كان حاكماً عرفياً، كان من أبرزهم: مروان السباعي وعبد الوهاب الخطيب وعبد الجواد عبّارة، وعبدو حكيم وفوزي الشعيبي وغيرهم. ثم أسند عبد الناصر للسراج الإشراف على مديرية الدعاية والأنباء وأمانة سر الاتحاد القومي، فأضحى ممسكاً بالأجهزة الأمنية والسياسية والإعلامية.

فجرت هذه السلطات الخلاف بين السراج وعامر، فاستدعى ناصر السراج وعامر والوزراء العسكريين إلى الإسكندرية، وبعد عدة اجتماعات مطولة سحب عبد الناصر المشير عامر من سورية، وأسند للسراج رئاسة المكتب التنفيذي -مجلس الوزراء- في الإقليم الشمالي. بالإضافة إلى مناصبه السابقة، وكان ذلك إقراراً من الرئيس بأن سورية لا تحكم إلا بالقمع، وفي ظل حكم كهذا عاش الإقليم الشمالي عامه الثالث في ظل الجمهورية العربية المتحدة.

٧- أصدر عبد الناصر مراسيم خاصة في الحقل الزراعي، وكان أهمها: الإصلاح الزراعي الذي قضى بتوزيع أراضي الملاكين على الفلاحين، وأبقى لأصحاب الأراضي حصة حددها القانون الخاص بذلك، ثم أصدر قوانين التأميم للمصانع، وأسند إدارتها لضباط أو مدرسين ليس لهم أية خبرة في الصناعة، فأجمع الباحثون في الشأن السوري على أن هذه المراسيم والقوانين أدّت دوراً كبيراً في التمهيد للانقلاب الانفصالي، فقد استفز عبد الناصر في إجراءاته هذه الملاكين والتجار الكبار وأصحاب المصانع التي جلب بعضَها رأسماليون جنوا ثمنها من البلاد الأجنبية في اليابان وأوربا، واشترطوا لإدخالها عدم تأميمها -مصانع الدبس- لكنها أُمِّمَتْ بالرغم من تطمين أصحابها بعدم سريان التأميم عليها، كما أن هذه القوانين لم ترض الطبقة العاملة، فقد كان على عبد الناصر -كما ذكر المختصون- أن يتصرف بحذر أكبر عندما شنّ هجومه الصاعق على الرأسمالية السورية، وأن يدرك الفارق بين تأميم المصانع التي تعود ملكيتها

للأجانب في مصر، وبين المصانع السورية التي نشأت برساميل وطنية، ومساهمات شعبية واسعة، كان المواطن فيها يملك أسهماً قليلة، تدر عليه أرباحاً محدودة ليقتات بها، ويغطي نفقات عائلته وأبنائه.

تتابعت المراسيم التي أعادت البنية الإدارية للجمهورية، فقد صدر في ١٦-٨-١٩٦١ مرسوم جمهوري بإلغاء المجلسين التنفيذيين المصري والسوري، وتشكيل حكومة واحدة لإقليمي الجمهورية تكون القاهرة مقراً لها. وفي ١٨ منه صدر مرسوم قسمت سورية بموجبه إلى عدة مناطق إدارية، لكل منطقة حاكمها المعيَّن من قبل رئيس الجمهورية، وستدار مناطق الحكم المحلي على شكل تركيب هرمي، قاعدته مجالس الاتحاد القومي، وقمته رئاسة الجمهورية، فأكملت إحكام الإشراف السياسي المصري عليها.

حاول الرئيس تخفيف الاحتقان الذي كان يسود سورية، فكفَّ يد السراج، فسارع المشير إلى دمشق، فواجه تحركات أتباع السراج من المخابرات والنقابات والاتحاد القومي، ورد بحلّ أجهزة المخابرات وتشكيل جهاز بديل برئاسة العقيد راشد القطيني، كما أغلق مقر الاتحاد القومي بدمشق، وألقى القبض على ضباط الأمن المتمردين بتحريض من السراج، واستدعى الرئيس عامر والسراج إلى القاهرة، فأعلنت الصحف في ٢٦-٩-١٩٦١ قبول استقالة السراج، فكان التقارب الزمني بين صدور هذه الإجراءات والمراسيم وبين انقلاب ٢٨-٩-١٩٦١ يُظهر بوضوح دور تلك المراسيم في تهيئة المناخ

لانسحاب سورية من الجمهورية العربية المتحدة.

كانت الأجواء في أوساط الجيش وقوى الأمن مضطربة جداً، فقد سبقت حركة التمرد أحداث متلاحقة هيأت ومهدت لنجاح الانتفاضة، عندما أصدرت القاهرة لائحة بنقل ثلاثة آلاف من ضباط الصف إلى مصر على مراحل، ونشرة تتضمن إحالة ١٤٠ ضابطاً على التقاعد، أو إلى الإدارة المحلية، واستبدال ضباط مصريين بهم ونقل الفرقة الثالثة المصرية إلى الإقليم الشمالي، واتخذ المصريون تدابير حاسمة لمواجهة أي تحرك للسراج بعد استقالته وعودته إلى دمشق، فصادروا من مستودعات مباحثه ما يقدر بعشرة أطنان من المتفجرات والأسلحة، وتم استنفار اللواءين ٧٠ و٧٢ المتمركزين حول دمشق، ووصلت إلى سورية نجدات من ضباط صاعقة مصرية، وتم استنفار كتائب مظليين للتحرك بسرعة قصوى، دون أن يدرك المصريون أن التحرك سيأتي من طرف آخر، وليس من السراج، فكانت المفاجأة لهم مذهلة وصاعقة.

٨- من داخل الجيش الذي فرض الوحدة، قامت الانتفاضة التي أطاحت بها، إذ اتفق عدة قادة كانوا يشغلون مناصب حساسة في الجيش السوري، ويتمتعون بثقة المصريين على تنفيذ حركة لقلب الأوضاع في الإقليم الشمالي بقيادة المقدم عبد الكريم النحلاوي الذي كان يشغل المركز الثاني لشؤون الضباط في مكتب القائد العام -المشير- ومن العميد موفق عصاصة قائد سلاح الطيران السوري، والمقدم مهيب الهندي رئيس أركان لواء قطنا أقوى ألوية الجيش

الأول وأفضلها تجهيزاً، ومعاونه الرائد هشام عبد ربه، والمقدم حيدر الكزبري قائد حرس البادية، والعميد عبد الغني دهمان آمر موقع دمشق.

في الثالثة والنصف من فجر ٢٨-٩-١٩٦١ تحرك رتل مسلح من قطنا وفرقة من حرس البادية، والتقيا مع حامية دمشق العسكرية، وخلال نصف ساعة سيطر الانقلابيون على محطة الإذاعة ودار المشير ومبنى القيادة العسكرية ومقر الشرطة العسكرية، وعلى جميع المراكز الحساسة في دمشق، ثم أعلنت الإذاعة صباح ٢٨ أيلول البلاغ رقم (١)، ثم تتابعت البلاغات حتى وصلت إلى رقم (٩) فَجَرَتْ بموجبه مفاوضات مع المشير ترمي إلى تصحيح الأوضاع والإبقاء على الوحدة، غير أن الرئيس ناصر رفض ذلك، وجرت محاولات باءت بالفشل، ثم حدث اضطراب داخل القوات المسلحة أنهاها الانقلابيون بالبيان رقم (١٠) الذي أكدوا فيه انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة، وتعيين قيادة عسكرية وتسمية اللواء عبد الكريم زهر الدين قائداً للجيش، فأصبح الانفصال أمراً واقعاً، فدفع عبد الناصر ثمناً باهظاً لعناده، وكان التأييد للانقلاب قد عم وانتشر في جميع أنحاء سورية، وحظي بادئ ذي بدء بتأييد قطاعات الجيش والنقابات وغرف التجارة والصناعة، وراح الخطباء والعلماء يلقون الكلمات التي تشجب الطغيان، وكان في مقدمتهم وأشدهم تأثيراً الشيخ علي الطنطاوي في بلاغته الساحرة، فنجح انقلاب ٢٨ أيلول، وفشلت أول تجربة وحدوية في الوطن العربي، وأصبح لزاماً على القادة العرب

اعتماد أشكال سياسية مرنة، تراعي الأوضاع الإقليمية القائمة على أرض كل قطر عربي.

كانت سورية تحتاج إلى الوقت لاستعادة الحريات الديمقراطية، لكن الحرب الباردة التي شنتها القاهرة على سورية لم تمنح النظام الانفصالي الفرصة لبناء ديمقراطية مستقرة[١].

لم يكن بد من هذه الإطالة في حدها الأدنى، لتقرأ الأجيال الناشئة ولاسيما أبناء جماعة الإخوان الظروف والأحداث والصراعات العسكرية والسياسية في سورية، وتطلع على التدخلات الدولية من المعسكرين الغربي والشرقي في الشأن السوري، وتلك التي أوصلت البلاد إلى حافة الانفجار، فهُرِع العسكريون، ومن ثم السياسيون إلى مصر، ليلقوا بالمرساة على شاطئها، قبل أن يدرك الغرق سفينتهم التي تتقاذفها أمواج هوج عاتية، لم تعد قادرة على مواجهتها. فكانت هذه التجربة الفجة التي طغت فيها العاطفة على العقل، والحماسة على الدراسة والتخطيط، ووضع الأسس الراسخة لقيام وحدة أو اتحاد يراعي المشاعر والمصالح والخصوصيات (دون أن يكون ذلك وحدة اندماجية)، ويُطمئنُ العربَ، ويجذبُ جماهيرهم إلى اتحاد يضم الشعب العربي من المحيط إلى الخليج، ويعيد لأمتنا مجدها المفقود، ويحقق أملها الموعود.

---

(١) دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر للباحثة الدكتورة أمل ميخائيل بشور من الفصل الأول الذي يقع في ٨٣ صفحة باختصار واختزال وتصرف (٤٥٣-٥٣٦).

ثالثاً: دور الإخوان والأحزاب في الأحداث

ما هو دور الأحزاب السياسية في هذه الأحداث، ولاسيما الإخوان المسلمون خلال هذه الفترة التي تعد من أخطر ما واجهته سورية في تاريخها الحديث؟ فقد سيطر العسكريون في هذه المرحلة على سورية سيطرة مطلقة، تجاوزوا فيها رئاسة الجمهورية ومجلس الوزراء والمجلس النيابي والأحزاب السياسية والنقابات العلمية والمهنية، لتكون كلمتهم هي العليا في مصير الوطن، والأحزاب التي قامت بدور خطير في حياة السوريين عبر الكتل العسكرية التي تدين لها بالولاء مثل: الحزب الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي، أما الأحزاب التي ليس لها مجموعات من الضباط تتلقى التوجيه منها، فلم يكن لها أي تأثير في الأحداث التي انتهت بسورية إلى الوحدة، ومنها الحزب الوطني وحزب الشعب وحركة التحرير والكتل السياسية الأخرى.

١- استطاع الشيوعيون أن يخترقوا كل الدفاعات والحواجز العسكرية والأمنية والنقابية، وأن يمسكوا بمفاصل خطيرة مكنتهم من السيطرة على مقدرات العباد، واتيحت لهم فيها فرص كبيرة كانت من أسباب تمكنهم، منها شخصية خالد بكداش، ببلاغته الخطابية وخبرته التنظيمية، وصلاته الدولية الواسعة، ولاسيما مع بلغاريا المسؤولة عن الاتصال بالأحزاب الشيوعية العربية، وثقة السوفيات به، وإطلاق يده في قيادة الشيوعيين وأنصارهم في سورية ولبنان.

ومنها موقف السوفيات مع العرب في صراعهم مع الصهاينة

المعتدين، وعقد اتفاقيات عسكرية واقتصادية وثقافية وفنية مع عدد من الدول العربية، تأتي مصر وسورية في مقدمتها، تليها الجزائر والعراق والسودان واليمن وغيرها.

ومنها مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥، والحضور القوي فيه لدول اشتراكية تأتي الصين الشعبية في مقدمتها.

ومنها حرب السويس، واصطفاف السوفيات مع مصر ضد العدوان الثلاثي عليها.

ومنها شجب السوفيات للمشاريع الغربية التي كانت ترمي إلى زج سورية في أحلاف غربية كمشروع سورية الكبرى والهلال الخصيب ومبدأ أيزنهاور والنقطة الرابعة وحلف بغداد.. إلخ.

ومنها شخصية أكرم الحوراني الذي كان يعرف بشدة الخصومة مع من كان يختلف معهم، فيأخذ بسياسة الأرض المحروقة أو بسياسة -اقتلوني ومالكاً- فلما خاصم الملاكين في محافظة حماة تحالف مع بعض العلويين الذين التحق عدد كبير منهم في الجيش الفرنسي المحتل الذي حارب الوطنيين السوريين جراء مقاومتهم للانتداب الفرنسي، فمكن العلويين من الحياة السياسية والعسكرية، وما نزال نعاني من تسلط الأقلية التي هيأ لهم الحوراني الالتحاق بالجيش السوري بعد الاستقلال، والسيطرة على قطاعات واسعة تفوق حجمهم السكاني بعشرات المرات، فوضعوا أيديهم على زناده، وعندما اختلف مع حزب الشعب، وتوعدهم بما يُعدُّه لهم من أسباب الصراع، مدّ يده إلى بكداش، وتحالف معه ضد حزب الشعب،

وضد الإخوان المسلمين، وضد شرائح من الوطنيين واليمين وأعداء الشيوعية، ولم يكن عفلق والبيطار موافقين على هذه السياسة التي أطلقت أيدي الشيوعيين في صميم الحياة في سورية، أو راضين عن زج حزبهم في تعاونه غير المحدود مع الشيوعيين، ولكن الحوراني بعناده وشدته تغلب على معارضتهما، فأتاح ذلك للشيوعيين أن يكون رئيس الأركان في الجيش السوري الفريق عفيف البزري منهم، وأن يكون أخوه العقيد صلاح البزري قائد الجيش الشعبي الذي استلم أفراده السلاح الذي حجبه البزري وأعوانه عن الإخوان المسلمين، وعن ذوي الاتجاهات الإسلامية. وعندما شعر الحوراني أنه ذهب بعيداً في تمكين الشيوعيين في سورية، قذف بنفسه في أحضان عبد الناصر لينجو، وتنجو معه سورية من مخالب الشيوعية الحمراء!! فأملى عبد الناصر شروطه، وحكم سورية حكماً مطلقاً، الأمر الذي حَمَلَ الحوراني ووزراءه وحزبه وأنصاره على الانسحاب من حكومة الوحدة، وقيام صراع بين عبد الناصر وبين البعثيين وحلفائهم، انتهى إلى كارثة الانفصال، وقذف القطر السوري في مهب الريح.

٢- تأثر الحوراني بالفكر الغربي في ثقافته منذ نشأته عندما التحق بالجامعة اليسوعية في بيروت لدراسة الطب، ثم انتهى به المطاف إلى دراسة الحقوق في دمشق، وحمل شهادتها، فعمل في مهنة المحاماة دون أن ينال شهرة كبيرة في مزاولتها، وفي هذه الأثناء التحق بالحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أسسه أنطون سعادة، وترأس فرع الحزب في حماة، وخاطب بخط يده الجنرال ويغاند قائد الجيش

الفرنسي -جيش الشرق- طالباً منه دعم الحزب وزيادة مخصصاته من الدعم المالي لمواجهة الكتلة الوطنية الغوغائية -على حد تعبيره- وخدمة الأمة الفرنسية النبيلة، (وقد تم نشر هذه الوثيقة على صفحات جريدة المنار مرتين عام ١٩٥٧) ثم استقال من الحزب كما جاء في مذكراته، لأن الحزب لا يعلن ولا يعمل على تحقيق الوحدة العربية!!

لقد تحدث القريبون منه في الحي الذي كان يسكنه، أنه منذ أول شبابه كان يحلم ويخطط للانقلاب العسكري، وكنا لا نأبه لهذا الكلام، ونعتبره من باب الصراعات الحزبية، غير أن بوادر ذلك قد ظهرت للعيان عندما شرع يدفع بأعضاء حزبه بعد تخرجهم من الدراسة الثانوية إلى الكلية العسكرية في حمص، وقد انتبه لذلك الشيخ محمد الحامد رحمه الله، وحذر شباب الإخوان من عزوفهم عن الالتحاق بالجيش وانتسابهم إلى الكلية العسكرية، وتركها للعلمانيين والحزبيين قائلاً: بعد سنوات يستلمون حكم سورية دون الحاجة إلى انقلاب عسكري، لأنهم سيصبحون أكثرية مهيمنة على الجيش السوري. ثم دفع الحوراني بالعسكريين القلة إلى تأييد الانقلاب العسكري الأول في سورية بتاريخ ٣٠-٣-١٩٤٩ بقيادة حسني الزعيم ودعم ضباط موالين لأكرم الحوراني، وتولى الحوراني نفسه كتابة البيانات العسكرية للانقلابيين. ثم اختلف -الحوراني- مع حسني الزعيم، ووقف مع الانقلاب الذي قاده سامي الحناوي، ثم اختلف مع الحناوي، ووقف مع انقلاب الشيشكلي، ثم اختلف معهم جميعاً.

لقد أفسد الحوراني الحياة العسكرية، وحرض الضباط على التمرد

وعصيان الأوامر، وعلى تشويه الحياة السياسية، واضطهاد السياسيين بالاتهام تارة، وبالاعتقال وزجهم بالسجون تارة أخرى، فكان العسكريون يتركون في بعض الأحيان الجبهة مع العدو، ويزحفون إلى العاصمة للاستيلاء على مبنى الأركان، وعلى دوائر الحكومة ومحطة الإذاعة، ليبثوا بياناتهم التي يتهمون فيها الرئاسة والحكومة والبرلمان بالعمالة والفساد، وأحياناً بالخيانة. وعندما رسم الأستاذ حبيب كحالة الحوراني في مجلته (المضحك المبكي التي استمر صدورها ٣٧ سنة من عام ١٩٢٨ وحتى عام ١٩٦٥) طائراً يرفرف بجناحيه فوق قبة البرلمان، عَتَبَ عليه البعض في ذلك، فقال: لم أرسمه طائراً، أمعنوا النظر في الصورة، وإنما رسمته بوماً ينعق فوق قبة البرلمان حتى هدم الحياة النيابية وقوض أركانها.

كان الحوراني مصدر الفوضى والاضطراب السياسي الذي شهدته سورية لأكثر من عقدين، انتهى بها إلى عدم الاستقرار، بصراعاته التي خاضها، وخصوماته الحادة مع الآخرين، والكل يشهد على الحوراني بما سببه لسورية من اضطراب، فاليمين من الأحزاب ورجال الصحافة وبعض العسكريين يُحمّله المسؤولية عما لحق بسورية من مآسٍ وكوارث، وقد التقينا بأعضاء حزبه القدامى في بغداد، في إطار التحالف الوطني المعارض لحكم الأقلية في سورية الذي ضم الحوراني والبعثيين والناصريين والإخوان المسلمين، فشهدوا أن المعاملة مع الأستاذ أكرم صعبة ووعرة، ولا يستطيع أي إنسان أن يتحملها أو أن يصبر عليها.

لقد أتيح لي أن أقرأ مذكرات الحوراني التي تقع في ٣٥٤٧ صفحة، يضاف إليها ملحق الصور الذي ملأه بعشرات الصفحات، فأفدت منها كثيراً فيما يخص رصده للصراع بين الدول الكبرى للسيطرة على سورية -فرنسا وإنكلترا وأمريكا والاتحاد السوفياتي- لأنه يستند في ذلك إلى وثائق استقاها من محاضر جلسات البرلمان السوري، ومن المكتبة الأمريكية الثرية بالوثائق والمصادر في بيروت، غير أني لمست من قراءتي لمذكرات الحوراني أنه يجافي الحقيقة، ويعرض كثيراً من الآراء والمواقف كما يريد لا كما هي في واقع الأمر، وأنه يعتبر الوطن العربي مركز العالم، وسورية مركز الوطن العربي، وحماة مركز سورية، وهو قطب الرحى في حماة، رأيته يخالف الواقع، ويسجل الأحداث كما يحلو له، وليس كما حدثت وشهد عليها الشاهدون، من ذلك مثلاً: أن المراقب العام الأستاذ عصام العطار رشح نائبه الأستاذ مصطفى الصيرفي للمشاركة في وزارة خالد العظم، فاعترض الحوراني على ذلك بشدة، وقال كما جاء في مذكراته: يريدون أن يدقوا إسفيناً لنا في حماة، زاعماً أن السيطرة له ولحزبه في المدينة، مع أن الانتخابات التي جرت في تلك الفترة، أظهرت تفوق قائمة الإخوان وحلفائهم، حيث حازت على نسبة تتراوح ما بين الثلثين وثلاثة أخماس الناخبين، وأن قائمة الحوراني نالت ما بين الثلث والخُمْسين، وكان هذا شأن المرشح المسيحي الدكتور أديب نصور الذي فاقت الأصوات التي أيدته عدد الأصوات التي أيدت أكرم الحوراني في مدينة حماة، لقد اشترط الحوراني على

قادة الانفصال حتى يؤيد حركتهم، ويوقع على وثيقة الانفصال، أن تكون المدينة والريف دائرة واحدة، على عكس الدوائر الانتخابية في المحافظات السورية الأخرى التي جعلت للمدينة دائرة خاصة بها، وللريف دائرة خاصة به، وبذلك نجحت قائمة الحوراني بأصوات الأقليات المسيحية والعلوية التي كان الحوراني يخيفها من الأحزاب الأخرى، ولاسيما من الإخوان المسلمين. لقد بلغ عدد الأصوات التي أيدت الأستاذ عبد الرحمن العظم في قائمة حماة التي شارك فيها الإخوان اثني عشر ألف صوت، وبلغ عدد الأصوات التي نالها محمد عطورة من قائمة الحوراني ستة آلاف صوت، ومع ذلك فاز عطورة بأصوات الأقليات من الريف بفارق ضئيل بلغ عشرات الأصوات، وحرم الذين نالوا ثلثي أصوات المدينة من دخول البرلمان، جراء الصفقة التي أبرمها الحوراني مع الضباط: (عصاصة ودهمان والنحلاوي وغيرهم) ليؤيدهم في الانقلاب على الوحدة، وليدعم حركتهم في التوقيع على وثيقة الانفصال ما بين سورية ومصر!!

كان البترول العراقي يسيل من كركوك عبر الأنابيب إلى ميناء بانياس السوري لبيعه في الأسواق العالمية، وكانت سورية تتقاضى مبلغاً رمزياً لقاء مرور النفط عبر الأراضي السورية يقدر بحوالي ٥ر١ مليون ليرة، وعندما تطورت العلاقات بين شركات النفط والبلاد المنتجة أو البلاد التي يمر من أراضيها، وتغيرت طبيعة العقود البترولية بين الجهات المعنية، ازداد دخل البلاد التي تمر أنابيب النفط من أراضيها زيادة كبيرة، رفدت الميزانية بمبالغ كبيرة، ساعدت في

تطويـر البلاد وتقـدمها، فـاتفق ممـثلو الأحزاب والكـتل في البرلـمان السوري عـلى توحيد الـمطالب في هذا الـموضوع الذي يعـني الوطن كله، ولا يـخص حزبـاً دون آخر، فـالتقـت الآراء كلهـا على مـشروع يحدد التعويض ببضعة وثلاثين مليون ليرة سورية، وكان الحوراني من المـوافقين عـلى ذلك، واعتـبر الجـميع أن ذلك يشـكل مغنـماً كبـيراً لسورية، غـير أن الدكتور عـبد الوهاب حومـد وزير المالية الـمعروف بالنزاهة والخـبرة المتقدمة في الشـؤون المالية، استطاع في مـفاوضاته مع شركة البتـرول المعنية أن يرفع سقف المطالب السـورية إلى بضعة وخمسـين مليون ليـرة، فيحقق لـسورية دخلاً كبـيراً يقفز بـها خطوات متقـدمة في إنجاز المشـروعات الاقتصادية والـتنموية التي يطمـح إليها السـوريون، وإذا بالحـوراني الذي وافق مـن قبل عـلى تعـويض أقل، يشن هجوماً على الدكـتور حومد متهماً إياه بالتفريـط بالحقوق الوطنية تجاه أطمـاع الشركات البـترولية المسـتغلة لحـقوقنا الوطنيـة، والأمثلة التي رأيناها منـه ولمسناها في لقاءاتنا مـعه تطول، والكثير مـنها يدعو إلى الدهشة.

لقـد كان الحـوراني شـديد الخـصومـة إذا خاصم، وكـانت ردود أفعالـه قاسية تسـوغ له التعاون مع أي جهـة لدحر خصومـه، وهذا ما أقدم علـيه حين مكّن لـلشيوعـيين ولبعـض العلويين في الجـيش وفي الشـارع السوري، حتـى صاروا عبـئاً عليـه، وعلى الوطن كـله. وهو الذي زج الجيش في الحياة السياسـية، ودفع به إلى القيام بالانقلابات العسكرية وهدم الحياة البرلمانيـة، وهذا ما انعكس سلباً على الاقتصاد

والسياسة والعلاقات الدولية، وعلى الاستقرار والازدهار.

لقد خاصم الحوراني معظم الأحزاب إن لم نقل كلها، واختصم مع قادة حزبه -عفلق والبيطار وغيرهما- ثم اختلف مع العراق الذي استضافه، وخصص له شقة في وسط باريس، وإذا به يقف من هجوم الإيرانيين على البصرة موقفاً سلبياً، جعل العراقيين يستاؤون منه أشد الاستياء، وعندما التقى به قادة الإخوان في التحالف الوطني السوري المناهض لحكم الأقلية في سورية، لمسنا فيه ما كنا نسمعه عنه قبل التقائنا به، وفي ذات يوم اتصل بي هاتفياً على غير المألوف قائلاً: سآتي إليك لأمر هام، وعند وصوله قال لي على انفراد: أحذرك أن تدلي بأي حديث أمام هؤلاء الباطنيين أو تثق بأي منهم، وكان يقصد الأستاذ شبلي العيسمي أحد القادة التاريخيين لحزب البعث، باعتباره ينتمي إلى الطائفة الدرزية، ثم ختم حديثه بقوله: إن أكبر خطيئة ارتكبتها في حياتي هي دمج الحزبين -الاشتراكي والبعث- في حزب واحد. وعندما اشتد به المرض في باريس انتقل إلى عمان التي كان شديد الوطأة في التهجم عليها، ولمس من الملك حسين رعاية فاقت لديه كل ما كان يتوقعه، فعرض عليّ عضو في المكتب السياسي للتحالف الذي كُلفت أن أكون أمينه العام أن نعوده في مرضه فوافقت، لكن الحوراني اعتذر للسيد محمد عمر برهان عن استقبالنا، في الوقت الذي استقبل فيه الأستاذ شبلي العيسمي الذي كان قد حذرني منه، والأستاذ العيسمي الذي التقيته كثيراً، وجاورته طويلاً لمست فيه الاستقامة وصدق الحديث والخلق الرفيع والأدب الجم،

ولم أسمع منه كلمة نابية طيلة عشرين سنة، والواجب يملي عليّ أن أذكر له هذه السجايا وهذا المعشر النبيل.

شاء القدر أن تكون وفاة الحوراني في مدينة عمان، فشيعه فيها خمسة عشر رجلاً كما ذكر المرحوم هاني قصّاب باشي أحد المشيعين، وصلى عليه تسعة منهم مع الذين حضروا صلاة الجماعة.

لقد أتعب الحوراني نفسه ومن معه، وجر على سورية كوارث وويلات، وأفقدها الاستقرار السياسي والنهوض الاقتصادي، لتحقق ما كانت تتطلع إليه من تقدم يلحقها بالركب الإنساني المتطور، والذي قال عنه -تقدم سورية- أحد رجال الصناعة الألمان: إذا استمرت سورية على هذه الوتيرة بالتقدم في الصناعات الخفيفة والنسيج والألبسة و.. إلخ فسوف تنافس ألمانيا ودول أوربا، وربما تتقدم عليها في بضع سنين، لكن الانقلابات العسكرية هدمت نهضة سورية، وآمال أبنائها، وطموح شعبها في نهضة حضارية زاهية.

٣- لم يكن للإخوان المسلمين السوريين أي دور في مشروع الوحدة بين سورية ومصر، شأن الأحزاب الأخرى، والعسكريون الضباط الـ ٢٣ هم أصحاب القرار، صانعوه ومنفذوه، غير أن للإخوان موقفاً يتميزون فيه عن الأحزاب الأخرى، لأن الوحدة لديهم ليست قراراً سياسياً، يوافقون عليه، أو يعدلون عنه، بل هي عقيدة ثابتة أو جزء من العقيدة الإسلامية، لا يجوز إهمالها أو التخلي عنها، أو المساومة عليها، أو التفريط بها تحت وطأة أي ظرف من الظروف. لقد رأينا الأحزاب الأخرى تؤيد الوحدة بحماسة شديدة،

ثم تتراجع عنها، وأحياناً تناوئها بنفس الحماسة التي أيدتها بها، وتقف موقف الرافض لها حسب الظروف أو القرارات السياسية. ومن هذا المنطلق أيد الإخوان المسلمون إقامة الوحدة، واصطفوا معها، وتجاوزوا في سبيل ذلك كل آلامهم وجراحاتهم التي أحدثها جمال عبد الناصر، وصرحوا بصوت مسموع على لسان المراقب العام، والأستاذ محمد المبارك عضو البرلمان والأستاذ عصام العطار وغيرهم، بالتأييد الكامل لإقامة الوحدة بين مصر وسورية ولما يمض أربعون شهراً على إعدام جمال عبد الناصر لقادتهم وأئمتهم في القاهرة، وعندما بدأت الأرض تميد تحت دعائم الوحدة، لم يشارك الإخوان المسلمون في أي تحرك من شأنه أن يزلزل بنيان الوحدة، ويأتي على قواعده، وأكثر من ذلك، فإن الشيخ السباعي عندما ذهب للاستشفاء في مستشفى المعادي العسكري في مصر، والتقى بجمال عبد الناصر، (وقد سمعت منه ما جرى في هذا اللقاء) قال له جمال: كنت أظنك يا شيخ مصطفى شيخاً طاعناً في السن، فإذا أنت في شرخ شبابك (كان عمر الشيخ ٤٤ سنة)، قال الشيخ: سيادة الرئيس، أنت جندي والجندي لا يحقد، أما آن الأوان أن تطلق الإخوان المسلمين المعتقلين؟ فأجاب جمال بحدة وانفعال: الإخوان في مصر يختلفون عن الإخوان في سورية!! ثم عاد إلى هدوئه، فقال الشيخ: الوضع خطير في سورية، والبلاد تغلي كالمرجل، والوحدة معرضة للخطر، ولا تركن إلى التقارير التي تقول غير هذا، فاستدركوا هذه الحال قبل أن تحل الكارثة، ويبدد هذا الحلم الجميل، ويحطم الأمل العظيم الذي انتظرته الأمة منذ عقود طويلة.

إذن فالإخوان كانوا بلسان قائدهم مشفقين على الوحدة، خائفين من فشلها، حريصين كل الحرص على بقائها واستمرارها بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. وعندما حدث الانفصال جراء سياسات خاطئة، شارك فيها المصريون والسوريون على حد سواء، جمع العسكريون الانقلابيون القادة السياسيين في نادي الضباط بدمشق، طالبين تأييد الانقلاب، والتوقيع على وثيقة الانفصال، فبدأت المساومات والصفقات الرخيصة على حساب الأمة ومستقبلها، كالذي رأيناه في دمج المدينة والريف في محافظة حماة، لتشكل دائرة واحدة، بطلب من الحوراني ثمناً لدعم حركة الانفصال.

أما الإخوان المسلمون الذين أيدوا الوحدة دون تردد أو تحفظ، فإنهم رفضوا الانفصال بشدة وصلابة، ورفضوا كل المساومات والضغوط والتهديدات التي تحملهم على تأييد الانفصال، أو التوقيع على وثيقته، وانفردوا بلسان الأستاذ عصام العطار المراقب العام بهذا الموقف، ورفضوا الانفصال أياً كانت أسبابه ودواعيه ومبرراته، فسجلوا للجماعة موقفاً تاريخياً، ستذكره لهم الأجيال، كجماعة دعوية وطنية، تضع مصلحة الأمة ووحدتها والغيرة عليها فوق أي اعتبار.

والذي يقرأ مذكرات خالد العظم، وانتقاده اللاذع للإخوان، على موقفهم من الانفصال، وانتقاده الأشد للأستاذ الكبير عصام العطار. وكذا موقف الحوراني والشيوعيين، يجد أن الإخوان تحملوا عنتاً كبيراً، ثمناً لموقفهم المبدئي من موضوع الوحدة، بالرغم من آلامهم

الشديدة وجراحاتهم النازفة التي ألحقها بهم جمال عبد الناصر، وما نالهم من عزل وتضييق من السلطات المدنية والأمنية في الإقليم الشمالي على يد البعث والسراج. ومع كل ما حدث ذكر السراج لأخينا الدكتور عبد الكريم عثمان رحمه الله عندما كان يحضّر للدكتوراه في الفلسفة الإسلامية في القاهرة: لقد اطلعت على ملفات السياسيين جميعها، فلم أجد أنقى وأصفى من ملف الشيخ مصطفى السباعي في وطنيته واستقامته.

رابعاً: تخبط حكومة الوحدة

منذ قيام الوحدة، وحتى حدوث الانفصال، تخبطت حكومة جمال عبد الناصر في شؤون الحكم في سورية، ففي البداية تحفظ عبد الناصر على قيام الوحدة، وأظهر تردداً كبيراً في قبول المشروع، والضباط السوريون يلحون على إنجاز مشروع الوحدة، حتى استطاع عبد الناصر أن يملي شروطه كلها، فلم يكن أمام السوريين من خيار إلا قبولها، فحكم ناصر سورية حكماً مطلقاً، جمع بيده السلطات التشريعية والتنفيذية وقيادة الجيش وجميع الأجهزة الأخرى، ولحاجته إلى من يسانده أطلق يد البعث في حكم سورية، حتى غدت مزرعة لهم حسب تعبير المصريين الذي مر معنا سابقاً، فأرسل ناصر نائبه عبد الحكيم عامر، وزوده بصلاحيات واسعة، فحاول تطبيق سياسة ينفّس بها عن السوريين في مجالات الاقتصاد والتجارة والنقد وغيرها، فأثار حفيظة السراج الذي شنَّ حملات قاسية على المشير، وحرك أعوانه في المخابرات ولجان الاتحاد القومي التابعة له، فأدى

ذلك إلى اشتداد الخصومة لكل ذي عينين، فاستدعى ناصر السرّاج والمشير، لحل الخلاف كما مر سابقاً، وترتيب الأمور، وانتهى الأمر إلى سحب المشير من سورية، وإطلاق يد السراج في حكمها، فساسها بالقهر والحكم المخابراتي، وعيّن على كل محافظة ضابط أمن، كان بمثابة الحاكم العسكري الذي لا يحاسبه أحد على تصرفاته، فحدثت كوارث، مست مشاعر المواطنين وكراماتهم، فعاد المشير إلى سورية مرة أخرى، وكان حزب البعث قد انزوى وتقلص دوره، فاضطر إلى سحب وزرائه في الحكم، واستقال معهم وزراء آخرون تضامنوا معهم، كان منهم أحمد عبد الكريم، وأمين النفوري، وبشير العظمة، واتهم البعث عبد الناصر بالاستبداد، وبالتفريط بالحقوق الوطنية، وإطلاق يد اليهود في مياه نهر الأردن، وتسليم شرم الشيخ، وفتح القناة أمام السفن اليهودية.

حاول المشير عامر إفساح المجال للأحزاب الوطنية للتعاون معه في حكم سورية، ومنها حزب الشعب والحزب الوطني، والإخوان المسلمون، وأنصار الشيشكلي، وزعماء العشائر، وبعض الضباط المتقاعدين وقدامى البرلمانيين.

١- قرر عبد الناصر ملء الفراغ الذي خلفه انسحاب البعثيين ومن تضامن معهم من حكومة عبد الناصر، فطرح فكرة تشكيل الاتحاد القومي الذي يقوم على قاعدة عريضة منتخبة مباشرة من الشعب، تلتقي في إطارها كل الحركات والاتجاهات السياسية، مؤلفة من حوالي عشرة آلاف عضو، فاستبشر المواطنون بهذه الخطوة، ظناً

منهم بأنها ستكون بداية طيبة كي يستعيد الشعب حقه في ممارسة حرياته السياسية، وبالفعل جرت الانتخابات حرة في كل المحافظات، لكن الذي شكل صدمة للمواطنين، أن السراج شرع بتعيين قادة الاتحاد القومي دون مراعاة لنتائج الانتخاب، فمدينة حماة على سبيل المثال، قسمت إلى ثلاث دوائر، كل واحدة يمثلها ثلاثون عضواً، وبعد ظهور النتائج، عين السراج على كل دائرة أميناً عاماً من الذين فشلوا في الانتخابات ورسبوا فيها، فعيّن على دائرة الحاضر محامياً لم يحالفه الحظ، وعيّن على دائرة المشارقة مهندساً لم يحالفه الحظ!! وعيّن على دائرة العليليات طبيباً لم يشارك في الانتخابات، ولسان حاله وفعله يقول: لا قيمة لرأي المواطنين، ولا اعتبار للنتائج التي أفرزها الاقتراع، وهكذا أظهرت السلطة استهتاراً بإرادة الشعب، واستفزازاً للسوريين، ثم تتالت التعيينات، لتشمل الوحدات الأساسية، ووحدات المناطق والمحافظات والمدن والمؤتمر العام للاتحاد القومي الذي يمثل القطر، وقيادة الاتحاد العليا، التي يسيطر عليها السراج، ويسيطر على الاتحاد القومي من ألفه إلى يائه بالتعيين، وكأنه تنظيم سري تقوده دوائر الأمن والاستخبارات!! ثم اختار عبد الناصر مائتي عضو من المؤتمر العام للاتحاد القومي ليكونوا نواباً في برلمان الوحدة، كما اختار ضعفهم من المؤتمر العام للاتحاد القومي في مصر، نواباً في البرلمان عن الإقليم الجنوبي في مصر.

٢- ضقنا وضاق المواطنون ذرعاً بهذا الاستهتار، وقلنا: لو

شرعوا بالتعيين من البداية لكان ذلك أهون وأخف على نفوس المواطنين من إجراء الانتخاب ثم تعيين الراسبين رؤساء على الفائزين، فاتفقت مع الأخ الداعية الأستاذ مصطفى الصيرفي على تقديم احتجاج على ممارسة سلطات السراج بإهمال الفائزين، وتعيين الراسبين، وعندما حضر عبد الناصر إلى حماة في نطاق جولته على المحافظات، وألقى كلمة في صالة الروكسي الكبيرة في المدينة حضرها جميع أعضاء الاتحاد القومي -وكنا منهم- وجميع موظفي المحافظة الكبار، وجلست والأخ الصيرفي على جانب الممر في وسط الصالة التي يمر منها عبد الناصر، وعند مغادرته الصالة، وفي أثناء مروره تقريباً من المكان الذي كنا نجلس فيه ناولناه بيده رسالة احتجاجية أعددناها لهذه المناسبة وهذه اللحظة، فأمسك بها ووضعها في جيب سترته الداخلي -البالطو- وغادر حماة إلى حمص، فألقى فيها خطاباً ذكر فيه أن أخطاءً حدثت وسيعمد إلى تصحيحها، فاستنتجنا -وقد نكون مخطئين- أنه ردّ على الرسالة التي دفعنا بها إليه.

فشل المشير في تقليص حدة التناقضات بين السوريين والمصريين، وفي التخفيف من الاستياء العام، ولاسيما بعد تدفق المصريين إلى سورية لملء المناصب في الإدارات العامة، وفي القضاء والتعليم والأمن والجيش، ففي وزارة الصناعة سبعة موظفين مصريين من أصل ١٣ موظفاً كبيراً، وفي وزارة النفط أربعة مصريين من أصل ستة موظفين كبار، كما عمل في سورية حوالي ٤٠ قاضياً

مصرياً، عدا عن آلاف الفنيين الذين ملؤوا المؤسسات والقطاعات الصناعية، وكان السوريون يشتكون من تجاهل المصريين أوامر رؤسائهم السوريين، وإحالة القضايا المعلقة مباشرة إلى القاهرة، مما أعطى انطباعاً بأن الوحدة ليست سوى تسلط مصري على سورية، وكان ما هو أكثر دلالة وأثراً على اتساع المشاعر المناوئة للوحدة، ما سرى من مشاعر مناوئة في أوساط الضباط السوريين، استمرت تنمو وتتفاقم حتى قادت إلى الانفصال.

٣- من قلب الجيش السوري الذي صنع الوحدة بل وفرضها، قامت الانتفاضة التي أطاحت بها وأسقطتها -كما مر معنا تفصيلاً- وسيطرت وحدات من الجيش على كل مرافق الدولة، وعلى معسكر الفدائيين الفلسطينيين، ووضعوا جميع الطيارين المصريين تحت المراقبة، فشلوا حركة الطيران، وكلفوا الدكتور مأمون الكزبري بتشكيل الوزارة، ولم يُجد الإنزال المظلي للمصريين في اللاذقية، فقد اعتقل المظليون وعلى رأسهم جلال هريدي، وأعادهم السوريون إلى مصر بعد مغامرتهم الفاشلة، فقامت المظاهرات المؤيدة، وكأن سورية قد تحررت من عبء ثقيل، غير أن بعض الوحدات العسكرية السورية في حلب واللاذقية أعلنت تمسكها بالوحدة بين سورية ومصر، بقيادة جمال عبد الناصر، وقامت مظاهرات مضادة للانفصال، لكن الانقلابيين سيطروا على سورية سيطرة كاملة، فسقطت للأسف أول تجربة للوحدة في العالم العربي، وخلّفت مرارة ما تزال الأجيال تلوكها وتتجرعها حتى يومنا هذا بعد مرور حوالي خمسين سنة على

حدوث الانفصال.

٤- لم نقع على دراسة عميقة مستفيضة تفسر وتحلل أسباب الفشل الذي أصاب طموح العرب في الصميم، عندما تهاوى صرح الوحدة، وخرّ سقفها وتداعت قواعدها، لماذا صادرت حكومة الوحدة الحريات العامة، وأحياناً الخاصة؟ فعاش المواطنون في رعب، وهم الذين ناصروا الوحدة ودعموها بكل طاقاتهم، لقد قامت الوحدة في أجواء الحرية شعبياً، وانهارت في غيابها، كيف غفل حكام القاهرة عن الفروق بين المواطنين في كل من الإقليمين في الطباع والعادات والتركيب النفسي لكل من السوريين والمصريين؟ ألم يلمسوا الفارق بين الطبع الوديع والطبع المتمرد؟ كيف غفل قادة الوحدة عن الفرق بين اقتصاد مصري كان الأجانب -الخواجات- يملكونه ويتحكمون به، وبين اقتصاد سوري يشارك الفقراء وأبناء الطبقة الكادحة والطبقة الوسطى بشراء أسهم قليلة من الشركات الوطنية السورية بما يملكونه من حلي النساء، ومن دراهم معدودة؟ ثم يؤمم، وتترك السلطة ألوف الأسر التي كانت تشكل لها مشاركتها مورداً تعيش منه، وتقتات به؟ كيف سوغ قادة الوحدة المصريون لأنفسهم أن يحكموا سورية حكماً مباشراً يقوم على السيطرة الأمنية الاستفزازية، وبين الإقليمين البحر والعدو الذي يتربص بهذه الوحدة دائرة السوء؟

لقد أسهم السوريون بالمجاملة والمداهنة، فزينوا للمصريين ما يرضون عنه، وأفهموهم بأن الأوضاع في الإقليم الشمالي على خير

حال!! وهذا ما حذر منه الشيخ السباعي جمال عبد الناصر حينما التقاه، كما مر معنا في مكان غير بعيد، وبعد ذلك حكموا البلاد حكماً طاغوتياً بعناصر كان يعتبر كل واحد منهم نفسه جباراً في الأرض، وحاكماً عسكرياً لا يحاسبه على أفعاله المنكرة رقيب ولا حسيب، لقد استمعت للحوراني في مدينة بانياس في نطاق زيارة ناصر للمدن السورية، يقول بعد أن التفت إلى جمال عبد الناصر وهو برفقته: كنا ننتظر ظهور الزعيم منذ أربع مئة سنة، ليخرج علينا اليوم من صعيد مصر، سيدي الرئيس: لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون، بل نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون!! ولم تمض إلا أشهر قليلة حتى كتب الحوراني عن عبد الناصر كلاماً نابياً، وقال فيه ما لم يقله مالك في الخمر، فمن الأسوأ؟ الذين حكموا المواطنين بالقهر والبطش والجبروت؟ أم الذين داهنوا ونافقوا وزينوا للطغاة أعمالهم، وقالوا: لا غالب لكم اليوم من الناس؟

الكل شركاء فيما حدث من فشل الوحدة وزوالها، وما أصاب أمتنا من اليأس وخيبة الأمل جراء هذه النكبة المروعة.

تجربة الوحدة بحاجة ماسة إلى دراسة وتفسير وتحليل، كي تجتنب الأمة كارثة أخرى كالتي حلت بالعرب جراء حدوث الانفصال وبهذا السياق سمعت من الحوراني في بغداد يقول: كان هجومي على عبد الناصر خطأ تكتيكياً فادحاً، وهكذا يعترف كثير من الساسة بأخطائهم بعد ابتعادهم أو إبعادهم عن كرسي الحكم، وبعد صحوتهم

من خمرة السلطة، ولكن بعد فوات الأوان!!

خامساً: أحداث سياسية ساخنة

وقبل مغادرة أيام الوحدة بين مصر وسورية، نمر سراعاً على أحداث ساخنة ذات مغزى في تاريخ سورية الحديث كان لها أكبر الأثر على ما تلاها من متغيرات خطيرة.

ففي مطلع الأربعينيات من القرن الماضي حاول الفرنسيون الذين يتبعون حكومة فيشي الموالية للألمان أن يُحكموا سيطرتهم على سورية، ويُقْصُوا الفرنسيين الديغوليين الذين قاوموا احتلال الألمان لفرنسا، وعزموا على تحرير سورية من الموالين لحكومة فيشي، فأعطى ضابط المخابرات الفرنسي دانجيلي مبلغاً من المال قدرته بعض المصادر بنصف مليون ليرة سورية[1] لحسني الزعيم، لتنظيم مقاومة من الأكراد في وجه الإنكليز والديغوليين العازمين على السيطرة على سورية واحتلالها، ثم ألقي القبض على حسني الزعيم بتهمة الاختلاس، واستعيد منه المبلغ، وصدر عليه حكم بالسجن عشر سنوات من محكمة عسكرية فرنسية، وقد مر معنا في المجلد الأول من هذه الأوراق ما يشير إلى بعض هذه الحادثة[2].

أعلن الجنرال كاترو بتاريخ ٢٧-٩-١٩٤١ في سراي الحكومة في دمشق باحتفال رسمي استقلال سورية، فاعترفت السعودية ومصر

(١) أيام شهدتها للضابط محمد معروف.

(٢) مذكرات مطيع السمان: ٣٩٢ .

واليمن بهذا الاستقلال، ثم اعترفت به إنكلترا واليونان وبلجيكا ويوغسلافيا وتركيا وإيطاليا وغيرها[1].

بعد انقلاب حسني الزعيم في ٣٠-٣-١٩٤٩ بتخطيط من المخابرات الأمريكية كما رأينا من قبل، انقلب عليه رفقاء السلاح وأطاحوا به، وجاؤوا بالحناوي قائداً للانقلاب الثاني في ١٢-٨-١٩٤٩ أي بعد أربعة أشهر واثني عشر يوماً، ثم لم يلبثوا أن أطاحوا بالحناوي بعد أربعة أشهر وخمسة أيام، إذ تحركت مجموعة مدرعات من معسكرات القابون القريب من دمشق، ونفذت انقلاباً عسكرياً ثالثاً بقيادة العقيد أديب الشيشكلي، فزج بالحناوي ومن معه في سجن المزة العسكري بيسر ما بعده يسر، وقد قيل -في هذا الانقلاب- يومئذ، بأن السفارة الأمريكية في دمشق كانت من ورائه، قبل أن تتمكن إنكلترا أو عملاؤها في العراق من إحكام قبضتهم على سورية[2].

تتالت الأحداث وكأنها مسلسل تلفزيوني، فقد قام الشيشكلي بانقلاب آخر، في نطاق الجيش فقط، فرتّب قيادته كما يحلو له، ثم توسع في مرحلة لاحقة، فألقى برئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وبعض الوزراء في غياهب السجن، ثم أقدم على حل البرلمان.

---

(١) المرجع السابق: ٣٩٣ .

(٢) وطن وعسكر، مذكرات ٢٨ أيلول وحتى ٨ آذار ١٩٦٣، تأليف العميد مطيع السمان، الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥، الناشر: بيسان للنشر والتوزيع: ٣٣٧ .

في شباط/ فبراير ١٩٥٤ وقع انقلاب على الشيشكلي، وفي نيسان/ أبريل -بعد حوالي شهرين- اغتيل عدنان المالكي نائب رئيس الأركان، وفي تموز/ يوليو ١٩٥٦ استقال العميد شوكت شقير من رئاسة الأركان، وعيّن بدلاً منه توفيق نظام الدين، وفي هذا الشهر تموز/ يوليو أممت قناة السويس، وفي تشرين الأول: أكتوبر، وقع العدوان الثلاثي على مصر، ونسفت أنابيب البترول في سورية، وفي أول عام ١٩٥٧ ترأس الضابط عفيف البزري محكمة عرفية عقدت جلساتها على مدرج الجامعة السورية، وفي هذا العام حدث عصيان عسكري في قطنا، واكتشفت مؤامرة الضابط الأمريكي (ستون) بالتعاون مع الشيشكلي والحسيني، ثم عيّن البزري رئيساً للأركان العامة، قافزاً فوق الرتب العسكرية، وقامت تركيا بحشد قوات عسكرية على الحدود السورية الشمالية، وفي كانون الثاني/ يناير سافر عدد من الضباط إلى القاهرة لعمل وحدة بين سورية ومصر دون علم أو إذن الحكومة السورية، وفي ٢٢-٢-١٩٥٨ أعلنت الوحدة السورية المصرية[1].

كان شهر أيلول/ سبتمبر عام ١٩٦١ في الإقليم السوري أكثر الأشهر اضطراباً وأحداثاً من سوابقه، وكان زاخراً بالإشاعات، وكانت السحب السود تتكاثف في الأفق، وكانت همسات الانتقاد للوحدة ولجمال عبد الناصر ومعاونيه تلوكها الألسن، وتتلقفها الآذان، وبخاصة بعد تفوّهه أثناء خطاب له في مدينة اللاذقية بعبارات لا تليق

(١) مذكرات مطيع السمان: ٨٥ .

برئيس جمهورية، كقوله: إنه سيدوس بعض رجال السياسة بالجزمة -الحذاء-[1].

يزعم عبد الكريم زهر الدين قائد الجيش السوري بعد الانفصال: أن الانقلاب الذي حدث في ٢٨-٩-١٩٦١ كان ضربة هزت كيان أمريكا لدرجة أن دين راسك وزير خارجيتها كاد يصفع وجهه حينما وصله الخبر حسب قول سفير سورية في واشنطن الشاعر الكبير عمر أبو ريشة، ولاسيما بعد معركة تل النيرب التي منيت بها إسرائيل بخسارة فادحة من جنودها ومعداتها، وبالرغم من أن أمريكا وإسرائيل كانتا تقصدان من العدوان الإسرائيلي إظهار سورية بمظهر الضعف بعد انفصالها عن الجمهورية العربية المتحدة، جاءت النتيجة مغايرة لذلك، مما أقلق أمريكا، إذ اعترف أحد كبار وزارة الخارجية الأمريكية إلى السفير اللبناني في واشنطن بالخسائر الكبيرة التي لحقت باليهود[2].

بعد محاولة إسرائيل احتلال المنطقة المجردة شرقي بحيرة طبريا، وحدوث معركة تل النيرب التي كانت فاجعة على إسرائيل، -يقول زهر الدين-: قمت باستدعاء قاسم مردم مندوب سورية بالجامعة العربية، وكلفته بالاتصال بالمسؤولين في القاهرة، وإبلاغهم أن سورية تتوقع ضربة انتقامية من العدو، وقصف دمشق من الجو، رجاء أن يرسلوا لنا نصف أو ربع العدد الموجود من طائراتنا التي ما تزال في

(١) المرجع السابق: ٢١ .

(٢) مذكرات زهر الدين: ٢٧٧ .

القاهرة، لنتمكن من حماية أجواء سورية من الغارات الليلية[1] فتمنعت القاهرة عن تلبية الطلب رغماً من حراجة الموقف، بالإضافة إلى أنها وقفت موقف المتفرج في أثناء نشوب معركة تل النيرب[2].

سادساً: الوحدة في نظر الساسة السوريين

تحدث كثير من الساسة السوريين المخضرمين عن الوحدة بين سورية ومصر، وعن الدوافع التي أدت إلى قيامها، وعن المخططات السرية لدى الدول الكبرى، ولاسيما الولايات المتحدة التي رسمت طريقها، وسعت إلى تنفيذها، ودعم من دعا إليها، وسجل الساسة ذلك في مقالاتهم وتصريحاتهم الصحفية، وأثبتوا كل ذلك تفصيلاً في مذكراتهم، وكان من أبرز من كشف عن الخبايا والخفايا الأستاذ أكرم الحوراني، واللواء عبد الكريم زهر الدين قائد الجيش، والعميد مطيع السمان قائد الأمن الداخلي وغيرهم من الضباط والوزراء والإعلاميين، وكان من أبرزهم وأكثرهم توسعاً وتعمقاً وصراحة خالد العظم، أشهر الساسة الذين عاصروا الأحداث، وشاركوا في صنعها، وشكلوا الوزارة منذ وقت مبكر، المرة تلو المرة حتى بلغ عدد الوزارات التي شكلها منذ الأربعينيات وحتى الستينيات عدة وزارات على مدى أكثر من خمسة عشر عاماً.

كان لخالد العظم رؤية عميقة ومطالعات دقيقة، وتحليل انفرد به

---

(٢) المرجع السابق: ٢٧٩ .

(٣) المرجع السابق: ٢٨٠ .

عن كثير من ساسة سورية، وأيده في التوثيق والتشخيص، تناول فيه مواقف العديد من السياسيين وقادة الأحزاب، وسجل فيه مطامع الولايات المتحدة وسياساتها حيال منطقة الشرق الأوسط ولاسيما البلاد العربية، والدول التي تحيط بالدولة العبرية على وجه الخصوص، وربما كان من المفيد إيراد المهم منها كما جاءت في مذكراته التي نشرها في ثلاثة أجزاء، بصراحته المعهودة، وجرأته البعيدة عن اللف والدوران والمداراة كما يفعل كثير من محترفي العمل السياسي.

١- ثبت فيما بعد أن ثمة مخططاً سعت إلى تنفيذه حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، يرمي إلى خلق دولة عربية كبيرة تتولى إقصاء النفوذ الشيوعي، أو بالأحرى نفوذ الاتحاد السوفياتي عن منطقة الشرق الأوسط، وتماشي هذه الدولة العربية السياسة الأمريكية، بما في ذلك عقد صلح بين العرب وإسرائيل، وذلك بعد فشلها -فشل الولايات المتحدة- في الانقلابات التي أثارتها -دفعت إليها- في سورية كانقلاب حسني الزعيم، وأديب الشيشكلي لأن زعماءها -قادة الانقلابات- لم يتمكنوا من الثبات في مراكزهم، ومن تحقيق السياسة الأمريكية، فانصرف الأمريكيون إلى دعم زعامة رجل عربي يتولى هو بنفسه قلب أنظمة الحكم تحت ستار الوحدة العربية، وهيؤوا له كل أسباب النجاح بالمال ووسائل الإعلام التي وضعوها تحت تصرفه دون حساب.

من هنا نفهم سر مساندة الولايات المتحدة لعبد الناصر في أزمة

قناة السويس، فطأطأ الرأس لها، ثم وافق على مجيء القوى الدولية، لتقف سداً منيعاً بينه وبين إسرائيل، متنازلاً عن الإشراف على خليج العقبة، وبذلك فتح أمام إسرائيل الباب الجنوبي الذي مكنها من الاتصال بدول إفريقيا الحديثة، وسائر دول آسيا دون الاضطرار إلى عبور قناة السويس[١].

يتابع السيد خالد العظم طرح الأفكار والمعلومات والتحليلات عن سياسات الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط، ولاسيما في المنطقة العربية، وبصورة خاصة في مصر، فيقول: تحقق لدى الولايات المتحدة أن هذا البرنامج لا يمكن تنفيذه، وفي الدول العربية حكومات دستورية برلمانية ومجلس نواب وأحزاب وصحافة حرة، يفرقها كل شيء، ويوحدها الخطر الإسرائيلي، فأمريكا لا تطيق النظام البرلماني في سورية، بل على العكس ترحب بترحاب مخجل بكل ديكتاتور يقلب النظام البرلماني، ويقيم محله نظاماً فردياً، تتعايش معه أمريكا، وتضمن مصالحها بواسطته[٢] فإذا أضفنا إلى ذلك موقف سورية من مشروع جونستون رفضاً حاسماً -حول مياه نهر الأردن- فإن أمريكا لم تكتم امتعاضها من سورية[٣].

٢- كان جمال عبد الناصر يتباطأ بالموافقة على تحقيق الوحدة أو

---

(١) مذكرات خالد العظم ج٣: ١٩٣ .

(٢) المرجع السابق ج٣: ١٩٣ .

(٣) المرجع السابق: ٣٢٠ .

الاتحاد مع سورية، بدعوى أن عقل الشعب المصري لم يختمر بعد إلى قبول فكرة التوحيد -توحيد القوانين- لكن رسله وعماله في سورية كانوا يبذلون لكل فريق من الوعود ما يخدع، فكانوا يمنون حزب الشعب بإقصاء التجمع القومي، وإبعاد الجيش عن السياسة، أما العلماء المسلمون، فقد وعدوهم بتحكيم الشريعة الإسلامية، فقد روى الشيخ سيد مكي الكتاني: أنه دعي إلى القاهرة، والتقى جمال عبد الناصر، فوعده أن يكون الحكم الجديد على سنة الله ورسوله، وأن تكون القوانين متفقة مع أحكام الشريعة الإسلامية، فبايعه الشيخ وقرأ الفاتحة، كما عاهد عبد الناصر أكرم الحوراني على أن يطلق يده في سورية، فيحكم بموجب المبادئ الاشتراكية، ووعد صبري العسلي بأن تكون الأرجحية للحزب الوطني في تولي الأمور[1]. ثم سافر ١٧ ضابطاً برئاسة رئيس الأركان عفيف البزري، وبايعوا عبد الناصر، أو قبلوا شروطه في وحدة لا اتحاد، وحكم رئاسي بدون برلمان، وحل الأحزاب، وتعيين من يريد من الضباط في وظائف مدنية، وتسريح من يريد[2].

يقول السيد العظم، والمرارة تملأ فمه، وكلماته تقطر أسىً وحسرة: ثم ساقونا كالنعاج، وأركبونا طائرة، حملت رئيس الجمهورية والوزراء وكبار الضباط إلى القاهرة، حيث عقدت اجتماعات في قصر القبة، انتهت بتوقيع صك الوحدة في قصر

---

(١) مذكرات خالد العظم الطبعة الأولى ١٩٧٢ بيروت ج٣: ١٩٦ الدار المتحدة.

(٢) المرجع السابق: ١٩٧ .

-قاعة- القبة، ثم أعادونا في اليوم التالي إلى دمشق، فأجرت الحكومة استفتاءً على الوحدة، أظهر أن ٩٩٫٩ تؤيد الوحدة في استفتاء حر نزيه، لا تشوبه شائبة!![١].

٣- الوحدة العربية ليست دخيلة علينا، فآباؤنا وأجدادنا هم الذين أشعلوا لهيبها، لذلك استقبل الشعب العربي في سورية فكرة الاتحاد الفيدرالي مع مصر بكل ترحاب، ولقد صرحت إلى وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية بأنني أتوق إلى ما هو أكثر من الاتحاد الفيدرالي، أتوق إلى وحدة كاملة تضم شمل العرب، وتجمع كلمتهم، وتعلي شأنهم.

لقد رفض عبد الناصر الاتحاد الفيدرالي، واشترط الوحدة الكاملة بين القطرين لتحقيق السيطرة على سورية، كأولى مراحل السلطان الذي يريد بسطه على سائر الدول العربية، ليصبح زعيماً لها لتنفيذ الخطة التي اتفق عليها مع الأمريكيين.

لا ريب أن الأمريكيين كانوا بارعين في وضع مخططهم بتغطيته براية العروبة، وانخداع المجموعة -في سورية- بهذا العنوان، أما الذين خرقت أعينُهم هذا الستار، فما كان باستطاعتهم أن يقاوموا تياراً يرفع شعار العروبة، وينادي بالوحدة العربية، وقد فعلت راية العروبة في هذه المعركة فعل المصاحف في معركة صفين، كما كان الأمريكيون بارعين في اختيارهم لزعامة هذه الحركة شاباً جسوراً

---

(١) المرجع السابق ج٣: ١٩٩ .

مقـداماً كعـبد الناصـر، تؤازره ثلة من الـمؤتمريـن بأمره، ثم بإظـهاره بمظـهر القـاهر لبـريطانيـا وفرنسـا، فجـسد فـي شخصـه آمال الـعرب وعـزتهم وكـرامتـهم، فـغطى عـلى كل زعـامة أو رئـاسة في أي قـطر عربي، كمـا أتيح لعبد الناصر التـقرب من اليسار، وتبني فـكرة الحياد الإيجـابي، فـزودته الـدول الشـيوعـيـة الأوربيـة والآسـيويـة بالسـلاح والمـعونات الاقتـصادية، فـأذعن اليسـار والشيـوعيـون لزعامتـه، ولم يفطنوا إلى خـفايا الصلة بين المـخطط الأمريكي وعبـد الناصر إلا في عامي ١٩٥٩ و١٩٦٠ عندما استتب الأمر لعبد الناصـر، فكشف طرفاً من غطائه، وبالعلن، بعـدما أمد الأمريكيون عبد الناصـر بالمساعدات المالية والمؤن والغذاء(١).

عاد الأستـاذ خالد العظم لـيذكر أنه وجمـيع الساسة السـوريين من مختلـف الاتـجاهات والمشارب يـؤيدون الوحدة المدروسة والـمخطط لهـا، والمـدعومـة من الشـعب مـمثـلاً في أحـزابه وبرلـمانـه وجمـيع فعالـياته، لتكون وحدة عـتيدة راسخة، تـثبت للعواصف والـمؤامرات وكيد الأعداء، وفي هذا السياق صدر مرسوم جمهوري، بتشكيل لجنة ضمت طيفـاً عريضاً واسعاً من الدبلومـاسيين والسياسيـين في سورية، لدراسة أمر الوحـدة، وتحضير بحوثـها وإعداد تنفيذها، فـضمت هذه اللجنة: أسعد الكوراني وأسعد هارون وأكرم الحوراني وأمين النفوري وجمال الأتاسي وجميل صليبا وخالد العظم وراتب الحسامي ورشدي الكيـخيـا وسعـد الله مـرعشي وعـبد الوهـاب حومد وعـصام الـعطار

(١) مذكرات خالد العظم ج٣: ١٩٤- ١٩٥ .

وفرحان الجندلي ومحمد المبارك ومنصور الأطرش وميشيل عفلق وهاني السباعي ووهيب الغانم[1] وذلك بعيد الانفصال، لاستعادة الوحدة مبرأة من العيوب والأخطاء الفادحة والارتجال التي وقعت فيها تجربة الوحدة التي قامت عام ١٩٥٨ ولم تصمد إلا فترة وجيزة، فانهارت -وأسفاه- عام ١٩٦١ .

غير أن القاهرة رفضت كل المشروعات الوحدوية التي طرحها السوريون في عهد الانفصال، وأصرت على استعادة الوحدة كما كانت، واستخدمت لبلوغ ذلك كل ما لديها من قدرات سياسية وإعلامية ومالية ومخابراتية لهدم العهد الانفصالي كما سيأتي ذلك تفصيلاً في المرحلة اللاحقة التي كان الإخوان المسلمون في صميمها، وداخل إطارها، بما اتخذوه من مواقف وإجراءات سيأتي ذكرها في موضعها من هذه الظروف العسيرة.

٤- كان لتلاحق الأحداث التي سبقت قيام الوحدة والتصدع الذي أصابها، وحدوث الانفصال، وما سببه من صدمة مؤلمة، وخيبة أمل للأمة كلها، في سورية وفي كل أقطارها، كان لذلك انعكاس على الساسة وعلى الحياة الحزبية، فاختلطت أوراقها، وتشتتتْ صفوفها، واستحكمت الخلافات والانقسامات في داخلها، وتباينت آراء قادتها، بل وأعضائها، وكان حزب البعث من أكثرها تشتتاً، وقد زادت المناقشات وتسارع الأحداث من تصدع الحزب، فالعراقيون كانوا

---

(١) المرجع السابق: ٤٠٤-٤٠٥ .

يطالبـون بدعم الحزب -فـي الأقطار الأخرى- بمـساعدتهـم والوقوف معهـم ضد الديكتاتور الـعراقي عبد الكـريم قاسم الذي اعتـبروه عدواً أشد خطراً على الحزب من جمال عبد الناصر، أما عبد الله الريماوي أمين سـر الحزب في الأردن فـقد صرح: إن عـبد الناصـر على حق، وإن الحزب على خطأ، وانفصل عن الحـزب، وهناك من البعثيين من تبنى الفكـر الماركسي، وآخرون اعتـزلوا السياسة، وبقـيت في سورية خلايا راحت تكافـح للحفاظ على وجودها السـري، ومع هذه الخلايا حاولت اللجنة العسكرية في القاهرة الاتصال بهم مجدداً، وهي تبحث عن حلفاء لها.

عقـد الحزب مؤتـمراً قومـياً في حمـص في ربيع ١٩٦٢ دعا إلـيه ميشيل عفلق لأول مرة بعد حل الحزب عام ١٩٥٨، لم يُدع إليه أكرم الحـوراني، ولا البعـثيـون الذين انضمـوا إلى عبـد الناصـر ولا الذين خالفـوا أوامر عفلق، فأعـاد المؤتمر عفـلق إلى قيادة الحزب، فـاتخذ قراراً بـإصلاح الحزب، وإعـادة بنائه بـدعم من وفد الـحزب البعـثي العراقي[1].

٥- أما الحزب الوطـني، فقد اتخذ الميكيـافيلية أساساً لسـياسته، وكانت هي مـذهب رئيسه صـبري العسلي، الذي بدأ حـياته السيـاسية أميناً عاماً لعصـبة العمل القومي، ثم تركها ليلتحـق بالكتلة الوطنية في نهاية الأربـعينيات، ثم ليكـون على رأس الحزب الوطني بعـد انشطار الكتـلة الوطنيـة إلى حزب الشـعب الذي كـانت حلب مقـراً رئيسـاً له

(١) باتريك سيل: ١١٤، ١٢٧، ١٢٨ .

بزعامة رشدي الكيخيا، والحزب الوطني الذي كانت دمشق مقراً رئيساً له بزعامة عدد من الساسة الدمشقيين كان صبري العسلي أبرزهم وفي مقدمتهم.

عندما كانت الدعوة إلى الاتحاد مع العراق رائجة، ركب العسلي موجتها، فعقد حزبه مؤتمراً في حمص عام ١٩٥١ عدّل فيه لائحته الحزبية التي تنص على التقيد بالنظام الجمهوري إلى النص على قبول النظام الملكي تمهيداً للاتحاد مع العراق، وعندما تصاعدت موجة الناصرية، وقويت الدعوة للاتحاد مع مصر، كان العسلي في المقدمة، وعندما طُرح موضوع الوحدة بين مصر وسورية، وكان رئيساً للوزراء، كان في مقدمة الذين صاغوا لائحتها، وتحركوا بنشاط وافر، وحينما تشكلت أول وزارة للجمهورية العربية المتحدة، كان ثاني اثنين من نواب عبد الناصر للإقليم الشمالي -سورية- لكن الانقلاب الذي وقع في العراق، وقضى على النظام الملكي، وجاء بحكومة عبد الكريم قاسم التي شرعت في محاكمة رجال العهد الملكي، وأعلنت الوثائق، -المستمسكات حسب التعبير العراقي- وكشفت عن أسماء الذين تعاونوا مع حكومة نوري السعيد، ظهر اسم صبري العسلي واحداً منهم، فشكل ذلك حرجاً كبيراً حمله على تقديم استقالته كنائب لعبد الناصر الذي قبلها للتو، وقبع في منزله بانتظار دور جديد عندما تحين الظروف!!

يشخص خالد العظم مواقف صبري العسلي وسياساته بأسلوبه الذي لا يخلو من المرارة فيقول: عدّل صبري العسلي نظام حزبه

الأساسي ليصبح الحكم في سورية ملكياً لا جمهورياً، وذلك تمهيداً للاتحاد مع العراق، ثم رجع إلى النظام الجمهوري، وماشى الشيشكلي حيناً، ثم انقلب عليه، واتفق مع المطالبين بالحياة الدستورية، بعد أن قبض الأموال من العراق، ثم تكاتف مع حزب الشعب على الاشتراك في التشكيل الوزاري عام ١٩٥٤، ثم سحب وزراءه، وعقد حلفاً مع حزب البعث(١).

كذلك كان رأي العظم بناظم القدسي سلبياً، نعته فيه بأوصاف لا تؤهله لقيادة بلد صعب المراس كالقطر السوري، وقال: كان ظاهر القدسي غير باطنه، وكانت مناوراته ومحاولاته أكثر من أن تحصى، وإنني أصر على أن في مقدمة الذين تسببوا في انهيار عهد الاستقلال كان رئيس الجمهورية نفسه -القدسي- فهو يحمل المسئولية الكبرى، ويقول عن علاقته بأمريكا: كانت العلاقات بين القدسي وسفير الولايات المتحدة الأمريكية في دمشق متينة للغاية(٢).

٦- كان تهجم أكرم الحوراني على جمال عبد الناصر شديداً وحاداً، بل فاق بشدته هجوم السوريين جميعاً على ناصر، فقد نعته بأوصاف شنيعة، واتهمه بتهم فظيعة، وقال: إنه خضع للأمريكان، وأعطى اليهود ما فجع الأمة عندما فتح لهم المضائق، ومكنهم من الإبحار إلى إفريقيا وآسيا، وسمح للمراقبين أن يحلوا بديلاً عن

---

(١) مذكرات خالد العظم ج٣: ٣٤-٣٥ و١١٥، الطبعة الأولى الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٧٢ .

(٢) المرجع السابق: ٣١٠ و٣١٢ .

القوات المصرية في المضائق حماية لإسرائيل. . إلخ ما وجهه من اتهامات لعبد الناصر، ملأ بها أعمدة الصحف والمجلات السورية، وتبعه في ذلك الوزراء في حكومة الكزبري، إذ كان كل وزير يلقي بيان وزارته حول الخروق والانحرافات والتسلط والاستغلال التي شهدتها الوزارة في عهد الوحدة، وفي ظل قيادة عبد الناصر، غير أن أقسى نقد لشخص عبد الناصر جاء في حديث الأستاذ علي الطنطاوي الذي ألقاه، عندما اتهم عبد الناصر بالطغيان والجبروت وتقديس ذاته عبر الإذاعة والتلفزيون وجميع وسائل الإعلام بشكل غير مسبوق، وقد كان لحديث الشيخ الطنطاوي أثر كبير في جمهور سوري عريض لما عرف عن الشيخ من أسلوب طلي وبلاغة ساحرة، وأدب ساخر لا يدانيه فيه أي أديب آخر، كما أن الصحافة التي كانت بالأمس تمجد عبد الناصر، وتضفي عليه من صفات القيادة والزعامة ما يجعله محط أمل الأمة كلها في توحيد البلاد وتحريرها وقيادتها إلى النصر، وتخليص فلسطين من الصهاينة، كما خلصها من قبل صلاح الدين من الصليبيين، هذه الصحافة أو كثير منها غيرت مواقفها مئة وثمانين درجة، وقالت بعبد الناصر أكثر مما قاله مالك في الخمر.

إن هذا التذبذب وتغيير المواقف والنفاق الاجتماعي المخجل، وتزيين أعمال القادة وهم في السلطة، وشتمهم واتهامهم عندما يصبحون خارجها، هو أحد أسباب التخلف، بل هو أهم أسباب الانحطاط الذي تردّت أمتنا في مستنقعه، بعد أن كانت بالإيمان

والإخلاص والصدق والاستقامة خير أمة على مدى بضعة عشر قرناً، وبهذا السياق نقول باقتناع تام: إن الجميع كانوا مسؤولين عن ضياع الوحدة، وتحطيم هذا الأمل الكبير الذي انتظرته أمتنا دهراً طويلاً.

٧- كان للإخوان المسلمين في خضم هذه الأحداث مواقف وسياسات تختلف عما كان عليه معظم الساسة، وكثير من الأحزاب الأخرى، فقد أيدوا الوحدة دونما تردد أو تحفظ رغم ما أصاب إخوانهم في مصر من عنت وظلم واضطهاد، وفي ظل الوحدة صبروا على ما نالهم من ضغوط وإبعاد حتى آخر عهد الوحدة وأيامها، وعندما وقع الانفصال آثروا مصلحة البلاد والعباد، ورفضوا التوقيع على وثيقة الانفصال، وعرضوا أنفسهم لانتقادات الساسة والأحزاب ونقمة ضباط الانفصال جراء موقفهم من الانفصال ورفضهم له، بل إن ذلك جرّ عليهم اتهامات من كبار زعماء سورية الذين اتهموهم بأنهم يؤيدون عبد الناصر ويتآمرون معه، وصنفوهم بخانة الناصريين، وقد نال الأستاذ عصام العطار من هذه الهجمة أكثر مما نال غيره من قيادات الإخوان بعد إصراره على رفض التوقيع على وثيقة الانفصال رغم الضغوط الثقيلة عليه في نادي الضباط حيث كان الساسة يعلنون في اجتماعهم تأييدهم لقادة الانفصال، وكان أشد منتقدي الأستاذ عصام المراقب العام للإخوان الأستاذ خالد العظم الذي شكك في مواقفه، وكتب عنه في مذكراته منتقداً ومندداً، فقال العظم عن الأستاذ عصام: لا تكاد تفهم من كلامه أنه موافق على أمر ما في مطلع كلامه حتى تجد أن اتجاهه قد تغير في المنتصف، ثم عاد في

النهايـة إلى شيء بين الموافقـة والرفض، لم أجد في حيـاتي رجلاً لا تستطـيع فهم مراده وحقـيقة ما يضـمر، مثله، فـهو يتكلم والابتـسامة الحلوة لا تفارق شـفتيه، ويفرك يديه، ويحدثـك بصوت ناعم، وبكل تواضع، ثم يـثور فجأة، فـيهز يديـه و(يفنجر) عـينيه، ويرفـع صوته، ويندفع بالوعيد والتهديد، لكنـه لا يلبث أن يهدأ حين يرى مخاطبه لا يكترث لهذا التـهديد، ولا يقيم له وزناً، فترجع الابتسامـة الرقيقة إلى وجهه، وتنفرج أساريره، ويعود بالحـديث إلى النقطة التي وصل إليها من قـبل، يقول العـظم: لم أكن قبـل انتخابـات ١٩٦٢ أسمع بعـصام العطار، ولـم أره، واجتمـاعي به في ردهات المـجلس -النيـابي- لم تيـسر لي معـرفة كنهـه، ولكن الصلـة وتداول الرأي معـه بدأ بمناسـبة اجتماعـاتنا في صيف ١٩٦٢ التي تكاد تكون يوميـة مع سائر النواب، أو على انفراد، وفـي جميع هذه الاجتمـاعات لم تيسر لـي ولا لغيري الحصول عـلى رأي صريح من الأستاذ عـصام بشأن الوحدة، كـما أنه لم تصدر على لسانه كلمة ضدها، أو ضد عبد الناصر، لا في خطبه، ولا في مسجد الجامعة السورية، ولا في تصريحاته الصحفية، ولا في الأحاديث التي كانت تدور بيننا وبين النواب، وفي اجتماع خاص بيني وبينه -بيـن العظم والعطار- بحضـور الحوراني، أجاب علـى سؤالنا: هل تريد عـودة عبد الناصر إلى سـورية؟ أجاب: أعوذ باللـه، غير أن صلاته بـكثير من الـناصريين، واتصـالاته بعبد الـحميد الـسراج، وهم الذين تأكد بعد ٨ آذار اشتراكهم في المؤامرات الناصرية، كان يثير في نفوسنا الشكوك والـريبة في حقيقة اتجاهه بعـد أن رفض الانضمام إلى التكتل الذي سعى إليه مكي الكتاني بمـعاونة بعض السياسيين للوقوف

في وجه رجوع الناصرية إلى سورية[1].

هكذا دفع الأستاذ عصام حفظه الله ثمناً غالياً لموقفه المبدئي تجاه الوحدة التي دعمتها جماعة الإخوان المسلمين، ممثلة بقادتها، السباعي والمبارك والحامد وغيرهم، وكرهوا زوالها، وأمسكوا عن التهجم على عبد الناصر وقادة الوحدة ومصر الغالية، رغم ما أصابهم من ضر وضنك واضطهاد وأذى من عبد الناصر في مصر، ومن عزل وإقصاء من السراج والمخابرات في سورية، فتحملوا ذلك كله محتسبين، وضمدوا جراحاتهم، وقهروا عواطفهم، وكانوا مع الوحدة مبتدأ ومنتهى، لأن وحدة الأمة فريضة شرعية، لا تدخل في المساومات السياسية، ولا المكاسب الشخصية والحزبية ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[2] و﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾[3].

٨- بعد الجدل العقيم والخلاف السقيم في الأوساط السياسية والعسكرية إثر انقلاب الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر ١٩٦١، وما أحدثه البيان العسكري رقم (٩) الذي أعلن عزم الانقلابيين على الإبقاء على الوحدة، وتنفيذ الإصلاحات في الحكم، وفي الجيش، وما أحدثه من اضطراب في صفوف بعض القطعات العسكرية التي هددت بقصف الأركان، إذا حدث مثل هذا التوجه خوفاً على أنفسهم

---

(١) مذكرات خالد العظم ج٣: ٢٨٦ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٢ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ٥٢ .

وعلى البلاد بعد أن كشفوا مواقفهم وأوراقهم، وبعد أن أعلن عبد الناصر رفضه لأي تسوية أو حل وسط بين الانقلابيين والقاهرة، صدر البيان رقم (١٠) الذي أعلن فيه الانقلابيون انفصال سورية عن مصر، وخروجها من دولة الجمهورية العربية المتحدة، فقامت مظاهرات مؤيدة للانفصال، وأخرى معارضة له، في عدد من المدن السورية، ولاسيما في دمشق وحلب، فأدى ذلك إلى صدامات، تخللتها أعمال عنف، وسقوط قتلى وجرحى، وعلى الأخص في مدينة حلب بين صفوف العمال والمتظاهرين المؤيدين للوحدة بين سورية ومصر، ثم جاء البلاغ رقم (١٧) الذي حسم الأمور، وسار بسورية على طريق الانفصال النهائي، وإجراء الانتخابات، وتسليم المدنيين أمور السياسة وإدارة شؤون الحكم في سورية، قال البلاغ (١٧): تعلن القيادة الثورية العربية العليا للقوات المسلحة: أنها وفاءً منها بالعهد الذي قطعته على نفسها للشعب بأن توكل أمور السياسة والإدارة إلى أبناء الشعب، قامت بتكليف الدكتور مأمون الكزبري بتشكيل وزارة يُسند إليها أمور شؤون البلاد توطئة لإعادة الأوضاع الدستورية إليها[١].

٩- أثارت حكومة عبد الناصر عبر إعلامها القوي الهادر أن السوريين عاملوا المصريين الذين كانوا يعملون في دوائر الحكومة والمؤسسات العسكرية والأمنية وغيرها معاملة قاسية، ومارسوا عليهم أساليب غير كريمة من السجن والتعذيب والإهانة، لقد أدهشت هذه الاتهامات السوريين الذين نفوها جملة وتفصيلاً، وأكدوا عبر بياناتهم

(١) مذكرات زهر الدين: ٧١ .

أن المصريين عوملوا معاملة أخوية راقية، في أثناء الأحداث التي أدت إلى انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة، وقد أورد قائد الجيش زهر الدين في مذكراته فقرة خاصة في هذا الموضوع، فقال: لم يُعامل المصريون في ٢٨-٩-١٩٦١ إلا معاملة ممتازة، بالرغم من أن إذاعة صوت العرب كانت تتهم رجال الحركة بتعذيب الرعايا المصريين، ومع أن كل مسؤول في سورية كان يصدر التعليمات المشددة بخصوص حسن المعاملة، والمحافظة على المصريين كمحافظته على ذويه، ومع أن المصريين في القاهرة أذاقوا الطلاب السوريين في الكلية العسكرية أنواع التعذيب بسبب تأيدهم لحركة ٢٨ أيلول/ سبتمبر، ومطالبتهم بالعودة الفورية إلى سورية، فقد أصيب بعضهم بكسور في الأيدي والأرجل والعمود الفقري من شدة التعذيب، كما سجل ذلك إعلاميون سوريون في مرفأ بيروت عند نزولهم من الباخرة التي أقلتهم من مصر إلى سورية عبر لبنان، وقد عرضت تلك اللقطات على شاشة التلفزيون السوري، وشاهدها السوريون واللبنانيون والأردنيون في المناطق المتاخمة للحدود السورية(١).

سابعاً: محطات مثيرة على ضفاف الخليج

بعد ممارسة التجربة السياسية في ظل الوحدة بين سورية ومصر، استبان لنا أن الاتحاد القومي، ليس أكثر من غطاء لحكم دكتاتوري

(١) مذكراتي عن فترة الانفصال ما بين ٢٨-٩-١٩٦١ وحتى ٨ آذار ١٩٦٣ للفريق عبد الكريم زهر الدين: ٧٠ .

قمعي، وفي آخر حلقات هذه التجربة -بالنسبة لي- محاضرة ألقيتها في مقر الاتحاد القومي، حضرها المحافظ ياسين فرجاني أحد أعضاء الوفد العسكري الذين أبرموا اتفاق الوحدة مع عبد الناصر، والعقيد عبد الملك عثمان قائد الموقع العسكري في المحافظة، وكبار الشخصيات الحكومية، وكان عنوانها: النفوذ الصهيوني في القارة الإفريقية، ولما عرَّجْت في الحديث على الحضور القوي للصهاينة في المغرب، وكنت قد سمعت تفصيلاً عن ذلك من قائد الكشفية في سورية علي عبد الكريم الدَّندشي، ولاسيما سيطرة اليهود على اقتصاد المغرب كالفوسفات وغيرها، استشاط المحافظ ومن معه غضباً باعتبار الحسن الثاني صديق عبد الناصر وضيفه في احتفال تشغيل السد العالي، وكاد ينسحب من الحفل كما أُخبرت بعد ذلك، فحملت عصا الترحال بعدها، وأبرمت عقداً مع دائرة المعارف القطرية، وكانت قطر قد استقبلت من قبل مجموعة من البعثيين السوريين، كان على رأسهم د. عبد الله عبد الدايم مديراً للمعارف، ومحمود الأيوبي مدرساً للعربية، وأحمد الخطيب مديراً للثانوية، فأنهت قطر عقودهم بعد عام دراسي واحد، فعاد الأيوبي إلى سورية رئيساً للوزراء، وأحمد الخطيب رئيساً للمجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات المؤلف من مصر وسوريا وليبيا، وحلت مجموعة من الإخوان محلهم في دائرة المعارف القطرية.

١- عندما ذهبت إلى الدوحة، كان يحدوني أمل كبير في العمل على إقامة مجتمع إسلامي في بلد صغير في حجمه وعدد سكانه،

يتمسك أهله بالإسلام على طريق السلف، دون أن يكون بينهم أقليات تنتمي إلى أديان أو طوائف أخرى حيث اجتمع في قطر ما لم يجتمع في بلد آخر من قيادات أبناء الدعوة الإسلامية، كان عدد منهم من النخبة أو من الصف الأول للقيادات الإخوانية السورية والمصرية والأردنية وغيرها، ثم استبان لي بعد فترة وجيزة جداً أنني كنت سادراً في وهم وغارقاً في حلم، وذلك عندما رأيت هذه النخبة، تتسابق وتتزاحم، بل وتتصارع على التقرب من الشيوخ، لينالوا منهم حظوة في وظيفة أو مهمة أو مسؤولية تزيد من دخلهم، والويل لمن يناقشهم أو ينصحهم أو ينتقدهم في هذا التهافت، وإلا فالمصير هو التسريح -التفنيش- والترحيل إلى المكان الذي حضر منه، فاستقر في أعماقي أن هذه النخب ليست مهيأة للاضطلاع بالدور المنوط بها، أو المتوقع والمنتظر منها في التغيير والإصلاح، وتطبيق المبادئ الإسلامية، وتنزيل الأحكام الشرعية على أرض الواقع، وأن النخب المطلوبة بحاجة إلى نوع آخر من الإعداد والتكوين، ليكونوا أهلاً لنصر الله وجديرين به.

٢- كانت بلدية دبي بمثابة مجلس وزراء الإمارة (برئيسها وأعضاء المجلس البلدي) في البلاد الأخرى، من حيث النفوذ والصلاحيات، وكان على رأسها رجل سوداني مشهود له بالكفاءة والنزاهة، وكان ذا سمت ديني، باعتباره من عائلة تنتمي للطائفة الختمية في السودان، وكانت تربطني به صلات حسنة، لأنه كان يشجع على عمل الخير، ونشر الثقافة الإسلامية وفي هذا السياق، ابتنى قاعة كبيرة

للمحاضرات، كلّفت بإلقاء المحاضرات فيها، وإحياء مناسبات تاريخية وإسلامية، لم يكن الاحتفال بها مألوفاً في مجتمع الإمارات الناشئ، مثل ذكرى المولد النبوي الشريف، ورأس السنة الهجرية، ومعركة بدر، والإسراء والمعراج، فأقبل المواطنون عليها من دبي والإمارات الأخرى إقبالاً شديداً، وفيهم علية القوم للاستماع إلى أيام الإسلام التي كنت كثيراً ما أُكَلَّف بإلقائها.

وذات صباح، وقبل البدء بالدوام الرسمي بساعة، حضر إلى مكتب قطر الذي كنت مديراً له، على غير العادة السيد كمال حمزة مدير البلدية، قائلاً: جئتك في هذا الوقت، لأبلغك على انفراد أمراً خطيراً. لقد تقرر بناء كنيسة في دبي، ولو كان علي بن عبد الله العويس -والد سلطان العويس صاحب الجائزة النقدية لكبار الأدباء والمفكرين- وهو من أبناء الشارقة ووجهاء الساحل وعضو المجلس البلدي في دبي، لما استطاع أحد أن يطرح مثل هذا الموضوع أو المشروع، فقد وقف في وجه النشاط التبشيري وقفة الفحول قائلاً: لا يمكن التبشير بتنصير المواطنين المسلمين وأنا حي، إنني -يقول كمال حمزة- لم أر مثل صلابته وغيرته، ثم قال: كل ما استطعت فعله، إبعاد الكنيسة عن مكان بارز في وسط الإمارة بجانب الجسر إلى مكان أقل بروزاً منه.

تبين لي فيما بعد أن بعض وجهاء دبي وتجارها الكبار والأثرياء فيها صاروا يتبارون أو يتسابقون على التبرع لبناء الكنيسة، وعندما رأيت بطاقة الدعوة لافتتاح الكنيسة، هالني أنها كانت موجهة باسم:

مندوب البابا في جزيرة العرب، فانتهزت فرصة الاحتفال بمناسبة إسلامية تاريخية، فقلت فيها: قال رسول الله ﷺ: لا يجتمع في جزيرة العرب دينان، فالوزر على من أمر أو وافق أو شجع على إقامة كنيسة في بلد كل أهله مسلمون، ولا يوجد فيهم مواطن مسيحي واحد. وفي هذه الفترة بالذات -في منتصف الستينيات- من القرن الماضي، استلمت من أخ ورقة بعث بها شاب دمشقي يدرس في ألمانيا، هاله مقال في صحيفة ألمانية جاء فيها: انتدبت الكنيسة عدداً من المبشرين منهم: مستر بيل، ومستر بيرئيل، ومستر بطرس دالين، ومسز مارغريت دالين، للسفر إلى دبي، واتخاذها منطلقاً للانقضاض منها على مكة!! باعتبار الساحل الغربي على البحر الأحمر مغلقاً في وجوههم. ومنذئذ سرعان ما انتشر بناء الكنائس بكثرة غير مبررة في شرقي الجزيرة العربية من الكويت حتى اليمن كما تغرس أشجار النخيل لكثرتها، دون أن نجد من الشيوخ أو المشايخ أو الدعاة أو الوجهاء من ينبه أو يبدي الغيرة على السلفية التي كان البعض من ذويها ينكرون أشد الإنكار إقامة احتفال بمناسبة ذكرى مولد فخر الكائنات سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

٣- ازداد عدد الوافدين على إمارات الخليج، ولاسيما دولة الإمارات العربية المتحدة التي تحتوي أرضها على أكبر ثالث احتياطي بترولي في العالم، وكثر فيها عدد المنتمين للتوجهات الإسلامية بشكل تلقائي، فلا بد والحالة هذه من إقامة تجمع أو ترتيب يجمع شملهم، فحملت إلى أبو ظبي مشروعاً في المبادئ الأساسية للنظام

ألإخواني السوري، ومعه مشروع النظام الداخلي، كنا فرغنا للتوِّ من إقراره في سورية، وقدمته إلى لجنة تنسيق تضم ممثلين عن الإماراتيين والسوريين والسودانيين والعراقيين واليمنيين والفلسطينيين والأردنيين، وطوعنا النظام -ولاسيما الداخلي- ليماشي التقسيمات الإدارية في الإمارات قبل أن يتمكن أحد المروجين بعزل أبناء الوطن في تنظيم منفصل عن إخوانهم من أبناء الدول العربية الأخرى، كما فعل في دولة أخرى خليجية، فأحدث فيها شروخاً بين أبناء الدعوة لم يلتئم بعد ذلك. وبعد أن استوى هذا التنظيم على سوقه، واستعصى على ذاك الفكر الدخيل على مبدأ الأخوة الإسلامي، قرر أعضاء لجنة التنسيق العزم على الانصراف كلياً إلى الانشغال بالتربية والتوجيه والنصح، والابتعاد عن المواقف التي تؤدي إلى استفزاز الحكام الذين هم الدليل الكبير على عروبة المنطقة وصبغتها الإسلامية، بالرغم من السلبيات الكثيرة الأخرى.

بعد أن فرغت -بتكليف من الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات- من تأسيس ثلاثة معاهد، يحمل كل واحد منها اسم: المعهد العلمي الإسلامي في كل من مدينة العين وإمارة عجمان وإمارة دبي التي كان معهدها سابقاً في نشأته، فطبق المناهج التي تقرر تدريسها في المعهدين الآخرين، وفي هذه الأثناء عملت مديراً لمعهد العين ثم موجهاً للغة العربية في أبو ظبي، ثم نائباً لمدير المعارف -وكالة- في مدينة العين، ثم مشرفاً على قسم المناهج في مقر الوزارة في أبو ظبي للتربية الإسلامية واللغة العربية والاجتماعيات، وعملنا على وضع

مفردات المناهج للمرحلة الابتدائية، وشرعنا في تأليف الكتب المدرسية من خلال لجان تشكلت لإنجاز ذلك، فشاركت في تأليف اثني عشر كتاباً مدرسياً في اللغة العربية والاجتماعيات والتربية الوطنية والسيرة النبوية -والأخير خاص بالمعاهد- بالتعاون مع مدرسين نابهين. غير أن وزير التربية- وكان علمانياً ناصرياً- لم يرق له ما تحمله هذه الكتب من روح إيمانية وتربية وطنية واضحة، ومتانة اللسان العربي، فعمد إلى إلغائها، وإلقائها في نفايات المستودعات الحكوميَّة التابعة لوزارة التربية، ولما يمض على تطبيقها والأخذ بها في تعليم التلاميذ عام واحد!! فجمعت من بين الأوراق المفرومة عدداً منها ما زلت أحتفظ به.

٤- كانت إمارات الخليج تشهد مخاضاً كبيراً في تشكيلها السياسي، وبروز صيغة جديدة لها، فكان التوجه يهدف إلى إقامة دولة واحدة تضم إمارات قطر والبحرين ودبي وأبو ظبي والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة والفجيرة التسع، ثم تراءى لصناع القرار تشكيل ثلاث دول: دولة قطر، ودولة البحرين -مملكة البحرين فيما بعد - ودولة الإمارات التي تضم أبو ظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة والفجيرة، وافقت جميع الإمارات، وأحجمت أو تحفظت إمارتا رأس الخيمة وعجمان، فتأخر إعلان الاتحاد، وكانت تربطني علاقة وصداقة حميمة مع ولي عهد عجمان الشيخ حميد بن راشد النعيمي، فقلت للشيخ زايد: اسمح لي أن أعالج الأمر في عجمان، فشددت الرحال إليها، ومكثت ثلاثة أيام

التقيت خلالها الشيخ حميد - أمير عجمان الحالي وعضو المجلس الأعلى للاتحاد لعشرين ساعة على فترات، نصحت فيها الشيخ أن يكون جزءاً من الاتحاد، لينال الدعم الكبير في إعمار إمارته، ويتجنب الخصام مع الإمارات التي تحيط بعجمان من كل جانب، وفي كل هنيهة كان والده الشيخ راشد يطل على لقاء ولي عهده بي، إذ اشتد قلقه من الوقت الطويل الذي استغرقه اللقاء، فعجمان ورأس الخيمة كانتا أقرب إلى السعودية في المذهب والمشرب، ثم انتهى الأمر إلى الاقتناع والموافقة، فحملتها، وعدت بالتو إلى مدينة العين فرحاً مستبشراً، فوصلت حدودها في الثانية عشرة ليلاً فوجدتها مغلقة -كانت الشرطة تمنع الدخول إلى المدينة بعد منتصف الليل-، فاضطررت إلى المبيت في مخيم أعرف أناساً فيه، وبعد صلاة الفجر، فتحت مدينة العين أبوابها للوافدين عليها، ولم تمض ساعات حتى كنت في لقاء مع الشيخ زايد أحمل إليه البشرى، بقرار إمارة عجمان بأن تكون جزءاً من الاتحاد المزمع تأسيسه وإنشاؤه.

٥- بعد أن فاحت رائحة البترول من جنبات الخليج في دبي والشارقة وغيرهما، هُرع رجال الأعمال والشركات والمستمرون إلى الخليج زرافات ووحداناً، فشرع الحكام وذوو الشأن بتحويل الصحراء والمدن الصغيرة والمتواضعة إلى مدن كبيرة وحديثة عامرة. والحاجة أمست كبيرة إلى استيراد مواد البناء، وبخاصة الحديد، بكميات كبيرة جداً، ولاسيما أن المال كثير وفير من شحنات البترول التي تحملها الشاحنات العملاقة عبر مضيق هرمز إلى أوربا وأمريكا واليابان.

عرض عليّ السياسي المخضرم الأستاذ عبد الرحمن العظم الاقتصادي والخبير العالمي في شؤون المال، والذي توثقت الصلة به بمناسبة انتخابات ١٩٦١ في عهد الانفصال، أن أكون وكيلاً لشركات الحديد الألماني في الخليج حصراً، ولشركةٍ سويسرية مختصة في الأواني الفضية، ولشركة دخان أمريكي حديث نسبة النيكوتين فيه عشرة بالمئة من أنواع الدخان الأمريكي الأخرى، ثم حضر من الكويت رجل دمشقي من آل البيطار عرض علي العمل عبر إنشاء شركات واستلام وكالات، وفي هذه الفترة دعاني ماجد الفطيم صاحب أكبر الأعمال التجارية في دبي والساحل يوازي آل الغرير في التجارة، وعرض علي أن أكون مديراً في العاصمة لأعماله التي تملك أو تضم عشرات الوكالات اليابانية والأوربية كسيارات التيوتا وشركة فيلبس وغيرهما وشركات أخرى كثيرة. وبعد تفكير لم يطل كثيراً، اعتذرت عن هذا كله بأسلوب مهذب، لاقتناعي بأن هذه الأعمال الكثيرة وما تجره من أرباح وفيرة، إنما هي فائضة عن الدخل الذي يغطي الحاجات المعيشية، كما يستدعي استقبال مندوبي الشركات العالمية، وإقامة الولائم وحفلات الكوكتيل لهم، والعمولات التي تشغل رجال الأعمال الخارجة عن العمل المشروع، واستهلاك الوقت والجهد والتفكير على مدار الساعة، فتشغل المستغرقين بها عن الالتزامات الدنيوية والأخروية، والأعمال الدعوية التي ارتبطنا بها، ونذرنا كل شيء في حياتنا لخدمتها، والمهمات الإخوانية والشرعية التي ينوء المؤمن بحملها، ويعجز عن أدائها إن لم تتداركه عناية الله

تعالى وعونه.

٦- منذ أن ترسخ الوجود البريطاني في الساحل الشرقي للجزيرة العربية، ربط الإنكليز صلات هذه المنطقة بالهند حيث يقيم نائب الملك في نيودلهي، فنمت العلاقات بين سكان الخليج وأبناء المحميات -ومن بعد دولة الإمارات- بالهند في جميع الأمور، وعلى كل الصعد، في التجارة والطبابة والسياحة، إذ كان المريض يذهب إلى الهند لتلقي العلاج... وهكذا. أما الصلات مع العالم العربي، فقد كانت شبه معدومة.

وفي الستينيات من القرن الماضي أدرك العرب أن هذا الجزء من جزيرة العرب معرض للضياع وطمس هويته العربية، فقررت الجامعة العربية إرسال وفد برئاسة الأمين العام عبد الخالق حسونة لزيارة إمارات الخليج تحت اسم وفد الأخوة العربية عام ١٩٦٤، فقام الوفد بجولة بين الإمارات، وزار شيوخها وأسرها الحاكمة، فأنعش الآمال بإقامة صلات وثيقة بين عرب الخليج والدول العربية الأخرى.

في هذه الفترة التي عملت فيها مندوباً عن قطر في ساحل عُمان تحت مسمى وظيفة باسم: مشرف بعثات معارف قطر في ساحل عُمان، من عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٦٧، لمست وشاهدت أموراً خطيرة تشكل تهديداً حقيقياً على عروبة المنطقة، كانتشار النفوذ الإيراني والآسيوي، وفتح باب الهجرة على مصراعيه لغير العرب من الشرق ومن دول آسيا -الهند وباكستان وأفغانستان و...- وتفشي المخدرات والخمور والشذوذ والموبقات الأخرى، وانتشار البضائع

الإسرائيلية التي تصل عن طريق إيران المجاورة المتعاونة مع الصهاينة في ظل حكم الشاه، فرفعت مذكرة إلى الجامعة العربية أدق فيها ناقوس الخطر ليحيطوا علماً وفهماً بالأمور الخطيرة التي لا تتسع زيارة وفد الأخوة للإلمام بها وإدراك الكثير من حقائقها غير المرئية، وقمت بزيارة مقر الجامعة العربية في القاهرة، وسلمت المذكرة إلى الأمين العام المساعد للشؤون السياسية الدكتور سيد نوفل يداً بيد، ولأهمية هذه المذكرة أثبت منها فقرات بإيجاز شديد لأنها طويلة، ولا تتسع هذه الأوراق لإيرادها كلها كاملة.

سيادة الأمين العام للجامعة العربية المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فإنه لنصر كبير أن نرى وفد الجامعة العربية يجوب إمارات الخليج العربي تنفيذاً لقرارات مؤتمر القمة العربي، ويلتقي بسكانها ووجهائها وحكامها، ليبحث أمورهم، وليطلع عن كثب على مشكلاتهم، ويبث الأمل في نفوسهم، ويبعث الرجاء بمستقبل زاهر يربطهم بإخوانهم في مشرق العالم العربي ومغربه، بعد أن ظل هذا الخليج مجهولاً من معظم أبناء الأمة العربية، مما جعله بعيداً كل البعد عن أي ارتباط يشده إلى شقيقاته العربية، وبمنأى عن تطورات الأحداث التي كانت وما زالت تجتاز عالمنا العربي.

ومنذ حوالي خمس سنوات وجدت الفرصة متاحة للقيام بدراسة شاملة عن هذه المنطقة من النواحي المختلفة، وفرت لدي بعض وجهات النظر التي أجدني أمام التزام أدبي لوضعها بين يدي الأمين

العام لجامعة الدول العربية في سياق مهمته الكبرى كرئيس لوفد الأخوة العربية إلى إمارات الخليج.

لابد من إلمامة قصيرة عن الخليج قبل البدء في الموضوع، لأنه ما من خليج أو مضيق أثار من الأطماع والتصورات بقدر ما أثار ويثير هذا الخليج الذي يغدو، وكأنه الإصبع المشير إلى قلب الشرق الأوسط على حد تعبير الكاتب والباحث الفرنسي جان جاك بيريبي أعظم من قدم دراسات رصينة وعميقة عن الخليج. وباستثناء إمارة قطر التي تبلغ مساحتها ٢١ ألف كم٢، والكويت التي تبلغ ضعف هذه المساحة على وجه التقريب، والساحل السعودي الذي يمتد زهاء ٣٥٠ ميلاً، فإن مساحة عُمان وحدها تقارب ٢٣٠ ألف كم٢، ممتدة من حضرموت إلى حدود قطر، وعدد سكانها حوالي ثلاثة ملايين كأكبر طاقة بشرية في أرجاء الجزيرة العربية في مثل هذه المساحة، فإذا أضيف عدد السكان في كل من الإمارات والكويت وقطر والبحرين وعُمان الداخلية، فإن عدد السكان يقارب الأربعة ملايين (كان هذا في عام ١٩٦٤، أما الآن فإن العدد يبلغ حوالي أربعة أضعاف هذا العدد بعد التطور الاقتصادي والنمو البشري الذي شهدته المنطقة) باستثناء العرب الموجودين في عربستان والمحمرة وعلى الشاطئ الشرقي لهذا الخليج.

أما سواحل عُمان وحدها فإنها تمتد على مسافة تبلغ ٣٢٠٠ كم ما بين قطر وآخر ظفار، محتوية على موانئ هامة، كان لها ماض مجيد في التجارة والسياسة في أيام العباسيين وفي العصور العربية الزاهية.

وفي مياهها الدافئة الضحلة توجد كميات هائلة من اللؤلؤ والثروة السمكية، وفي جوف صحاريها وتحت مياهها توجد كنوز معدنية لا حد لها من البترول والمعادن الأخرى الكثيرة، وتفوق ما تخيله علاء الدين وكتب القصص القديمة حول السندباد وألف ليلة وليلة وعلي بابا، مما جعل هذه المنطقة محط آمال الفاتحين والمغامرين من أيام الإسكندر إلى المغول، ومن أحلام القياصرة الروس إلى مغامرات نابليون، إلى أطماع الإنكليز، إلى جشع الاقتصاديين الأمريكيين.

لقد رأينا على أديم هذه الأرض خلال الرحلات التي قمنا بها إلى المنطقة الشرقية الحديد يمتزج بالرمل تكشفها أي قطعة من الحديد الممغنط، والأحجار ثقيلة بصورة ملموسة لما تحتويه من نسبة عالية من المعادن، والفوسفور يضيء ليلاً، ويلوح كإشعاع الشمس للمسافرين، والرخام ذو اللون الفيروزي ملقى على الطرقات تحت عجلات السيارات، كما سمعنا عن وجود الذهب داخل الصخور على سفوح الجبال، وقد عثر المسؤولون في الفجيرة على نماذج منها، ومنعوا الناس من حملها أو العبث بها.

ورغم ما نعرفه عن جفاف هذه الأراضي، فإنها تملك إمكانات زراعية هائلة، من خصوبة الأرض، ووفرة المياه في الداخل، تكفي للزراعة، وفيها ثروة مائية تجري في أنفاق -أفلاج- لا يُعرف متى حفرت، ومن أين تغذيها المياه، وهكذا نجد في عُمان جميع أنواع الثمار والفاكهة والخضار الموجودة في منطقة البحر المتوسط وإفريقيا وآسيا.

فلا غرو أن تثير -والحالة هذه- هذه المنطقة بموقعها الاستراتيجي والتجاري ووفرة معادنها وبترولها وخصوبة أرضها (ولاسيما في عُمان الداخلية حيث يؤكد العُمانيون أن لديهم ثلاثمئة نوع من التمور وحدها)، أطماعَ الدول الاستعمارية في القديم والحديث جميعاً.

أ- الغزو الاستعماري والتنافس الأجنبي

نُكِبَ الخليجُ قبل سائر البلاد العربية بجشع الفاتحين والمكتشفين والمستثمرين، وبدأت جحافل الاستعمار البرتغالي تترى إلى الخليج كمركز استراتيجي لطريق الهند والشرق الأقصى، ولأن عرب الخليج كانوا متأهبين، ولديهم أسطول حربي كبير، لجأ البرتغاليون إلى المعارك السريعة التي تقوم على المفاجأة، وعلى الإرهاب والتدمير والنهب والتمثيل بالسكان الآمنين، لإفناء المقاومة العربية كلها، وقد نُفِّذت هذه السياسة على وجه الخصوص في عهد القائد البرتغالي البوكرك الذي كان يُقيم بجانب كل مركز تجاري حصناً حربياً لحماية المصالح التجارية، وحينما تقدم من موانئ قلهات وقرياني وغيرهما، أحرق جميع السفن الحربية والتجارية، وأسر النساء والرجال، وجدع أنوفهم، وصلم آذانهم، وهذا ما فعله في الهرمز، حيث بنى قلعة ضخمة عام ١٥١٧م، وقبل ذلك عقد اتفاقاً عام ١٥١٥ مع شاه إيران تم بموجبه تعاون الفريقين وتوحيد سياستهما في المنطقة، على أن يساعد الإيرانيون البرتغاليين في احتلال سواحل الخليج، وبخاصة البحرين والقطيف، وأن يساعد البرتغاليون إيران في إخماد ثورة مكران ضد الشاه، ثم تعاظمت قوة اليعاربة في عُمان، فدارت معارك

طاحنة بينهم وبين البرتغاليين انتهت بطردهم من الخليج بعد أن مكثوا فيه حوالي قرن ونصف قرن، وطارد اليعاربة فلول البرتغاليين إلى الهند وإلى سواحل إفريقيا الشرقية.

لم يكن الخليج يهدأ حتى ظهر في الأفق الغزو الهولندي على متن قوة حربية كابد منها أبناء الخليج ولاسيما أبناء عُمان الأهوال والكوارث، وكادت هذه القوة أن تتحكم لولا ظهور منافس جديد هو الاستعمار الفرنسي الذي قضى معظم أوقاته في تناحر مع من سبقه ومن لحق به، فانسحب الهولنديون جراء هذا الصراع، فوقف الفرنسيون أمام الإنكليز وجهاً لوجه، واستمر الصراع بينهما طويلاً، وخاصة في عهد نابليون الذي حاول السيطرة على الخليج العربي عن طريق حلب - بغداد، تلك الطريق التي سلكها الإسكندر المقدوني من قبل، وقد ذكر العديد من المؤرخين تفاصيل هذا الصراع ومراحله والمعاهدات التي كانت تعقد بين الفرنسيين وحكام مسقط من جهة، وبين هؤلاء والإنكليز من جهة أخرى.

في هذا الوقت كانت قوة القواسم تنمو وتتعاظم، فروَّعوا الإنكليز وأدخلوا الذعر والهلع إلى قلوبهم، ونكدوا عيشهم طيلة قرن من الزمان، فوجه الإنكليز حملات ضخمة، وقضوا نهائياً على قوات القواسم البرية والبحرية في معارك مستمرة، كان آخرها سنة ١٨٢٠ التي فرضوا بعدها على حكام الخليج معاهدات أبدية حسب النصوص الواردة في بنودها.

ظهر في هذه الأثناء أحد الأمراء العمانيين وهو السيد سعيد

مؤسس أسرة البوسعيد، فاستولى على مسقط وساحل عُمان والأراضي المقابلة له على الشاطئ الإيراني وعلى بلوخستان عام ١٧٩٣ .

ولم يكن الفرنسيون والإنكليز وحدهم الطامعين في الاستيلاء على الخليج طريق التوابل والحرير، بل كانت ثمة دولة من الخلف تتطلع إليه بشغف، وتتربص بالدولتين المتنافستين، لتنقض في الوقت المناسب، هذه الدولة هي روسيا التي وضع لها بطرس الأكبر مخطط الاستيلاء على الخليج، وترك لمن بعده هذه الوصية (إن الذي يسيطر هنا يصبح فعلاً السيد الحقيقي للعالم) وعندما جاء الماركسيون لم يكونوا أقل طموحاً من القياصرة. ففي عام ١٩٣٩ بدأت مفاوضات سرية في إيران بين دول المحور وروسيا اشترطت فيها الأخيرة لتوقيع المعاهدة في مذكرة أرسلتها إلى برلين في ٢٧-١١-١٩٤٠ أن يعترف الطرف الآخر -ألمانيا- بأن المنطقة الواقعة جنوبي باطوم وباكو في اتجاه الخليج العربي هي مركز مطامع السوفيات وآمالهم التوسعية بغية ضمها إلى الاتحاد السوفياتي، وإن حوادث العراق الأخيرة عام ١٩٥٨-١٩٥٩ برهنت على الوجود السوفياتي، ولقد تعرضت طهران لضغط شديد من قِبْلُ حتى تنال موسكو ما تريد، والسوفيات يحملون سلاحاً يلوحون به عند الضرورة، وهو الوعد الذي قطعوه للشعب الكردي بالاستقلال، وإنشاء الدولة الكردية بين العراق وتركيا وإيران في المنطقة المقسمة بين البلدان الثلاثة، والقريبة من آبار البترول الغزيرة، من أجل ذلك ينظر السوفيات في طريقهم إلى الخليج كما

تنظر أوربا إلى القناة كممر مائي لا يُستغنى عنه، ولذا فلن يتوانوا عن تحقيق وصية بطرس الأكبر إن استطاعوا، بعد أن جاءت الحرب العالمية الثانية بالدليل الجديد القاطع على حاجتهم لهذا الخليج، حينما عَبَرَ أكثر من خمسة ملايين طن من العتاد الحربي عن طريق الخليج من الحلفاء إلى روسيا للوقوف في وجه ألمانية النازية، بل إن بعض الكتاب يرون في الصين خطراً جديداً، ربما يسبق أو يتقدم على خطر السوفيات إلى الخليج، متطلعين إلى الشرق الأوسط، لتعود الصين الحديثة إلى الاهتمام بطريق الحرير القديم.

خرجت بريطانيا منتصرة في هذا الصراع الطويل مع الهولنديين والفرنسيين والأتراك والسعوديين الذين دعمتهم بريطانيا بالمال والسلاح والمستشارين لسحق آل رشيد الموالين للأتراك في أول الأمر، ثم أثارت أمامهم المصاعب بوجود الهاشميين في الأردن والعراق، لتصرفهم عن الخليج، بعد أن بدأوا يطلون بجيوشهم على مشارفه، ويتصلون بسكانه وأعيانه الذين تربطهم بالسعودية رابطة المذهب السلفي، وهكذا صفا الجو لبريطانيا من جميع المنافسين، فاستقر قرارها، وهدأ بالها، وأخذت تسرح وتمرح في المنطقة التي أمّنت لها قديماً الصلة الوثيقة مع الهند والأقطار الآسيوية الأخرى، ثم تطورت مصالحها مع الزمن، فلم تعد طريق الهند وحدها التي تربط بريطانيا في المنطقة، بل آبار البترول وشركاته واحتكاراته التي تتحكم في شؤون إيران والعراق والكويت والسعودية والبحرين وقطر ومسقط وظفار والبريمي وعُمان الداخلية وساحل عُمان، مما زاد في تمسكها

بهذه البحيرة ذات التاريخ الأسطوري القديم. لذا شرعت في إقامة المعسكرات بإسراف، فوسعت قاعدة الشارقة بصورة تتمكن معها من سحق أي حركة تقوم في المنطقة، كما حصل للثورة العمانية، والتغيير في اليمن بوقت لاحق.

ومن غريب الصدف بالنسبة لمطار الشارقة الذي يستخدم لسحق الحركات المناوئة، والقضاء عليها في مهدها في الخليج وعُمان واليمن، أن سرباً من طائرات الهوكرهنتر هبط في قاعدة الشارقة في الأسبوع الأول من آذار -١٩٦٤- ومكث فيها أياماً، وكان يتألف من تسع طائرات، وقام بتدريبات ومناورات عنيفة كان أزيزها يصم الآذان، ويرعب الأطفال في داخل حجر المنازل، ثم اختفى السرب وغادر المطار، وإذا بوكالة رويتر تذيع أن سرباً من طائرة الهوكرهنتر يتألف من ثماني طائرات قام بضرب مدينة حريب اليمنية، ودمر البيوت، وأشعل الحرائق، وقتل ٢٥ شخصاً بين طفل ورجل وامرأة، وكان ذلك بعد مغادرة السرب بيوم واحد. كل ذلك لتحمي بريطانيا هذه الكنوز التي جاد بها البترول في الخليج العربي، ولتمتص معظمها، وتجود بجزء على السكان، سرعان ما ستعيده الدول الغربية بشكل سيارات وبرادات وتلفزيونات، وأسلحة لا تغني عنهم في أي هجوم عليهم شيئاً.

في هذا الجو من الصفاء الذي تنعم به بريطانيا، ذرت أمريكا قرنها في التبشير للمذهب البروتستاني -عن طريق الإرساليات- في الإمارات بعد أن مرَّ على وجود البعثة التبشيرية البريطانية زهاء ثلاثين

عاماً في العين ورأس الخيمة.

إن أهم مغنم حصلت عليه أمريكا، هو السماح لها بالتنقيب عن البترول في جميع إمارات الساحل، فقد نالت شركة و.جون ميكم منذ عامين امتيازاً بالتنقيب عن البترول في إمارات الشارقة وعجمان وأم القيوين، ونالت شركة الكونتننتال امتيازاً للتنقيب في إمارة دبي، وباشرت نشاطها، ونالت شركتان أمريكيتان امتياز التنقيب في إمارة رأس الخيمة، وهما الآن في أوج نشاطهما، وهكذا اقتصر منح الامتيازات على الشركات الأمريكية في الساحل دون غيرها، رغم العروض السخية التي تقدمت بها شركات بترولية أخرى من اليابان وألمانيا الغربية.

إن المعاهدات الموقعة ما بين بريطانيا والمشيخات تنص على أن العلاقات الخارجية ومنح الامتيازات هي من صلاحيات بريطانيا، فهل يعني منح أمريكا الامتيازات للتنقيب واستخراج البترول مجرد صدفة جاءت بها الظروف الاقتصادية والضائقة التي عانت منها إنكلترا بعيد الحرب، والثراء العريض لدى الشركات الأمريكية؟ أم هو اقتسام النفوذ وتقاسم الأرباح، لتكسب بريطانيا أمريكا بجانبها ضد العرب، خشية من بقاء بريطانيا وحدها ضد مصالح العرب وأمريكا، وأن تتراجع إنكلترا عن مراكز نفوذها مقابل مكافآت اقتصادية كما يفضل ذلك كثير من الإنكليز.

إن هذا الاحتمال هو الأقوى، وهو الذي يشير إلى اتفاقات سرية بين الدولتين، لتنسيق سياستيهما في الشرق الأوسط أو في الخليج

العربي مع الأمريكان، لتجني فيه بريطانيا ربحاً وافراً من جراء تسجيل الامتياز في لندن، ومن ثم دفع الضريبة لحكومتها، وتشغيل عدد من الفنيين الإنكليز في هذه الشركات، وهذا ما يؤكده الاتفاق السري السياسي المعقود بين المقيم الإنكليزي في البحرين بوصفه ممثلاً للحكومة البريطانية، وبين المستر جون ميكم ممثلاً للشركة البترولية الأمريكية صاحبة الامتياز، والذي تشير إليه المادة الأولى من الاتفاق المعقود بين الشركة وشيوخ الشارقة وعجمان وأم القيوين، وقد أطلعني عليه الشيخ أحمد بن راشد المعلا حاكم أم القيوين في ليلةٍ استضافني فيها في فلج المعلا -أرض زراعية تتبع أم القيوين بعيدة عن الساحل- لدراسة الاتفاق وإعطاء الرأي حول بنوده لتحقيق مكاسب تستطيع الإمارة المطالبة بها.

ب- الغزو الفارسي والهجرات الأعجمية

يعتبر الجغرافيون والمؤرخون هذه البحيرة التي نسميها الخليج العربي فاصلاً بين العالم العربي وإيران، وهي حاجز بين مفهومين إسلاميين متميزين، وإن إيران لأسباب سياسية أكثر منها دينية جعلت قضية الشيعة قضيتها، وأثبتت بذلك انفصالها واستقلالها عن العالم العربي، وهكذا أصبح هذا العالم الصغير على البحر الزمردي نقطة الفصل بين الانعكاسات السياسية والدينية واللغوية والعنصرية والاقتصادية.

ويقدر بعض الباحثين أن إيران ما زالت متأثرة من هزيمتها في القادسية والنهروان، وأن عقدة الهزيمة تملي عليها كيداً وتآمراً

خطيرين، وتدفع بها إلى ارتكاب الآثام ضد الشعب العربي منذ اغتيالهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحتى الاعتراف بإسرائيل والتعاون معها في ظل حكم الشاه.

لقد تعاون الفرس مع جميع الغزاة الطامعين ضد مصلحة المنطقة لعلهم يصلون من وراء ذلك إلى الاستيلاء عليها، أو اقتسامها مع العدو الخارجي. ففي عام ١٥١٥ تم الاتفاق بين شاه إيران والبرتغاليين كما مر معنا، وفي عام ١٦١٥ حصلت شركة الهند على فرمان من الشاه عباس الأول يأمر فيه جميع موظفي الموانئ الفارسية بمساعدة التجار الإنكليز، فكانوا أول من فتح أبواب المنطقة للنفوذ الأجنبي، وبخاصة الإنكليز، ثم أصدر الشاه عام ١٦١٧ أمراً آخر يمنح فيه الإنكليز حق احتكار تجارة الحرير.

الإيرانيون لم يتركوا فرصة تمكنهم من التنكيل في أبناء الخليج إلا اهتبلوها. فحينما اختلف سيف بن سلطان العربي مع أهالي عُمان، ومع أقربائه الحاكمين من اليعاربة، وأفسح المجال للعجم من أهالي شيراز بضمهم إلى أصحابه في المصير، توجهوا إلى عُمان عام ١١٥٠هـ، فصالحهم أهل الظاهرة -داخل عُمان- ووصلوا بهلي، ودخلوها، ثم صالح أهلُ نزوى العجم، فلما تمكنوا منها، فرضوا الخراج، وعذبوا أهلها أشد ألوان العذاب، وقتلوا النساء والرجال والأطفال، وحملوا من النساء من نزوى من أرادوا، وفعلوا في نزوى أفعالاً قبيحة، حتى قيل إنهم قتلوا من أهلها مقدار عشرة آلاف من السكان الآمنين.

لقد مدت إيران يدها إلى جميع الغزاة (بعد أن حكمها الصفويون) الغربيين وسخوا عليهم بالامتيازات، وتقاسموا معهم مناطق النفوذ، حتى طمسوا معالم الإمارات العربية في الشاطئ الشرقي طمساً يكاد يكون كلياً، بعد أن كان لهذه الإمارات ماضٍ مجيد، وبعد أن كانت عربية خالصة في لسانها وأنسابها وتقاليدها، وكانت مستقلة عن أي نفوذ إيراني، إن منطقة عربستان والمحمرة مثال صارخ على العدوان الإيراني على أهلها العرب، بالرغم من تشيع أكثرهم، وقد سلمت السلطات السورية عدداً منهم لجأوا إليها، للإيرانيين الذين سرعان ما نفذوا بهم شنقاً أحكاماً بالإعدام في بداية عام ٢٠٠٧م.

نزحت قبائل كعب إلى عربستان في أواسط القرن الثامن عشر، واستوطنت منطقة واسعة من إيران الجنوبية الغربية، فأسس شيخها مدينة المحمرة من بقايا مدينة قديمة كانت هناك قبل ستة قرون، واستقرت بها، ولم تكن هجرة كعب والمحيسن بالجديدة، على هذه المنطقة، بل كانت استمراراً لهجرة عربية متواصلة قديمة قدم الأقوام السامية في العراق، وكان آخر موجاتها قد بدأ منذ ألف عام، ولم تكن هجرة كعب والمحيسن إلا صفحة أخيرة منها.

في معارك الكعبيين ضد بريطانيا، استعانوا بأسطول القواسم الذين أنجدوهم رغم اشتباك القواسم مع الإنكليز، لكن بريطانيا استطاعت أن تخمد هذه الشعلة العربية التي رفعها بنو كعب وحلفاؤهم زهاء قرنين من الزمان.

وبلاد عربستان ذات التاريخ العربي المجيد، الغنية في ثروتها

البترولية، كانت تخضع، بما في ذلك جزيرة عبادان وحوض قارون، لسيطرة شيخ عربي لبق شبه مستقل، هو الشيخ خزعل أمير المحمرة التي صارت فيما بعد هورام شهر. عقد الإنكليز مع الشيخ خزعل اتفاقاً يتيح لهم استخدام جزيرة عبادان لبناء مصفاة عام ١٩١٤ بعد اكتشاف البترول، وفي عام ١٩٢٠ بدأت المصفاة تعمل، وسال الذهب الأسود في الأنابيب، فتآمر الإنكليز مع الإيرانيين على الشيخ خزعل سنة ١٩٢٥ وتم نفي الشيخ إلى طهران حيث كانت وفاته، أما أراضيه فقد ضمت إلى الإمبراطورية الفارسية، وأسدل الستار على المأساة، كما أسدل على مأساة الإسكندرون وغيرها من قبل ومن بعد. وكذا انقرضت هذه الإمارة العربية، وضمت بقعة بترولية هامة إلى إيران، وعيّن عليها الشاه رضا بهلوي قادة وحكاماً من قبله، ثم أوصى ولده محمد رضا بهلوي وصيته المشؤومة: لقد حررت الشاطئ الشرقي، وضممته إلى المملكة، وعليك أن تحرر الساحل الغربي، وبهذا السياق تنظم الهجرات والحركات السرية الإيرانية المسلحة والطابور الخامس إلى إمارات الخليج، وما يحدث الآن في العراق من زحف إيراني مدعوم بالمال والسلاح ورجال الأمن، ولاسيما في الجنوب حيث يتحدث الناس باللغة الإيرانية المسموعة وكأنك في شيراز أو طهران، بل إن بعضهم دخل البرلمان في قائمة الشيعة المدعومة من السيستاني، فأعلن العراقيون أسماءهم وحددوا أشخاصهم، وقدر عدد من المراقبين أعداد الإيرانيين الزاحفين على العراق بثلاثة ملايين نسمة.

تشمل الهجرة الإيرانية ثلاثة أنواع من المهاجرين، هجرة تلقائية سعياً وراء الرزق، وهرباً من الفقر الشديد الذي يعاني منه الإيرانيون، وهجرة تنظمها الحكومة، وتقف وراءها لتعجيم المنطقة حسب خطة مرسومة، وهجرة بدأها الإيرانيون عام ١٩٢٠م، عندما كان شاه إيران السابق رضا بهلوي يمارس ضغطاً مذهبياً وسياسياً -على أهل السنة- ومعظم سكان الشاطئ الشرقي من أهل السنة. وبالإضافة إلى الإيرانيين توجد هجرات أخرى من الهند وباكستان وأفغانستان والملايو وسيلان، تعد بعشرات الألوف، ومعظم الهنود من الوثنيين يؤمون معبداً وثنياً لهم في برّ دبي، وعدد منهم من المسيحيين يشغلون وظائف حكومية في دوائر البريد والكهرباء والجمارك وغيرها، أما الهجرة العربية فقد بدأت حديثاً، ومعظم الوافدين من لبنان وفلسطين وسورية ومصر يعملون في بعض الشركات والأعمال الحرة وفي سلك التعليم.

ليس علاج هذه المعضلة سهلاً، لكنه ليس مستحيلاً، وقبل وصف الدواء، لا بد من تشخيص المرض تمهيداً لمداواته وعلاجه.

ج- نقاط الضعف في الخليج

خلال القرنين الماضيين استطاعت بريطانيا أن تنخر في سكان هذه المنطقة كما ينخر السوس في القمح، وكما تفعل الديدان بأعجاز النخيل، لتتركه في جهل مطبق وفقر مدقع وحرمان تام، وبُعدٍ عن أي لون من ألوان الإصلاح والنهوض.

لقد خلفت بريطانيا في البلاد التي استعمرتها عامة وفي الخليج

بخاصة من القروح والجروح ما يحتاج إلى جهد كبير وعمل مضنٍ لإصلاح ما أفسدته سياسات الاستعمار البريطاني.

لقد أوهمت بريطانيا العالم أن هذه البلاد موطن القرصنة، وأن بريطانيا تسعى لاستتباب الأمن على صفحات البحر الأخضر لتؤمن الأمن والطمأنينة لجميع سفن العالم، ومن ثم أطلقت عليه اسم ساحل القراصنة، مضيفة دعوى مكافحة الرقيق، لتسوغ للسفن البريطانية أن تعترض سبل جميع السفن لتفتيشها، وكثيراً ما كانت تصادرها أو تفرض الغرامات المالية عليها، بدعوى أنها تتاجر بالسلاح أو بالرقيق، وهكذا كانت بريطانيا تقوم بأعمال القرصنة على نطاق واسع بحجة أنها تكافح القرصنة، وتطارد من يزاولها.

أتاحت بريطانيا لتجار المخدرات أن ينشطوا ويأتوا بكميات كبيرة من إيران والدول التي تجاورها من المخدرات كما كانت تفعل في مصر والصين، حتى غدت منتشرة انتشاراً واسعاً ليتعاطاها الجيل الجديد، لتفت في عضده، وتضعف من قوته ورجولته، أما الخمر فهو أكثر انتشاراً من المخدرات، وقلما ينجو منها شاب خليجي ومن تعاطيها، بل ومن الإدمان عليها، وتشرف على بيعها وتوزيعها شركة البواخر في دبي، وتأتي بكميات كبيرة، تحملها المراكب التي تقف على الرصيف أمام دائرة الجمارك، ليراها الجميع، وتوزع باسم الإنكليز المسيحيين، فكل نصراني يحق له الحصول على رخصة تسمح له بشراء ما يريد، وهذا ما أفسح المجال لوجود تجارة واسعة لرخص شراء الخمر وبيعها على المسلمين بأسعار فاحشة، حتى إن

بعض الهنود النصارى يأتون من الهند إلى الساحل معتمدين في دخلهم على هذا العمل ليدر عليهم أرباحاً طائلة، سواء أكانوا تجار خمر أم مؤجري رخص تجارة الخمر، وبالطبع فقد جر انتشار الخمر والمخدرات المواطنين إلى انحلال أخلاقي، وأشاع المجون، وكثرت البغايا، وانتشرت الأمراض الجنسية بصورة مفزعة كما كنا نسمع من الأطباء، عن الأعداد والأمراض وتأثيراتها السلبية على النسل والحياة الصحيّة.

والانقسامات المذهبية بين السكان أتاح لبريطانيا أن تعمق الخلاف، وتستفيد من هذا الانقسام، فسكان الشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة يغلب عليهم المذهب السلفي، وسكان دبي وأبو ظبي والفجيرة تغلب عليهم الشافعية والمالكية، وفي عُمان الداخلية يعتنق شطر من أهلها المذهب الأباضي، ويتعصبون له تعصباً شديداً، ويقولون عن أهل السنة أن اعتقادهم تشوبه الشوائب... إلخ، والخلاصة فإن أهل عُمان الأباضيين يعتقدون بأنهم الفئة الناجية دون الفرق الأخرى.

وقد خدم هذا الانقسام غير المبرر بريطانيا، فغذته، واستفادت منه إلى حد كبير في علاقاتها السياسية، حتى بلغ الأمر إلى أن بعض حكام عُمان من البوسعيد اتخذوا من الخطر الوهابي -حسب زعمهم- حجةً لتبرير سياستهم الممالئة للإنكليز والوقوف معهم ضد السعوديين. غير أن الوعي في هذه الفترة انتشر، وتغلب على تلكم العصبيات المنتنة بفضل الله وتوفيقه.

بالإضافة إلى هذه الانقسامات المذهبية والقبلية والحزبية -غفري وهناوي داخل عُمان- فإن حركتين صغيرتين سريتين تنموان في إمارات الخليج، الأولى هي البهائية، ولهم اجتماع أسبوعي تحضره شخصيات تفد من إيران وترعاه، وتمتد إلى قطر، وتجذب إليها أعداداً ليست قليلة، والثانية هي الماسونية ولها اجتماع دوري تعقده في الشارقة، يضم شخصيات عربية وإنكليزية وهندية وباكستانية من ذوي المستويات الرفيعة، بما في ذلك بعض المسؤولين في الخليج.

ومن نقاط الضعف في المنطقة تجزئتها، وتسليم كل جزء إلى أسرة تحكمها حكماً مطلقاً كيفما تسيره رغبة الشيخ أو نزوته، والناس جميعاً طوع بنانه، يقبلون يده وأنفه، وكل حاكم يحاول الإبقاء على سلطاته ليسلمها بعد ذلك إلى ولي عهده، وهذا الحكم لا يدوم إلا بدوام الأوضاع على ما هي عليه، وبدعم بريطانيا ومباركتها له، وإلا تبدل الحكم، وحُرِم الشيخ ميزة جمع المال كما يشاء وإنفاقه كما يريد، فإن شاء خصص جزءاً يسيراً منه للإصلاح في الإمارة وإلا فلا، بدعوى فقر البلاد وظروفها القاسية، وعلى هذا الأساس، فإن الشيوخ يعطون الإنكليز كل ما يُطلب منهم وزيادة، وينفذون سياستهم كما يريدون، ويفتحون بلادهم للأعاجم ولمن هبّ ودبّ من الوافدين، وهذه السياسة التي تحول الشعب إلى أخلاط غير متجانسة تطبقه بريطانيا في كل البلاد التي وضعت يدها عليها.!!

لم تكتف بريطانيا بتمزيق الخليج على هذه الشاكلة، بل سعت إلى تمزيق العائلة الحاكمة ذاتها، فلا توجد عائلة حاكمة لم تمزقها

الخلافات، والأخ فيها يكيد لأخيه والابن لأبيه، وللوصول إلى تحقيق هذا الهدف، تلجأ بريطانيا إلى أساليب شتى، أهمها: إسناد ولاية العهد للابن الثاني، لتبدأ الشحناء فيما بينه وبين أخيه الكبير، وتَشَيُّع بعض أفراد العائلة إلى هذا أو ذلك. أما موضوع الحدود فهو قصة مضحكة مبكية، فهي متشابكة ومتداخلة كتشابك شلة الحرير بحزمة شوك، مما يطول بحثه، وتتعدد قصصه، وغالباً لا يفصل بين هذه الحدود إلا برميل قديم مطلي باللون الأبيض، أو قطعة حديد مغروزة ليسهل نقلها إلى مكان آخر، كما يسهل دفع البرميل إلى حيث يراد له أن يُدفع.

ولعل أكبر مأساة يستفيد منها العدو الصهيوني تتمثل ببيع جوازات السفر إلى من يشتريها، فقد اعتاد معظم الشيوخ في الساحل على بيع الجواز -أي الجنسية- بثمن بخس يتراوح ما بين ٥٠٠-٢٠٠٠ روبية ثمناً للجواز الواحد، وقد مرت فترة كان بعض الشيوخ يتبارون في بيع أكبر عدد ممكن ليدر عليهم ربحاً وفيراً.

ويستطيع كل دخيل شراء جواز سفر ساحل عُمان، ليصبح عربياً من سكان إمارات الساحل، ويزور به كل بلاد العالم -كمواطن عربي خليجي- ويستطيع من ثم أي يهودي في إسرائيل المجيء بيسر إلى إيران المعترفة رسمياً بإسرائيل، أو أن يكون من يهود إيران، وأن ينتقل كإيراني فيما بين الإمارات، محتفظاً بجواز سفره الأصلي، ليحصل على الجنسية المبيعة بـ١٥٠ جنيهاً إسترلينياً فما دون. ومن المعلوم أن عدداً من اليهود يسكنون إيران، وخاصة في شيراز،

وبالطبع فإن عدد الجوازات التي بيعت خلال السنوات العشر الماضية تفوق عدد السكان أضعافاً، وكلما نفدت الكمية المعطاة، طلب الحاكم بديلها من دار الاعتماد التي تتلكأ، متظاهرة بالاستنكار من توزيع هذه الأعداد الكبيرة، ثم لا تلبث أن تعطي العدد المطلوب، لأنها السياسة البريطانية المرسومة للقضاء على وحدة المجتمع، وتجانس أبنائه في الانتماء والفكر ووحدة المصير.

عندما بدأ الاتصال ما بين البلاد العربية والخليج، وبدأ أبناء فلسطين ومصر والأردن وسوريا وغيرها يفدون إلى الساحل، ويدخلون إماراته، شرعت دار الاعتماد تشدد في تسليم الجوازات، وتدقق في الأسماء التي منحت لها بعد إشباع المنطقة بمختلف الجنسيات غير العربية من الهنود -مسيحيين ووثنيين- ومن الإيرانيين، وعلى هذا نستطيع الجزم أن اليهودي في إسرائيل يستطيع التحول إلى إيران ومنها إلى عُمان، ومنها إلى أي بلد عربي شاء، ليرحَّبَ به كواحد من عرب الخليج، وبالطبع فإن تهريب البضائع والإنتاج الإسرائيلي يصبح (وهذه الحالة) عملية ميسورة وجزئية إذا ما قيست بالمشكلة الكبيرة آنفة الذكر.

لقد عثرنا على كثير من البضائع الإسرائيلية -في الستينيات من القرن الماضي- في الأسواق والصيدليات، واحتفظنا بنماذج منها دليلاً على أن المقاطعة عاجزة عن سد هذا الخرق في إمارات الخليج.

أما ذكريات الرق في هذه المنطقة فمؤرقة وموجعة، والناس يروون عنها الأساطير مما لا يستطيع الإنسان ذكره أو نشره حول

خطف الأبناء -ذكوراً وإناثاً- من البيوت، لبيعهم عن طريق قرية حماسة في البريمي، وتصديرهم إلى المترفين.

وللناس مواقف محزنة ممن لجأ إلى الإنكليز ليعيدوا إليهم أبناءهم وذويهم المخطوفين، ولا يزال بعضهم على قيد الحياة، يروي للناس حوادث الخطف المروعة، وقد رأيت بقاياهم في حرس أحد شيوخ الساحل.

د- علاج هذه الحالات المَرَضِيَّة

بعد سرد نقاط الضعف بإيجاز شديد، ودراستها وتشخيصها لمعرفة الأسباب التي تُؤدّي للقضاء عليها، نورد أسباب القوة التي يمكن الاستفادة منها، واتخاذها منطلقاً لخطة جديدة مدروسة، للحفاظ على عروبة هذه المنطقة، والوقوف بوجه الأخطار التي تتهددها.

من المفروض أن تقابل هجرة الأعاجم والآسيويين بهجرة عربية، معاكسة تأتي في المقام الأول من داخل عُمان، حيث تتجمع أكبر طاقة بشرية في نجود وجبال ومدن عُمان الداخلية، غير أن ظروف عُمان الداخلية، وعزلتها السابقة، وخلافات الأمراء فيما بينهم، وظروف الثورة العُمانية، حالت دون ذلك من قبل، ثم شرع العُمانيون عن طريق مدينة العين وغيرها يتوافدون.

تشجيعُ البدو الذين يعيشون قريباً من الساحل، وينتقلون بين السهوب والوديان والجبال، ويشكلون عدداً كبيراً ربما يوازي عدد

سكان الإمارات، ويحتفظون بأنسابهم، ويعتزون بها، ويرتبطون بالشيوخ بأواصر القربى والنسب والمصاهرة، وجذبُهم للتوطين في الساحل بكل الحوافز المشجعة. فإذا ما قامت الجامعة العربية بالتعاون مع الشيوخ بتحفيز هؤلاء، ومدهم بالعون الذي يجعلهم يستجيبون، وفتحت لهم المدارس، فإنهم يشكلون قوة كبيرة تضاعف بالحال عدد العرب والسكان الأصليين، وتعالج هذه المعضلة الخطيرة في التركيب السكاني لأبناء إمارات الساحل.

دمج الإيرانيين والباكستانيين والهنود المسلمين والأفغان بالعرب الأصليين، بحركة تعريب سريعة واسعة النطاق، تتخذ من الإسلام أساساً يجعل هؤلاء مقبلين أيما إقبال على اتخاذهم العربية لسانهم، وهم بهذا يستجيبون، ويندفعون أكثر مما نتصور، ويقبلون التعريب عن طواعية، فنؤمن بذلك وجود الأكثرية العربية، ونباشر كذلك بوضع برنامج بعيد المدى للأقليات الأخرى من الإيرانيين الشيعة والهنود الوثنيين لدمجهم بالأكثرية على غرار ما يحدث في البلاد العربية الأخرى، ونحسن معاملتهم ليشعروا بعدل العرب المسلمين وإنسانيتهم ورعايتهم التامة والمساواة مع جميع المواطنين.

إن أي إهمال لهذا الموضوع يعرض البلاد إلى مثل ما حدث من مآس في زنجبار وغيرها. وإن الإصرار على المناداة بالعروبة وحدها، إنما هو طعن في العروبة، وإن اقتران الإسلام بها هو نصر لها، وتوسيع لدائرتها، وإقناع عشرات الألوف بالانتساب لها، وإذا أصر البعض على الدعوى القومية بمعناها الشوفيني، فإن بريطانيا تكون في

أمن ودعة، لأنـها دعوة الأقلـية الأصلية ضـد الأكثريـة الدخيلة، كـما حاولت فـرنسا ذلك في المـغرب قبل استـقلاله لتبـرز الحركة البـربرية بقيادة الجلاوي، فـقضى الإسلام عليها، وفشلت فرنسـا أمام المفهوم الذي جـعل من الإسلام والعـروبة كلمـتين مـترادفـتين لمعنـى واحد، والذي انتـصر، وصـان وحدة الشـعب المـغربـي. وهذا ما انتـبه إلـيه الكاتب الكبير محمد جلال كشك، وسجله في مجلة روز اليوسف في عـددها ذي الرقـم ١٨٦٧ المـؤرخ في ٢٣-٣-١٩٦٤، حـينـما قـال: الحل هو التخلص من بقايا المفاهيم الشوفينية في القومية العربية، وأن نؤكد الأخوة الإسـلامية، إذ ليس من قيـمنا ولا من تقاليـدنا أن نفتش عن أجداد شركائنا في الوطن لنثبت عدم عروبتهم.

التـعلـيم هـو الأداة الفـضلى لـهـذا الدمج، وقـد بدأ هـنا بـسيـطاً وتلقـائيـاً، ثم توسع، عنـدما أمدتـه الدول العـربية بالـعدد الوافـر من المعلمين والمعـلمات، وبخاصة الجمهورية العربيـة المتحدة والكويت وقطر، ثم تطور ليغدو حركة واسعة تبـث الحياة في المجتمع، وتبشر بمـستـقبل زاهر، فـأضحى عـدد الطلاب بـالألوف، وعدد المـعلمـين والمعلمات بالمئات، فصار التعليـم حركة عظيمة لها وزنها وثقلها في تحديـد مستقـبل مجتمـعات الخليج. غـير أنه لابد من التـنويه إلى أن التعليم العربي ليس وحيداً في الساحل، بل هناك مدارس تشرف عليها جهات أخرى مثـل: المدرسة الهندية، يشرف عليهـا الهنود الوثنيون، وتدرس باللغة الهندية، والمدرسة الإيرانيـة، وهي مدرسة كبيرة تشغل مساحة كبـيرة من الأرض في إمارة دبي، ويزيد طلابها على خـمسمئة

طالب وطالبة، ولها مهمات أخرى غير التعليمية، سياسية وأمنية، وهناك مدرستان صناعيتان ترعاهما دار الاعتماد البريطاني، ومعهد ديني يضم زهاء أربعمئة طالب، ويسير سيراً متعثراً، لأنه لا يلقى تشجيعاً ولا مساعدة.

توثيق الصلة بالشيوخ -مع أداء واجب النصح- لتبقى وثيقة ووشيجة، فبالرغم من خضوعهم لبريطانيا طوعاً أو كرهاً، فإن معاداتهم لن تعود بأي خير، باعتبار أنّ وجود أسر عربية حاكمة دليل وحيد قوي على عروبة المنطقة، أو على الصبغة العربية لإمارات الساحل، كما أن العلاقات الودية معهم تقوي من مواجهتهم للهيمنة البريطانية في ساعات العسرة، ويشجعهم على رفض ما يعرض عليهم إن لم يكن مناسباً أو لائقاً، كما أنه لا بد من بذل المساعي الحميدة لإيجاد نوع من التفاهم فيما بين الحكام أنفسهم، لأن الفائدة من ذلك شديدة الوضوح، وقد قمنا بمساعٍ متواضعة في هذا المجال، أدت إلى بعض النتائج، بمناسبة زيارة وفد الأخوة العربية إلى إمارات ساحل عُمان.

إيقاف الهجرة بجميع الوسائل الممكنة والفاعلة، واتخاذ إجراءات حاسمة مثل: إنشاء شرطة مراقبة، تسأل الناس عن هوياتهم، وتشكيل دوريات بحرية تزود بزوارق حديثة مسلحة لمراقبة السواحل، وإحداث دوائر للأحوال المدنية، وتسجيل السكان وطبع الهويات، ومنح الجنسيات بشروط مشددة، وقوانين صارمة، فالكثيرون هنا يقضون الشتاء في إمارات الساحل، والصيف في إيران، وكأنهم

ينتقلـون ما بين حلب ودمشق، أو بيـن الجيزة والقاهرة، وانتـقاء عدد من عرب المـنطقة وإيفادهم إلى الـدول العربية، لتلقـي دورات خاصة بشؤون الجنسية ومـا إليها، وبذل المحاولات لافتتاح قنـصليات عربية في إمارات الـخليج العربـي، مهما كـانت الصعـوبات والمتـاعب التي ستثيرها بريطانيا لعرقلة ذلك، وأخيراً: إقامة صلات تجارية واسعة بين الخليج وجـميع دول العالم فـي آسيا وأوربا، ولاسيـما العربيـة منها، بعد التغلب على الروتين الذي يعرقل الـحركة التجارية مع العرب كما أخبر عن ذلك تجار الخليج، عسى الـله تعالى أن يوفقنا في إنقاذ هذا الجزء الغـالي من شرقي الجـزيرة العربيـة مهد العروبـة والإسلام، من الوطن العربي الكبير، والله ولي التوفيق.

هذا موجـز عن المذكـرة التي رفعـتها لـجامعـة الدول العربيـة منذ أربعة وأربـعين عامـاً، وقد تغيرت أمـور كثيـرة خلال هذه الفتـرة التي تقارب نصـف قرن، فتشكلـت دول وقامت حكومات، وظـهرت مدن حديثـة بعد أن ارتفـع دخل البتـرول إلى مليارات الـدولارات، وارتفع عدد السـكان حتى زاد علـى خمسة عـشر مليـوناً أو أكثـر. ولكن هل زالت الأخطار التي نوَّهتْ عنها المذكرة، وركَّزتْ عليها؟

لقد ظهرت أخطار جديدة لم تـكن من قبل، وجاءت هجرة أخطر من الهجرات الســابقة، إذ جاءت هذه المرة من الغرب بأعـداد كبيرة، مدنية وعسكرية، حـيث أنشأ الغربيوّن والأمريكيون مدنـاً كبيرة وموانئ جديدة، وهيـأوا الأجواء للإقامـة الدائمة حول حـقول البترول الـغنية، وتطاول النـاس في البنيـان حتى ناطحـوا السحاب، وانتـشرت مفـاسد

مخيفة تهدد العقيدة والأخلاق والتقاليد الأصيلة.

منذ شهور زارني أكاديمي كبير، عرفته منذ نعومة أظفاره، وذكر أن نسبة العرب السكان الأصليين تدنّت عما كانت عليه في الماضي، وحدد نسبة مرعبة، وقال: لو أجرى المتنفذون أصحاب القرار إحصاء لوجدنا أنفسنا في بلادنا غرباء، فهل يتنبه العقلاء، ويتداركون ذلك قبل فوات الأوان؟!!

الإخوان المسلمون في عهد الانفصال
١٩٦١ - ١٩٦٣

بدأ عهد الانفصال في هذه المرحلة الخامسة من هذه الأوراق (عن تاريخ الإخوان المسلمين في سورية ممزوجاً بأحداث الوطن)، بتكليف الدكتور مأمون الكزبري بتشكيل حكومة، تضطلع بإدارة شؤون البلاد، وتمهد لإجراء انتخابات برلمانية، تنبثق عنها حكومة دستورية تقود سورية إلى الازدهار والاستقرار!!

أولاً: ترسيخ عهد الانفصال

قام الكزبري بالاتصال بالهيئات السياسية والنقابية، فتم الاتفاق على عقد اجتماع عام في نادي الضباط لحامية دمشق، تُمثل فيه الأحزاب السياسية كافة، ونقابات العمال والطلاب وغيرهم لدراسة الموقف العام في سورية، ودراسة قانون الانتخاب، وتحديد مواقع الاقتراع وغيرها، وقد ترأس الاجتماع الأستاذ حسن الحكيم، وحضره أعضاء القيادة العسكرية، وأعضاء الحكومة كافة، وممثلو المحافظات، فكان عدد الحاضرين يزيد على مئتي شخص، أذكر

منهم كلاً من خالد العظم، وأكرم الحوراني، وصلاح البيطار، وعبد الله عبد الدايم، وعصام العطار، وصبري العسلي، وأحمد عبد الكريم، وأمين النفوري، وعزيز عبد الكريم.. إلخ، وقد انبثقت عن هذا الاجتماع لجنة كلفت بدراسة قانون الانتخابات، فأنجزت اللجنة مهمتها، ووقع الحاضرون جميعاً على المحضر الذي أُطلق عليه اسم: الميثاق الوطني[1].

تحمّل الكزبري عبئاً ثقيلاً في ترؤسه الوزارة بعيد الانفصال، وفي هذه الفترة الحرجة، تعرض لهجوم الأجهزة الناصرية السياسية والإعلامية والمخابراتية دونما رحمة أو هوادة، وكان العسكريون الانقلابيون في مواقف مضطربة، بين توبيخ الضمير جراء تنفيذهم الانقلاب على الوحدة، كما قال بعضهم، وبين ترتيب الأوضاع الداخلية، والرغبة في استقرار البلاد، وبين تسيير دفة الحكم من وراء حجاب، وقد وقعوا تحت تأثير الدعاية الناصرية الحادة، فأكرهوا الدكتور مأمون الكزبري على تقديم استقالته من رئاسة الوزارة، وهو الذي وقف معهم في أحرج مرحلة كانت تحف بهم فيها الأخطار، ولما يمض على تشكيلها سوى ٥٢ يوماً من ٢٩-٩-١٩٦١ وحتى ٢٠-١١-١٩٦١[2]. فكلف السيد عزت النص بتشكيل الوزارة والإشراف على الانتخابات النيابية التي حدد المرسوم رقم ١٣١ إجراءها في ١٢-١١-١٩٦١ .

---

(١) مذكرات زهر الدين: ١٤٤ .

(٢) مذكرات مطيع السمان: ٧٣ .

١- عاشت سورية أجواء الانتخابات النيابية، وبذل كل حزب جهده، ليفوز بالعدد الأوفر من مقاعد البرلمان، ولم يقاطع هذه الانتخابات أي هيئة أو حزب سياسي في سورية، وكان للإخوان نشاط انتخابي كبير، وحضور غير مسبوق لهم في حياتهم السياسية، إذ كان لهم مرشحون في معظم المحافظات السورية، في حوران والغوطة ودمشق وحمص وحماة وحلب وإدلب واللاذقية ودير الزور.. إلخ، وأحرزوا نجاحات عريضة فاقت طموح بعض القادة للجماعة، كما سيأتي ذلك في حينه، غير أن صفقات بين قادة الانفصال وبعض السياسيين، أخرجت الانتخابات عن مسارها في النزاهة، وعكرت صفاءها وشفافيتها، فالعسكريون وضعوا نصب أعينهم أن يكون البرلمان إحدى حلقاتهم، ودمية في أيديهم يحركونها كيفما يريدون، وأن يُبعدوا عن المجلس من لا يثقون به، وأن يحشدوا كبار الساسة للانخراط في العملية السياسية، ومن ثم دخول البرلمان والوزارة ليظهروا للعالم العربي والغربي أن سورية كلها وراء حركة الانفصال، وأنها تؤيد عملية الانقلاب.

لقد كشف بعض العسكريين في كتاباتهم ومذكراتهم ما أقدمت عليه قيادة الجيش من تزوير الانتخابات النيابية، كما أن الصفقة التي عقدوها مع الحوراني فاحت رائحتها، وبدا أمرها ظاهراً للعيان.

٢- ذكر العميد مطيع السمان قائد الأمن الداخلي في مذكراته التي أصدرها تحت عنوان: وطن وعسكر، فقال: قابلت زهر الدين مساء الخميس في شهر تشرين الثاني ١٩٦١، فقال لي: لقد قرر الإخوان

-العسكريون- إجراء انتخابات نيابية، وقد تم الاتفاق على إخراج نواب جيدين، بتسهيل نجاح النظيفين، والحيلولة دون نجاح القذرين، قلت: وكيف السبيل؟ قال: سيتقدم كل قائد منطقة بأسماء ثلاثة أضعاف عدد نواب منطقته، وسنتفق معه على الذين سنعمل على إنجاحهم، وذلك بتزويد كل محافظة بعدد مضاعف من صناديق الانتخابات، نصفها يضع الناخبون فيها أوراقهم، والنصف الثاني فيها أسماء الذين نرى إنجاحهم، والأمر متروك لهم في طريقة تبديل الصناديق، وسنلبي كل طلباتهم لنجاح هذه الخطة!!

يقول السمان: كنت مفاجأ لهذا الحديث الذي لم أكن أتوقعه، وفي البلاد حكومة مدنية برئاسة الدكتور مأمون الكزبري الذي وعد السوريين بإجراء انتخابات حرة نزيهة[1].

زارني في اليوم التالي -الجمعة- صديقان هما: هيثم الكيلاني وسالم أتاسي، فذكرت لهما حديث الانتخابات، وما جرى من حديث مع زهر الدين، فاتفقنا على وجوب الابتعاد عن هذا العمل، فتعززت قناعتي وتصميمي على الابتعاد عن هذا المسار.

في صباح اليوم التالي قابلت اللواء نامق كمال رئيس الأركان، فرجوته استدعاء العميد فيصل سري الحسيني ورجوتهما مقابلة اللواء زهر الدين، فذكرت أمامهم عدم المساهمة بهذا العمل لما فيه من سيئات لا تحمد عقباها.

---

(١) وطن وعسكر، مذكرات مطيع السمان ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٦١ إلى ٨ آذار/ مارس ١٩٦٣، الطبعة الأولى، كانون الثاني: يناير ١٩٩٥، الناشر: بيسان للطبع والتوزيع: ٥٥.

حاول زهر الدين إقناعي دون نتيجة، فاقترحت إعادة المجلس النيابي السابق، واستدعاء القوتلي من إقامته في سويسرا، فطلب إلي زهر الدين الانتظار لدقائق في مكتب اللواء ألبير عرنوق، ثم هتف لي ودعاني إلى مكتبه، فوجدت الضباط: الحسيني وعصاصة وعقيل ودهمان والنحلاوي وحيدر الكزبري، فقال زهر الدين: أعد ما قلته لي بصدد الانتخابات، ففعلت، فهاج الجميع وماجوا -وكان زهر الدين وضباط الانفصال قد دبروا أمراً بليل- فقال زهر الدين: متى ستسافر؟ لقد تقرر إيفادك في مهمة إلى براغ، وهذا ما كان متفقاً عليه قبل حضوري هذا اللقاء[١].

٣- ساءت العلاقة بين قائد الجيش عبد الكريم زهر الدين وبين العميد مطيع السمان الذي أسند إليه الانقلابيون منصب قيادة الأمن الداخلي في ٥-٤-١٩٦٢، لما عرف عنه من حزم وتصميم على تثبيت دعائم الحكم لسورية في عهد الانفصال، وعلى فرض الأمن على المجتمع السوري، وكان الخلاف بينهما يبرز في كل المناسبات والمنعطفات الحادة التي كانت تمر بها سورية في عهد الانفصال، وقد أدى ذلك إلى تراشق بين الضابطين الكبيرين، وإلى تبادل الاتهامات، وطعن كلٍّ منهما للآخر، وقد حوت مذكرات كل منهما مثالب ضد الآخر، ففي لقاء لزهر الدين مع مجلة النهضة الكويتية، ذكر زهر الدين أن قيادة الجيش أُسندت إليه، لأن ضباط الانفصال لم يقبلوا تعيين أحد ضابطين كبيرين مسيحيين لانتمائهما الديني، متهماً إياهم

---

(١) المرجع السابق: ٧١ .

والعهد كله معهم بالنعرات الدينية والتوجهات الطائفية، الأمر الذي أثار مطيع السمان، وحمله على ذكر نبذة عن حياة زهر الدين الشخصية والعائلية فقال: بدأ عبد الكريم زهر الدين حياته العسكرية كجندي عادي في سرية خدمات الكلية العسكرية في حمص، بعد تركه منزل شاهين مدير مالية السويداء، ومن ثم منزل مدام بيكار الفرنسية في السويداء أيضاً، والتي زارته عندما مرت بحمص، وتكلمت من أجله مع مدير الكلية العسكرية الكومندان -بران- وأفهمته ما لوالده -والد زهر الدين- الذي كان قد توفي من خدمات لصالحهم -الفرنسيين- وخاصة مع الكابتن كاربيه، فوعدها بمساعدته، وقبوله في عداد الطلاب الضباط، وقد قبله دون أن تتوفر لديه شروط القبول في الفحص والانتساب، وخاصة الشهادة الثانوية.

يقول السمان: تزوج عبد الكريم من عائلة حمصية مسيحية (من بيت حانون) وتكلل على زوجته بالكنيسة، كما عمّد ولديه فيها، والذي اضطرني لذكر هذه الواقعة ما نشره زهر الدين في مجلة النهضة الكويتية في العدد ١٣٣ لعام ١٩٧٠ من أن قيادة الجيش استبعدت عن القيادة ضابطين لكونهما من المسيحيين(١).

استمر النكد بين هذين القطبين في حكومة الانفصال، قائد الجيش اللواء عبد الكريم زهر الدين الآتي من جبل العرب، وبين العميد مطيع السمان ابن دمشق عاصمة بلاد الشام، والمنحدر من عائلة مجاهدة لها تاريخ حافل في مقاومة الفرنسيين، وكان هذا الصراع

---

(١) مذكرات مطيع السمان: ٥٥ .

النكد من أسباب انهيار فترة الانفصال، وقد استمر التراشق بينهما بعد عهد الانفصال عبر المذكرات والأحاديث الصحفية، وإذا كان لمن يسجل أحداث هذه الفترة المضطرب في تاريخ سورية الحديث الحق بأن يدلي بدلوه، فإن الانطباع الذي تبلور لديّ من القراءة المتفحصة لمذكرات كليهما أن السمان كان أوضح وأصدق، وربما كان أدق من زهر الدين، وإن كان هذا الانطباع عرضة للخطأ أو لمجانبة الصواب.

٤- جرت الانتخابات البرلمانية في جو محموم، وفي عقد صفقات في الغرف الخلفية، أو من وراء حجاب، كما رأينا بعضاً من تلك التي حدثت، وإذا كان حال جماعة الإخوان المسلمين في سورية يعنينا أكثر من غيره التزاماً بعنوان هذه الأوراق، وهم الذين كانوا يعيشون الأحداث، بل كانوا في دوامتها شأن الأحزاب الأخرى، أو بالأحرى شأن أبناء سورية جميعاً، فإنهم في هذه المرحلة وسعوا دائرة المشاركة الانتخابية في معظم أنحاء القطر، كما رأينا، واقتحموا مناطق كانت بمنأى عنهم من قبل، كمنطقة الساحل ومحافظات إدلب ودير الزور وحوران، فكان التأييد لهم كمرشحين كاسحاً، كالذي أحرزوه في دمشق والغوطة وحلب وحمص واللاذقية، وأن المناطق التي لم يحالف الحظ فيها مرشحي الجماعة، كان المرشحون قاب قوسين أو أدنى من النجاح، كما هو الحال في دير الزور وإدلب ودرعا، أما أوضاع محافظة حماة، فإن الصفقة بين العسكر والحوراني حالت دون دخول مرشحي الإخوان وأنصارهم قاعة البرلمان رغم التأييد الكاسح الذي أحرزوه في المدينة، وهو موضوع جدير

بالتسجيل والتحليل لما له من أهمية بالغة في وضع النقاط على الحروف، وفي الكشف عن بواطن الأمور.

وفي حلب الشهباء عاصمة الشمال رشح الإخوان المسلمون فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، فمنحه الناخبون أصواتاً كثيرة، قاربت العشرين ألفاً، فجاء نجاحه متفوقاً، كما نجح عن حلب الفقيه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا الذي أدخله الحزب الوطني في قائمته ليتقوى به في بلد يتفوق فيه حزب الشعب برئاسة الكيخيا على الحزب الوطني الذي لا يتمتع بشعبية واسعة في الجمهور الحلبي، فكان الزرقا النائب الذي نال تأييد الناخبين في مدينته ليمثلهم في البرلمان، وهكذا دفعت حلب بنائبين عن التيار الإسلامي إلى المجلس النيابي السوري في فترة الانفصال هما: فضيلة العالم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ الفقيه مصطفى أحمد الزرقا.

كما انتخبت مدينة اللاذقية عاصمة الساحل الدكتور نبيل الطويل عضو القيادة العليا لجماعة الإخوان، بعد أن كانت النيابة فيها وقفاً على الحزب الوطني وحزب الشعب في داخل المدينة، ومرشح حزب البعث الدكتور وهيب الغانم عن ريف اللاذقية لأنه كان يحظى بتأييد أبناء الطائفة العلوية لأنه كان من زعمائهم، بعد أن نزح من الإسكندرون وسكن في اللاذقية، واشتهر في الأوساط الشعبية بعلاجه المجاني للفقراء ومساعدته لهم.

أما في دمشق العاصمة التي أعطت ولاءها لمرشحي الجماعة وحلفائهم عام ١٩٤٩ ليكونوا من النواب البارزين في الهيئة

التأسيسية، ومن المؤثرين في وضع دستور ١٩٥٠، وبعد أن ترك الإخوان دمشق لقدرها ومصيرها وتسلُّط اليسار على شارعها عام ١٩٥٤ لتكون نهباً لليسار والاشتراكيين والموجة الشيوعية الصاعدة، دون أن يتقدم لخوض المعركة الانتخابية من الجماعة إلا الأستاذ محمد المبارك الذي دخل البرلمان كنائب مستقل بدعم من أعضاء الجماعة في المرحلة الثانية من الاقتراع.

إن دمشق الوفية للإسلام منذ بزوغ فجر الإسلام، ومذ كانت قلب العروبة النابض وموئل الدعوة الإسلامية وعاصمة الدنيا في العصر الأموي، احتضنت للمرة الثانية أبناء التيار الإسلامي، وأعطت بسخاء أصواتها لمرشحي الإخوان المسلمين وعدد من ذوي الطابع الإسلامي، فنجحت قائمة الإخوان المكونة من ثلاثة مرشحين، فكان الأستاذ عصام العطار المراقب العام للجماعة -مع العظم والكزبري- في طليعة الناجحين بعدد الأصوات التي نالها حيث بلغت أعداد الناخبين المؤيدين للأستاذ عصام العطار ٢٨٤٠٤ أصوات، كما نجح الأستاذ عمر عودة الخطيب رحمه الله، والشيخ المجاهد زهير الشاويش حفظه الله، كذلك نجح مرشحو التيار الإسلامي عن الغوطة وريف دمشق، فكان الشيخ عبد الرؤوف أبو طوق عن العلماء، وكان الأستاذ سعيد العبّار -أبو حسان- رحمه الله عن الإخوان المسلمين ممن أولاهما الناخبون ثقتهم، فدخلوا قاعة البرلمان نواباً عن ريف العاصمة.

وفي حمص، فازت قائمة الإخوان المسلمين في هذه الانتخابات

المشكلة من الشيخ محمد علي مشعل حفظه الله، والأستاذ الطيب الخجا رحمه الله، بالرغم من كثافة الحزب الشيوعي المدعوم من أبناء الطائفة المسيحية الأرثوذكسية الوافرة العدد في حمص، لارتباط كنيستهم بموسكو منذ القدم، والذي استمر كذلك ولاؤهم لها رغم انتصار الحزب الشيوعي في روسيا وسيطرته على الحكم فيها.

زاد عدد نواب الإخوان المسلمين في البرلمان على عشرة نواب، وربا عدد النواب الإسلاميين من الإخوان وأنصارهم وحلفائهم على عشرين نائباً، فإذا أضفنا إلى هذا العدد، المستوى الذي كان عليه نواب التكتل الإسلامي، إذ كان جلُّهم من كبار العلماء والدكاترة والأكاديميين، ندرك ما كانت عليه هذه الكتلة من وزن في البرلمان السوري الذي اختاره الشعب السوري في انتخابات ١٩٦١ في عهد الانفصال.

٥- لكن محافظة حماة كان لها شأن آخر، فهي موئل عدد كبير من الساسة الذين قاموا بأدوار كبيرة في تاريخ سورية الحديث، من أمثال حسني البرازي ومحسن البرازي وأكرم الحوراني وأديب الشيشكلي وعبد الرحمن العظم وعبد الحميد السراج وغيرهم، وهي أهم مراكز الحركة الإسلامية، وتنظيم الإخوان المسلمين، ولذا كان الصراع بين قياداتها على أشده، ولاسيما بين الاشتراكيين بزعامة أكرم الحوراني، وبين الإخوان المسلمين بقيادة إدارة مكونة من وجهاء وعلماء، أمثال الشيخ عبد الله الحلاق، ومن قيادات شابة ناشئة أمثال الأستاذ الداعية مصطفى الصيرفي والدكتور عبد الكريم عثمان رحمه

الله، ومن راعي الحركة والأب الروحي لها منذ نشأت العارف بالله الشيخ محمد الحامد رحمه الله وتغمده وإخوانه بفيض مغفرته ورضوانه.

كان العسكريون الانفصاليون بحاجة إلى دعم سياسي، وإلى تأييد حركتهم الانقلابية من الساسة الكبار، أمثال الحوراني الذي كانت له صلات وثيقة بطيف واسع من العسكريين، وخبرة كبيرة بالانقلابات العسكرية السابقة، ومن هنا جاءت الصفقة، وحدثت المساومة بين الحوراني وقادة الانقلاب، فالحوراني يعلم علم اليقين أن الأكثرية من أبناء مدينة حماة ليست معه، ولا مع حزبه، ولذا كان حرصه شديداً على أن تشكل المدينة وريفها دائرة واحدة، لأن الأقليات الدينية والطائفية كالمسيحيين والعلويين والإسماعيليين يشكلون طيفاً واسعاً في غربي المدينة وفي شرقها، وكانت الدعاية الحزبية والانتخابية تثير المخاوف لدى الأقليات من الإخوان المسلمين، وتصورهم على أنهم أعداء ألداء لأبناء الطوائف الأخرى، كما تفعل اليوم بعض الحكومات العربية في كسب ود الأمريكان والأوربيين في مطاردة الحركة الإسلامية والتضييق عليها ومحاصرتها سياسياً وإعلامياً، بالرغم من أن تاريخ سورية الحديث لم يسجل حادثة واحدة عبر ستين عاماً على صدام بين الإخوان وغيرهم على خلفية طائفية أو دينية، لأن النصوص في القرآن الكريم والحديث الشريف قاطعة بالتخويف والترهيب لمن يمس حرية غير المسلمين في معتقداتهم أو كراماتهم أو دور عبادتهم أو اعتبارهم الإنساني، أو حقوق المواطنة وما يتفرع عنها من مشاركة

سياسية، وفي تكافؤ الفرص وشغل مناصب في الدولة توازي حجمهم، أو تزيد في أكثر الأحيان.

وبالرغم من اعتراض خصوم الحوراني على إلحاق الريف في المدينة كدائرة انتخابية واحدة، فإن القابضين على زمام السلطة من العسكريين لم يأبهوا لذلك، ولن يلتفتوا إليه أو يُعيروه أي اهتمام، طالما أنهم ضمنوا دعم الحوراني لحركة انفصال سورية عن مصر.

تشكلت في المحافظة قائمتان متضادتان، قائمة حزب البعث العربي الاشتراكي بقيادة الحوراني من أعضاء الحزب دون سواهم، وقائمة الإخوان وأنصارهم وحلفائهم، لتضم اثنين من قيادات الإخوان في حماة، أحدهم الأستاذ الداعية مصطفى الصيرفي ذو الشهرة الواسعة في أحاديثه الوعظية والتوجيهية التي استقطبت جمهوراً واسعاً من أبناء المدينة، وثانيهما الأستاذ محمد نعسان عرواني الذي كان له تأثير ملموس في صفوف الطلاب عندما اشتهر كأستاذ ألمعي للتاريخ، وكمدير لإحدى ثانويات المدينة الأربع، كما كان له تأثير كبير في النهوض بالحركة النسائية وقيادة تنظيم الأخوات المسلمات، بدت آثاره في انتخابات الاتحاد القومي التي جرت في ظل الوحدة، وفي الانتخابات البرلمانية، وما نتج عن ذلك من تصويت الناخبات لمرشحي الحركة الإسلامية بأعداد تفوق ما ناله خصومهم من الأصوات النسائية، كما ضمت القائمة الأستاذ رئيف الملقي رئيس الكتلة الوطنية في حماة بعد وفاة قائدها وأبرز مؤسسيها الدكتور توفيق الشيشكلي، وكذا السيد عبد الله البرازي الذي يحسب على الملاكين،

بالرغم من أنه يشكـو ضيق اليد، حتى إنه اضطر -بمـعرفتي- على أن يستقـرض ألفي ليرة سورية من أحد أصدقـائه لحاجته إليهـا في نشاطه الانتخـابي، وكذا السيـد عبد الرحـمن العظم ابن الوجـيه الكبيـر فريد العظم، والـذي كان يتمـتع بسمعـة طيبة وخلـق رفيع يتفـق على ذلك مؤيدوه ومناوئوه جـميعاً، ولذا كان الأول في نيل أصـوات المدينة في جميع الانتـخابات التـي خاضهـا مرشـحاً عن حـماة منـذ عام ١٩٤٧ وحتى عـام ١٩٦١، وكان في عـداد القائمـة السيد هـارون خطاب من قرية طيـبة الإمام عن الفـلاحين، وكانت له شـهرة واسعة في الـسخاء والكرم فـي الوسط الريفـي، وبين جمـهور الـفلاحيـن، كما كـان عن المقعد المسيحي الأرثوذوكسي المخصص في المحافظة الدكتور أديب نصور خريج أكسفورد في العلوم السياسية، وكان ذا ثقافة أدبية وفكرية وسياسـية واسعة، وكنـت على صلة وثيقـة به، ولا أذكر أنني جالـسته مرة إلا واستفدت من اطلاعه الواسع في ثقافته الموسوعية العالمية.

قبيل إجـراء الانتخابات بساعات، أقام كـلا الفريقين المتخـاصمين حفله الخـتامي في أمسيّـة واحدة، ضم حفل الإخوان وحلـفائهم زهاء عـشريـن ألفـاً من المـدينـة وريفـهـا، كمـا قـدره بعض الـمشـاركـين والمراقبين، وضم حفل الاشتراكيـين زهاء خمسة آلاف كما قدره عدد من المعنيين.

لقد كـلفني إخوانـي بتقديـم المرشحـين في هذا الحـفل الختـامي الكبيـر إلى المحتفلـين والناخبين، ولم يـكن تقديم إخواني صـعباً ولا عسـيراً، لأنني أعـيش معهـم وأعرفهم كـما أعرف نـفسي، فقـلت في

الأخوين المرشحين ما هما أهله من جهادهما في حقل الدعوة والتوجيه والتربية، وكان الحرج في تقديم الملاك الكبير عبد الرحمن العظم الذي كان سفيراً لسورية في القاهرة، وكان شديد القرب من عبد الناصر، يجالسه ويتجاذب معه أطراف الحديث في السياسة والوحدة والاقتصاد والشؤون المالية التي تخصص بها العظم على مستوى عالمي، كما أنه شارك في محادثات الوحدة والتحضير لها، والمراحل التي مرت بها فقلت: أقدم لكم الأستاذ عبد الرحمن العظم الذي أسهم في محادثات الوحدة وفي التحضير لها، وعرف الكثير من خباياها وخفاياها، هذه الوحدة التي أنكرها مدعوها، حتى إذا تمت رغم أنوفهم، قفزوا عليها واستغلوها حتى هدموها، أقدم لكم أحد أعضاء قائمة حماة عبد الرحمن العظم، وكان الحرج قائماً في تقديم الدكتور أديب نصور عن المقعد المسيحي وعضو القائمة، فذكرت في تقديمه: أن الدكتور أديب أصر في البيان الذي أصدرناه باسم القائمة على أن يكون الفقه الإسلامي هو المصدر الأساسي في التشريع، وعندما سألته في أحد اللقاءات معه، وهو المتمسك بالنصرانية والحريص عليها، والابن الروحي للمطران حريكه المشهور بمواقفه الوطنية مع الكتلة على مستوى الوطن، سألته: ماذا تقصد من تعزيز موقف الإسلام في الحياة السياسية، فأجاب: إذا أُقصي الإسلام أو اضطهد، وهو دين الأكثرية، فكيف يكون مصير دين الأقلية؟.

جرت الانتخابات في محافظة حماة، فأعطت المدينة ثلثي أصواتها إلى قائمة الإخوان وحلفائهم، وأعطى الريف أكثر أصواته

لقائمة الحزب الاشتراكي، وكان الأول في المدينة الذي حاز على أعلى الأصوات: الأستاذ عبد الرحمن العظم، إذ نال زهاء اثني عشر ألف صوت، ونال كل من الأخوين حوالي عشرة آلاف صوت، وهكذا بقية أعضاء القائمة، حتى إن ما حازه أديب نصور يزيد على ما ناله الحوراني في المدينة، ونال أقل الأصوات في المدينة من قائمة الحوراني الأستاذ محمد عطورة حيث كان مجموع من صوّت له ستة آلاف، وهكذا بقية أعضاء قائمة الحزب باستثناء أكرم الحوراني الذي صوّت له تسعة آلاف ناخب.

إن أعضاء قائمة الإخوان وحلفائهم الذين نالوا أصوات الناخبين بمعدل ثلثي الذين صوّتوا أو ثلاثة أخماس الناخبين حُرموا من دخول البرلمان، والذين نالوا أصوات ثلث الناخبين أو خمسي الأصوات دخلوا البرلمان بدعم أصوات الريف أو أصوات الأقليات في غربي المدينة وفي شرقها.

يعقب قائد الجيش زهر الدين على الصفقات والتزويرات التي شابت عملية الانتخابات فيقول في مذكراته: بعد مضي فترة طويلة على قيام المجلس النيابي، علمت أن تدخلاً سرياً من الجيش ومن خارجه قد لعب دوراً هاماً بالموضوع، ولم أتمكن من كشف هذا التدخل، لأن المخابرات لم تقدم لي شيئاً من معلوماتها - بهذا الموضوع[1].

---

(١) مذكرات زهر الدين: ١٤٩ .

ثانياً: الديمقراطية في عهد الانفصال

في العاشرة من صباح ١٢-١٢-١٩٦١ فتح البرلمان أبوابه لعقد الجلسة الأولى في ظل خلاف بدأت رائحته تفوح بين السياسيين والعسكر الذين بدؤوا يفرضون وصايتهم على الحياة السياسية منذ البداية، لقد طلبوا من رئيس الجمهورية ناظم القدسي أن يكون السيد سعيد الغزي رئيساً للبرلمان، ترأس السيد سعيد الغزي المجلس بصفته أكبر الأعضاء سناً، وباشر النواب بانتخاب رئيس المجلس ونواب الرئيس ومكتب المجلس، فإذا بالدكتور مأمون الكزبري الذي أبعده العسكر عن رئاسة الوزارة بعد أن تحمل مسؤوليتها في أصعب وأدق فترة، يفوز برئاسة البرلمان بأكثرية كبيرة، الأمر الذي أغاظ العسكر، فاعتبروا هذا الانتخاب تمرداً عليهم وغدراً بهم!! فقال زهر الدين في مذكراته فيما بعد: ومن هنا شممت رائحة الغدر والطعنة الأولى، إذ إننا اتفقنا مع القدسي على إنجاح الغزي للرئاسة الثانية[١].

انقسم النواب إلى تيارين، يمين الوسط مؤيداً من الأحزاب التقليدية والاتجاهات المحافظة وعدد من نواب العشائر، ويسار الوسط المؤيد من كتلة خالد العظم، ونواب حزب البعث العربي الاشتراكي ومن يؤيدهم، فنجح الكزبري مرشح اليمين بـ ١١٤ صوتاً على منافسه جلال السيد مرشح يسار الوسط بـ ٤٧ صوتاً، أما خالد العظم الذي كان يتطلع إلى منصب رئاسة الجمهورية، فقد أدرك أن

(١) المرجع السابق: ١٥٩ .

فرصته ضعيفة إن لم تكن معدومة، لأن الجيش -كما قال- كان ضده، وأن القدسي كان أوفر منه حظاً، لأنه مدعوم من الأمريكان حسبما زعم العظم نفسه في مذكراته[1].

١- لم يدرك النواب أن المياه تجري من تحت أقدامهم، وأن مؤامرة تحاك ضد مجلسهم منذ الساعات الأولى لانتخابه، وأن العسكريين الذين نفذوا الانقلاب، وفصلوا سورية عن مصر، شرعوا في إجراء اتصالات سرية مع القاهرة، قام بها ضباط المخابرات السورية مع عبد الناصر، وأن رأس البرلمان كان مطلوباً مع جملة شروط أخرى لإصلاح ما بين البلدين كما سيأتي ذلك تفصيلاً، وأن هذا العهد مهدد بالانهيار، لأنه لا يملك أجهزة أمنية تعطي ولاءها لحكومات الانفصال، بل الأنكى من ذلك أن رؤساء الأجهزة الأمنية الثلاث في سورية كانوا ناصريين كما سمعت ذلك من السيد منيب الرفاعي سفير سورية بأبو ظبي، وكانت صلتنا به حسنة، -نحن أبناء الجالية السورية في الإمارات- وكان السيد السفير أحد المسؤولين عن أحد الأجهزة الثلاثة -الشعبة السياسية- إذ ذاك.

كان التناقض بين السياسيين والعسكريين ظاهراً للعيان، وكانت الثقة معدومة بين الفريقين، بل كان العسكريون يصغون إلى الاتهامات التي كان يكيلها صوت العرب من القاهرة للسياسيين، إذ كان يتهمهم بقبض الأموال واستلام مبالغ من حكومة بغداد، وكان من ضمن ذلك أن اتهم المصريون الدكتور معروف الدواليبي الذي شكل الوزارة بعد

---

(١) مذكرات خالد العظم ج٣: ٢٢٤ .

إجراء الانتخابات باستلام آلاف الدنانير من بغداد، فسأل العسكريون عبر مجلس الأمن القومي عن فحوى الاتهامات، فنفاها القدسي، غير أن العجيب في الأمر أن الدكتور الدواليبي السياسي المخضرم، ذكر عندما سئل عن هذا الأمر: سبق وقبضت خمسة أو ستة آلاف دينار عراقي من أحد السياسيين العراقيين تركها على مكتبي ضمن رسالة قالت: بأن هذا المبلغ لسد المصاريف التي كنا نتكبدها في مناهضة حكم الشيشكلي، وبالفعل صرفنا هذا المبلغ على شراء بعض الأسلحة والمتفجرات لتقويض حكم الشيشكلي الدكتاتوري[١].

وفي هذا السياق ذكر الدكتور الدواليبي في بغداد أمام الهيئة التأسيسية للمعارضة السورية التي تضم بعثيين واشتراكيين وإسلاميين وناصريين كيف ذهب إلى بغداد وزار بلدة سرسنك، وتلقى دعماً مالياً من حكومة نوري السعيد لمقاومة حكم أديب الشيشكلي، فسمعنا ذلك ولم تصدق آذاننا الذي كانت تسمعه من فم الدكتور الدواليبي على ملأ من أطياف المعارضة، فقال لي الأستاذ شبلي العيسمي العضو في قيادة البعث هامساً: عندما كنا نسمع هذا الكلام في سورية، كنا نظن ذلك من قبيل الدعايات والتراشق الحزبي، حتى سمعنا اليوم من الدواليبي صحة ذلك وتفصيلاته التي ذكرها أمام الجميع!!

بدأ الصراع جلياً وظاهراً للجميع بين النحلاوي وضباطه وبين السياسيين، وكان يبدو في ظاهره خلافاً حول جملة أمور مثل قوانين

---

(١) مذكرات زهر الدين: ١٨٥ .

الإصلاح الزراعي، والتأميم وغيرها، وزيادة رواتب النواب وما إلى ذلك، ولم يكن السياسيون يعلمون أن اتصالات سرية شرع بها العسكريون خلف الكواليس، وأن صفقات تبرم بين جماعة النحلاوي ضباط ٢٨-٩-١٩٦١ وبين عبد الناصر، وأن اتفاقاً تمت الموافقة عليه بحل البرلمان وإقالة الحكومة، وعزل رئيس الجمهورية، ومن ثم الذهاب إلى القاهرة، والإعلان منها عن إعادة الوحدة، كما سيأتي بعد ذلك مفصَّلاً.

٢- شرع العسكريون بالتحرش بالسياسيين، وإحراجهم وتوجيه التهم إليهم، بل والتماس العيوب في أعمالهم وتصرفاتهم وسياساتهم وبما يتخذونه من قرارات وإجراءات وظيفية، وكذا تبني هجومات صوت العرب على الحكومة السورية، وتجريح رئيسها وعدد من أعضائها، وكانت الحكومة تحسب أن الخلاف مع العسكريين يعود إلى قصور في الرؤية، وضعف في التفكير والتحليل والأبعاد السياسية، فكانوا يدارون العسكريين، ويذعنون لهم، ويستجيبون لمطالبهم، ويتخذون قرارات، ويقرون قوانين في البرلمان تحقق شروطهم ومطالبهم. من ذلك أن بعض السياسيين، وفي مقدمتهم الأستاذ أكرم الحوراني تبنوا قوانين الإصلاح الزراعي والتأميم التي أصدرها جمال عبد الناصر، دون تغيير أو تعديل، وبالرغم من اقتناع الساسة الآخرين بوجوب إدخال بعض التعديلات عليها، كيلا تنعكس سلباً على الحياة الاقتصادية في سورية، فإن الحكومة وافقت على القوانين كما هي، وتقدمت بها للبرلمان بعد إدخال تعديلات طفيفة لا تمس الجوهر، فوافق البرلمان عليها بالإجماع -تجنباً للصراع مع

العسكريين- إلا أن العسكر ذكروا أن وزارة الدواليبي وافقت على قانون الإصلاح الزراعي، وكذا البرلمان بعد تشويهه ومسخه[1].

وعندما نظر البرلمان في رواتب النواب، ورأى -صواباً أو خطأ- أنها لا تفي بحاجة النائب أو التزاماته، فأضاف إليها ورفع سقفها، بموافقة الكتل البرلمانية بما في ذلك كتلة الاشتراكيين، وكتلة الإخوان وحلفائهم، شن العسكريون ومن يداريهم أو يدور في فلكهم هجوماً قاسياً على البرلمان بدعوى أنه يتحيز لنفسه، ويزيد من رواتب أعضائه النواب، ومما يجدر ذكره في هذا السياق أن الإخوان لم يفطنوا لما يراد لسورية وبرلمانها وحكومتها من تآمر وكيد، ليؤجلوا مثل هذا الموضوع الذي يثير لغطاً، ويعطي المتربصين ذريعة لينفذوا ما يريدون، باستثناء نائب الإخوان عن حمص الشيخ محمد على مشعل الذي انفرد بمعارضة المشروع، فعتب عليه إخوانه في البرلمان، واعتبروا ذلك مخالفة أو خروجاً على قرار الكتلة التي ينتمي إليها فقال له الشيخ مصطفى الزرقا عضو الكتلة ونائب حلب: ما هكذا يا سعد تورد الإبل.

بيد أن الموضوع الذي كان يمكن أن يمر في الظروف العادية -زيادة الرواتب- شكل مادة للعسكريين لتشويه صورة المجلس، واعتبار ذلك إحدى الذرائع فيما بعد لحل البرلمان بدعوى أنه منشغل بالمصالح الخاصة على حساب المصالح الوطنية والعامة!!!

---

(١) مذكرات زهر الدين: ١٨٧ .

٣- كان معروف الدواليبي سياسياً كبيراً، وعالماً شرعياً، تخرج في مدرسة شرعية شهيرة -الخسروية- ذات المناهج القوية، ثم درس الحقوق الرومانية في فرنسا، ونال الدكتوراه بها، وصادف وجوده في باريس إبان الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) فاطلع على أمور خطيرة للغاية كان يذكرها في لقاءاتنا به، فجمع بين الثقافتين الإسلامية والغربية، وكان رجلاً عصامياً أدى دوراً رائداً في قيادة شباب الكتلة الوطنية ضد فرنسا -القمصان الحديدية- وقام بأعمال جهادية ضد المحتلين ظل متكتماً عليها طيلة عمره السياسي والزمني، ولولا أنه انتقل إلى جوار ربه ما أبحت لنفسي بالإشارة لها، وقد سمعت ذلك منه في لقاء معه في إمارة دبي، إذ كان ينتقد شريحة الإخوان التي كانت في صدام مع حكومة الأقلية في الإعلان عن صداماتهم مع السلطة الباغية قائلاً: لماذا يفعلون هذا؟ وما الفائدة من ذلك؟ ويقول: لقد قاومنا الاحتلال الفرنسي بكل الوسائل، ولم نعلن عن ذلك، أو عمن يقف وراء المقاومة، وظل العدو في جهالة من أمرها وأمر من يقودها، وانتهى الاحتلال، وظل أمرها مكتوماً، كما ذكر لنا رحمه الله في بغداد كيف صحب خبراء الصواريخ الألمان إلى سورية بعد سقوط ألمانيا، وكيف هيأ لهم ظروف الإقامة وإحداث التجارب، حتى تم لهم ما أرادوا، وحققوا مشروعهم، وصنعوا الصواريخ لأول مرة في التاريخ، قبل أي بلد في العالم، وبعد أن زج الشيشكلي به وبوزرائه في السجن لم يعد يعرف عن الموضوع شيئاً، وعندما خرج من السجن، صادف أحد الخبراء الألمان في الشارع، فسأله: هل فشل المشروع؟ قال: لا، بل أكملناه، وبلغنا به ما نريد،

غير أن الجهة المعنية صرفتنا وأوقفت العمل، يقول الدواليبي: سألت الضابط الكبير المعني شوكت شقير، هل حدث هذا؟ فأجاب: إنه مشروع أكبر من قدراتنا ومكانتنا، ولذلك تخلينا عنه لمن يستطيع الاضطلاع به من الدول الكبرى!! كما كان يحدثنا عن كشفه لعملة فرنسية مزورة قام بها الصهاينة مما سبب أزمة بين الفرنسيين واللوبي الصهيوني استمرت آثارها لأمد بعيد، كما عرف عن الدواليبي تخليصه للحاج أمين الحسيني من أيدي الفرنسيين بعد هزيمة ألمانيا، وتهريبه بطريقة رتَّب أمرها إلى مصر، بعد أن كان اليهود يبحثون عنه بلهفة، ويصرون على إلقاء القبض عليه.

لعب الدواليبي دوراً بارزاً في الحياة السياسية في سورية بعد استقلالها في ١٧-٤-١٩٤٦ فشكل الوزارة، ورأس البرلمان كعضو بارز في حزب الشعب الذي كان يشكل أكبر كتلة برلمانية في أكثر من انتخاب، وشارك في عدد من الوزارات، مع خالد العظم حيناً، وصبري العسلي حيناً في ترؤسهما للوزارة، وكان معروفاً بعدائه للسياسة الغربية التي تبنت المشروع الصهيوني، وغرست إسرائيل في قلب العالم العربي، وفي أقدس بقاع بلاد الشام، ولا ينسى التاريخ تصريحه في القاهرة زائراً لها عندما كان وزيراً للاقتصاد في وزارة خالد العظم (من ٢٧-١٢-١٩٤٩ وحتى ٤-٦-١٩٥٠) الذي جاء فيه: نفضل ألف مرة أن نكون إحدى الجمهوريات السوفياتية على أن تحتل إسرائيل أرضنا، وتنتزع فلسطين من شعبها، وتطرد أهلها خارج وطنهم.

لقد اضطربت الدوائر الغربية، ولاسيما الأمريكية واتصلوا به في مقر إقامته بعد الثانية ليلاً، ليسألوه عن هذا التصريح المثير للجدل والقلق والتوتر، ولاسيما أنه وزير اقتصاد وليس وزير خارجية، فأيد لهم ما قاله، وأنه رأي شخصي صادر عنه لا يُحمله للحكومة التي هو عضو فيها، وعندما اشتد الهجوم عليه، وقف الإخوان معه بحزم، وعضدوا موقفه بتصريحات مماثلة صدرت عن السباعي قائد الجماعة، وعن المبارك ممثل الجماعة في البرلمان وفي الوزارة التي كان كلٌّ من الدواليبي والمبارك عضوين فيها برئاسة خالد العظم.

كان الدواليبي الذي استغرقه العمل السياسي، يدرِّس مادة الحقوق الرومانية في كلية الحقوق في الجامعة السورية، كما يدرس مادة أصول الفقه العسيرة الفهم والهضم إلا على المتمكنين في هذا الاختصاص.

إن صلابة الدواليبي وخبرته السياسية، وتحمله للمسؤولية في أحلك الظروف، بعد انفصال سورية عن مصر، زاد من حدة الهجوم عليه خشية أن تستقر الأوضاع السياسية والاقتصادية في ظل وزارته، فاستعر الهجوم عليه سياسياً وشخصياً، واشتد عليه الخصوم من خارج سورية ومن داخلها، فالقاهرة وإعلامها القوي الهادر ذو التأثير الجماهيري الكبير، وحلفاء عبد الناصر والأجهزة الأمنية التي يهيمن عليها في لبنان، والناصريون من داخل سورية قد انفجروا كالبركان، ليس لإسقاط الوزارة فحسب، بل للقضاء على عهد الانفصال، تمهيداً للعودة إلى الوحدة مع جمال عبد الناصر، وكان اليسار بكل شرائحه

الشيوعية والاشتراكية واليسارية، وضباط الجيش المتسلطين على مقدرات العباد والبلاد بأسلوب فج تنقصه الخبرة واللباقة، يدفعهم إلى تصعيد الصدام مع السياسيين والسلطة المدنية، ويحدو بهم إلى التحرش بالوزارة وبالبرلمان، تمهيداً لتنفيذ الخطة التي اتفقوا عليها مع القاهرة، والتي ترمي إلى الإطاحة بعهد الانفصال، والقضاء عليه، وإلغائه من الحياة السياسية في سورية.

ثالثاً: الهجوم على الانفصاليين

لم يكن بمستطاع الحكم في سورية أن يثبت أمام الهجمة الناصرية التي تملك من أسباب الدعاية والإعلام الإذاعي والصحفي والتلفزيوني، والثقل السياسي والعلاقات الواسعة في العالمين العربي والغربي، والأنصار الكثر في داخل المجتمع السوري وفي المؤسسة العسكرية والأمنية في سورية، وفي مرافق الحياة في لبنان، وفي الإنفاق الواسع لكل ما تقتضيه الحياة السياسية في عهد الانفصال، لم يكن الحكم في سورية قادراً على مواجهة هذا كله، لاسيما أن الانقسام السياسي والاجتماعي والعسكري في داخل سورية كان على أشده، ولذلك سرعان ما انهار عهد الانفصال، ولمّا يمض على حدوثه أو ميلاده سوى ثمانية عشر شهراً.

فكيف حدث ذلك؟. وما هي الظروف والجهات والبرامج والألغام التي فجرت عهد الانفصال، وأتت عليه من قواعده، ودمرت وجوده تدميراً؟ وهذا ما ينبغي معرفته والإحاطة به، والكشف عن أسراره لأبنائنا وللأجيال الصاعدة في الوطن العزيز، ليدركوا كيف

وصلت سورية إلى ما وصلت إليه، ليتعظوا ويعتبروا، ويفهموا بعمق كيف ضاعت سورية، وكيف تعود ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[1].

١- شكل الدكتور الدواليبي وزارته في ٢٣-١٢-١٩٦١، واستمرت حتى أطاح بها العسكريون في ٢٧-٣-١٩٦٢ أي بعد ٩٥ يوماً من تأليفها.- وقد ضمت الوزارة بالإضافة إلى رئيسها الذي احتفظ بحقيبة الخارجية: جلال السيد نائباً للرئيس ووزيراً للزراعة، ورشاد برمدا للدفاع والتربية، وأحمد قنبر للداخلية، ومحمد الشواف للأشغال العامة، وعبد الرحمن هنيدي وزيراً لصناعة، ومصطفى الزرقا وزيراً للعدل والأوقاف، وعدنان القوتلي للاقتصاد، وفؤاد العادل للإرشاد القومي، ومحمود العظم وزير دولة وللصحة وكالة، ونعوم السيوفي وزيراً للتخطيط، وأحمد على كامل وزيراً للمواصلات، وسهيل الخوري وزيراً للشؤون البلدية والقروية، وبكري القباني وزيراً للإصلاح الزراعي، ورشيد الدقر وزيراً للمالية والتموين، ومن الملاحظ أن وزارة الدواليبي ضمت شخصيات قوية من حزب الشعب أمثال أحمد قنبر ورشاد برمدا، وشخصية بعثية تمردت على الحزب، وأصدرت كتاباً تعدد فيه أخطاءه، إنه جلال السيد ثالث ثلاثة في تأسيسه، وشخصية إسلامية مرموقة هي الشيخ الفقيه الكبير مصطفى الزرقا، الذي استلم العدل والأوقاف، والدكتور رشيد الدقر ذا الميول الإسلامية، وشخصيات مسيحية مثل سهيل الخوري ابن فارس

---

(١) سورة ق الآية ٣٧ .

الخوري الشخصية الوطنية التاريخية، وكذا نعوم السيوفي، ومن العلويين محمد علي كامل، وآخرين محسوبين على الحزب الوطني، وعلى التقنوقراط، ولم يشارك في هذه الحكومة حزب البعث ولا الإخوان المسلمون.

حاولت هذه الحكومة تطويق الخلافات حول القوانين التي صدرت في ظل الوحدة والاتفاق مع الكتل السياسية على صيغ مقبولة من الجميع، كما حاولت التفاهم مع القاهرة، وتقديم صيغ وحدوية تتجنب أخطاء عهد الوحدة السابق، وتعيد الصلة بين سورية ومصر، وتقيم اتحاداً قوياً متكافئاً يؤيده ويوافق عليه المصريون والسوريون، كما حاولت أن تعيد إلى سورية المبادرات الاقتصادية في التجارة وغيرها، وتعمل على إصلاح العلاقة مع اللبنانيين الذين وقفت شريحة منهم مع الوحدة، وشجبت الانفصال، فصار لبنان مؤئلاً للتحرك الناصري باتجاه سورية بطرق وأساليب سيأتي ذكرها لاحقاً.

لم تكن هذه المبادرات مقبولة، أو حتى موضع نظر من جمال عبد الناصر وحكومته وأجهزته، بل كانت تقابل بالرفض والاتهام والحملات الإعلامية الجارحة والنشاط السياسي الواسع من قبل الناصريين والوحدويين وشرائح يسارية ضد حكومة الدواليبي وجميع أعضاء حكومته في عهد الانفصال.

٢- كان على ناظم القدسي، (وعلى الحكومة) أن يتحملوا وطأة غضب جمال عبد الناصر، فقد راحت أجهزة دعاية القاهرة تَشُنُّ على الحكومة هجمات صاخبة في كل يوم، أو في كل ساعة، كما انصبت

في سورية عبر الحدود اللبنانية الأموال والمتفجرات، وشبكات المخابرات المصرية، وأصبح التدخل سافراً إلى درجة أن سورية اشتكت مصر إلى جامعة الدول العربية التي شرعت في بحث الشكوى السورية في جلسات عقدتها في بلدة شتورا اللبنانية القريبة من الحدود السورية، غير أن عبد الناصر هدد بالانسحاب من جامعة الدول العربية إذا استمرت الجامعة في بحث الشكوى، ومن ثم إلى إلغائها. فترك نظام القدسي الكسيح -على حد تعبير باتريك سيل- يواجه عجزه بنفسه، وهكذا تبين أن الإطاحة بمثل هذا النظام المترنح لن تكون صعبة إلى حد الاستحالة(١).

لقد تحرك العسكريون باتجاه القاهرة، وبذلوا كل جهد لاسترضاء جمال عبد الناصر، وكسب وده مرة أخرى، ليكفروا عن خطئهم في انفصال سورية عن مصر كما صرح بعضهم، وبدؤوا باتصالات سرية عبر وفود أمنية، ومبعوثين سياسيين لإبرام اتفاق أو صفقة يعيدون فيها الأمور إلى ما كانت عليه.

يقول زهر الدين: بعد دراسات واجتماعات كنا نعقدها مع هاني الهندي وفريد زين الدين وغيرهما من العناصر الوحدوية، قررنا إرسال وفد إلى القاهرة لمقابلة جمال عبد الناصر، والتداول معه في الموضوعات العامة والمتعلقة بالأخطاء التي ارتكبت في زمن الوحدة، وكانت طلباتنا تتلخص في: وقف المهاترات الإعلامية، والاعتراف

---

(١) الأسد: الصراع على الشرق الأوسط، لمؤلفه باتريك سيل: ١٠٤ نشر دار الساقي.

بالوضع الحاضر في سورية، ليُصار إلى الانتقال لمعالجة عودة الوحدة على أسس جديدة، وعلى عقد اتفاق عسكري بين سورية ومصر، وتصفية الأمور الإدارية.

شكلنا الوفد من العناصر التي ساهمت بحركة ٢٨ أيلول/ سبتمبر، كما أطلعنا رئيس الجمهورية على القرار، فوافق الرئيس على هذه الخطوة مشترطاً الاجتماع بعناصر الوفد قبل السفر، إلا أن الوفد سافر فجأة دون علمي -زهر الدين- أو علم رئيس الجمهورية.

رفض عبد الناصر معظم الشروط عندما استقبل الوفد السوري في منزله بمنشية البكري، ثم طرد الوفد بأسلوب مهذب، إذ أبلغت السلطات المصرية الوفد السوري أن السلطات السورية أرسلت برقية تطلب عودة الوفد إلى دمشق، وبعد العودة تبين أن القيادة -في سورية- لا علم لها بهذه البرقية(١).

يقول زهير الدين: حسب المعلومات التي نُقلت إلينا بعد انقلاب ٢٨- ٣-١٩٦٢ أن القاهرة كانت وعدت فايز الرفاعي ومهيب الهندي وعبد الكريم النحلاوي بالتعاون والاعتراف، فيما إذا قاموا بانقلاب يطيح بالمجلس النيابي وحكومة الدواليبي ورئاسة القدسي، وفي ذات الوقت، دفعت جاسم علوان والضباط المسرحين للانقضاض على النحلاوي ورفاقه فور قيامهم بالانقلاب للقضاء عليهم انتقاماً من حركة ٢٨ أيلول/ سبتمبر، وهذا هو ما جرى في سورية ما بين ٢٨ أيلول

---

(٢) مذكرات الفريق زهر الدين: ١٦٤-١٦٦ .

و٢ نيسان ١٩٦٢، وكان من نتائجه فشل كل من النحلاوي وجاسم علوان بتحقيق المخطط الذي أملته القاهرة[١].

٣ - قام النحلاوي بانقلاب سجن فيه رئيس الوزراء الدواليبي وعدداً من أعضاء وزارته، وعدداً من النواب، غير أن عصام العطار وأكرم الحوراني ورشاد برمدا لم يكونوا في عداد المعتقلين، وظلوا طلقاء، دون أن يكون لهم سوى إبداء الرأي، أمام العسكر في مبنى الأركان دون أن يكون لهم أي تأثير[٢].

ففي صباح الأربعاء ٢٨-٣-١٩٦٢ أذاع راديو دمشق عملاً أحط من الخيانة وأفظع من الانتحار -حسب تعبير العميد مطيع السمان- عندما أعلن البلاغ رقم ٢٦ وما تلاه من بيانات، فتم خلال الساعات الأولى من فجر هذا اليوم اعتقال رئيس الجمهورية، ورئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الوزراء، وعدد من الوزراء والنواب وكرام الشخصيات العاملين في السياسة والحكم، والذين أفنوا شبابهم في خدمة أمتهم وبلادهم في أقسى ظروف الجهاد والنضال والبناء.

لقد أذاع راديو دمشق بياناً لقيادة الجيش نددت فيه بما أقدمت عليه حكومة معروف الدواليبي والمجلس النيابي التأسيسي من تآمر واستغلال وسوء استعمال، وفي البيان رقم ٢٨ أعلنت القيادة العسكرية حل البرلمان بدعوى أنه عجز عن تحمل المسؤولية[٣].

---

(١) المرجع السابق: ٢٣٢.

(٢) مذكرات خالد العظم ج٣: ٢٧٣.

(٣) مذكرات مطيع السمان: ١٢١-١٢٣.

لقد ظهر أن الاتصالات التي قام بها العميد زهير عقل والعقيد محمد منصور والرائد فايز الرفاعي، ومن ثم الدكتور فريد زين الدين ونهاد القاسم مع عبد الناصر في القاهرة قد أقنعت من بيدهم الأمر من العسكريين على القيام بانقلاب عسكري، ليعيدوا الوحدة مع مصر، بترتيب وتخطيط من فريد زين الدين اللبناني الأصل الذي ينتمي للطائفة الدرزية، والذي حصل على الجنسية السورية، -شأن رئيس الأركان السابق شوكت شقير- والذي كانت خطته بالاتفاق مع القاهرة، ومع النحلاوي الإطاحة بالأوضاع الدستورية وحل البرلمان وتشكيل حكومة ثورية يذهب وفد منها إلى القاهرة حيث يعلنون إعادة الوحدة منها[١].

اعتبرت القيادة انقلاب ٢٨-٣-١٩٦٢ امتداداً لحركة ٢٨-٩-١٩٦١ من حيث إصلاح الاعوجاج، ولذلك أعطت لبلاغاتها رقماً متسلسلاً تابعاً لبلاغات ٢٨ أيلول/ سبتمبر، إذ حمل البلاغ الأول من بلاغات ٢٨ آذار/ مارس ١٩٦٢ الرقم ٢٦، لأن بلاغات ٢٨ أيلول كانت توقفت عند الرقم٢٥ .

جاء في البلاغ رقم ٢٨: لما كان المجلس التأسيسي النيابي لم يقم بالمهمة الموكولة إليه، وقد عجز عجزاً تاماً عن تحمل المسؤولية وتوجيه الحكم، وكل همه تأمين منافع ومصالح أعضائه الشخصية، ولم يسع سعياً صادقاً لتحقيق أهداف ثورة الثامن والعشرين من أيلول التي هي أهداف الشعب مصدر السلطات، لذلك فإن القيادة العامة

---

(١) المرجع السابق: ١٢٤ .

للجيش والقوات المسلحة تعلن حل المجلس التأسيسي والنيابي من تاريخ صدور هذا البلاغ.

قدم رئيس الجمهورية استقالته بدعوى أن أسباباً صحية منعته من الاستمرار في ممارسة مهمات رئاسة الجمهورية، وقد قبلت الاستقالة، كما قدم رئيس الوزراء والوزراء استقالاتهم، وقد قبلت منهم جميعاً[1].

٤- يقول العميد مطيع السمان: ذهبت إلى مكتب اللواء نامق كمال رئيس الأركان، فوجدت عنده العميد مسلم الصباغ، والعميد سمير جبور والعقيد عبد الكريم النحلاوي، فبادرت هذا الأخير بقولي له: إلى متى هذه المهازل؟ خربت البلاد بتصرفاتك الرعناء، قمت بالانفصال دون علم أو موافقة أحد من أصحاب الشأن، وانبرى العميد مسلم صباغ بكلام جارح، أقله: يا خائن، يا مجرم، فخرج النحلاوي من الاجتماع محبطاً.

انفرط عقدنا، وعدت إلى مكتبي، والإذاعات العالمية تتابع أخبار سورية، وتتحدث عن عصيان عسكري في كل من حمص وحلب واللاذقية.

كلفني قائد الجيش زهر الدين بالسفر إلى اللاذقية، مع العميد دهمان والعميد صبري السيد، كما كلف العميد مسلم صباغ بالذهاب إلى حلب مع العميد عصاصة، لاستطلاع الموقف فيهما، لأن عصياناً

---

(١) مذكرات زهر الدين: ٢٠١-٢٠٢ .

عسكرياً وقع في حلب وحمص، فطلبت من الضباط في اللاذقية إبداء آرائهم، فاعترضوا على كل ما حدث من سلسلة الانقلابات، وزج قادة البلاد في المعتقلات.

وقد تعززت هذه الفكرة لديّ عندما ذهبت إلى حمص، فكان الضباط معلنين العصيان، استنكاراً لما قام به النحلاوي ومجموعته من تصرفات أضرت بسمعة الوطن واستقراره، وعندما عاد الجميع إلى دمشق، واجتمعنا في مكتب قائد الجيش كانت استطلاعات الجميع واحدة، فتقرر عقد مؤتمر عسكري لقادة المناطق والقطعات المسلحة في حمص للوقوف على أسباب هذه العصيانات.

كان النحلاوي يجلس خلفي في مكتب القائد العام، دون أن أنتبه إليه، فسحب بلطف سترتي، وقال: لقد دمرتنا يا سيدي، فدفعت يده بيدي دون جواب مني. أشار زهر الدين إلى الهاتف قائلاً: تفضل، فطلبت من عامل المقسم وَصْلي بقادة المناطق تباعاً، فأبلغتهم أن اجتماعاً يعقد لممثلي المناطق والوحدات العسكرية غداً مساءً في الساعة الخامسة بنادي الضباط في حمص، للتداول في أمور الجيش[1].

٥- عقد المؤتمر بنادي ضباط موقع حمص برئاسة قائد القوات الجوية اللواء وديع مقعبري، وبعد مداولات بين الضباط قادة المناطق والقطعات المسلحة، أقر المؤتمر التوصيات التالية:

---

(١) مذكرات السمان: ١٢٥-١٢٧.

أ- إبعاد الضباط: عبد الغني دهمان، وعبد الكريم النحلاوي، وعادل حج علي، وممدوح حناوي، ومهيب الهندي، وبسام العسلي عن سورية، وكلهم من ضباط حركتي ٢٨-٩-١٩٦١ و٢٨-٣-١٩٦٢ .

ب- إعادة تشكيل قيادة الجيش.

ج- دراسة خطوات عودة الوحدة مع مصر.

د- تشكيل حكومة جديدة.

دخل علينا مهيب الهندي في مكتب الجيش معترضاً على قرار إبعاده، وأقسم أنه كان لا ينام الليل شعوراً بذنب الانفصال، وأنه ورفاقه قاموا بالاعتقالات الجديدة لأعضاء الحكومة وكبار رجال السياسة بالاتفاق مع القاهرة من أجل إعادة الوحدة معها.

لقد حضر المؤتمر لواءان وعشرة عمداء، وتسعة عشر عقيداً، وأربعة مقدمين، وثلاثة رواد، ونقيب واحد. يقول السمان: وقد مثلت فيه وزارة الدفاع وقيادة منطقة دمشق بآن واحد. ويقول: إن زهر الدين يزعم في الصفحة ٢١٢ من مذكراته أنه اتصل هاتفياً بقائد منطقة حمص، وأنه أبلغه بأنه سيوعز بعقد مؤتمر عسكري في حمص هو ادعاء باطل لا يؤيده دليل مع الأسف[1].

زعم اللواء زهر الدين أنه تمكن من جمع المعلومات عن هذا العصيان بعد فترة طويلة ومنها: أن العناصر التي تعاونت في سبيل تحقيقه كانت مؤلفة من العناصر الناصرية برئاسة العقيد المتقاعد

(١) مذكرات مطيع السمان: ١٢٨-١٢٩ .

جاسم علوان، ومن العناصر البعثية والاشتراكية التي كان النحلاوي قد أخرجها من الجيش، ومن العناصر الانتهازية والنفعية الناقمة في عهد الانفصال ومن السفارة الأمريكية في دمشق كما علمنا أن الممول والمخطط المستتر كان أمريكا، أما المخطط والممول الظاهر فكان القاهرة.

وقد دلت مباحثات الوحدة التي أجريت في القاهرة بعد حركة ٨ آذار ١٩٦٣ على صدق ذلك إذ اعترف عبد الناصر بأنه وضع مبلغاً ضخماً من المال تحت تصرف الأستاذين عفلق والبيطار لمقاومة العهد -عهد الانفصال- في سورية، وثمة معلومات تحتاج إلى تأكيد بأن القاهرة اتفقت مع عناصر النحلاوي -فايز الرفاعي ومهيب الهندي وغيرهما- على حركة ٢٨ آذار ١٩٦٢ التي أطاحت بالمجلس النيابي، كما اتفقت في الوقت نفسه مع جاسم علوان وأنصاره على مقاومة الذين سيقومون بحركة ٢٨-٣-١٩٦٢[١].

قام جاسم علوان ولؤي الأتاسي بتحريض مجموعات من الجيش في حلب، ففشلت حركتهما، فهرب جاسم علوان، واستسلم لؤي الأتاسي.

رابعاً: محاولة إعادة الوحدة

بعد فشل إعادة الوحدة بانقلاب ٢٨-٣-١٩٦٢ تكتل أفرادٌ ومجموعات من تنظيمات ومشارب متباينة، ضمت مدنيين

---

(١) مذكرات زهر الدين: ٢٠٨-٢٠٩ .

وعسكريين، متقاعدين ومسرحين، اتفقوا على القيام بانقلاب يطيح بالجمهورية العربية السورية، بدعم مادي ومعنوي من السفارة المصرية في بيروت، بشخص أحد دبلوماسييها محمد نسيم، ورجل المخابرات سيئ الذكر نجيب جويفل. كانت الخطة تشمل: برنامج التحرك العسكري في أمن دمشق، والشرطة العسكرية وشعبة مخابرات الجيش، والتحاق العسكريين المتقاعدين والمسرحين بوحدات عسكرية محددة، وقطع الاتصال الهاتفي، والسيطرة على مبنى الإذاعة والتلفزيون ومقر قيادة الجيش وسراي الحكومة، واعتقال بعض العسكريين والمدنيين المحددة أسماؤهم، ومن ثم إذاعة البلاغ رقم (١)، وإغلاق الموانئ والمطارات ومنع التجول، وإذاعة برقيات التأييد، وتشكيل حكومة الجمهورية العربية المتحدة، وكان التنسيق بين الانقلابيين ومجموعة النحلاوي قائماً في ألمانيا.

١- أحطنا بتفصيلات الخطة الانقلابية، فعقد مجلس الأمن السوري المشكل من رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزراء الداخلية والخارجية والمالية وقائد الجيش ورئيس الأركان ورؤساء شعب القيادة وشؤون الضباط، فتقرر اعتقال عدد من رؤوس الحركة[١].

في هذه الأثناء استلم العميد مطيع السمان قيادة قوى الأمن الداخلي في سورية، ووظيفة أمين عام لوزارة الداخلية لشؤون الشرطة والأمن في ٥-٤-١٩٦٢ منتدباً من وزارة الدفاع في ظل ظروف أمنية

---

(١) مذكرات السمان: ٢٠٣-٢٠٦ .

مضطـربة هيمنـت منذ فجـر ٢٨-٣-١٩٦٢، وكان القدسـي والكزبري والدواليبي والحفـار والعظم والعسلي والكيخيا وعـدد كبير من الوزراء والنواب في سجن المزة العسكري[١].

بعد فشـل إعادة الوحدة بانقلاب ٢٨-٣-١٩٦٢ عـلى أيدي الذين فصلوها، وبعد فشل إعادتها على أيدي الناصريين الذين قاموا بعصيان حلب، جنح الضباط إلى عودة ناظم القدسي إلى الرئاسة، فاشترط أن يستـعيد المـجلس النيـابي صلاحيـته لفتـرة محدودة -ليكـون حله من ذاته، وليس بقـرار عسكري، كمـخرج دستوري- وأن يكون لـمجلس الوزراء سلطات تشريعية وتنفيذية لحين إجراء انتخابات جديدة.

عاد القـدسي إلى الرئاسة بعد الإفـراج عنه في ٣١-٤-١٩٦٢[٢]، أي بعـد زجه في السـجن ستـة عشر يومـاً، فعـهد إلى الدكـتور بشـير العظمة برئاسة الـوزارة، وكلفه بتشكيلها بعد مشـاورات استمرت ثلاثة أيام، فصدرت مراسيم تشكيلها على النحو التالي:

الدكـتور بشيـر العظمـة رئيسـاً للوزراء، أحمـد عبد الكـريم وزيراً للشـؤون الاجتـماعيـة والعـمل والإصلاح الزراعـي، رياض الميـداني وزيراً لـلشؤون الـبلديـة والقروية والتـمويـن، عدنان الأزهـري وزيراً للخـارجية، رشـيد حمـيدان وزيراً للـعدل والأوقاف، صـبحي كحـالة وزيراً للمـواصلات والتخـطيط، عبد السـلام العجيـلي وزيراً للثقـافة،

---

(١) المرجع السابق: ١٤٣ .

(٢) المرجع السابق: ١٥٣ .

نهاد السباعي وزيراً للاقتصاد، إحسان الرفاعي وزيراً للصحة، عبد الحليم قدور وزيراً للداخلية، روبير إلياس وزيراً للصناعة والأشغال العامة، عبد الله عبد الدايم وزيراً للإعلام، اللواء عبد الكريم زهر الدين وزيراً للدفاع، وقد استقال عدد منها بعد أسبوعين أو أسبوع من تشكيلها.

لم يمض على تشكيل وزارة بشير العظمة سوى شهرين من ١٦-٤-١٩٦٢ وحتى ٢٠-٦-١٩٦٢، حتى كلف بإعادة تشكيلها على النحو التالي:

بشير العظمة رئيساً للوزراء، رشاد برمدا نائباً للرئيس ووزيراً للتربية، رياض الميداني وزيراً للشؤون البلدية والقروية، رشيد حميدان وزيراً للعدل والأوقاف، جورج خوري وزيراً للمالية والاقتصاد، صبحي كحالة وزيراً للمواصلات والصناعة، عبد السلام العجيلي وزيراً للإعلام، إحسان الرفاعي وزيراً للصحة، روبير إلياس وزيراً للصناعة والأشغال العامة، اللواء زهر الدين وزيراً للدفاع، جمال الفرا وزيراً للخارجية، عزيز عبد الكريم وزيراً للداخلية، عبد الوهاب العود وزيراً للزراعة، رفعت زريق وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل، أحمد عبد الكريم وزيراً للإصلاح الزراعي.

لم يأت العظمة بجديد، ولم يستطع أن ينهض بالعبء الثقيل، أو أن يقف في وجه الموجة الناصرية العاتية، مع أنه محسوب على اليسار من دون أن يكسب اليسار، وقد جامل الناصريين وداراهم دون أن يكسب ودهم. وقد وقف الإخوان ضد وزارته التي لم تُقم للتيار

الإسلامي وزناً، فجاء الـهجوم عليه وعلى وزارته من الجمـاعة صاعقاً عبر التصريحات والبيانات والخطب المنبرية، ولاسيما خطب المراقب العام الأسـتاذ عصـام العطار من فـوق منبر مسـجد الجامـعة، موجـهاً الإنذارات والتهـديدات ضد الوزارة، مطالباً الـعظمة بالاستقـالة ضمن فترة زمنية مـحددة، فكان لموقف الإخوان وحلفائهم، وللـعلماء تأثير ملموس في تقويض دعائم الوزارة التي كانـت تفتقر إلى السند الشعبي والحزبي والفئـوي، كذا لـم يكسب العظمة ود التيـار الاقتصادي الذي يشمل التجار والصناعيين في سورية ولاسيما في مدينة دمشق.

لقد جاء بيان وزارة بشـير العظمة كالوصفة الطبية لـمعالجة الوحدة الوطنية والوحـدة العربية!! وبالرغم من الـمجاملة الواسعة الـتي أبدتها وزارة العظمة لمصر ولرئيسها عبـد الناصر، واستعدادها الكبير للوحدة أو لعودة سـورية إلى الوحدة مـع مصر، فإن الـقاهرة قابلـت ذلك كله بهجوم إذاعـي حامي الوطيس، وبمقال الأسـتاذ محمد حسـنين هيكل الأسبوعي في الأهرام، اعتبر فيه حكومة العظمة غير صالحة -مؤهلة- للمباحثات مع القاهرة، مع أن الوزارة ظلت علـى موقفها وتصميمها، والاستمرار في مساعـيها لتعود المياه إلى مجاريهـا بين سورية ومصر، ومن ذلك أنها شكلت لجنة موسعة مـن رجال السياسة الكبار بموجب مـرسوم، ضـمت الـسادة: أكـرم الحـوراني وصـلاح البـيطـار وراتب الحسامي وعبد الوهاب حومد وعلي بـوظو ونهاد القاسم وعبد الصمد الفتيح وهاني الهندي وأسعد كورانـي وعصام العطار وغيرهم، غير أن هذه اللجنة فشلـت في تحقيق الهدف الذي كانت تصـر عليه في علاج

الوضع حول الوحدة بين مصر وسورية دون أن يكتب لها أي نجاح. وفي خضم هذا الاضطراب السياسي واختلاط الأوراق، نلحظ أمرين أو نقطتين مهمتين:

أولاهما: أن الإخوان كان لهم دور سلبي مؤثر على حالة البلاد، دون أن نلمس المواقف الإيجابية لإنقاذ الوطن من الهاوية التي يوشك أن يتردى فيها، شأن الأحزاب السياسية الأخرى، ومحترفي العمل السياسي في عجزها.

وثانيتهما: أن الهدف الاستراتيجي للقاهرة حيال سورية الثابت هو نسف الحكم من جذوره دونما تساهل أو تراجع أو تعديل.

٢- كان وضع البرلمان محرجاً، فالعسكريون الذين أصدروا أمراً بحله لا يتحملون عودته، وكان القدسي يلتمس طريقة دستورية بحله، وذلك بتقديم أعضائه النواب استقالاتهم، ليكون الحل بإرادة المجلس نفسه، فاجتمع فريق من النواب المستقلين، ومن نواب الإخوان ووضعوا مذكرة وجهوها إلى رئيس الجمهورية، بعد أن طافوا المدن السورية، وعادوا بتوقيع مئة نائب، يطالبون فيها بإعادة الحياة الدستورية، وعودة مجلس النواب إلى إكمال مدته، وتأليف حكومة دستورية.

ذكر خالد العظم: أن النواب رغبوا باللقاء به بعد أن حملت مذكرتهم تواقيع صبري العسلي وعصام العطار ورشاد برمدا وسائر وزراء الحكومة وعدد من زعماء العشائر ونواب المحافظات، فقلت لهم: من الأفضل دعوة الناخبين من جديد، وعندما أصر كل منا على

رأيه، قررنا إرسال رفيق بشور نائب رئيس المجلس ومعه أعضاء مكتبه ليسلموا المذكرة إلى رئيس الجمهورية.

تم الاتفاق كحل وسط بين الحكومة الدستورية والعسكريين أن يعقد النواب جلسة واحدة -خارج البرلمان- في فندق الخوّام -أوريان بالاس- يقدمون فيها استقالاتهم، ليحلوا مجلسهم، ليكون زوال البرلمان أو إنهاؤه دستورياً، وبإرادة منه، وقد كان ذلك، وتم حل البرلمان بإرادة أعضائه.

خامساً: الهجمة الناصرية الكاسحة

شرعت القاهرة بشن هجوم كاسح متعدد الجبهات على نظام الحكم في دمشق لتقويضه والقضاء المبرم عليه، بالتعاون مع القوى الداخلية في سورية، ومع الناصريين في لبنان، ومع القوى الخارجية، والتنسيق مع عدد من الدول ذات النفوذ في منطقة الشرق الأوسط التي ترى في عبد الناصر منقذاً لسورية من الزحف الشيوعي على دمشق والسيطرة على سورية، ومن ذلك:

١- جاء في تقرير بعث به النقيب محمد الحجار الملحق العسكري في السفارة السورية في واشنطن بتاريخ ٢٥-٤-١٩٦٢، ورد فيه: إن أمريكا ترى أن الأصابع الشيوعية لا تمتد إلا عند اختلال السلطة، ولذا ترى أن أي اضطراب يحدث في البلاد العربية لا يستفيد منه إلا الشيوعيون، وإذا كان حل القضية الفلسطينية مستحيلاً، فليكن هناك هدوء وسلم دائمان، وهذا ما يتفق مع هدف أمريكا ورغبة إسرائيل.

وجاء في التقرير: إن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تنظر إلى عبد الناصر بعد تأميم قناة السويس، وصفقة الأسلحة مع الاتحاد السوفياتي أنه يجنح لليسار، ولكن بعد قيام الوحدة التي تشكل حدودها ثلثي الحدود مع إسرائيل، وسيطرة عبد الناصر التامة على الأوضاع، والقضاء على خصومه، وأنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في الجمهورية العربية المتحدة، وبعد توتر العلاقات بينه بين روسيا إثر ثورة الشواف في العراق، غيّرت أمريكا سياستها تجاهه، وبدأت تستميله لجانبها، فقدمت له قرضاً في اليوم الذي هاجم فيه روسيا من مدينة بور سعيد، بما يعادل ٧٠٠ مليون دولار بفائدة قدرها ٣٪، تسدد خلال ثلاثين عاماً، وتبنت أمريكا سياسة استمالة عبد الناصر على الأسس التالية:

أ- إن عبد الناصر يملك شبكة من المخابرات في البلاد العربية وبعض الدول الإفريقية، يصرف عليها أموالاً طائلة، ولديه -بالتالي- فئات مناوئة للحكام، وامتداد نفوذه على هذه البلاد لإخضاعها إلى سلطانه.

ب- إن عبد الناصر بعد العدوان على مصر عام ١٩٥٦، وتمسكه بقوات الطوارئ الدولية على حدود إسرائيل، وتسليمه شرم الشيخ إلى اليهود، وغير ذلك من الأفكار أقنعتهم أن عبد الناصر لا يريد حرباً مع إسرائيل. . إلخ.

إزاء هذه الأهداف أو السياسات، تقارب عبد الناصر من أمريكا، وجرى اتفاق سري بين الفريقين على أساس أن تترك أمريكا لعبد

الناصر مطلق الحرية في أن يتصرف في بلاده مصر، وفي البلاد العربية، مقابل أن يجمد عبد الناصر مشكلة فلسطين كخطوة أولى لحلها. وإن السفير السوري عمر أبو ريشة في واشنطن على اطلاع تام بهذا الاتفاق السري، وكذلك المستشار الدكتور عزيز علوني حينما كان سكرتيراً لسفارة الجمهورية العربية المتحدة إبان الوحدة، كما تضمن الاتفاق التغاضي عن تحويل مجرى الأردن، مع الإبقاء على سياسة الحرب الدعائية بين مصر وإسرائيل... إلخ[1].

تُرى، هل حدث هذا التقارب بين أمريكا وجمال عبد الناصر هكذا جراء جملة مواقف وأحداث وقرارات وسياسات كما يذكر زهر الدين على لسان ملحقه العسكري في واشنطن محمد الحجار؟!! وما قيمة الدراسات والبحوث التي ذاعت وانتشرت عن مثل هذا التقارب قبل قيام انقلاب ٢٣-٧-١٩٥٢ ضد الملكية في مصر؟ وأين يقع موقف أو دعم أمريكا لمصر ضد العدوان الثلاثي، وإنذارها لدوله -إنكلترا وفرنسا وإسرائيل- بوجوب الانسحاب من بور سعيد وضفاف القنال، وإنهاء الاحتلال؟ وأين عشرات الكتب التي نشرت وتحدثت عن تفصيلات هذه العلاقة، بما لا يتسع الحديث عن مراجعها وكتّابها، وما تضمنته من وثائق عن حرب القنال؟

أمسك عن إصدار الأحكام في هذا الموضوع الشائك والخطير، إلى المختصين والباحثين، وكذا للتاريخ ليقول كلمته القاطعة والفاصلة، وليكشف عن خفاياها وأسرارها.

---

(١) مذكرات زهر الدين: ٢٧٦ .

٢ـ أورد كذلك زهر الدين تقريراً آخر عن الملحق العسكري في السفارة السورية في عمان عدنان عقيل حول وجهة النظر الأمريكية جاء فيه: إثر ما حدث في سورية من عصيان عسكري في حمص وحلب قمت بزيارة الملحق السياسي في سفارة ألمانيا الاتحادية، للاستطلاع منه على وجهة النظر الأمريكية التي تحيط بها ألمانيا الاتحادية -باعتبارها حليفة لأمريكا ومتعاونة معها- فتحدث عن موقف أمريكا من القضية الفلسطينية، ثم ذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية ترى في عبد الناصر عنصر الاستقرار الوحيد الذي يستطيع -بعد تحقيق الوحدة، وتنظيم الجهاز الداخلي- أن يفعل ما يراه العرب في صالحهم، ثم ذكر الملحق السياسي في سفارة ألمانيا الاتحادية في عمان: أن لديه معلومات أن هناك انقلاباً يحضَّر في سورية، حيث إن الأغلبية من الشعب ترغب في الاستقرار، ولا يمكن تحقيق هذا إلا بحكم جمال عبد الناصر، فسألته: ما هو رأي الحكومة الألمانية، ورأي الولايات المتحدة الأمريكية في حال قيام هذا الانقلاب الذي تتحدث عنه؟ فأجاب: إن أمريكا ترى في جمال عبد الناصر عامل استقرار في الشرق الأوسط، وحائلاً دون تسرب الشيوعية إلى المنطقة، ولهذه الأسباب تقوم أمريكا بدعمه اقتصادياً بالقروض والمعونات، وربما أمكن -فيما بعد- حل القضية الفلسطينية، وقال: إنه -أي الملحق السياسي الألماني- اتصل بسفاراتهم في موسكو وصوفيا وتيرانا، وفهم أن هناك حوالي مئة سوري من الشيوعيين يزمعون العودة إلى سورية كدعاة للعقيدة

الشيوعية، وإن وجود نظام وحدوي بيد جمال عبد الناصر سيقطع الطريق على هؤلاء(١).

٣- من المفارقات المثيرة للاستغراب والاندهاش أن النحلاوي الذي أقصى عدداً من زملائه ورفقاء دربه ومشاركيه في أحداث ٢٨ أيلول، وزج عدداً منهم في السجن متهماً إياهم بالتعاون والاتصال مع الأردن، كما فعل بحيدر الكزبري، وكما فعل بالعميد فيصل الحسيني وشقيقيه زهير وهشام وغيرهم بتهمة الاتصال بعمان، وكما كان موقفه من مأمون الكزبري الذي أجبره على الاستقالة من رئاسة الوزارة بذات التهمة، إذا به بعد إقصائه عن مراكز السلطة والحكم، وتجريده من نفوذه الكبير في عهد الانفصال إثر مؤتمر حمص العسكري، إذا به يتلمس النصرة من الأردن، ويستنجد بقوات أردنية لإفشال إبعاده ولإبقائه في موقعه في الجيش السوري!!(٢).

أية حماقة أكبر من هذا الذي أقدم عليه ضباط ٢٨ أيلول ١٩٦١، وعلى رأسهم عبد الكريم النحلاوي؟ لم يجدوا من ينقلبون عليه، فانقلبوا على أنفسهم، وعلى الإساءة لكبار الساسة وشيوخ الوطنية الذين دعموهم ووقفوا معهم في ساعة العسرة، معرضين أنفسهم للمخاطر والصراعات المؤلمة، فإذا بالضباط يعقدون صفقة سرية مع القاهرة لطردهم، وزجهم في السجن، وتوجيه الاتهامات الهابطة لهم؟ كيف قادتهم عقولهم وهداهم تفكيرهم إلى أن عبد الناصر سيكون

---

(١) مذكرات زهر الدين: ٢٧٣-٢٧٤ .

(٢) مذكرات مطيع السمان: ١٣١ .

جاداً وصادقاً بالتعاون معهم، وهم الذين تمردوا عليه قبل ستة أشهر، وأحرجوه أمام العالم كله، وأطلقوا النعوت ضده من فوق المنابر، ومن خلف ميكرفون الإذاعة وعبر شاشات التلفزيون؟ كيف تنطلي عليهم هذه الصفقات السرية التي أبرموها من وراء رئيس الجمهورية والوزارة وكبار رجال الدولة؟

التقيت ذات أمسية بالعقيد عبد الكريم النحلاوي في الرياض حيث يقيم ويعمل في إحدى الشركات، واستمر اللقاء حتى الفجر عن طريق الأخ م. ز، وكانت الأحاديث كلها حول سورية والكوارث التي حلت بها، وكيف يكون إنقاذها، وقد لفت نظري وأثار دهشتي سؤال قاله لي: ما هو طريق أو برنامج الخلاص؟ قلت: أليس من العجيب أن يسأل عسكري مختص بتنظيم الجيوش مدرساً للعربية عن أمر عسكري بالغ التعقيد؟!

إن تدخل العسكر في سورية بالشأن السياسي، وفرضهم الوصاية على الساسة الكبار، وتركهم الحدود مع العدو، لدخول العاصمة وهدم الحياة السياسية فيها، واعتقال رجالاتها، وتسلطهم على شؤونٍ للبلاد والعباد يجهلونها، ولم يسبق لهم أن مارسوها، وتعريض سمعة الوطن للمهانة، وزعزعة استقرار المجتمع، وما ينشأ عن ذلك من تخلف اقتصادي وهروب رؤوس الأموال، وتدخل الدول الكبرى عِبر أجهزة مخابراتها، وشراء الذمم وغير ذلك من المفاسد التي لا تنقضي، عمل سيئ وخسيس، يهبط بفاعليه إلى درك الجرائم الكبرى وخيانة الملة والأمة والوطن العزيز!! وصدق عليه الصلاة والسلام:

إذا وُسِّدَ الأمر لغير أهله فانتظر الساعة.

يقول السمان قائد الأمن الداخلي عن هذه الفترة المضطربة من تاريخ سورية: كانت السفارتان الأمريكية والسوفياتية تقومان بنشاط واسع، فكان مورفي القنصل العام للسفارة الأمريكية في حلب -وهو الذي أمسى مساعد وزير الخارجية الأمريكية فيما بعد، ولعب دوراً كبيراً في سياسة الشرق الأوسط- يوزع صور الرئيس جمال عبد الناصر بسيارته الرسمية، لإثارة المسلمين والمسيحيين على بعضهم، لأنهم كانوا في موقفين متعارضين تجاه عبد الناصر، وعندما حَدَّثْتُ السيد خالد العظم آخر رئيس وزارة في عهد الانفصال عن نشاطات مورفي التي حدثت قبل أشهر من استلامه، رغب السيد العظم بأسلوبه الخاص دون إصرار أو طلب خطي من السفارة الأمريكية في دمشق بنقل هذا القنصل من سورية لسوء تصرفه[١].

كان الحكم في عهد وزارة بشير العظمة في فراغ، كما كانت الأيدي الخبيثة -حسب تعبير السمان في مذكراته- تحرض القوات المسلحة وبعض فئات الشعب للعمل على نسف السلطة وهدم الحكم، وعندما تقدم بعض المسؤولين باستقالاتهم، بتحريض ممن دأبوا على تقويض كيان الدولة، ذكر بشير العظمة في ص٢٣٨ من مذكراته، أن من يستقيل، يقدم له ضمان بوضع رصيد باسمه في مصرف سويسري ليطمئن على مستقبله ومستقبل أبنائه، حسب أقوال

---

(١) المرجع السابق: ١٣٤ .

بشير العظمة رئيس مجلس الوزراء[1].

٤- تصاعدت حدة الصراع على السلطة في سوريا، والسعي الحثيث على تقويض عهد الانفصال بدوافع متباينة، فقد كان كل من الناصريين واليساريين وبعض الأقليات والعسكريين يدلي بدلوه، ويسابق الآخر، لإزاحة الحكومة واستلام مقاليد السلطة في سورية، وكان للاشتراكيين بزعامة الحوراني نشاط محموم في هذا السياق، فقد لجأوا إلى زرع الفتنة، واستخدام المتفجرات في مراكز نفوذهم أسلوباً لزعزعة الاستقرار ونشر الفوضى في ربوع الوطن، فقد كان سكان مدينة حماة -كما يقول السمان في مذكراته- في صراع دائم بين الاشتراكيين الموالين لأكرم الحوراني، وبين خصومهم من الملاكين، ومن ذوي الاتجاهات الإسلامية.

في ذات مساء دوّى انفجار قوي في مدينة حماة تجاوبت أصداؤه في كل أنحاء المدينة، وسمعه كل سكانها، فخرج الناس من بيوتهم يستطلعون أنباء ذلك التفجير، فعلموا أنه وقع في مقهى الروضة، أجمل مقاهي المدينة وأكثرها اتساعاً والمطل على نهر العاصي، وشاع في المدينة أن مظاهرة خرجت للتو تهتف ضد الناصريين والإخوان المسلمين، وصادف أن فضيلة الشيخ عبد الله الحلاق أمين سر جمعية العلماء في المدينة ورئيس مركز الإخوان المسلمين فيها كان يمشي في الشارع القريب من المقهى، أو أن المتظاهرين تحينوا فرصة مروره، فاعتدوا عليه وعلى من كان برفقته، ولم تمض ساعات على هذا

(١) المرجع السابق: ١٨٠ .

الحدث المثير للقلق، حتى شاعت في المدينة أن الاشتراكيين من أنصار الحوراني كانوا وراء التفجير، وأن بعض أعضاء الحزب هم الذين نفذوا هذه الجريمة النكراء التي أوقعت قتيلاً وعدداً من الجرحى، بل إن المواطنين حددوا أسماءً بأعينهم من فتوات الحزب كانوا المنفذين لهذا العمل النكير.

أما الحكومة فقد اعتبرت هذا السلوك تحدياً سافراً لهيبتها وسلطتها وأمنها وأجهزتها العسكرية والأمنية، وأولت الموضوع كل اهتمامها، واستنفرت أجهزتها، مصممة على الكشف عن المجرمين الفاعلين، ولما ترجح لدى الأمن السوري أن جماعة وحزب الأستاذ أكرم الحوراني هم الذين ارتكبوا عملية التفجير، ذكر قائد الأمن الداخلي: أن الحورانيين قد تفتق تفكيرهم عن صنع متفجرة، ووضعها في مكان مزدحم، واتهام خصومهم بها، لتنكيل السلطة بهم.

يقول العميد السمان: هتف إلي رئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي من مصيفه في الزبداني، وأمرني بالسفر إلى حماة الليلة للإشراف المباشر على التحقيق الذي بدأ للتو في جريمة التفجير، ثم هتف ثانية، وطلب أن يكون سفري برفقة اللواء عزيز عبد الكريم وزير الداخلية، وتكرر الاتصال ثالثة، ليخبرني أن يكون وزير العدل الأستاذ رشيد حميدان معنا في السفر، وهو من حماة ومحسوب على الأستاذ أكرم الحوراني[1].

---

(١) المرجع السابق: ١٨٧ .

وصلنا إلى حماة، وتوجهنا نحن الثلاثة إلى مكتب المحافظ الذي شرح لنا الحادث والإجراءات المتخذة من قبله، فقال: في مغرب أمس، وفي داخل مقهى الروضة الصيفي على نهر العاصي الذي يؤمه شباب مدينة حماة من كل الفئات، وكان من عادة الاشتراكيين أن يجلسوا في مقدمة المقهى، وأن يجلس الآخرون أمام الطاولات الخلفية، ويومها بكّر الاشتراكيون واحتلوا الطاولات الخلفية، وتركوا الأمامية لغيرهم -القريبة من الشارع- وبعد حين من جلوس رواد المقهى حصل انفجار في مقدمة المقهى، أصاب كثيرين بجروح متفاوتة، منها البليغ ومنها الطفيف، وفور وقوع الانفجار تجمهر الاشتراكيون، وقاموا بمظاهرة كان متفقاً عليها مسبقاً، وهتفوا خلالها بهتافات معادية للناصريين وللإخوان المسلمين، واتهموهم بزرع المتفجرات بين الناس، وأن هذا الحادث من صنعهم، وبعد التداول اتفقنا نحن الأربعة -وزير الداخلية، ووزير العدل وقائد الأمن الداخلي والمحافظ- على استقدام محقق كفؤ حيادي من دمشق، لم يسبق له الانغماس في مشاكل حماة، فوقع الاختيار على المحقق الأمني الضابط محمد تنير[1].

يقول العميد السمان: أعطيت التعليمات المشددة والصريحة إلى المحقق الأمني المستقدم من دمشق أمام الجميع: إننا نريد الحقيقة مهما كان لون وصفة من تطاله، ثم غادرنا حماة، وعدنا إلى دمشق، وتركنا المحقق يتابع مهمته.

---

(١) وطن وعسكر للسمان: ١٨٨ .

مرت أيام على مغادرتنا حماة، وكان عدد الموقوفين غير قليل، والمراجعات من أجلهم كثيرة، إلى أن اتصل بي المحقق طالباً السماح له بالمجيء إلى دمشق، لإطلاعي على ما وصل إليه، وعند حضوره أطلعني على ضبوط التحقيق، وفيها شريط مسجل، ولدى قناعتي بها أطلعت وزير الداخلية، ومن ثم رئيس الجمهورية الذي فوجئ بها، لأنها تطال من عرفوا بانتمائهم للحوراني، فقال لي الرئيس: اذهب إلى الحوراني وأطلعه عليها، فلما شخصت إلى داره في حي القصور بدمشق في أول اتصال لي معه، وأطلعته على ما لدي، قال: الأمرمختلط عليكم، أنا أعرف جماعتي وأثق بهم، وليس من الممكن أن يُقدموا على عمل من هذا النوع، أرى أن تقوم أنت بنفسك بالتحقيق.

تباحثت مع وزير الداخلية، فطلب مني استقدام الموقوفين الذين طالتهم الأدلة والتحقيقات، فاستقبلتهم ليلاً في مكتبي مع المحقق، فقلت لهم: لقد حصل ما حصل، تأكدوا بأن أحداً لا يستطيع إنقاذكم، وإني أعدكم بكل شرف بأن أكون بجانبكم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، شفقة على أهليكم وعيالكم عندما تصدقوني بأقوالكم، وتعلموني بالحقيقة[1].

فانفجر أحدهم باكياً، وهو من بيت كزكز قائلاً: الله يخرب بيتك يا فلان، وقد سماه، وهو من أكبر سياسيي حماة، ثم سرد تفصيلات الموضوع قائلاً: بأنه استُقدِم مع آخرين إلى مقر الحزب، وطلب إليه

---

(١) المرجع السابق: ١٨٩ .

صنع متفجرة لوضعها في داخل مقهى الروضة، وعند انفجارها يقومون بمظاهرة يتهمون بها الناصريين والإخوان لتكون سبباً في بطش السلطة بهم، ثم تتالت الاعترافات التي جاء بها: كيف تم صنع المتفجرة تفصيلاً في أحد البساتين، وما احتوته من مادة ت. ن. ت، ومن مسامير وبرادة حديد، وقطع صغيرة من الزجاج في صحن ألمنيوم، وكيف وصلوه بفتيل بطيء الاشتعال، مما أدى إلى انفجارها، وكان ما كان من إصابات. لقد عرف المحقق أداة الجريمة ومصدرها، ومن أين أتى بها المنفذون، فجابه بها الموقوفين الذين اعترفوا بفعلتهم، ووقعوا على ذلك.

أطلعت وزير الداخلية، فذهبنا جميعاً إلى سجن الشيخ حسن، واستمع الوزير إلى المتهمين، فاعترفوا له اعترافاً كاملاً بعملهم، وأنهم نادمون وناقمون على الذين ورطوهم، ثم توفي أحد الجرحى، فكان الحل الأمثل هو تسليم المتهمين إلى القضاء، ليقول كلمته بهم[1].

كان الوزراء الاشتراكيون ومعهم النفوري يريدون إنقاذ المتهمين في تفجير قنبلة حماة، وإطلاق سراحهم من السجن الذي دخلوه بموجب قانون الطوارئ، على عكس ما قرره وزير الداخلية وقائد قوى الأمن الداخلي من إحالتهم إلى القضاء العسكري كما مر آنفاً[2].

ها نحن أولاً نرى أنه بعد أن فعل أعوان الحوراني فعلتهم في

---

(١) المرجع السابق: ١٩١ .

(٢) المرجع السابق: ٢٨٠ .

تفجير القنبلة التي أدت إلى قتل وجرح عدد من الأبرياء، وبعد أن اعترفوا تفصيلاً بالجريمة ووقعوا عليها، أنكر الحوراني عملهم، ودافع عنهم، واعتبرهم أبرياء، وحاول طمس الجريمة، مدعياً بأن جماعته لا يقدمون على مثل هذا العمل الإجرامي، وأنه يعرفهم ويثق بهم. إنه أنكر الحقيقة الماثلة للعيان، كما ينكر ضوء الشمس في وضح النهار.

كان الله مع الساسة والأحزاب الأخرى، بل وكثير من أعضاء حزبه مما عانوه من مواقفه وتصرفاته، ومن مكابراته في كثير من الأمور التي يراها كل ذي عينين. أما مصير من ارتكب حادثة التفجير في حماة، وأوقع قتلى وجرحى، فإن الحوراني ومن معه من قيادة حزبه، ومن كان يشايعه في سياسته العدوانية كالنفوري الذي تقلب بين التيارات السياسية، كتيار العظم والتيار الناصري، والتيار الانفصالي وتيار الاشتراكيين، ظلوا يسوفون ويماطلون في القضية حتى انتهى العهد كله وأفلت القتلة الاشتراكيون من العقاب ومن عدالة القضاء.

سادساً: محاولة الناصريين الانقلابية

تلقت شعبة المخابرات معلومات تفيد بما يعده الناصريون في سورية بدعم من القاهرة لإحداث انقلاب في ذكرى الثورة في مصر ٢٣-٧-١٩٦٢، وقد سعى الناصريون إلى التعاون مع البعثيين والوحدويين والقوميين العرب ومن والاهم، ثم سعوا إلى ضم عناصر من مؤيدي النحلاوي، مستغلين استياءه من إقصائه عن الجيش، وإبعاده خارج سورية.

حاول بعض الانقلابيين استمالة الملازم الأول صفوان جبري مرافق قائد الجيش عبد الكريم زهر الدين، والرائد صدقي العطار الذي كان يمثل كتلة النحلاوي في القطعات العسكرية المحاربة. تظاهر صفوان بتلبية طلب مستميليه، وأطلع زهر الدين على الموضوع، فطلب منه زهر الدين متابعة الصلة لكشف عناصر المؤامرة.

يقول زهر الدين: استدعيت القادة الكبار في الأركان والطيران والإدارة والمخابرات ليسمعوا شرح الموضوع، فقررنا بعد ذلك ربط صفوان جبري ورفيقه الرائد صدقي العطار برئيس شعبة المخابرات مباشرة، وموافاتنا بتفصيل تسلسل الحركة، فقدما لنا التقرير التالي: ذكر صدقي العطار أن أنور حمادة زاره للاستفسار عن صحته في ١٣-٤-١٩٦٢، وكرر الزيارة بعد أسبوعين، وتكلم عن سفره إلى بيروت، واتصاله بنجيب جويفل -أبو عاصم- وطلب مني السفر إلى بيروت لمقابلته بناء على طلبه، لكنني اعتذرت لصعوبة ذلك، ثم زارني قائلاً: بأنه سيسافر إلى بيروت، ولعلي أستطيع اللحاق به.

١- في ٤-٥-١٩٦٢ تمكنت من السفر إلى بيروت، واتصلت بأبو عاصم في مقهى الغلاييني، ودار الحديث حول الأسباب التي أدت إلى الانفصال، ثم ذكر نجيب جويفل لصدقي العطار أن الشيوعيين والرجعيين يتحالفون لدفع سورية إلى الهاوية أو هوة الاستعمار، ولا يوجد غير عبد الناصر بطلاً منقذاً ملهماً، وذكر كلام أنور حمادة من وجوب انضمامنا إلى صفوف الضباط الناصريين، ثم انتقلنا إلى مقهى

آخر حيث كان أنور حمادة بانتظارنا، ثم توجهنا جميعاً لتناول الغداء في دار محمد نسيم سكرتير أول في السفارة المصرية في بيروت، بدعوة من أبو عاصم، فتكلم نسيم بالتفصيل عن الزيارات التي قام بها الوفد العسكري للقاهرة قبل ٢٨-٣-١٩٦٢ لإقناعي بأن زعماء حركة ٢٨ أيلول/ سبتمبر كانوا يوافقون على إعادة الوحدة مع مصر، إذ أن أكرم الديري وجادو عز الدين قد اجتمعا بالعقيد عبد الكريم النحلاوي ومهيب الهندي والرائد فايز الرفاعي في ألمانيا، وساد التفاهم بينهم جميعاً، فاستمهلته أسبوعين للتفكير في إمكان التعاون مع هذه الحركة[١].

بتاريخ ٣-٦-١٩٦٢ سافر صفوان جبري إلى بيروت، والتقى نجيب جويفل، فقال صفوان: لقد استقبلني في محل عادل الجوهري في شارع الحمرا في بيروت الغربية، وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد، ثم ذهبنا إلى منزل في نفس الشارع، حيث وجدنا محمد نسيم في انتظارنا، فتحدث محمد نسيم طويلاً، وأكد على وجوب تناسي الأحقاد، وأن الرئيس يرى ضرورة إعادة الوحدة لحفظ كيان سورية، كما استعرض بنود الاتفاقية بين عبد الناصر والوفد العسكري الذي تم في أوائل شهر شباط/ فبراير ١٩٦٢، والذي جاء فيه: لا يمكن البدء بمفاوضات الوحدة قبل الإطاحة بالأوضاع الدستورية والمجلس النيابي، ثم إذاعة بيان يعلن فيه ضرورة إعادة الوحدة، ثم يسافر وفد إلى القاهرة، لإجراء مفاوضات الوحدة، ويعاد تشكيل الجيش

(١) مذكرات زهر الدين: ٢٨٢ .

السوري، ويعيّن أكرم الديري قائداً له، ثم عرض محمد نسيم مقابلة عبد الناصر، فاستمهلته لاستطلاع رأي زملائي، وتحدث جويفل فقال: إن لديه كتلة من الضباط الصغار يمكن الاعتماد عليها، وفي اليوم التالي ذكر جويفل أسماء عدد من الضباط الناصريين بلغ عددهم ٢١ ضابطاً، تتراوح رتبهم ما بين ملازم وعقيد، كما ذكر أسماء عدد من المدنيين كان منهم: هاني الهندي، وعماد الحراكي، وحسن عبيد، وراتب الحسامي، ونهاد القاسم وغيرهم(١).

في ١٤-٦-١٩٦٢ حضر أنور حمادة من بيروت وقال لي: سوف يسافر يوم ١٥-٦-١٩٦٢ إلى بيروت، مصطحباً الضابطين: عمر الداية ومحمد الخطيب، وربما اصطحب الضابط محمود مطعم، لإحضار أجهزة لاسلكية، وقال: إن محمود يؤمن لنا تصاريح السفر خالية من الاسم والتاريخ -لملئها كما نريد وساعة نريد-.

اجتمعنا بتاريخ ٢١-٦-١٩٦٢ مع محمد نسيم ونجيب جويفل، فتكلم نسيم عن المؤامرات ضد سورية من الأردن والسعودية، وفي ٢٢-٦-١٩٦٢ اجتمعنا في منزل محمد نسيم بحضور نجيب جويفل، فطلبنا منهم تشكيل قيادة للعمل يكون أحدنا فيها، ثم بسط جويفل أمامنا مخططاً لتوزيع القوات العسكرية في سورية، وطلب منا الإدلاء بمعلومات عن كافة القطعات، وألوية الجيش تفصيلاً، فاتضح أن لهم مؤيدين في اللواء ١٨ واللواء ٧٠، وكذلك في الجبهة، ذكر منهم خمسة ضباط، كما استنتجنا أن قوتهم تنحصر في الوحدات التي هي

---

(١) المرجع السابق: ٢٨٣-٢٨٤ .

خارج دمشق.

سألنا محمد نسيم عن نشاطنا خلال الأسبوعين الماضيين، وأشار إلى وجوب التخلص من قيادة الجيش الحالية بأسرع ما يمكن، وأكد على إسناد قيادة الجيش لأكرم ديري، وإبداء رأينا في ذلك، وكتب أسماء المدنيين الذين رشحهم للوزارة، مثل: أمجد طرابلسي، وعبد الصمد فتيح، وعماد الحراكي، وراتب الحسامي، وصلاح الخربطلي، وصلاح البيطار، وحسن عبيد، ومصطفى رام حمداني، ثم جرى البحث في الاعتقالات الواجب تنفيذها، فقال جويفل: إن الشرطة العسكرية تؤمن موضوع الاعتقالات، لأن محمود مطعم على صلة بعدد منهم مثل ماجد شكري، وبعدد من ضباط الصف، وأن السرعة مطلوبة للقيام بالحركة، وأنهم يودون التنفيذ قبل ١٠-٧-١٩٦٢[1].

أوضحنا لهم أن موعد ١٠-٧-١٩٦٢ سيكون مبكراً جداً، في اجتماع عقد في ٢٨-٦-١٩٦٢، وشكونا لهم من عدم ثقة الناصريين بنا، فقال نسيم: إنه اجتمع في القاهرة مع الوزراء السوريين العسكريين، فقدم أكرم ديري مقترحاته ووجهات نظره والبدائل في كيفية التنفيذ، ثم ذكر صفوان جبري لهما -لجويفل ونسيم- صعوبة المجيء إلى بيروت بشكل متتابع، واقترحنا عليهما منطقة دير العشائر، فاتفقوا مع شوكت شقير على ذلك، على اعتبار أنها من

(١) المرجع السابق: ٢٨٦ -٢٨٧ .

مناطق النفوذ لكمال جنبلاط[١].

وبعد لقاءات، وحوارات، وتأجيل اجتماعات متفق عليها، وذِكر أسماء عدد من الضباط، وإثارة شكوك فيما بين المشاركين في التحضير للانقلاب، حضر نجيب جويفل ملحاً على ضرورة الإسراع بالحركة، وأنهم سينظمون العمل لهذه الفئات -المجموعات- كل على حدة، ضماناً للسرية والنجاح[٢].

تتالت الاجتماعات بين الرائد صدقي والملازم صفوان مع عدد من الضباط، مثل صياح عامر ومحمد عمران، ثم مع نسيم في مساء ٢٣-٧-١٩٦٢ في منزل محمد نسيم في بيروت، فشرح الرائد صدقي حراجة الموقف ودقته بعد اعتقال بعض المتسللين مثل عبد البديع حجازي، فأكد نسيم على وجوب الإسراع في التنفيذ[٣].

٢- التقى الرائد صدقي العطار بمحمد عمران في بيته -في دمشق- فرشح عمران ضابطاً من قطنا هو المقدم عثمان كنعان -من العلويين- ثم استعرضنا أعضاء القيادة -قيادة الانقلاب العسكرية- فأثنى محمد عمران على زياد الحريري وفهد الشاعر وتوفيق مخلوف وعدنان نجار، وفي ٢٥-٧-١٩٦٢ التقى الرائد صدقي والملازم صفوان مع صابر عامر، وطلبا منه خمسة آلاف ليرة حسب الاتفاق مع

---

(١) المرجع السابق: ٢٨٨ .

(٢) المرجع السابق: ١٩١ .

(٣) المرجع السابق: ٢٩٥ .

نسيم في بيروت، وفي نفس اليوم تمَّ اللقاء مع المقدم عثمان كنعان الذي دعا صدقي إلى منزله، فأكدنا على ضرورة إعادة الوحدة بعمل عسكري وحاسم، يرمي إلى تغيير القيادة، وتشكيل حكومة وطنية، والبدء بمفاوضات مع مصر مباشرة، وإتمام الوحدة خلال عشرة أيام من تاريخ الحركة، وإعادة الضباط الذين سُرّحوا بعد ٢٨ أيلول/ سبتمبر، والإفراج عن المعتقلين.

تتابعت الاجتماعات مع هاني الهندي الذي كان يرى الإعلان عن إعادة الجمهورية العربية المتحدة في يوم الانقلاب، وفي ٢٦-٧-١٩٦٢ جرى لقاء مع صياح عامر، فاستلمنا منه الخمسة آلاف ليرة سورية، ثم حضر نوفل الهندي في ٢٧-٧-١٩٦٢ إلى منزل الملازم الأول صفوان جبري، وأبلغه أن أخاه هاني الهندي عازم على تنفيذ الحركة قريباً، وأنه يضمن كتيبة دبابات في حمص، و٦-٨ طيارين، وقال: إنه سيعرّفنا على ستة ضباط من اللواء ٧٢ وآخرين من اللواء ٧٠، ومن اللواء ١٨ ومن مدرسة المدفعية م-ط، وغير ذلك. وفي ٢٨-٧-١٩٦٢ جرت مقابلة ثانية -الأحاديث مسجلة- فعلم الرائد والملازم أن الجبهة مؤمنة -مضمونة- وأن اللواء في السويداء مؤيد، وأن اللاذقية كذلك، كما أكد عمران والمقدم عثمان أن دمشق مضمونة(١).

٣- التقى الرائد صدقي والملازم صفوان مساء ٢٩-٧-١٩٦٢ في الشارع الواصل ما بين الجسر وأبو رمانة بالضابط أديب قاضي ريحا

(١) مذكرات زهر الدين: ٢٩٨-٢٩٩ .

الذي أخبرهما باعتقال يوسف مزاحم، وأننا إذا لم نقم بالحركة فسوف نعتقل جميعاً، وأن جميع المناطق: حمص وحلب والسويداء والجبهة ستؤيد وتؤازر، إذا قامت حركة في دمشق، واقترحنا بعد أن حددنا ساعة الصفر للانقلاب في الساعة الثانية من صباح يوم الأربعاء الموافق ١-٨-١٩٦٢، وفي الثالثة من صباح يوم ٣٠-٧-١٩٦٢ اتصلنا بمحمد نسيم في بيروت -المحادثات مسجلة- وقبل ذلك، أبلغ الملازم الأول محمد مزاحم الملازم الأول صفوان جبري أن كل شيء جاهز، وأن تبليغ الضباط سيتم عن الحركة المنتظرة خلال ٤٨ ساعة، وأنهم سوف يذهبون إلى حمص، ليكونوا على مقربة من العملية، وأنه عند إذاعة البيان من دمشق، سينطلقون ويدخلون اللواء الخامس.

يقول زهر الدين الذي كان يتابع هذا التحرك بتفصيلاته أولاً بأول باعتباره القائد العام للجيش والقوات المسلحة: والخلاصة، بدأ اطلاعنا على هذه الحركة منذ ثلاثة أشهر، وكان جمال عبد الناصر يهدف إلى قيام حركة ثورية -انقلابية- قبل الاحتفال بأعياد الثورة في ٢٣-٧-١٩٦٢، فقد قامت السفارة المصرية في الاتصال بالقوميين العرب بقيادة هاني الهندي، وبالبعثيين بقيادة صياح عامر ومحمد عمران وعثمان كنعان، وبالعسكريين من ضباط ٢٨ أيلول الذين كشفوا للقيادة العسكرية أمر هذا التحرك، وأخبروا القطعات عنها، رغم حرصهم على الوحدة، وحرصهم كذلك على سلامة بلدهم في

---

(١) المرجع السابق: ٣٠٠-٣٠١ .

الوقت نفسه، وحفظها من التسلط ومن الحكم الفردي البغيض -على حد تعبير زهر الدين-.

تابعت شعبة المخابرات خيوط المؤامرة، واعتقلت القسم الأكبر من عناصرها، وقامت سورية بتقديم شكوى إلى الجامعة العربية، وهي الشكوى التي بحثتها الجامعة في بلدة شتورا اللبنانية القريبة من الحدود ما بين سورية ولبنان[1] وكانت المهاترات وتبادل الشتائم والتهم قد بلغت حداً غير لائق بين المصريين والسوريين الذين حشدوا في هذا الصراع ذوي الأقلام الحادة، وأعداداً كبيرة من الصحفيين ومندوبي الوكالات، وكانت وسائل الإعلام كلها تنقل ما كان يجري من صراع في شتورا يمس بسمعة العرب، ثم توقفت إجراءات الشكوى بعد أن هددت مصر بالانسحاب من الجامعة العربية إن استمر البحث في شكوى سورية ضد مصر في لبنان، كما مر سابقاً.

لقد ورد ذكر أنور حمادة والدور الذي قام به متعاوناً مع نجيب جويفل في الإعداد لانقلاب ناصري يطيح بحكومة أو بعهد الانفصال، والدور المحموم الذي اضطلع به في اتصالاته مع العسكريين ومع السفارة المصرية في بيروت، والتحرك الواسع ما بين دمشق وبيروت. إن المحامي أنور حمادة كان من أعمدة الحركة التي قامت في سورية ضد الشيخ السباعي بالتعاون مع جويفل منذ أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، وإذن فالصلة قديمة مع المخابرات

---

(١) المرجع السابق: ٣٠٢-٣٠٥ .

المصرية عبر نجيب جويفل، وقد تمادى في تجريح الشيخ الدكتور المراقب العام مصطفى السباعي دون قيم أو ضوابط أخلاقية، فقد سمعت من الأخ الصالح الشهيد مصطفى الواحدي، وكان عضواً في أسرة يقوم أنور حمادة على توجيهها، أنه سمع من نقيب أسرته حمادة كلاماً ضد السباعي يندى له الجبين، ويعف عن ذكره اللسان، ويأباه الطبع السليم، ويرفضه العقل والمنطق السديد، وعندما أفاق شباب الأسرة من هول الصدمة، تركوا حمادة وخرجوا عليه، وعادوا إلى رحاب الجماعة التي نشأوا في أحضانها، ونهلوا من مبادئها وقيمها الأخلاقية والتربوية السامية.

دخل حمادة في صراع مع قادة الإخوان في محافظة إدلب أعضاء إدارة المركز، ولاسيما مع الأخ الداعية أحمد قطيع، ثم التحق بالتنظيمات الناصرية بعد أن أبعدته الجماعة من صفوفها، وأفشلت مخططاته الرامية إلى تمزيق الجماعة والقضاء عليها، وقد رأينا بعض ما قام به من نشاط في خدمة المخابرات المصرية، وبعدما وقعت سورية فريسة بين مخالب نظام الأقلية، غير اتجاه البوصلة، وانضم إلى حزب البعث الذي سيطرت عليه الأقليات، وقام بتصفية وسحق الحركات الإسلامية والتنظيمات السياسية والاجتماعية، وفرض العلمانية والأعراف غير الإسلامية على المجتمع السوري فرضاً، فوجد في أنور حمادة ضالته، فأسند إليه وزارة، ودفع له الثمن الذي كان يتطلع إليه ثمناً لخروجه على مبادئه وتآمره على دعوته، وعلى الجماعة التي كان يوماً عضواً في قيادتها على مستوى المحافظة في المدينة التي كانت إحدى قلاع العمل الإسلامي والدعوة إلى الله في

سورية الصابرة.

تابع أنور حمادة مسيرته هذه عهوداً وعقوداً من حياته في شن الهجمات والاتهامات على الجماعة، وعلى إلحاق الأذى بالدعوة الإسلامية بكل ما كان يملك من الوسائل والأسباب والطرق، مستعيناً بالأحزاب العلمانية المعادية، وبأجهزة المخابرات المناوئة، شأن رفيق دربه عبد المجيد الطرابلسي، كلاهما انتقل إلى التنظيمات الناصرية، ثم إلى حزب البعث، أو بالأحرى إلى حكم الأقليات التي تتستر وراء الحزب، وهكذا كانت الخاتمة، بعد أن نال كلاهما مقعداً وزارياً ثمناً لما ألحقه بالجماعة من أذى وظلم.

وقد استمر أنور حمادة في مسيرته هذه حتى النهاية، وبما يتفق معها، وينسجم في محيطه الحزبي والعلماني المعادي للإسلام من فكر وسلوك.

أما الرائد صدقي العطار الذي ورد ذكره كثيراً في مذكرات رجالات عهد الانفصال، ولاسيما قائد الجيش زهر الدين، فقد عرفته عن بعد، عندما كنت طالباً في دار المعلمين بحلب للعام الدراسي ١٩٥٠-١٩٥١، وكان صدقي طالباً في دار المعلمين في دمشق في نفس العام، وكان كلانا مسؤولاً عن تنظيم الإخوان في معهده، فجرت بيننا مراسلة، ثم تخرجنا دون أن أعرف بعد ذلك عنه شيئاً، وفي عهد الانفصال برز اسم الرائد صدقي العطار كثيراً كضابط نشط محسوب على الإخوان تارة، وعلى تكتل عبد الكريم النحلاوي تارة أخرى، وقد أكثر زهر الدين وغيره من الحديث عن الدور الذي قام به

في كشف عناصر الانقلاب الذي كان يعده الناصريون في الجيش لإعادة الوحدة بقيادة جمال عبد الناصر، وبعد خروجه من الجيش التقيته مصادفة في دار الفكر أثناء زيارة لها في بيروت، ومن خلال الحديث عن الأوضاع في سورية، لمست من لهجته مرارة شديدة، وعتباً أشد على قيادة الجماعة، وعلى شخص المراقب العام بكلمات حادة، ربما لأنهم لم يشكلوا الغطاء السياسي للأعداد الكبيرة من الضباط الإسلاميين والحياديين في مواجهة ضباط الأحزاب الأخرى الذين كانوا لا يشكلون في الحجم والعدد إلا الجزء اليسير قياساً للإسلاميين والحياديين في الجيش السوري، أو لأن موقفهم كان رخواً ومتردداً، الأمر الذي جعل الفرصة سانحة لضباط الأقليات والأحزاب اليسارية والعلمانية والناصرية في السيطرة على القوات المسلحة، ومن ثم على سورية، ودفعها إلى المجهول، وإدخالها في النفق المظلم الذي ما تزال مغيّبة فيه إلى حين لا يعلم إلا الله مداه، وليس هذا بالأمر المفاجئ إذا علمنا أن الأستاذ عصام كان يرفض بلوغ السلطة عن طريق العسكر والانقلابات، بل كان يصرُّ ويصارع بأن الإخوان يرفضون أي سلطة لا تأتي عن طريق الشعب والشورى ولو بعد حين.

سابعاً: استقالة وزارة بشير العظمة

دب الوهن في أوصال وزارة بشير العظمة، وأصيبت بما يشبه الشلل، ووصلت إلى طريق مسدود، ولم يعد في وسعها إلا الرحيل في ١٣-٩-١٩٦٢ .

كان بشير العظمة في نظر قائد الأمن الداخلي مطيع السمان:

لطيف المعشر، مهذباً، ليّن العريكة، يحب المال حباً جماً، يميل إلى التهكم في أحاديثه، دخل الوزارة من باب وخرج من باب آخر، دون أن يعي ما بينهما[1].

كان خالد العظم -كما علمنا- ضمن المعتقلين الذين زج بهم الضباط الانفصاليون في سجن المزة العسكري، وعندما أفرج عنه في ١٠-٤-١٩٦٢، كانت الحياة السياسية في سورية أشد ما تكون اضطراباً بعد المؤامرات الناصرية، وإضرابات العمال، وتوزيع المنشورات على نطاق واسع، وبعد تفجير القنبلة في حماة، وبالرغم من تشكيل بشير العظمة للوزارة الأولى من نيسان وحتى حزيران -حوالي شهرين- وللوزارة الثانية من حزيران حتى أيلول، ظل حبل الأمن مضطرباً واستمر الاستقرار مفقوداً.

١- لهذا نشط السياسيون وقادة الأحزاب للحد من هذا التدهور الخطير، وكان في مقدمتهم: خالد العظم، وأكرم الحوراني، ومعروف الدواليبي، ومأمون الكزبري، واليون زمريا، ورشاد برمدا، وعصام العطار، ورفيق بشور وغيرهم.

عقد الساسة سلسلة اجتماعات كثيرة على كل الصعد الرسمية والشعبية، في دمشق وحلب وغيرهما.

يقول العميد السمان: أخبرني خالد العظم بأنه كان على موعد مع الحوراني والعطار، للتداول معهما من أجل تشكيل الوزارة، وبعد

---

(١) وطن وعسكر للسمان: ١٥٣ .

مشاورات ومحاولات متكررة، وبعد تشكك في موقف الرئيس القدسي من التعاون معه -مع العظم- في التشكيل الجديد[1]، تقدم العظم بأسماء الوزراة الذين وقع عليهم اختياره، وأعلن راديو دمشق أعضاء الوزارة في ١٧-٩-١٩٦٢ كما يلي:

خالد العظم رئيساً للوزراء، رشاد برمدا وزيراً للتربية، أسعد الكوراني وزيراً للعدل والأوقاف ونائباً لرئيس الوزراء، فرحان الجندلي وزيراً للشؤون البلدية والقروية، أسعد محاسن وزيراً للخارجية، خليل كلاس وزيراً للمالية، أمين النفوري وزيراً للإصلاح الزراعي، جورج خوري وزيراً للصناعة، عبد الحليم قدور وزيراً للإعلام، صبحي كحالة وزيراً للمواصلات، روبير الياس وزيراً للأشغال العامة، عزيز عبد الكريم وزيراً للداخلية، رفيق بشور وزيراً للثقافة، أحمد مظهر العظمة وزيراً للزراعة، عزت الطرابلسي وزيراً للاقتصاد، نهاد إبراهيم باشا وزيراً للتخطيط، عمر عودة الخطيب وزيراً للتموين، نبيل الطويل وزيراً للصحة، منصور الأطرش وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل، اللواء عبد الكريم زهر الدين وزيراً للدفاع[2].

كانت باكورة عمل رئيس الوزراء تشكيل لجنة من وزراء الداخلية والعدلية والدفاع للتحقيق في قضية قنبلة حماة، فوضعت اللجنة

---

(١) مذكرات السمان: ٢٣٢ .

(٢) التطور السياسي والاقتصادي في سورية، من نيسان ١٩٤٦ وحتى نيسان ١٩٩٠ للدكتور غسان حداد.

تقريرها، مؤيدة جميع التحقيقات السابقة دون نقص أو اعتراض(١).

والملاحظ أن الإخوان المسلمين وحلفاءهم شاركوا في وزارة خالد العظم بثلاث وزارات هي: وزارة الصحة أسندت للدكتور نبيل الطويل، ووزارة التموين أسندت إلى الأستاذ عمر عودة الخطيب، ووزارة الزراعة أسندت للأستاذ أحمد مظهر العظمة.

يقول زهر الدين: ولدت وزارة العظم فوق بركان، فقد ابتدأ التناحر -في أول أيام وزارة خالد العظم- ما بين تقدمي ورجعي، وما بين يساري ويميني، وما بين دمشقي وحلبي، وما بين ريفي وغير ريفي، وما بين عسكري ومدني، وكان التناحر على أشده داخل الوزارة ما بين الإخوان المسلمين والاشتراكيين، فانعكس على الأوساط الشعبية التي انقسمت على بعضها، وصارت كل فئة تتربص بالفئة الأخرى(٢).

تحركت الأحزاب في تنظيم صفوفها من اليساريين و الإسلاميين، فتحركت الفئات الحزبية في الجيش، كل فئة تؤيد الحزب الذي تميل لأفكاره أو تنتمي إليه.

أصبح أداء رئيس الوزراء خالد العظم ضعيفاً، جراء حالته الصحية والاجتماعية، وضيقه الشديد من الفوضى السياسية التي تضرب

---

(١) مذكرات السمان: ٢٤٤-٢٤٥ .

(٢) زهر الدين: ٣٢٩-٣٣٠ .

أطنابها في أرض الوطن[1]، لقد كانت وزارة مهلهلة بكل ما في هذه الكلمة من معنى[2].

٢- في الأيام الأولى من تشكيل وزارة العظم، هددت نقابة المعلمين بالإضراب إذا لم تلب طلباتها، وقبل أن تتمكن الحكومة من دراسة هذه الطلبات أعلنت النقابة الإضراب الذي كان مسيّساً -حسب رأي مدير الأمن العام مطيع السمان- كإضراب العمال سواءً بسواء.

لخصت نقابة المعلمين مطاليبها، بإعطاء المعلمين تعويض اختصاص كالمهندسين، وبإنقاص ساعات التدريس الأسبوعية، ولما تعذر على الحكومة الاستجابة لمطالبهم استمر المعلمون في تعليق الدروس في جميع أنحاء الجمهورية، ثم تصدع صفهم بما وجّه لهم من انتقادات صحفية، ومن أولياء الطلاب الذين رأوا أبناءهم في الشوارع والطرقات، ففشل الإضراب، وأعلنت نقابة المعلمين انتهاءه، واستأنف الأساتذة القيام بواجباتهم، واللافت للنظر أن نفوذ الإخوان كان كبيراً على نقابة المعلمين، وأن رؤوس النقابة كانوا أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين، وإن الإخوان كانوا مشاركين في الحكومة التي كان إضراب المعلمين مصدر إحراج لها، ولذا ازداد اتهام طيف واسع من السياسيين وفي مقدمتهم خالد العظم الإخوان بأنهم كانوا على صلة بالناصريين، وأنهم يدعمون من حيث أرادوا أم لم يريدوا التحرك الناصري في النشاط السياسي الذي كان يهدف إلى

---

(١) المرجع السابق: ٣٣١ .

(٢) المرجع السابق: ٤١٤ .

تقويض فترة الانفصال، وعودة جمال عبد الناصر قائداً لمصر وسورية في وحدة جديدة، أو العودة إلى الوحدة السابقة، وثمة سؤال يفرض نفسه، لو أن الإخوان قدروا خطورة الأوضاع، واستشعروا بما يُبَيَّتُ لسورية الشعب والوطن من تآمر وكيد، وأنها سوف تقع فريسة سهلة بعد خمسة أشهر بأيدي فئات حاقدة تعيث فساداً، وتسحق شعبها، وتعيد تركيب جيشها لتستلم الأقليات قياداته ومفاصله في كل تشكيلاته، وتسيطر على مرافق الدولة، بل وعلى مفاصل الحياة العامة، لو أدرك الإخوان وغيرهم أنهم كانوا والبلاد كلها على حافة الهاوية، هل كانوا يسوسون الأمور، ويعالجون الشؤون العامة كما كانوا يفعلون؟!!

لم تكد إضرابات المعلمين تنتهي حتى بدأ الطلاب إضرابهم في بعض المحافظات بدءاً من بلدة السلمية -مركز الإسماعيليين- في محافظة حماة، حتى امتدت إلى مدن أخرى، بدعوى أن الوزارة لم تشرع بتوزيع الكتب المدرسية المجانية على الطلاب، بتخطيط أو تقصير من القيمين عليها في وزارة التربية والتعليم.

طلب الوزير معاقبة المعلمين المحرضين على إضراب الطلاب، ثم تراجع عن طلبه. وفي هذه الأثناء اشتد الخلاف بين الوزراء الاشتراكيين، وبين وزراء الإخوان المسلمين، كما وقعت اشتباكات بين طلاب الجامعة المنتمين إلى الاشتراكيين والشيوعيين والناصريين والإخوان المسلمين[١]. علماً بأن نفوذ الإخوان المسلمين في الوسط

(١) وطن وعسكر: ٢٤٨-٢٥١ .

الطلابي كان كبيراً وراجحاً طيلة عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وحتى بعد قيام انقلاب ٨ آذار الذي جاء بالبعث، أو بالأقليات التي تشكل عموده الفقري، إلى السلطة في دمشق.

٣- لم تكد تهدأ إضرابات المعلمين والطلاب، حتى أعلنت رئاسة نقابة العمال إضراباً عاماً بتحريض من السكرتير الأول في السفارة المصرية في بيروت محمد نسيم المكلف بإرسال متفجرات ومنشورات وإحداث اضطرابات في سورية، بموجب خطة تشمل القيام بإضرابات واسعة في دمشق وحلب، وإشعال حرائق في بعض المرافق، ووضع حواجز وسد الطرق لتحول دون وصول سيارات الإطفاء والإسعاف، وإجبار ذوي المحلات التجارية على الإضراب، وتعيين قيادات عمالية بديلة في حال اعتقال القيادة العمالية التي تقود الإضرابات[١].

عندما تجاوز الصراع بين وزراء الإخوان ووزراء الاشتراكيين حدوده، واستحال إلى مهاترات واتهامات وتوتر مستمر، أعرب رئيس الجمهورية ناظم القدسي، وكذا رئيس الوزراء خالد العظم عن قلقهما وامتعاضهما، فاتصل نائب رئيس الوزراء أسعد الكوراني الذي كان يقوم بمهمات رئيس الوزراء وكالة لملازمة خالد العظم فراش المرض، اتصل بالعميد السمان قائد قوى الأمن الداخلي، واتفق معه على ضرورة إبعاد وزراء الإخوان والاشتراكيين، وتقديم استقالاتهم، لإنهاء هذا الصراع بين الإخوان والاشتراكيين داخل مجلس الوزراء.

---

(١) المرجع السابق: ١٩٣ وحتى ١٩٧ .

استدعى العميد السمان وزيري الإخوان -الخطيب والطويل- فحضرا، وحضر معهما المراقب العام الأستاذ عصام العطار، فأخبرهم بأن من الأفضل تقديم استقالتيهما من الوزارة، ومتابعة ما بينكم وبين الاشتراكيين -من صراع- من خارجها، فاتصل الأستاذ عصام بأسعد الكوراني في مكتبه قائلاً له: أنت رئيس الوزراء أم مطيع السمان؟ فأيد الكوراني ما طلبه السمان قائلاً: اعمل بالذي طلبه منكم.

شنَّ الأستاذ عصام على الحكومة هجوماً صاعقاً من على منبر مسجد الجامعة، لأن رئيس الحكومة رفض تسمية الأستاذ مصطفى الصيرفي وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل بدلاً من الوزير المستقيل عمر عودة الخطيب، وموضوع الأستاذ مصطفى الصيرفي ذو منحى آخر، فقد نال في انتخابات المجلس النيابي[1] -كانون الأول عام ١٩٦١- من أصوات أبناء مدينة حماة أكثر مما نال أكرم الحوراني، وأكثر من خمسين بالمئة مما ناله عدد من أعضاء قائمته، فخشي الحوراني من هذه القيادة الصاعدة المنافسة للحوراني وحزبه في حماة، والتي تشكل خطراً حقيقياً على زعامته، فاعترض الحوراني لرئيس الوزراء خالد العظم على مشاركة الأخ الصيرفي في الوزارة مهدداً بالانسحاب، ولم يكن الوضع السياسي يحتمل دخول العظم ومن معه في صراع مع الحوراني الذي كانوا يدارونه، ويتجنبون الصدام معه، فاتصل العظم اتصالاً مباشراً بالهاتف مع الأخ الصيرفي قائلاً: أنتم أمّ الولد، وأنتم خير من يقدر مصلحة البلاد، آمل منكم

(١) وطن وعسكر: ٢٨٣-٢٨٤ .

أن تقدروا الموقف، وما يعانيه بلدنا من أزمة واضطراب.

أما الأستاذ الحوراني، فقد فسر موقفه ورفضه بقوله: إن خالد العظم يريد أن يدق لنا إسفيناً في حماة، كما ذكر ذلك في مذكراته التي قرأتها واطلعت عليها، متجاهلاً أن ما يسميه إسفيناً، وكأنه دخيل على الحياة السياسية في حماة، قد فاقه بعدد الأصوات في الانتخابات النيابية في مدينة أبي الفداء.

شنّ الأستاذ عصام العطار على حكومة خالد العظم هجوماً نارياً من فوق منبر مسجد الجامعة، واستمر في انتقاده لسياستها حتى ضاق الأستاذ العظم ذرعاً بالهجومات الصاعقة التي ما فتئ يوجه سهامه عليها، بتحريض من الحوراني كما زعم السمان -وهذا الحكم غير مسلم به- فاستدعى خالد العظم رئيس الوزراء الأستاذ عصام العطار المراقب العام للإخوان المسلمين إلى مكتبه وكلمه (حول موضوع خطبه) بما يليق، فاعتذر له بنعومته المعهودة[1].

٤- أجمع الكتاب والمحللون والعسكريون وذوو المذكرات من أركان حكم الانفصال أمثال الفريق قائد الجيش عبد الكريم زهر الدين، والعميد مطيع السمان قائد الأمن الداخلي، والأستاذ خالد العظم آخر رئيس وزارة في عهد الانفصال، أن الحكم قد بلغ من الوهن والضعف والتفكك والفوضى ما جعل زواله راجحاً، إن لم يكن محتماً، وأنه أمسى كريشة في مهب الرياح، وأن الذين شيعوا

---

(١) المرجع السابق: ٢٨٤ .

جنازته مجموعات صغيرة من الضباط الذين كانوا ينتمون إلى أحزاب وتيارات مختلفة، ذكرهم زهر الدين في مذكراته، ووصفهم بالقلة حسب تعبيره، فقال عنهم:

أ- حزب البعث -عدا جناح الحوراني-: كان عدد ضباطه قليلاً، من صغار الضباط، وكان أبرزهم سليم حاطوم.

ب- الناصريون: كان عددهم قليلاً، دون أن يكون لديهم تخطيط أو تنظيم.

ج- القوميون العرب: لم يكن لهم أنصار في الجيش، وكانت فئتهم في المدنيين قليلة.

د- الوحدويون الاشتراكيون، وهؤلاء منشقون عن البعث، وكان أنصارهم في الجيش من القلة[1].

استولت هذه القلة على الجيش والحكم والسلطة بيسر وسهولة، عندما ترك لواء من الجيش الجبهة، واتجه إلى دمشق دون أن يعترضه أحد، رغم أن الثكنات والمواقع تضم أعداداً تفوق عدد قوات اللواء وأسلحته أضعافاً مضاعفة، وكأنه يقوم بنزهة، ووضع يده على السلطة دون أن يواجه أي مقاومة أو اعتراض. لم تمض أيام على هذا الحدث المثير للدهشة، حتى وقع الحكم بقبضة لجنة عسكرية سرية، لا يزيد عددها على أصابع اليد الواحدة، تشكلت في ظل الوحدة، فكان أفرادها بعثيين، يرفعون شعار الوحدة في الظاهر، وكان يحركهم

(١) مذكرات زهر الدين: ٤٢٢-٤٢٣ .

الانتماء الطائفي في حقيقتهم، وفي سرهم، فأين ذهب ألوف الضباط السوريين المنتمين إلى الأكثرية من أبناء شعبها العريق؟ إن تبسيط هذا الأمر وتسطيحه يكون من حيث نريد أو لا نريد امتداداً للكارثة التي حلت بسورية التي ما زالت تُحكم منذ أربعة عقود في ظل الحكم العرفي الدائم بالحديد والنار، وداخل سجن كبير، وتسلط لا مثيل له في أقطار العالم كله، ليس المواطن آمناً فيه على حريته ولا على كرامته، ولا على أعز ما يحرص الإنسان عليه.

ثامناً: الصراعات المذهبية والطائفية المدمرة

منذ النصف الثاني للقرن الخامس الهجري دخل أشياع المذاهب الفقهية في صراع مذهبي، استنفد جهود عامة المسلمين وبعض علمائهم في ميادين، لا طائل من ورائها[١].

١- اشتعلت الفتنة سنة ٤٧١هـ في بغداد، حيث اشتبك طلبة المدرسة النظامية التي كانت منارة إسلامية مشرقة بين الحنابلة والشافعية، وانتصر لكل فريق أنصاره من العوام، وقتل عشرون تقريباً، وجرح آخرون، ولم تكن الحالة خارج بغداد بأفضل من ذلك، بل كانت تثور الخصومات المذهبية، وتشتعل الفتن حتى تتدخل السلطات وتخمد ذلك[٢].

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس: ٤٠ للدكتور ماجد عرسان الكيلاني.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج١٢: ١٥٦ الطبعة الأولى ١٩٩٦، طباعة دار أبي حيان -القاهرة.

ومن الفتن -المخزية المخجلة- ما حدث في عام ٥١٢هـ، حين قَدِم أحد رجالات الأشاعرة المشهورين إلى بغداد، وهو أبو الفتح الاسفرائيني، واتخذ جامع المنصور مكاناً للدرس والوعظ، فالتف الناس حوله، وتأثروا به، فلم يرق ذلك للحنابلة، فجمعوا أنفسهم، ودخلوا على الاسفرائيني وعنفوه، ثم خرجوا يصيحون في الشوارع: هو يوم حنبلي، لا شافعي ولا أشعري[1]. علماً بأن أحمد بن حنبل كان يحب الشافعي، ويبجله، ويأخذ عنه، ويقول لابنه حينما قال لوالده: يا أبت، أراك تكثر من ذكر الشافعي، قال يا بني: كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، وكان يفسر قوله عليه الصلاة والسلام: إن الله يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد للأمة دينها، فنظرنا على رأس المئة الأولى، فرأينا عمر بن عبد العزيز، ونظرنا في رأس المئة الثانية، فرأينا محمد بن إدريس الشافعي، وهكذا كانت الصلة بين الإمامين العظيمين، الشافعي وابن حنبل، وهكذا هبطت العلاقة بين الأتباع الجاهلين إلى الدرك الذي رأينا[2].

وحين بنى نظام الملك -سعود بن علي- جامعاً للشافعية بمدينة مرو، وكان الجامع مشرفاً على جامع الحنفية، ساء ذلك الأحناف في المدينة، واعتبروه تحدياً لهم، فهاجموا المسجد الجديد، وأحرقوه ونشبت بين الطرفين فتنة، وصفها السبكي صاحب كتاب «طبقات

(١) المرجع السابق: ٥٠ نقلاً عن تاريخ الملوك والأمم ج١٠: ٧ لابن الجوزي.

(٢) أخرجه أبو داود في الجزء الرابع: ١٠٩ كتاب الملاحم باب ما يذكر في قرن المئة، وأخرجه الحاكم في المستدرك ج٤: ٥٢٢ وصححه ووافقه الذهبي.

الشافعية» بأنها فتنة هائلة، وكادت الجماجم تطير على الغلاصم -عن الأعناق-[1].

أما في مصر والشام اللتين كانتا تتجاذبهما السياسات الفاطمية المعادية للسنة، والمذهبية بين أهل السنة أنفسهم، فقد تضاعفت الخطوب، وتعددت المشكلات، فلقد تعرض العلماء وأهل الفكر للأذى والاضطهاد من قبل الدولة وسلطاتها، من ذلك ما رواه ابن الجوزي عن الوزير الفاطمي بدر الجمالي، قال: -ابن الجوزي- كان بدر هذا قد نفى من مصر والقاهرة كل من وقعت عليه سيماء العلم، بعد أن قتل خلقاً كثيراً من العلماء، واعتبر أن العلماء هم أعداء هذه الدولة -الفاطمية- وهم الذين ينبهون العوام على ما يقولونه[2].

ومع أن الأصل في التصوف أنه نشأ كمدرسة تربوية -كالمدارس الفقهية- هدفها تزكية النفس وصقل الأخلاق، اشتهرت المدرسة المحاسبية -نسبة إلى الحارث المحاسبي- والمدرسة الجنيدية -نسبة إلى الجنيد البغدادي- وغيرهما، وأن التصوف أول ما ظهر في البصرة كما يقول ابن تيمية، عندما بنى عبد الواحد بن زيد صاحب الحسن البصري دويرة للصوفية بالبصرة، فكان فيها من الاجتهاد في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك، ما لم يكن في سائر الأمصار[3].

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن كتاب طبقات الشافعية ج٧ مكتبة الحلبي: ٢٩٦ القاهرة.

(٢) المرجع السابق: ٥٥ نقلاً عن كتاب المنتظم لابن الجوزي ج٩: ٦١ .

(٣) المرجع السابق، نقلاً عن كتاب الفتاوى ج١١ كتاب التصوف: ١٦٥٦ .

ثم دخل على التصوف انحرافات، وصار المتصوفون -أو بعضهم- إلى اتجاهات -شاذة- مثل الملامتيَّة وغيرها، فانبرى علماء كبار لإصلاح هذا الخلل، وبرزت مدارس إصلاحية في هذا السياق، كان من أبرزها المدرسة النيسابورية التي قادها أبو نصر السراج المتوفى عام ٣٧٨هـ، وكان من شيوخها السلمي والقشيري والهجويري. ومدرسة بغداد التي قادها جعفر بن محمد الخلدي الذي كان مرجعاً في علوم التصوف بعد الجنيد، وكان يعكس الاتجاه نفسه في التزام الشريعة، واجتناب الدعاوى الخارجة على الكتاب والسنة.

كذلك قامت الخصومات بين الفقهاء والمتصوفة، إلى جانب الفتن المذهبية الأخرى، وانتشرت طوائف الجهلة والسطحيين من الصوفية. ويروي الهجويري أن كثيراً من الشيوخ في زمنه أصبح همه جمع المريدين، وتصدر الأتباع طلباً للجاه والمال(١).

٢- بيد أن الأخطر من ذلك انتشار الحركة الباطنية نتيجة انحطاط المذهبية والركود الفكري الإسلامي السني، ومؤسساته القائمة، وكانت البداية ما ذكره المؤرخون من ظهور الفرقة الإسماعيلية التي أنشأها الحسن بن الصباح الذي تمكن عام ٤٧٣هـ-١٠٩٠م من الاستيلاء على قلعة ألموت في إيران، واتخاذها قاعدة له، ومركزاً لنشاطاته.

والحقيقة أن الباطنية أوسع إطاراً من ذلك، إذ تعود الحركة الباطنية إلى القرن الرابع الهجري، إذ ضمت بين صفوفها جماعات

---

(١) المرجع السابق: ٦٣ .

مختلفة، يجمعها هدف مشترك هـو إفساد العقيدة، فقد ضمت فلاسفة ومفكرين كـإخوان الصـفا، وشـعراء وعلـماء كانـت لهم اجـتمـاعات سريـة، أشار إلى بعـضهـا ابن سينا، فـذكر أن والده كـان يحضـرها، ويحرص على إحضار ولديه ابن سينا وأخيه للمشاركة بها[1].

وفي الـنصف الـثانـي من القـرن الخـامس الـهجـري أفـرزت هذه الحركـة جناحاً عسكرياً إرهـابياً بقيادة الـحسن الصبّاح السـالف ذكره، فشـرع يبثّ دعـاته من قلعـة ألموت، ليـخدعـوا الأحداث والبـسطاء، ويضموهم باسم الدين ونصرة آل البيـت، ويملأوا نفوسهم حقداً على المـسلـمين، ويربـوهم علـى الطـاعة الـعمـيـاء، ويذكـر المـؤرخـون الإسلاميـون أنهم كانوا يستـعينون في التـأثير على الأتباع بالـمخدر أو الحشيش الذي يقدمونه لهم، فإذا أصابهم الدوار أمروهم بما يريدون، ولذا سُموا بالحشاشين.

لقد انتـشرت الباطنية فـي غرب العالم الإسلامي وشـرقه، وأخذوا يدعون إلى إسقاط الحكومات السنية، وعلى رأسها الخلافة العباسية، فعملـوا على إفساد عقائـد الأمة، وأثاروا الفتن والقلاقـل، وأمعنوا في اغتـيال الشخـصيات المـعارضة لهـم، فقتلوا أو غـدروا بمئـات القادة وكبـار رجال الدولة والعلمـاء والقضاة وكـبار القوم، ونشـروا الخوف والرعب في كل مكان من أرجاء الوطن العربي والعالم الإسلامي[2].

والذي يقرأ كـتاب: «الحروب الصليبـية كما رآها العرب» لـمؤلفه

(١) المرجع السابق: ٦٣ .

(٢) المرجع السابق: ٦٤-٦٥ .

أمين معلوف -اللبناني المسيحي- يدرك مدى الأذى الذي ألحقه الحشاشون بعلماء المسلمين وقضاتهم وقادة الجهاد ضد الزحف الصليبي على بلاد الشام والعراق، فقد اغتالوا ابن الخشاب أكبر من تصدى للصليبيين في بلاد الشام، وقتلوا قاضي القضاة ببغداد فخر الإسلام أبا سعيد الهروي، كما اغتالوا اليوسفي صاحب حلب والموصل وابنه، وعشرات من أعيان المسلمين، قضاة وقادة وفقهاء(١).

أ- تحدث ابن الأثير في كتابه: «الكامل في التاريخ» عن الفتن في دمشق عام ٤٦١هـ التي أدت إلى احتراق المسجد الأموي فقال: وقع في دمشق حرب بين المغاربة المؤيدين للفاطميين، والمشارقة المؤيدين للعباسيين، فضرب المغاربة داراً مجاورة للجامع -الأموي- بالنار، فاحترقت، واتصلت بالجامع، فأتى الحريق على الجامع، ودثرت محاسنه، وزال ما كان عليه من الأعمال النفيسة(٢).

استغلت قبيلة بني مزيد البدوية التي كانت تقيم على الضفة الغربية لنهر الفرات ظروف الانقسام والتجزئة التي كانت تسود بغداد، فاتخذت بقيادة شيخها صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدي من مدينة الحلة مقراً لها عام ٤٩٥هـ-١١٠١م (نفس الفترة التي زحف فيها الصليبيون على بلاد الشام والعراق وأقاموا إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس ١٠٩٨-١٠٩٩م) وأقامت لها إمارة احترفت الغارة

---

(١) الحروب الصليبية لأمين معلوف: ١٤٠-١٤١ .

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن الكامل في التاريخ لابن الأثير ج١٠: ٥٩ .

والنهب خلال فترات الاضطراب، ولم يتردد أمراؤها في محالفة الصليبيين فيما بعد(١). فلقي الخليفة منهم والمسلمون شروراً عظيمة، فأبطل -صدقة شيخ بني مزيد- الحج، وأباح الفروج في رمضان، وكانت أيامه في بغداد ٦٧ يوماً في زمن أميرها دبيس بن مزيد الأسدي، إلى أن قتله السلطان مسعود السلجوقي سنة ٥٢٩هـ(٢).

ب- وفي هذه الفترة حدثت فتنة البساسيري، الذي دخل بغداد في السادس من ذي الحجة عام ٤٥٠هـ، وخرج منها في السادس من ذي القعدة عام ٤٥١هـ، بعد أن مكث فيها سنة كادت تكون لنور الله مطفئة، فإنه دعا إلى الداعي المقيم في القاهرة (الخليفة الفاطمي)، ولم يجد الخليفة (العباسي) بمقره في دار الخلافة مقراً، فقد صلب البساسيري رئيس الرؤساء أبا محمد بن المأمون رسول الخليفة، وقتل أصحاب قريش بن بدران، عبد الرزاق أبا نصر وأحمد بن علي، واختل نظام الإسلام، واعتلت دار السلام، وطالت غربة الإمام، وهالت كربة الأنام(٣).

استمر البساسيري يحكم بغداد باسم الفاطميين، حتى قدم السلاجقة الذين قضوا على فتنته، وأنقذوا الخلافة العباسية والعقيدة السنية، فاتخذت الحكومة الفاطمية سياسة جديدة، إذ تحالفت مع

---

(١) المرجع السابق: ٨٥ نقلاً عن كتاب الحركة الصليبية لسعيد عبد الفتاح عاشور ج١: ١١٥.

(٢) المرجع السابق نقلاً عن النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٥: ٢٥٦.

(٣) المرجع السابق: ٥٦، نقلاً عن تاريخ دولة سلجوق لمؤلفه عماد الدين الأصفهاني.

الحركة الإسماعيلية الباطنية، ومضى الطرفان المتحالفان في تأليب عامة المسلمين، في إثارة الفتن، وتنفيذ الانقلابات، واستغلوا انقسامات السلاجقة، فاستولوا على قلعة ساهدز بالقرب من أصفهان عام ٤٨٨هـ-١٠٩٤م، فأصبحت القلعة مركزاً للتخطيط، ومنطلقاً للقضاء على من يناوئ دعوتهم، أو يقف في طريقها، فذهب ضحية الاغتيالات التي نفذوها عدد كبير من رجال الدولة السلجوقية، كالوزير نظام الملك صاحب المدرسة النظامية الشهيرة، وولده.

وفي بلاد الشام استمر الباطنيون في تنفيذ الاغتيالات، وعندما احتل الصليبيون فلسطين والساحل السوري، راح الباطنيون والفاطميون يستعينون بأمراء الصليبيين وملوكهم، ويعقدون معهم التحالفات ضد العالم السني، وقاموا بمحاولتين رهيبتين لاغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي، عندما كان صراعه على أشده مع الصليبيين، وقد نجا من المحاولة الثانية بأعجوبة، بعدما طعنه الباطنيون الذين تسربوا إلى جيشه، فسددوا له إصابة بالغة، فنقله الجند إلى سرادقه، والدم ينزف من وجهه، فتوقفت الحرب بين المسلمين والصليبيين في ذلك اليوم، وخاف الناس من بعضهم البعض، جراء تغلغل الباطنيين في صفوف جيش صلاح الدين، واضطرب الجيش، ولم يصدق الجند أن السلطان على قيد الحياة، وطالبوا برؤيته، فأظهره أعوانه، وعندما رآه الجنود سكتوا واطمأنوا[١].

---

(١) المرجع السابق: ٨٦-٨٨ .

٣- بعد أن أنشأ العارف بالله عبد القادر الكيلاني مدرسته التي كان لها أكبر الأثر في شعوب الأمة الإسلامية، والتي اضطلعت بدور فذٍ في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي على بلاد الشام، إذ كانت تستقبل أبناء النازحين الفارين من جيوش الاحتلال الصليبي، وتقوم بإعدادهم، ثم إعادتهم إلى مناطق المواجهة الدائرة بين المجاهدين والصليبيين تحت قيادة الزنكيين(١).

من جهة أخرى، تصدى عبد القادر الكيلاني لعقائد الفرق المعاصرة، وفصل تفصيلاً واضحاً في مناقشة العقائد الباطنية، لما مثلته الدولة الفاطمية، وفرق الإسماعيلية، وميز بين الجماعات المعتدلة -من غير أهل السنة- وبين الفرق التي تسترت بالتشيع، فذكر أن للفرق المستترة جذوراً يهودية، ومن ذلك قوله: قالت اليهود: لا جهاد في سبيل الله، حتى يخرج المسيح الدجال، وقالت الروافض: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي، وينادي منادٍ من السماء، واليهود تؤخر صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الروافض يؤخرونها، واليهود يبغضون جبريل عليه السلام، ويقولون هو عدونا من الملائكة، وكذلك صنف من الروافض يقولون: غلط جبريل بالوحي إلى محمد ﷺ، وإنما بعث إلى علي رضي الله عنه، وأنكر الكيلاني على متطرفي التشيع قولهم بعدم إمامة الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، وأكد أن خلافتهم كانت بعهد من النبي ﷺ، وأن علياً رضي الله عنه بايعهم.

(١) المرجع السابق: ١٨٧، ويراجع كتاب «الغنية» ففيها أوجه الشبه بين الرافضة واليهود، كما ذكرها الشيخ عبد القادر الكيلاني.

تاسعاً: لمحة عن الطائفة النصيرية

تنتسب الطائفة النصيرية إلى أبي شعيب محمد بن نصير الذي عاش في القرن الثالث الهجري، وقد عاصرت في ظهورها ونشأتها حركة القرامطة الباطنية الذين بدأ نشاطهم الديني والسياسي عام ٢٧١هـ، كما عاصرت زحف أبي عبد الله - داعي دعاة الفاطميين في المغرب العربي[١].

كان محمد بن نصير النمري (أو العبدي أو المهري كما جاء في بعض المراجع) مؤسس العقيدة النصيرية من بلاد الشام يمجد شخصيات فارسية مثل أزدشير وسابور اللذين يعدان -في نظر الفرس- تجسيداً للألوهية[٢].

وجدت الطائفة النصيرية في جبال بهراه الوعرة -جبال النصيرية فيما بعد- مأوى لها، فتوافدت إليها، واتخذت منها مسكناً دائماً لها حتى يومنا هذا. ومنذ أن استوطنوها أخذوا يفرضون عاداتهم وتقاليدهم عليها[٣].

شهد العصر البويهي (٣٣٣-٤٧٧) نشاطاً علمياً قام به كبار علماء المذهب الاثني عشري، من أمثال ابن بابويه القمي المتوفى سنة

---

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري - الدولة العباسية: ٣٠٢-٣١٨، وتاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن: ٣٦ الطبعة الثانية عام ١٩٥٨ .

(٢) العلويون النصيريون لأبي موسى الحريري: ٢٧ طباعة بيروت ١٩٨٠ .

(٣) النصيريون والنصيرية لمؤلفه رشيد تالقوت: ١٣ مطبعة دريفل - استنبول ١٩٣٨ .

٣٨١هـ والشيخ المفيد المتوفى ٤١٣هـ، والشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦هـ، والشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ، كما شهد العصر البويهي عملية التدوين النهائي لكتب الحديث المعتبرة عند رجال المذهب، والتي صارت تعرف عندهم بالأصول الأربعة، وهي: الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمي، والتهذيب، والاستبصار لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي[1].

١- بدأت حركة مناهضة الطائفة النصيرية للسلطة العربية الإسلامية في عصر الدولة (الزنكية-الأيوبية) التي تصدت للصليبيين، إذ الثابت أن السواحل الشامية إنما استولى عليها الصليبيون من جهتهم -أماكن سكنى النصيريين- وإن أعيان الطائفة يؤكدون على هذا، ويعتبرونه مصدر اعتزاز لهم، وفي تاريخهم، فعندما رفع أعيان النصيريين مذكرة إلى الحكومة الفرنسية في ٣-٧-١٩٣٦ قالوا فيها: هل يجهل فرنسيو اليوم بأن حملات الصليبيين ما كان لها أن تنجح، وما كان لحصونها أن تبقى إلا في القسم الشمالي الغربي من سورية، أي في بلاد النصيرية، إننا أكثر الشعوب إخلاصاً لفرنسا.

لهذا دبروا محاولة مزدوجة لاغتيال الفاتح صلاح الدين الأيوبي وإنهاء حياته، ولو وفقوا -كما يقول محمد كرد علي- إلى قتله لقتلوا أمة بأسرها[2].

---

(١) ميزان الاعتدال ج٢: ٢٣٥ للذهبي، والفتاوى لابن تيمية ج٥: ٣٩، والخطط للمقريزي ج٤: ١٨٤ .

(٢) خطط الشام ج٢: ٥٣ لمحمد كرد علي، والمختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء، أحداث سنة ٥٧١ .

وعندما تصدى الحاكم المملوكي الظاهر بيبرس لحملات المغول، وأفلح في صد اجتياحهم الأسود للمنطقة العربية، أيدهم النصيريون، فكانوا لهم عوناً، فما دخل التتار بلاد الإسلام، وتمكنوا من حلب ودمشق وغيرهما من الحواضر الإسلامية إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم لهم. لهذا، ما إن انتهى الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ من التتار، وقضى على جموعهم الكاسرة -مع قطز- في عين جالوت ١٢٦٨م، ودفع عن الشام عادية المغول، حتى توجه إلى حصون النصيرية وقلاعهم، فعمل فيها الهدم والتخريب.

يقول ابن تغري بردي: ثم خرج الظاهر بيبرس من دمشق، وتوجه بطائفة من عسكره، كما توجه ولده وبيليك الخازندار - أحد كبار قواده بطائفة من المعسكر إلى جهة أخرى، وتواعدوا على اللقاء في يوم واحد، وبمكان معين، ليشنوا الغارة على جبلة، واللاذقية والمرقب القريبة من بانياس، وعزقة ومرقبة والقليعات وصافيتا والمجدل وطرطوس(١).

ثم أعاد الكرة عليهم سيف الدين قلاوون ١٢٧٩-١٢٩٠م وحظر عليهم نشاطهم.

٢- في مطلع القرن الثامن للهجرة، خرجت النصيرية في عصيان، قاده رجل منهم يقال له: محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله،

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ج٧: ١٥٠، والمختصر في تاريخ البشر ج٤: ١١، وبروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢٥١ لندن ١٩٥٩ .

وتارة يدعى علي بن أبي طالب فاطر السماوات والأرض، وتارة يدعي أنه محمد بن عبد الله صاحب البلاد، خرج يكفر المسلمين واحتوى على عقول كثير من كبار النصيرية، فحملوا على مدينة جبلة فدخلوها، وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها، وخرجوا منها يقولون: لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد، ولا باب إلا سلمان -وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن هذا يذكر بالمظاهرات التي انطلقت في القسم الجنوبي من العراق إثر احتلال الأمريكان للعراق عام ٢٠٠٣ يهتفون: لا إمام إلا علي، ونريد حاكم جعفري- فلم يكن لأهل جبلة ناصرٌ ولا مُنجد، وأمر المهدي أصحابه بخراب المساجد، واتخاذها خمارات، وكانوا يقولون لمن أسروه من المسلمين، قل: لا إله إلا علي، واسجد لإلهك المهدي الذي يحيي ويميت، حتى يحقن دمك[1]، وهذا نفسه الذي وقع في عصرنا لمدينة حماة عندما احتلها الطائفيون ووحدات من الجيش -الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع و...- وقتلوا من أهلها عشرات الألوف، بأساليب تقشعرّ من هولها الأبدان، وهجّروا زهاء مئة وخمسين ألفاً هاموا على وجوههم في شمال المدينة وجنوبها، وفي باقي المدن السورية، وكثير من البلاد العربية والأجنبية التي هاجروا إليها، مع أعداد كبيرة من المفقودين، ولاسيما من الفتيان والفتيات، أما من بقي على قيد الحياة، وعجز عن الرحيل، أو وقع في الأسر، فكان البغاة المتوحشون يقولون له: (اركع لحافظ أسد)، وهذا ما تواترت به الروايات والأخبار من طيف

(١) المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء ج٤: ٥٣ .

واسع حضروه وسمعوه وشاهدوه.

ومع هجوم المغول في مطلع القرن التاسع الهجري بزعامة تيمورلنك الأعرج الذي عصف بالحياة المدنية والفكرية في بلاد الشام، وقفت النصيرية من جديد بجانب الغزاة، يغرونهم بالعداوة وشن حملة إبادة ضد العرب والمسلمين[١].

عاشراً: النصيرية في العصر الحديث

جرت محاولات جادة ومتكررة لدمج الطائفة العلوية بالمجتمع السوري في سنوات القرن العشرين، عندما كانت تركيا تحكم بلاد الشام، وكذلك بعد زوال الحكم التركي، من أشهرها ما قام به متصرف اللاذقية ضياء الدين الذي كتب تقريراً إلى السلطان عبد الحميد يقول فيه: إن النصيرية أداة بيد إيران، فهم يميلون بعواطفهم إليها، كما أن وجود الأمريكان في بعض أنحاء الجبال يضر بسياسة الدولة، فلابد من إقامة مدارس حكومية للاستعاضة عن المدارس الأمريكية، فأخذ السلطان برأيه ووافقه على مقترحه.

استدعى المتصرف رؤساء النصيرية، وكتب بحضورهم مذكرة إلى السلطان قال: إن جميع أبناء الطائفة دخلوا في الإسلام عن رضا وطيبة خاطر، وأنهم أرسلوا رؤساءهم ومشايخهم لينوبوا عنهم بالإقرار والاعتراف بإسلامهم، فشرع المتصرف بتشييد المدارس والمساجد، وأقنع السلطة بأنهم مسلمون، وما إن توفي المتصرف حتى قام

---

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي ج٢: ١٧٢ .

النصيريون بحرق المساجد وهدمها، وتحويل المدارس إلى مساكن[1].

وقد تكررت هذه المحاولات في ظل الحكم الوطني في سورية على نطاق شعبي، وبجهود من الدعاة والعلماء، ولاسيما في محافظة حمص، وفتح كثير من النصيريين قلوبهم للإسلام، وزالت الحواجز فيما بينهم وبين السكان الآخرين، وفرح سكان المدن في حمص وحماة وغيرهما في هذا التقارب بين أبناء الأمة الواحدة الذي ظهر جلياً في بعض قرى النصيريين مثل قرية شين وغيرها، ولا ينسى من يرصد هذه الأحداث جهود الرجل الصالح الشيخ بكور رحمه الله، وكانت الأمور تسير في الاتجاه الصحيح لترسيخ الأخوة الإيمانية والوطنية بين أبناء الأمة الواحدة، لولا انقلاب ٨ آذار سنة ١٩٦٣، وتسلط هذه الفئة ذات الروح الطائفية الباطنية على مقدرات سورية، فأفسدت هذا الأمر وغيره في الوطن الذي حلت به هذه النكبة باستلامهم السلطة وتسلطهم على الحكم.

أ- أطلقت فرنسا على منطقة جبال النصيرية شعباً وأرضاً عام ١٩١٩ تسمية بلاد العلويين[2]، بعد أن كانت تسمى لأكثر من عشرة قرون، الطائفة النصيرية وجبال النصيرية، بل إن كتب الجغرافيا في ثلاثينيات القرن العشرين استمرت في تسمية جبال النصيرية، كما

---

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي ج٣: ١٠٨ دمشق ١٩٢٥ ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن بدوي ج٢: ٤٩٩ بيروت.

(٢) سورية والعهد الفيصلي ليوسف الحكيم: ٥٢-٥٣، وسورية ولبنان وفلسطين ج٢: ٢٢٠ لفيليب حتي.

شاهدتـها في صفـوف المرحلة الابتـدائية عام ١٩٣٨، وقـد زعم دعيٌّ يعيش في أوربا، ويصـدر نشرة أسبوعية أن الإخوان المسـلمين أطلقوا علـى العلويـين اسم الـنصيـرية حـتى عـمّت[1]، وهذا ادعـاء يجـافي الحقيقة كل المجافاة، بل هو على عكس الواقع، فجميع كتب التاريخ والجـغرافيـا في القديم والـحديث تخلـو على سبـيل الحصـر من اسم العلويين، وكـلها مثل مروج الذهـب للمسعودي والكـامل لابن الأثير والبداية والنهاية لابن كثير وعشرات المراجع القديمة والحديثة التي مر معنا عدد منهـا مثل خطط الشام لمحمد كرد عـلي وغيره درجت على تسـمية جـبال العلـويين والطائـفة العلـوية، بجبـال النصيـرية والطائـفة النصيرية، حتى أصدر المفوض السـامي عام ١٩١٩ التسمية الجديدة: جبال العلويين وطائـفة العلويين، وقد ارتاح النصيريون لهـذه التسمية، وتمسكوا بهـا، وأعلنوها وعمموهـا حتى صارت مألوفة ومـعروفة منذ أوائل الأربعينيات من القرن الماضي، وحتى يومنا هذا، فدخلت كتب التاريخ والجغرافيا والمناهج بالمقررات المدرسية.

وفي تقـديري أن من حـق أي شخص أو فـئة أو طائـفة أن تسـمي نفسهـا بما تشاء، وأن تتمسك بالـتسمية التي تراها وترتـاح لها، وربما يشكل ذلك خطـوة إيجابية على طريـق التقارب بين الطوائـف، ويمهد لتفـاهمها ودمجهـا وانصهارها في بـوتقة الأمة الواحدة، كـما أراد الله تعالى لأمتنا في كتابه العزيز، وإن من أدبياتنا ومن سنة نبينا ومصطفانا أن يُنادى الإنسـان بأحب الأسماء إليه، وإن نـسبة طائفة من أمـتنا إلى

---

(١) ينظر في الصفحات ٣٧٩-٣٨٦ مـن هذا الكتـاب، رسـائل قـادتهم إلى الـحكومـة الفرنسية باسم بلاد النصيرية.

سيدنا علي خليفة المسلمين وأميرهم أحبُّ إلينا وإليهم من انتسابهم إلى ابن نصير النمري أو النهري أو أي من هذه الأسماء التي تفرق ولا توحد وتثير التنازعات، ولا تجمع بين القلوب.

ب- لقد لعبت فرنسا منذ وطئت قدمها أرض الشام بالورقة الطائفية، ووظفتها لصالحها أسوأ ما يفعله المستعمرون في البلاد التي وقعت في قبضتهم، وهيجوا أبناء الأقليات الدرزية والإسماعيلية والعلوية على الحكومات العربية في سورية، وشجعوهم على الانفصال عن الوطن الأم، فقد أرسل الجنرال غورو -الذي قاد جيش الاحتلال، وعينته فرنسا مفوضاً سامياً في بيروت- برقية إلى رئيس وزراء فرنسا، وإلى وزير خارجيتها في ٢٩-١٢-١٩١٩ يعرض فيها الموقف الذي ينبغي اتخاذه من حكومة فيصل -وكان فيصل إذ ذاك في باريس- كي تتأمّن السيطرة الفرنسية على سورية بشكل كامل، وركز غورو في تقريره: وأفيدكم بهذا الصدد أن النصيريين قد ساعدوني كثيراً في قمع الفتنة التي أثارها الشريف في منطقة تلكخ، وقد تلقيت برقية تفيد أن ٧٣ زعيماً نصيرياً يتحدثون باسم القبائل، يطالبون بإنشاء اتحاد نصيري مستقل تحت حمايتنا المطلقة، ويضيف غورو: إن انقسامات سورية -السوريين- ذات فائدة كبيرة لنا من أجل احتواء الحركة المنظمة ضدنا، وطلب غورو من الحكومة الفرنسية أن لا تتساهل في التعامل مع فيصل، لأن من شأن ذلك إنقاذه[١].

---

(١) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، نقلاً عن كوثراني في كتابه: بلاد الشام: ٢٠٩-٢١١.

٤- أين تقع ثورة صالح العلي من موضوع تعاون العلويين مع فرنسا، وهي التي حملت السلاح ضد الفرنسيين؟ يقول محمد كرد علي في كتابه الشهير (خطط الشام): إن ثورة صالح العلي ترتبط بالصراع الذي كان قائماً بين النصيرية والإسماعيلية، وهو صراع قديم منذ أيام الدولة الفاطمية، ثم اشتد في الحقبة التي استولى فيها الإسماعيليون على قلعة قدموس التي كانت تُعدُّ من أهم مراكز النصيرية، وقد غذَّت هذا الصراع حكومة الملك فيصل برجال من جيشها، كما غذَّته الحركة الكمالية، لإخراج الفرنسيين من الأراضي التركية في كيليكية، فأمدت صالح العلي بالسلاح[١]، لإيجاد عامل ضغط على الفرنسيين، أثمر انسحابهم من كيليكية عام ١٩٢١، فعقد الأتراك اتفاقاً مع الفرنسيين، وتخلوا عن صالح العلي، وفي هذا الوقت استعان غورو بقادة العلويين الذين مر ذكرهم، لإنهاء النزاع بين فرنسا وصالح العلي، كما طلب الفرنسيون من أحد زعماء الجبل وهو أحمد الحامد أن يعرض على الشيخ صالح العلي رغبتهم في إنهاء الحرب والدخول في مفاوضات(٢)، فانتهت الثورة باستسلام صالح العلي في تشرين الأول عام ١٩٢١[٣].

---

(١) بلاد الشام للكوثراني: ٣٧٢ -٣٧٣، الملحق ١٩، ووثائق مختارة عن بلاد النصيرية بقلم الكولونيل نيجر، نُشرت في مجلة العالم الإسلامي في آذار ١٩٢٢ العدد ٤٩، وكتاب قصة الكفاح الوطني في سورية عسكرياً وسياسياً حتى الجلاء لمؤلفه علي رضا: ٣٤ .

(٢) المرجع السابق لعلي رضا: ٣٢ .

(٣) بلاد العلويين.

تكشف البرقيات المتبادلة بين رئيس الوزراء الفرنسي مليران والجنرال غورو بعد احتلال دمشق مباشرة، أن مليران ذكر في برقية مؤرخة في ٦-٨-١٩٢٠ تحمل عنوان: مخطط لتنظيم الانتداب في سورية، استعرض الخطوط العريضة لتنظيم الجماعات التي تتشكل منها المنطقة فيقول: بالنسبة لهؤلاء المقيمين في المنطقة الساحلية، والذين يتكلمون اللغة العربية، يشكلون جماعة دينية، مرتبطة نظرياً بالإسلام، لكنها في الواقع منفصلة عنه تماماً، ويجب أن لا تندمج بالمسلمين[١].

في الأيام الأولى من أيلول ١٩٢٠ أصدر غورو عدة قرارات تقضي بتقسيم سورية إلى دويلات، دولة لبنان -الكبير- ودولة حلب، وقد منحت بلاد النصيرية إدارة مستقلة، نص القرار بشأنها: إنه لما كان النصيرية قد صرحوا مراراً بآمالهم أن يكون لهم إدارة قائمة بذاتها، تحت رعاية فرنسية، لذا يجب أن تنشأ مقاطعة تجمع أكثر هؤلاء، ليتيح لهم أن يواصلوا السعي في سبيل مصالحهم السياسية والاقتصادية، تحقيقاً للآمال التي صرحوا بها[٢].

وبغية إعطاء النصيرية حجماً يوازي حجم دمشق وحلب أعلنت فرنسا أول تموز/يوليو سنة ١٩٢٢ قيام دولتهم المستقلة، فتألفت من لواء اللاذقية، بما فيه أقضية صهيون وجبلة وبانياس وحي الأكراد

---

(١) انظر كوثراني - بلاد الشام: ١١٧، ٢٢٠-٢٢١، ٢٢٩، أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية.

(٢) الوثائق التاريخية للسيد حسن الحكيم: ٢٥٤، الوثيقة ٤٣ .

-والمرقب- وصافيتا ولواء طرابلس الشام القديم، وناحية طرطوس، وقضاء مصياف من أعمال حماة، وقد قدرت مساحة الدولة العلوية بين ٦٥٠٠-٧٠٠٠كم٢[١].

وفي إطار أهداف النصيرية -العلويين- رفض مجلسهم -مجلس دولة العلويين- أيَّ فكرة للوحدة مع دمشق وحلب، وجاء في خطاب للجنرال ويغاند الذي خلف الجنرال غورو في مهماته: إن مجلس دمشق وحلب قد طلبا الوحدة - السورية، ورفضها مجلس النصيريين، مما دفعه لوضع برنامج وافقت عليه الحكومة الفرنسية، يقضي بإقامة الوحدة بين دمشق وحلب، وإبعاد دولة النصيرية خارجة عنها[٢].

قامت السلطات الفرنسية بتعيين مفوضٍ سامٍ هو الجنرال سراي، فتحركت وفود سورية كثيرة إلى بيروت، لتحدثه عن سيئات التجزئة المبنية على التفرقة الطائفية، والأساليب المتبعة في التعليم، وخاصة في البلاد النصيرية[٣].

اندلعت ثورة كبرى ضد الاحتلال الفرنسي عام ١٩٢٥، واستمرت ما يقرب من سنتين، شملت البلاد كلها باستثناء الجزء الذي يقطنه العلويون، فقد ذكر المؤرخون وكاتبو المذكرات من الساسة عن تلك

---

(١) بلاد الشام للكوثراني: ٢٣٥-٢٣٦ .

(٢) المشرق العربي في مواجهة الاستعمار لمؤلفه ذوقان قرقوط: ٥٧-٥٨ .

(٣) المرجع السابق: ٥٨ .

الحقبة أن جبال العلويين لم تشهد أي مشاركة في ثورة ١٩٢٥ والتي تعد علامة فارقة في النضال الوطني من أجل التحرر والاستقلال، ودخول سورية في مرحلة حاسمة من نضالها في أعقاب الثورة السورية الكبرى التي هزت فرنسا، وجعلتها تتخذ سلسلة من الإجراءات تمهيداً لاستقلال البلاد ووحدتها، فكان أول تنازل من فرنسا للوطنيين، تغيير الاسم لجبل العلويين -دولة العلويين- إذ استعيض عن اسم دولة العلويين المثير -للقلق- باسم حكومة اللاذقية، بموجب القانون التنظيمي الذي أصدرته السلطات الفرنسية في ١٤-٥-١٩٣٠، فأبدى الزعماء النصيريون قلقهم.. إلخ[(١)].

٥- سارع العلويون في مواجهة هذه المتغيرات، وكسر المد الوطني، فقدم زعماؤهم إلى سلطات الاحتلال العديد من المذكرات التي تطالب بالإبقاء على انفصال منطقتهم. فقد ذكر المفوض السامي هنري بونسو في خطاب بعث به إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسية بتاريخ ٢٨-٤-١٩٣٣ أن وفداً من وجهاء النصيرية يترأسه رئيس المجلس التمثيلي في اللاذقية -إبراهيم الكنج- وصل إلى بيروت ليعرض وجهة نظرهم بشأن وحدة البلاد السورية، وقد حدد رئيس المجلس الموقف بقوله: إننا لا نريدها، بل على العكس، نحن نعارضها، فالسوريون يعادوننا من الوجهة الدينية، ومن جهة أخرى، فهم شديدو الانعزال عنا، وبهذا، فلا يمكن لنا التعاون معهم، وأكد أن العلويين يعارضون أي ارتباط لهم مع سورية، حتى ولو كان ذلك

---

(١) المرجع السابق ذوقان قرقوط: ٩٩-١٠٠ .

على شكل اتحاد فيدرالي(١).

وفي خطاب آخر للمفوض السامي بونسو المؤرخ في ١٦-٦-١٩٣٣م إلى وزير الخارجية الفرنسية، يؤكد أن المطالب الشعبية بالوحدة أثارت موجة من الغضب لدى الأوساط النصيرية، مرفقاً مع خطابه مذكرة مؤرخة في ١٢-٥-١٩٣٣ بعنوان: النصيرية قبل الانتداب وبعده تحمل اسم أحد أعضاء المجلس التمثيلي لحكومة اللاذقية، وهو محمد سليمان الأحمد -بدوي الجبل- الابن الأكبر للشيخ سليمان الأحمد أحد زعماء العلويين البارزين، جاء في المذكرة: إن النصيرية ليسوا بمسلمين، والعالم الشهرستاني صاحب أكبر موسوعة إسلامية تبحث في الأديان، يذكر في كتابه (الملل والنحل): أن المذهب النصيري من المذاهب الإلحادية، ولا صلة له بالدين الإسلامي وتشير المذكرة إلى أن كتب التاريخ والشريعة الإسلامية تعتبر ادعاء النصيرية بأن القرآن كتاب مقدس بالنسبة إليهم، وتسمية أنفسهم مسلمين محض افتراء، لجأوا إليه لتغطية زندقتهم، وتقول المذكرة: إن النصيريين رحبوا باحتلال سورية، وإن كان هناك في بادئ الأمر عدم تفاهم بينهم وبين سلطات الانتداب، إذ كانت ثورة صالح العلي نتيجة حتمية لذلك، ولكن الفرنسيين استثمروا هذه الثورة استثماراً نبيلاً، حيث شملوا زعيمها -الشيخ صالح العلي- بالعفو، وعاملوه معاملة نبيلة. وتخلص المذكرة إلى تأكيد تمسك

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الفرنسية، سورية ولبنان، الملف٥١٠، وثيقة١٢٤ : ١١٤ .

النصيرية بالاستقلال، وأنهم -العلويين- يرون في فرنسا منقذهم في هذا المجال[1].

في ٢٥-٢-١٩٣٦ أصدر المفوض السامي الكونت دو مارتيل بياناً أعلن فيه الاستعداد للدخول في مفاوضات لعقد معاهدة على أساس الاعتراف باستقلال سورية ووحدتها، فاجتمع رجال الكتلة الوطنية في دمشق، وانتخبوا أعضاء الوفد المفاوض الذي غادر إلى باريس في ٢١-٣-١٩٣٦، وبينما كان الوفد يتابع مفاوضاته مع الحكومة الفرنسية، باتجاه زوال الانتداب، وإلغاء تجزئة البلاد، وحصولها على الاستقلال، تلقى المفوض السامي مذكرات متتالية من زعماء العلويين ونوابهم في المجلس التمثيلي لحكومة اللاذقية، تعلن معارضتهم لتحقيق الوحدة السورية، وتطالب بالإبقاء على انفصال منطقتهم، وعدم إدراجها موضوعاً في جدول المفاوضات، وخلال شهر واحد، بعثوا بأربع مذكرات مؤرخة في ٨ و١١ و٢٤ و٢٥ حزيران ١٩٣٦، ولأهمية تلك المذكرات التي لا تزال غير منشورة، ندرج نصوصاً منها بإيجاز شديد، فقد جاء في المذكرة المؤرخة في ٨ حزيران ما يلي:

«لقد جاءت حكومة الانتداب إلى بلادنا، ونحن مستقلون عن كل سلطة بقوة سلاحنا، ومنعة جبالنا، وهذا الاستقلال الغريزي دفع فريقاً منا في بادئ الأمر إلى محاربة الجيش الفرنسي احتفاظاً به -المقصود ثورة صالح العلي- ولكن الفريق الأكبر وثق بشرف فرنسا وتاريخها، فوضعنا يدنا بيد الانتداب الذي قدّر لنا هذه الثقة، فحفظ لنا استقلالنا

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الفرنسية، سورية ولبنان، الملف ٢٨٥ وثيقة ٢٠٥: ٤٦ .

ونظّمه، ومنذ ذلك الحين أخلصنا لفرنسا إخلاصاً لا حد له، وزاد في هذا الإخلاص أن جميع المفوضين الساميين كانوا يصرحون ويعدون باسم فرنسا بضمان هذا الاستقلال وحمايته، وكنا نتقبل هذه الوعود والتصريحات، كما نتقبل كلام الله، إذ لم يخطر في بالنا قط أنه يمكن لفرنسي يمثل حكومته، أن يعد ثم يحنث في وعده، وكم كانت دهشتنا عظيمة حين رأينا الفرنسيين المسؤولين -لأول صدمة صغيرة يتلقونها من السوريين- يتناسون جميع وعودهم السابقة، ويعدون السوريين بتصريح رسمي بإمكان إلحاقنا بسورية، وكأن استقلالنا هبة من فرنسا، تعطيها حين تريد، وتمنعها حين تريد، وزاد من دهشتنا، أن قضيتنا مع الأسف لم تكن -أثناء المفاوضات الفرنسية السورية- موضع نظر وعطف ومحافظة الفرنسيين على وعودهم، بل كانت -كما كتبته جميع الصحف- موضع مساومة، وعملية بيع وشراء، كأننا من عبيد إفريقيا، يباعون لأسيادهم دون أخذ موافقتهم، وهذا أمر لم نكن نتصوره ولا في الأحلام، تجاه ذلك رأينا أن نحدد موقفنا من فخامتكم بصراحة متناهية، لأننا أمام كارثة عظمى، وعلى وشك الاستشهاد في ميدان الشرف، ونزيد على ذلك، أننا لا نسمح حتى ولا لفرنسا الكريمة المحسنة، أن تتصرف باستقلالنا، وتهبه هدية لمن تريد، متناسية إخلاصنا وتضحيتنا من جهة، ووعودها وتأكيداتها من جهة أخرى، غير مهتمة بحكم التاريخ، إننا لا نزال على شيء من الثقة في فرنسا، فإذا أرادت أن تحافظ على هذه الثقة، فعليها أن تجيبنا إلى أحد هذين المطلبين:

الأول: إصدار وثيقة رسمية تعلن فيها فرنسا احترامها وضمانها لاستقلال النصيرية تحت إشرافها.

والثاني: إرسال وفد نصيري رسمي يمثل حكومة اللاذقية للدفاع عن الاستقلال النصيري تحت إشرافها، ومعاضدته من الحكومة الفرنسية المسؤولة، فإذا لم تتفضل الحكومة الفرنسية بقبول أحد هذين المطلبين، فإننا نصارحها القول: إننا نحبها، ولكننا نحبها لأنها تريد لنا الخير، فإذا تلاشى هذا الأمل تماماً، فنحن أحرار باتخاذ الموقف الذي تقضي به غريزة الاستقلال المتأصلة فينا، مبتدئين في إعلان العصيان المدني في جميع المنطقة»[1].

وجاء في المذكرة المؤرخة في ١١-٦-١٩٣٦:

«إن النصيرية الذين يشكلون الأكثرية الساحقة من سكان حكومة اللاذقية، يرفضون الرفض الجازم رجوعهم إلى الحكم الإسلامي، وإنه يستحيل على فرنسا الممثلة بأحزابها البرلمانية أن تقرر عبودية شعب صغير صديق لأعدائه التاريخيين الدينيين» وتضيف المذكرة:
"ولكي تتأكدوا من عمق الهوة التي تفصل بيننا وبين السوريين، وتتصوروا الكارثة المفجعة التي نحن على أبوابها، نرجوكم التفضل بإرسال لجنة نيابية، لتطلع على الحالة كما هي، ولترى: هل في الإمكان إلحاق النصيرية بسورية دون التعرض لمأساة دامية، تكون لطخة سوداء في تاريخ فرنسا، مع إيقاف المفاوضات الفرنسية السورية

(١) سجلات وزارة الخارجية الفرنسية، سورية ولبنان، الملف رقم٤٩٢، وثيقة ٤١٢: ١٩٣ وما يليها.

فيما يخص بالنصيرية؟»[1].

وجاء في المذكرة المؤرخة في ٣-٧-١٩٣٦:

«هل إن فرنسيي اليوم يجهلون بأن حملات الصليبيين لم تحقق بقاءً طويل الأمد، ولم تبن حصونها، ولم تمتزج بالسكان إلا في القسم الشمالي الغربي من سورية أي في بلاد النصيرية، حيث دولة اللاذقية الحالية؟ وإننا أكثر الشعوب السورية إخلاصاً لفرنسا، وإن فرنسا لن تدنس تاريخها المشرف بجريمة اتحادنا مع سورية»[2].

هذا بالإضافة إلى عرائض محلية صادرة عن القرى النصيرية المختلفة، (انظر مثلاً: سجلات وزارة الخارجية الفرنسية، سورية ولبنان، الملف ٤٩٣، الوثيقة ٦٩٤ عريضة مؤرخة في ٢٤-٦-١٩٣٦، والوثيقة ٧٠٥ عريضة بتاريخ ٧-٧-١٩٣٦، والوثيقة ٧٧٣ عريضة بتاريخ ٢٠-٧-١٩٣٦، والوثيقة ١٢-٨-١٩٣٦، تطالب جميعها بالحفاظ على الاستقلال الذاتي للنصيرية في ظل الانتداب الفرنسي).

ففي مذكرة مؤرخة في ١٢-٥-١٩٣٦ بعث بها وزير خارجية فرنسا إلى الجنرال ويغاند الحاكم العسكري الفرنسي العام جواباً على استفسار الأخير عما يمكن إعطاؤه من تطمينات لممثلي النصيرية قال:

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الفرنسية، سورية ولبنان، الملف رقم٤٩٢، وثيقة ٤١٢: ١٩٣ وما يليها.

(٢) المرجع السابق، الملف ٢٩٤: ٥٣ .

يبدو لي أن أفضل حجة نوردها هي: إبلاغهم بأن الحكومة الفرنسية ليست لها نية في تغيير صيغة استقلالها الذاتي كما وردت في النظام الخاص الملحق بالقرار المؤرخ في ١٤-٥-١٩٣٠ دون الرجوع إليهم(١).

هذا بالإضافة إلى أن العلويين كأقلية -كما جاء في كتاب وزير خارجية فرنسا- أصبحوا لا يستجيبون إلى صيغة أكثر تطوراً، تسمح لها بالتحرك من خلال الأوضاع الجديدة على الصعيدين المحلي والدولي، والمنطلق الفرنسي هذا يجد تعبيراً واضحاً في أحد التقارير السرية المرفوعة للخارجية الفرنسية بتاريخ ٢٥-٤-١٩٣٦ إذ يقول: إن التنظيمات السياسية العشائرية التي تتألف من أربعة أحلاف عشائرية هي: الحدادون والخياطون والكلبية والمتاورة، والتي كان اعتمادنا عليها لتشكيل العمود الفقري للاستقلال الذاتي، والتي يشكل زعماؤها أعضاء المجلس التمثيلي، بدأت الآن تفقد قدرتها، كما أخذت الدعاية الوحدوية الدمشقية تستقطب الزعماء العشائريين الثانويين الطموحين، إضافة إلى أن انتشار التعليم الابتدائي صار يهدد الرابطة الباطنية القديمة التي لم يعد جهازنا الوعظي الساذج يرضي الأجيال الجديدة(٢).

وهذا يفسر توجّه الجيل الجديد إلى السلطة، ليس تحت شعار الطائفة، بل تحت الشعارات الوطنية والقومية، كما يقدر بعض

---

(١) المرجع السابق، الملف ٤٩٢ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الفرنسية، سورية ولبنان، الملف رقم ٥١٥: ٢٠٦ .

الباحثين المعاصرين.

٧- كانت توجيهات وزير الخارجية الفرنسية إلى المندوب السامي في بيروت: إن من المهم في الواقع، أننا ونحن نحافظ على ثقة النصيريين بنا، أن لا نشجعهم على أن يطلبوا منا مالا نستطيع، فذلك يؤدي إلى حوادث تتمخض عن خيبة أملهم[١].

وفي ذلك ما يدل على أن السلطات الفرنسية كانت أول الأمر تشجع مثل هذه الميول والاتجاهات.

ويضيف وزير الخارجية فينو في توجيهاته للمفوض السامي: أرجوكم أن تبلغوا رئيس المجلس التمثيلي بالنيابة عني بأن مذكراته المختلفة تحظى بكل اهتمامي، وأن الحكومة الفرنسية تسعى في مباحثاتها مع الوفد السوري إلى ضمان الاستقلال الذاتي السائد حالياً، ويبقى معلوماً أن هذا التبليغ يهدف إلى تهدئة القلق المحتد، وليس إلى تشجيع آمال مبالغ فيها[٢].

في مكان آخر يشير وزير الخارجية إلى الكتب المختلفة التي وردته من رئيس المجلس التمثيلي، والتي بينها ما يطلب -فيه- السماح بإرسال وفد من اللاذقية إلى باريس، فيقول: إن من المستحيل طبعاً أن أستجيب لهذا الطلب، وأرجو منكم إبلاغ إبراهيم الكنج أن كل المسائل التي تخص اللاذقية ستبحث في أوانها بين

---

(١) المصدر السابق، الملف ٤٩٣، البرقية المرقمة ٤٣٧-٤٣٩ بتاريخ ٢-٧-١٩٣٦ .

(٢) المصدر السابق.

المفوض السامي والممثلين المؤهلين للسكان ذوي العلاقة، إنني أذكركم بأن كل جهودنا يجب أن تتوجه نحو تجنب أي تعبير عن مطالب ليس لنا قدرة على الاستجابة لها[1].

جاء هذا الموقف الحاسم من فرنسا بعد أن رفع رئيس وأعضاء المجلس التمثيلي من النصيرية إلى وزير خارجية فرنسا عريضة بتاريخ ٢٤-٦-١٩٣٦ -وربما كانت أخطر العرائض وأوضحها- جاء فيها:

«نحن نرفض رفضاً قاطعاً أي اندماج بسورية، نحن نطالب باستقلالنا تحت وصاية فرنسا، إن الوفد السوري الموجود في باريس حالياً لا يملك حق تمثيلنا، إن من غير المعقول أن تتخلى فرنسا الحرة عنا، نحن الشعب الصغير الضعيف الوفي، دون علمنا، وخلافاً لرغبتنا التي عبرنا عنها بوضوح، إن ما يخيب أملنا أن نرى حقوقنا تهضم، وتداس من قبل فرنسا نفسها، إن كتبنا وبرقياتنا التي وجهناها إلى هذه الوزارة بقيت تنتظر الرد، إن الحاكم والموظفين الفرنسيين المحليين في حيادهم الصامت، ومحاولتهم تهدئتنا، يساومون على قضيتنا، إننا نلتمس إرسال وفد يمثلنا إلى باريس، أو إيقاف المباحثات التي تخصنا في باريس لحين قدوم لجنة برلمانية فرنسية غير منحازة إلى هنا لدراسة الحالة، إننا نتوجه للمرة الأخيرة إلى وفاء فرنسا لإنسانيتها ولوعودها في الحفاظ على استقلالنا. إننا متمسكون بشدة بقرارنا بمقاومة الهيمنة السورية بكل السبل، وحتى بالقوة

---

(١) المصدر السابق، الملف ٤٩٣، برقية من وزير الخارجية إلى المفوض السامي في بيروت مرقمة ٥٥٧ في ٢٥-٨-١٩٣٦ .

وستكون فرنسا مسؤولة عن الدماء التي ستسيل، وإن كان استقلالنا مستحيلاً دولياً، فإننا نوافق على التباحث مع لبنان حول اتحاد يضمن استقلالنا الذاتي الكامل تحت حماية فرنسا»[1].

وجاء في كتاب مؤرخ في ٢٥-٦-١٩٣٦ موجه من رئيس المجلس التمثيلي لحكومة اللاذقية إبراهيم الكنج إلى وزير خارجية فرنسا إيفون ديلبوس تركز المطالب فيه حول الاتحاد مع لبنان جاء فيه:

«كانت فرنسا في الماضي وعدتنا بالاستقلال تحت حمايتها، وقد حافظت على هذا الاستقلال ونظمته خلال الستة عشر عاماً الماضية، ونحن لا نرى إلا أنها تنسى التزاماتها ومهمتها التحريرية عندما توافق الآن على التضحية بنا إلى أعدائنا القدماء خلافاً لمصلحتنا، ولأجل إثبات حسن نوايانا واهتمامنا بالمصلحة العامة، وفي حالة الاستحالة كلياً للإبقاء على استقلالنا من وجهة النظر الدولية، فنحن نوافق على بحث اتحاد دولتنا بلبنان، البلد الجار الذي يتألف مثل بلادنا من أقليات سنتوصل دون شك إلى التفاهم معها»[2].

أما المسوّغات التي وردت في مذكرة -بل مذكرات- الكنج فهي بإيجاز شديد: أن البلاد التي تشكل حكومة اللاذقية كانت في العهد العثماني ترتبط بولاية بيروت، وكانت لها صلة اقتصادية واسعة مع

---

(١) سجلات الخارجية الفرنسية، سورية ولبنان، E.4/22 الملف رقم 493: ٨.

(٢) المرجع السابق: ٧.

طرابلس وبيروت، والتقارب بين التشريعات السارية في حكومة اللاذقية والتشريعات اللبنانية، بخلاف التشريعات السورية، وأن لبنان يتألف من أقليات دينية، وهو في ذلك يشبه حكومة اللاذقية، فيكون طابع الاتحاد ضامناً للأقليات، وأن عدد السكان في هذا الاتحاد يكون ١٫٣ مليون (٩٥٠٫٠٠٠ في لبنان و٣٥٠٫٠٠٠ في دولة اللاذقية) فيكون بمقدور هذه الكتلة أن توازن سورية التي يبلغ عدد سكانها ١٫٧ مليون ضمن حدودها الحالية.

عرضت تفاصيل مشروع اتحاد دولة اللاذقية بلبنان في مذكرة رفعها النصيرية إلى دائرة المفوض السامي بتاريخ ٢٠-٨-١٩٣٦، فذكر المفوض السامي أن المذكرة عرضت على البطريك الماروني، وعلى رئيس الجمهورية اللبنانية، دون أن يشار إلى موقف هاتين الشخصيتين منها[١].

وردت جملة في المذكرة تجدر الإشارة إليها، تذكّر أن المجلس التمثيلي لدولة اللاذقية يضم ١٧ عضواً منها ١٢ عضواً نصيرياً يؤيدون الاستقلال -انفصال جبال العلويين وما حولها عن سورية- و٥ يؤيدون الوحدة مع سورية، منهم ٣ من السنة، واثنان من النصيرية، لاعتبارات انتخابية -كما زعم أصحاب المذكرة- وفي هذا دلالة تلفت النظر، وهي أن الزعماء الانفصاليين من العلويين، وعلى رأسهم إبراهيم الكنج لم يستطيعوا دفع العلويين جميعاً إلى طريق الانفصال، رغم التأييد الفرنسي، وتعبئة العلويين وتخويفهم، وضرب الحصار

---

(١) المرجع السابق، الملف رقم ٤٩٣ : ٢٢٩، رقم الكتاب ٨٥ بتاريخ ٢٨-٨-١٩٣٦ .

عليهم، فقد ظهر منهم وطنيون مخلصون، واجهوا التيار الانفصالي، وشكلوا نواة الحركة الوطنية في جبال العلويين(١).

لم تجد محاولات النصيرية هذه نفعاً أمام ضغوط الحركة الممثلة في الوفد السوري، وفي التطورات التي حدثت في داخل فرنسا، بمجيء حكومة ليون بلوم الاشتراكية إلى السلطة، إذ تم توقيع المعاهدة السورية الفرنسية، بين فرنسا والوفد السوري في ٩-٩-١٩٣٦ على غرار المعاهدة البريطانية العراقية لعام ١٩٣٠، ووفق ذات النمط أيضاً، نصت المعاهدة على إدخال سورية في عضوية عصبة الأمم بعد ثلاث سنوات من تاريخ تصديقها، لكن إعلان الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ألغى عملياً كل ما تم من اتفاقيات، ووقّع من نصوص، فعادت سورية إلى الخضوع للاحتلال العسكري الفرنسي وقوات أخرى من الحلفاء حتى نهاية الحرب(٢).

بعد أن أدرك العلويون خطورة توجهات الحكومة، وكشفها لخطتهم الرامية إلى الانفصال عن سورية، والمتسق مع المخططات الدولية، كان لابد لتحقيق أهدافهم على المدى البعيد، وبصورة تدريجية، فكثفوا من وجودهم ضمن القوات المسلحة، وانضموا تحت لواء الأحزاب السياسية المختلفة -بدءاً من الحزب القومي السوري الاجتماعي- وفي مقدمتها حزب البعث، على أمل تحقيق أهدافهم عند توافر الظروف المواتية لذلك.

---

(١) المرجع السابق، مذكرة مرفقة بالعريضة في ٢٠-٨-١٩٣٩ .

(٢) تاريخ سورية الحديث للكاتب تيباري، لندن ١٩٦٩ : ٣٦٠-٣٧٨ .

ومما ساعد على التغلغل النصيري واستمراره في القوات المسلحة، (بنزوع طائفي منذ استقلال سورية، وحتى انقلاب ٨ آذار) عوامل عدة، أهمها:

أ- التوسع في التعليم الذي شهدته سورية بعد استقلالها، والذي أتاح للطائفة النصيرية فرصة إدخال أبنائهم إلى المدارس والكليات العسكرية والبحرية والجوية(١).

بيد أن انصراف العلويين إلى الحياة العسكرية سبق هذه الفترة، ففي ظل الانتداب الفرنسي، وتشكيل جيش الشرق الفرنسي، أفسح الفرنسيون لأبناء الأقليات الالتحاق بجيش الشرق -جيش الانتداب- ولاسيما أبناء الطائفة العلوية الذين طغت أعدادهم على مجموع أفراد الجيش، حتى بلغت نسبة العلويين في هذا الجيش الفرنسي ٨٠٪ ثمانين بالمئة، وعلى الأخص في سلاح المشاة كما يقول الضابط العلوي المخضرم محمد معروف(٢).

ب- سيطرة الجيش على الحياة السياسية منذ انقلاب حسني الزعيم عام ١٩٤٩، وتسريح عدد من الضباط المسلمين أو فصلهم أو نقلهم إلى وظائف مدنية.

ج- استغلال الضباط النصيريين للتطورات التي أعقبت انقلاب

---

(١) الصراع على السلطة في سورية للدكتور نيقولاوس فان دام: ٥٤ .

(٢) أيام شهدتها، الانقلابات العسكرية وأسرارها في سورية من ١٩٤٩ وحتى ١٩٦٩: ٥٤ لمؤلفه: محمد معروف، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ .

٢٨-٩-١٩٦١ في مواصلة التغلغل في القوات المسلحة، والذي اتخذ أبعاده بشكل واضح بعد انقلاب ٨-٣-١٩٦٣، وبالرغم من أن صلاح جديد وحافظ أسد ومحمد عمران -أعضاء اللجنة العسكرية ومؤسسيها- لم يشتركوا في الانقلاب، إلا أنهم سرعان ما استُدعوا والتحقوا بالقوات المسلحة، وفي مواقع حساسة وذات أهمية بعد مدة وجيزة من الانقلاب[1] إذ استدعوا على عجل كغيرهم من عشرات الضباط المسرحين والمبعدين عن طريق الإذاعة التي كان سليم حاطوم يسيطر عليها، فصار بعضهم يداوم في مبنى الأركان، وفي شُعب القيادة الرئيسية، كالذي فعله صلاح جديد عندما دخل على الشعبة الأولى، وجلس على كرسي بجانب المكتب، فلم يستطع الضابط ن. ت أن يستفسر منه أو أن يسأله مجرد سؤال عما يريد، وبأي صفة أنت هنا، لأن الجميع كان فيما يشبه الشلل أو انعدام الوزن أمام هذه التطورات الرهيبة، وهذا الانقلاب السهل الذي جاء به ضعف السلطة، وتهافت الحكم، وتخاذل رئيس الجمهورية، مما سهل لهذه الفئة الصغيرة أن تسيطر على الحكم، دون أن يتصدى لها حاكم أو مسؤول، عسكري أو مدني.

ذكر كتّاب المذكرات عن تلك الفترة، من أمثال زهر الدين والسمان والعظم، أن اللواء الذي قاده العقيد زياد الحريري من الجبهة إلى دمشق مرَّ بعدد من المواقع العسكرية، تزيد أعدادها على عشرين ألفاً، أي أضعاف أعداد اللواء، فلم يتصد لهذا اللواء أحد، ولم يتلق

---

(١) الصراع على السلطة في سورية للدكتور فان دام.

أي موقع أمراً بمنع هـذا اللواء من متابعة طريقه، بل إن مـسؤولاً كبيراً في الـطيـران هو الضـابط الـمهـايـني، اسـتأذن مـن القـصر أو رئـيس الجمـهورية -الشجـاع جداً- أن يقصف هذه الـقوة المتمـردة فلم يأذن له، وفي ذات يوم، وبعد أن اسـتقرت السلطة بالقمع والـسفك لحافظ أسد، وفـرض نفسه رئـيس جمهـورية بالاستـفتاء (الـنزيه جداً) حـضر القدسي عـملية الانتخاب، ليـشارك في اختيار الأسد وإعـطائه صوته، أو لمباركـته له باستلام سـورية، وليحكمها حـكماً مطلقاً لثـلاثة عقود تلت!! وهكذا ضاع الوطن، واستلم زمامه المتربصون به.

حادي عشر: تسلل الأقليات إلى الأحزاب السياسية

كتب مفكرون وسياسيـون عن ظاهرة تسلل الأقليات إلى الأحزاب القـوميـة والعلمـانيـة، وملء كوادرها بـشكل لفـت أنظار المـراقبـين، فـالأستـاذ مطاع الصـفـدي البعـثي الـمخـضرم، والمـمـعن في الفـكر العلـماني، أصـدر كتـاباً جاء فـيه: إن الـبعث كـان في الأصل حـركة طائفية ترمي إلى استئصال النظام التقليدي الواقع تحت هيمنة السنيين، وإن الأقلـيـات الديـنيـة، وعلـى رأسـهـا العلـويون، ويـليـهـم الدروز والإسمـاعيلـيون والمسـيحـيون، كانـوا الأكثر طمـوحاً إلى غـزو هرم المجتمـع القديم التقليدي الذي تسـيطر عليه طبقات المـدن الإسلامية السنية، وأن البعث كان يسوده أقليات دينية منذ البداية[1].

ويقول فـان دام في مكان آخر من كتـابه: منذ تولي حـزب البعث

---

(١) الصراع على السلطة في سورية للدكتور فان دام: ٤١ - الهامش.

زمام السلطة عام ١٩٦٣ فإن أعضاء الأقليات الدينية المتحدثين باللغة العربية، كالعلويين والدروز والإسماعيليين قد لعبوا دوراً سياسياً مرموقاً[1].

في أواخر الستينيات التقيت في مصيف قرنايل اللبناني الأستاذ مطاع الصفدي عن طريق صديق لي وله، فقال الأستاذ مطاع: في عام ١٩٥٧ تلقى بعض القادة العلويين من معارفهم البريطانيين توجيهات أو نصائح بدفع أبناء الطائفة للانخراط بحزب البعث وملء كوادره، تحسباً للمستقبل الذي يشير إلى الدور الذي سيلعبه الحزب في دول المنطقة، أو في سورية على وجه الخصوص.

وفي هذا السياق سمعت من نائب الرئيس العراقي طه ياسين رمضان رحمه الله تعليقاً على التركيب الطائفي لحزب البعث السوري فقال: إن حزبنا حزب قومي يشمل كل شرائح المجتمع، غير أن ما لحظناه في القطر السوري يقدم صورة مغايرة، فمن المألوف أن يكون عدد أعضاء القيادة القومية في بلد المقر أكثر من غيرهم الذين يمثلون الحزب عن الأقطار الأخرى، لتسهيل عقد الجلسات، وتأمين النصاب، فكان عدد أعضاء القيادة سبعة في دمشق من السوريين، باعتبارها بلد المقر أو مركز القيادة. يقول السيد النائب: لاحظنا أن ستة منهم من أبناء الأقليات، أما السابع فكان ينتمي إلى الأكثرية، غير أنهم كانوا يتلاعبون به كما يفعل المتبارون في كرة القدم!! وأردف الأستاذ طه ياسين قائلاً: لا اعتراض لنا على المشاركة الفاعلة

---

(١) المرجع السابق: ٢٦ .

للأقليات، فهذا أمر إيجابي، على أن لا تغيب الأكثرية في تركيب حزب قومي ينادي بالمساواة بين جميع المواطنين.

١- ما الذي جعل من بعض أبناء الطوائف لغماً موقوتاً ينفجر في أويقات يكون الناس في غفلتهم سادرين؟ يأتيهم البلاء من حيث لا يعلمون، وهم في سكرتهم يعمهون!!

ما الذي جعل العلويين طائفة تنطوي على نفسها في أكثر من عزلة في تاريخها، فتحتفظ بأفكار غريبة، وتحتمي بمناطق وعرة، وتنظيمات سرية وباطنية على مدار اثني عشر قرناً؟ حتى إذا كانت الفرصة مواتية، والمجتمع على حالة من الضعف، فاقداً فيها مناعته، قفزت هذه الحركات أو التنظيمات السرية الباطنية فجأة على المجتمع العربي والإسلامي، فأنهكته ومزقته شر ممزق؟

ليس من شأن هذه الأوراق تناول عقائد العلويين وفقههم وعباداتهم وأدعيتهم وقيمهم ومفاهيمهم التي يتمسكون بها، ويحرصون عليها، والمصادر التي استقوا منها ذلك كله، فهو موجود ومتوافر في عشرات الكتب القديمة والحديثة، وفي كتب التاريخ ومصادره الكبيرة مثل: الكامل لابن الأثير ومروج الذهب للمسعودي، والتبصير في الدين للأسفراييني، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، والبداية والنهاية لابن كثير، والخطط للمقريزي وعشرات المراجع والمصادر التاريخية، وكذا في كتب الفقه والفكر والحديث والتزكية والملل والنحل مثل: الفِصَل بين الملل والنِّحَل لابن حزم، والملل والنحل للشهرستاني، وميزان الاعتدال للذهبي، وفضائح الباطنية

للغزالي، والفتاوى ومجموعة الرسائل والوسائل لابن تيمية، والرسالة القشيرية للقشيري النيسابوري، وعوارف المعارف للسهروردي، وفي كتب تاريخية أخرى مثل: المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي، وتحفة النظار في الأسفار لابن بطوطة، كذلك كتب المُحْدَثين مثل: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري، ودائرة المعارف لمحمد فريد وجدي، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن بدوي، وخطط الشام لمحمد كرد علي، ودائرة المعارف الإسلامية للمستشرق لويس ماسينيون مادة النصيرية، والعقيدة والشريعة لكبير المستشرقين كولدزيهر، وتطور الحركة الوطنية لذوقان قرقوط، وكذا في أمهات كتب التشيع للفرقة الاثني عشرية مثل: الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه لابن بابويه، والتهذيب والاستبصار للطوسي، وغيرها من عشرات بل مئات المراجع التي تدل القارئ على مذهب العلويين وأصوله وجذوره لمن أراد أن يذّكر ويحيط علماً بفقههم وتاريخهم.

ليس من شأن هذه الأوراق -كما قدمت- أن تعنى بذلك، وإنما تقتصر على دراسة وتناول -باختصار- الآثار السياسية والاجتماعية التي أحدثتها الحركات السرية والباطنية على العرب والمسلمين، وفي بلادنا العربية، مثل العراق وإمارات الخليج، وسورية على وجه الخصوص، وكيف خُطفت من أهلها، وحوّل سكانها والأكثرية فيها

إلى مواطنين من الدرجة الثانية حسب نصوص دستورية مفروضة، فصار المواطن غير آمن على دينه أو دمه أو ماله أو كرامته!! الأمر الذي حمل شريحة عريضة من المواطنين -وأكثرهم من النخبة- إلى ترك الوطن والهجرة إلى بلاد العرب والمسلمين، وإلى أمريكا وأوربا وأستراليا ونيوزيلندا وغيرها، والسؤال الواجب أو الملح: كيف تم تشكيل هذه الطوائف وتكوينها؟ ومن أين استمدت حقدها على الأمة التي تعيش بين ظهرانيها، وعلى الوطن الذي نشأت وترعرعت في أحضانه؟

والملاحظ -من خلال نظرة عجلى- أن عوامل عدة تضافرت على وجود وتشكيل طوائف باطنية في السابق واللاحق، أهمها:

أ- تسرّب أفكار الشعوبيين والمجوس والسبئية وغيرها من المجتمعات الإسلامية منذ وقت مبكر من تاريخ المسلمين، فذرت قرنها في الشطر الثاني من القرن الثالث الهجري، ثم استفحل أمرها وشرعت تفرض نفسها على الأحداث الكبيرة والخطيرة في القرنين الخامس والسادس الهجريين، في وقت كانت حملات الصليبيين تزحف على بلاد الشام والعراق ومصر وما حولها، كالوباء لا تبقي ولا تذر، بل كانت تعمل في بلاد العرب والمسلمين وحواضرهم هدماً وإحراقاً وقتلاً وإبادة، كما كانت جحافل المغول والتتار تزحف من الشرق على أمتنا كجراد منتشر، تأتي على الأخضر واليابس، فوجد الصليبيون والتتار حليفاً داخلياً تجحفل معهم، وأيدهم بالدعم القتالي، لتأخذ هذه المحنة الكبرى في أمتنا وبلادنا أقصى المدى.

ب- ظلم كثير من الولاة والحكام والسلاطين وبعض الخلفاء في العصر العباسي، واستئثارهم بخيرات البلاد وأرزاقها ومعادنها الثمينة، وبناؤهم القصور الأسطورية، تاركين معظم المواطنين وأبناء الشعب يتضورون من الجوع والفقر والبؤس، ويقضون فريسة سهلة للغزاة من الخارج والداخل، والله تعالى حرم الظلم على نفسه وعلى خلقه، وأنذر الطغاة والظالمين بسوء المصير.

ج- العزلة التي فرضها الباطنيون على أنفسهم هرباً من السلطان، وحفاظاً على معتقداتهم السرية الباطنية، فاعتصموا بالجبال الوعرة كجبال البهراء في سورية، والتي صارت تعرف بعد ذلك بجبال النصيرية، ثم بجبال العلويين منذ عام ١٩١٩، فزادت هذه العزلة من باطنيتهم وسِرّيتهم باطنيةً وسرية إضافية أخرى، فاتسعت الفجوة بين هذه الطوائف وبين سواد الأمة من العرب والمسلمين.

د- معاناتهم للفقر والحرمان في القرون المتأخرة، وفي ظل الحكم العثماني الذي أخفق في كسب ودهم، بالرغم من الجهود التي بذلها في بعض الأحيان، كما فصلت ذلك بعض الكتب المعاصرة، وبالضغط عليهم، واضطهادهم أحياناً أخرى، وبالرغم من ارتياح معظمهم للانتداب الفرنسي الذي هزم العثمانيين، وأبعدهم عن بلاد الشام، فقد استمروا في حياة الضنك والفقر والبؤس كما شهدنا ذلك في الأربعينيات وما بعدها من القرن الماضي، فالملكيات الكبيرة كانت منتشرة في محافظات حماة وحمص وحلب ودمشق والجزيرة وغيرها في القرن الماضي، وكانت أربع عائلات في محافظة حماة

تملك واحداً وتسعين بالمئة من مئة وثلاث عشرة قرية في منطقة حماة كما يقول باتريك سيل[1]، وكان بعض الملاّكين يعامل الفلاحين الذين يعملون في قراهم معاملة ظالمة، والقلة من الملاكين كانوا يعاملون الفلاحين معاملة إنسانية حببتهم إلى قلوب الذين يعملون معهم ويسكنون في قراهم، ولكن هل كانت هذه المعاملة خاصة بالعلويين في القرى التي يسكنونها في غرب مدينة حماة وفي شرقها؟ هل كان البؤس خاصاً بالعلويين دون غيرهم؟ الحقيقة المطلقة في هذا الشأن أن حياة الفلاحين من العلويين والسنيين والإسماعيليين كانت واحدة أو متشابهة، بل إن الجبل مكّن سكانه من بناء بيوت حجرية متواضعة مسقوفة بجذوع الشجر الكثيف لديهم، بينما كانت بيوت الفلاحين السُّنة في السهول الشمالية والجنوبية من مدينة حماة، وفي ريف حلب والجزيرة مكونة من قبب طينية تذكر الناظر إليها بسكان القبور، كما أن زراعة التبغ الممنوعة إلا بإشراف حكومي وشروط قانونية، كانت منتشرة في أرجاء جبل العلويين، لبعدها عن الرقابة المباشرة من موظفي الدولة، فكانت تدر عليهم دخلاً يخفف من فقرهم ومعاناتهم، وهذا الأمر لم يكن متاحاً للفلاحين السنة في السهول الداخلية.

والخلاصة أن الريف السوري كله كان متخلفاً، تسوده سحب الفقر الداكنة، لا فرق فيه بين أبناء الطوائف والمذاهب والأديان.

وفي أشهر الصيف كان العلويون من سكان الجبل ينتقلون رجالاً

---

(١) الصراع على الشرق الأوسط، الأسد: ٧٧.

ونساءً إلى المدن ليعملوا في مواسم الحصاد الذي يتطلب جهداً وتعباً وإرهاقاً، يتحمله العلويون ويصبرون عليه، لأنهم يملكون أجساداً قوية كمعظم سكان الجبال، فكان يدر عليهم دخلاً إضافياً يخفف من المعاناة في ظروفهم الصعبة، وكانوا يتعرضون في أثناء ذلك للإيذاء من السفهاء من سكان المدن، كما رأينا ذلك رأي العين.

هـ- وخامسة الأثافي أن الدول الاستعمارية وأجهزتها الاستخبارية والاستشراقية وشركاتها النفطية والتجارية كانت بالمرصاد لتوظيف هذه الخلافات المذهبية والطائفية، فقامت بتشجيع الأقليات وإمدادها بكل أسباب التحرك، ودفعت بأبنائها إلى ملء الشواغر في مؤسسات الدولة العسكرية والأمنية وبعض المدنيّة، مثل سكة الحديد والبنوك وحصر التبغ والتنباك -الريجي- وغيرها، فظهر الانقسام على أشده، فاندفع أبناء الأقليات -الإسلامية والمسيحية- إلى الانخراط في تلك المؤسسات عامة، وفي المؤسستين العسكرية والأمنية خاصة، باستثناء شريحة سيأتي ذكرها، آثرت الانتماء إلى الوطن والشعب على الانتماء الإقليمي أو العنصري أو الطائفي.

كان هذا الشرخ الذي أحدثه العدو في جسد الأمة، وفي وحدتها الوطنية مقدمة لهذا الضياع الذي نشهده، والكوارث التي حلت بالبلاد والعباد، والتشرد الذي طال النخبة من أبناء سورية، ليعيش الأطباء والمهندسون والخبراء والمفكرون والإعلاميون والأكاديميون السوريون في غربة دائمة، وفي شتات مستمر، ولتتراجع بلادنا إلى الوراء عن معظم بلاد العالم بعد أن كانت في المقدمة، وليضطر المريض للسفر

إلى الأردن لتلقي العلاج في الأمراض الخطيرة، لتقدم الأردن ومصر والسعودية على سورية في هذا المضمار وفي غيره من مضامير التقدم والرقي والنهوض الحضاري.

٢- والخطأ الفادح، أو الخطيئة الكبرى بتعبير آخر، ما ارتكبه قادة التيارين الإسلامي والقومي في بلاد الشام والعراق، من تصميم أكثرهم على تجهيل الأجيال الصاعدة لحقيقة الحركات الباطنية والجماعات السرية في تاريخها، وفي واقعنا المعاصر، وصرفهم عن التحدث في هذه الموضوعات أو الاهتمام بها، أو التحذير منها، بدعوى الخشية على الوحدة الوطنية، وإثارة الحساسيات بين أبناء الوطن الواحد، وإذا كان هذا التفكير مقبولاً على صعيد العمل السياسي، ووجوب إقصائه عن برنامج الأحزاب في الساحة السياسية، فإنه لخطأ فادح إخفاء وطمس الكيد الباطني، وما ينبثق عنه من خطط وبرامج ومخططات على الصعيد الفكري والفقهي والفلسفي، وتجهيل الأمة -ولاسيما قادة الفكر- بها، وعدم تحصينهم من شرورها وأخطارها، لتكون لديهم المناعة مما يبيت لأمتنا العربية والإسلامية من مؤامرات ما زلنا نكتوي بنارها.

خلت الساحة لورثة الحركات السرية الباطنية، ليتسللوا إلى أعماق مجتمعاتنا غير المحصنة، وداخل أحزابنا، وصميم أجهزتنا الحساسة، ويستلموا مفاصلها، ويمسكوا بالقرار، وتبقى الأمة بأكثريتها الكاثرة كالقطيع الذي يسوقه الجزارون إلى حيث يريدون، لاستخدامهم أو عزلهم أو التخلص منهم مادياً أو معنوياً أو بالأسلوب الذي يقررون.

عندما ظهـرت حركة الخميني -الذي خدع المسلميـن في جنبات الأرض بوعود ظـهر فيـما بعد كـذبها، من تحـرير القدس وفلـسطين، وأداء صلاة الشيعـة في الحج مع عامة المسلـمين.. إلخ- طار الناس فرحاً، وانـدفعوا وراء الخمـيني دونما وعي أو تـبصّر، وبجهـل مطبق بتـاريخنا الـعربي والإسـلامي، وبجـهل أكبـر بعـقائد وأفـكار الحـركة الخمـينية، فلم تمض عـلى ذلك أشهر مـعدودات، وقبل اكتـمال عام على استلام الخميني الحكـم في إيران، وطرد الشاه، وإلغاء الملكية، وانتصار دولة ولاية الفقيه، حتى ظهرت الفجيعة للعيان، وخيبة الأمل في هذا النظام، فمنذ الأسبوع الأول لاعتلاء الخميني عرش الطاووس في طهـران، حضر الوفـد الفلسطـيني برئاسـة عرفات، لتـحط به أول طائرة هـبطت في مطار طـهران بعد الانـتصار، حـدثني الأستـاذ هاني الحسن سفير فـلسطين في إيران عن تجربته فقال: لم أكـتشف انتمائي لأهل السنة والجماعة -أو سنيتي حـسب تعبيره- إلا في إيران، عندما أقمـت في طهـران سفـيراً لفلـسطين، مـن شدة مـا رأيت من تعـصب طائفي شيـعي ذميم ضد المسلمـين الآخرين. وعندما فتـحت السودان مركـزاً ثقافيـاً في طهران، مـقابل سبـعة عشـر مركزاً ثقـافياً إيرانـياً في السـودان، وصـار الإيرانـيـون يوزعـون الدولار عـلى طـلاب جامـعة الخرطوم وغيرهـم من الجامعات الأخرى، وبشروا بالمـتعة، وإسقاط صلاة الـجمعـة... إلخ حتـى يظهر الإمـام، حدثنـي ابن عمـر رئيس المركز الثقافي الوحيد فـي طهران في زيارة لي في الفندق بالخرطوم، قائلاً: لم أر أشد تعصباً من هؤلاء لمذهبهم بصورة تجعل الإنسان في يأس من التـفاهم معهم أو الـتعاون مع قادتـهم ومؤسساتهـم. وعندما

حطت الطائرة الثانية التي حملت وفداً إسلامياً عريضاً يمثل الحركات الإسلامية الكبرى في العالم الإسلامي، سمعت من الدكتور أحمد القاضي أحد أبرز أعضاء الوفد الكبير، كيف كان الإيرانيون الحكام الجدد ينظرون إلى أعضاء الوفد باللامبالاة، وتركهم وحدهم فترات طويلة ينتظرون الإذن للمثول بين يدي ولي الفقيه -الخميني- ليقدموا له التهنئة بالانتصار، بل إن أحدهم من الزملاء القدامى في الدراسة قال للوفد متشفياً: الآن ذكرتمونا؟ مع أنهم تعاملوا معه ومع أمثاله الكثر في نطاق الاتحاد الإسلامي في أمريكا بأخوة كاملة، دون أن يفطنوا إلى مذهبه أو طائفته أو تشيعه الذي بدا كالحاً حينما صار مسؤولاً في حكومة ولي الفقيه.

دُعينا إلى أمريكا لنشارك في حوار تحضره نخبة مختارة من العاملين في حقل الدعوة من الشرق، وآخرين من المقيمين في ديار الغرب لمناقشة سبل الدعوة وتبليغها إلى الآخرين، والوسائل والأساليب والطرق المجدية في ذلك، ولاسيما الحديثة منها، وكان العدد المختار قليلاً لا يتجاوز خمسة وعشرين إلى ثلاثين مشاركاً من قيادات الجماعة. طلبت الكلام، فذكرت أننا جميعاً أيدنا الخميني في انتصاره على الشاه، وفرحنا بذلك، وبالطروح التي صدرت عنه بادئ ذي بدء، ولكن لم تمض على ذلك أشهر قليلة، حتى ظهر ما كان خافياً عبر الإذاعة الناطقة بالعربية في الأحواز، وفي كتبهم التي تنال من الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، وإصرارهم على الاحتفاظ بالجزر الثلاث: أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى

التي احتلتها حكومة الشاه، مستغلة ضعف دولة الإمارات أمام جبروت إيران، لتنزعها من أهلها بالقوة، بدعوى أن حكومة الخميني لا يمكن أن تعيدها إلى الاستعمار!! وغير ذلك مما بدا في سياسة جمهورية ولاية الفقيه، بيد أن أحد القادة المشاركين، انتصب واقفاً بسرعة فائقة، وحاول إسكاتي قائلاً: لماذا لم تقولوا هذا في عهد الشاه؟ فأجابه الأخ الكبير المحسن الوفي عبد الله المطوع أبو بدر رحمه الله قائلاً: دعه يكمل كلامه، فأكملت وانتهى النقاش بعد ذلك.

٣- وعاد كل منا إلى بلده، فحدث لغط كبير في أوساط الجماعة حول الثورة الخمينية بين مؤيد لها ومعارض أو متحفظ عليها أو حيران تجاهها، فشكلت الجماعة لجنة من علمائها لبحث العقائد الشيعية وفقه الشيعة وسياساتهم ومواقفهم من المسلمين، فقدمت اللجنة العتيدة دراسة رصينة انتهت فيها إلى أن بين السنة والشيعة فروعاً يمكن تجاوزها، وخلافات تمس الجوهر، وتصادم العقيدة لا يمكن تجاوزها أو التغاضي عنها، مثل الإمامة التي هي لدى الشيعة ركن من أركان الإسلام كالشهادة والصلاة والصوم والزكاة والحج، وأنها وقف من الله كالقرآن الكريم -أي مُنَزَّلة- يخرج من الملة من ينكرها، ومن لا يؤمن بها، وأن الأئمة الاثني عشر معصومون... وإنني أقتصر على إيراد نتف من أقوال الخميني لأن الجدل حول عقيدته وأفكاره وآرائه السياسية والفقهية يحتاج إلى مجلدات مطولة: يقول الخميني في الأئمة: لا يتصور فيهم السهو

والغفلة[1]. ويقول عن الصحابيين الجليلين الخليفتين أبي بكر وعمر: ولكننا نشير إلى جهلهما بأحكام الإله والدين، وإن مثل هؤلاء الأفراد الجهال الحمقى الأفاقين والجائرين غير جديرين بأن يكونوا في موضع الإمامة، وأن يكونوا ضمن أولي الأمر[2]. كما قال الخميني عن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن أعماله نابعة من أعمال الكفر والزندقة والمخالفات لآيات ورد ذكرها في القرآن الكريم[3]، ويتهم الخميني أبا بكر الصديق رضي الله عنه، بأنه كان يضع الحديث[4]، كما يتهم الصحابي الجليل سمرة بن جندب أيضاً في كتابه: الحكومة الإسلامية بأنه كان يضع الحديث[5].

ذكر الخميني بتاريخ ٢٨-٦-١٩٨٠ في خطاب إلى الشعب الإيراني بمناسبة ذكرى الإمام المنتظر في الخامس عشر من شعبان: فكل نبي من الأنبياء إنما جاء لإقامة العدل، لكنه لم ينجح، حتى خاتم الأنبياء محمد ﷺ الذي جاء لإصلاح البشر وتهذيبهم وتحقيق العدالة، لم يوفق في ذلك أيضاً، فالذي سينجح بتحقيق العدالة في كل أرجاء العالم هو المهدي المنتظر.

وقال أيضاً في كلمة ألقاها في حسنية جماران بتاريخ

---

(١) كتاب الحكومة الإسلامية: ٩١ .

(٢) كتاب كشف الأسرار: ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق: ١١٦ .

(٤) المرجع السابق: ٦١٢ .

(٥) الحكومة الإسلامية: ٧١ .

٢-٣-١٩٦٨: إن فاطمة الزهراء عاشت بعد وفاة والدها خمسة وسبعين يوماً، قضتها حزينة كئيبة، وكان جبرائيل يأتي إليها لتعزيتها، ولإبلاغها في الأمور التي ستقع في المستقبل، وكان الإمام علي يكتب هذه الأمور التي تنقل لها من قبل جبريل[١].

ويقول الخميني كذلك: إن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل[٢].

وقد اخترت النقل عن الخميني، وتجاوزت الحديث عن أئمة الشيعة الكبار، كالكليني والمجلسي والحارثي والكاشاني والجزائري والطبرسي وكاشف الغطاء والعاملي وغيرهم، الذين تحدثوا عن البداء والرجعة ونكاح المتعة، وتحريف القرآن، وعصمة الأئمة، وتكفيرهم للصحابة إلا ثلاثة، وردهم للسنة المطهرة، وعقيدتهم في الجهاد.. إلخ.

قدمت لجنة العلماء الإخوانية التي ضمت فطاحل فقهاء الجماعة دراستها المعمقة الرصينة، فاعترض الأخ القيادي قائلاً: الخلاف بيننا وبينهم في العقيدة، ولكن المواقف السياسية متشابهة، ولما قيل له: والخلاف أيضاً معهم في المواقف السياسية في كذا وكذا من الأمور، قال: كما ذكر في الحوار الذي جرى في أمريكا: الآن فطنتم لهذه المخالفات، ولم تفطنوا لها في أيام الشاه، وحجب التقرير عن

---

(١) الخمينية شذوذ في العقائد، شذوذ في المواقف للشيخ سعيد حوى.

(٢) الحكومة الإسلامية: ٥٢ طبعة القاهرة ١٩٧٩ .

الجماعة، ولم يأخذ به، ولم يطلع عليه أبناءُ الجماعة وبناتها ليتنوروا، وليتحصنوا من هذه الضلالات، وذهب جهد علماء الجماعة الإسلامية هدراً، فماذا يقول من يفعل هذا يوم يقوم الناس لرب العالمين؟ وما هي حجتهم أمام الله تعالى في اليوم العسير؟ نسأل الله تعالى له ولأمثاله العفو والمغفرة، وأن يتجاوز عنهم، وأن يجزيهم خير الجزاء بما قدموه من خدمة لدعوة الإسلام، ولرسالة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى والسلام.

٤- كانت إحدى أدوات الإغراء الفرنسية للعلويين، تجنيدهم في قوات جيش الشرق -جيش الاحتلال- ولاسيما في سلاح المشاة، كما ذكر الضابط العلوي المخضرم محمد معروف في كتابه: أيام عشتها كما رأينا، وفي هذا السياق ما زلت أذكر عندما كنا طلاباً في المدارس الابتدائية والمتوسطة، ونشارك في مظاهرات طلابية وشعبية تطالب بالاستقلال والجلاء، كيف كانت خيالة جيش الانتداب تلاحقنا بالبنادق التي تحمل في مقدمتها أو في فوهتها الحراب، وهم يزمجرون باللهجة العلوية الجبلية المألوفة على أسماعنا، فنفر منهم كأسراب الطيور المذعورة، وفي حين كانت السلطة المطلقة في يد الحاكم الفرنسي وموظفيه وضباطه المختصين بالشؤون العامة، فإنها على الصعيد المحلي كانت في يد بعض العلويين المستعدين لأن يلعبوا الدور الفرنسي، وكان أبرز المتعاونين مع الفرنسيين الأخوين كنج -إبراهيم وعلي- وهم الفلاحون الدهاة الذين أيدوا الفرنسيين من لحظة وصولهم سنة ١٩١٨، فكوفئوا بالثروة والنفوذ، فإبراهيم الكنج عُيّن سنة ١٩٣١ رئيساً لمجلس اللاذقية، وحصل على جوقة الشرف

-ليجيون دي لـور- وعلى أرض واسعة، وارتقى ليصبـح صاحب أكبر نفوذ في زعامة عشيرة الحـدادين، أما أخوه علي فكان المدير الذي لا يرحم للشـؤون الداخلية في الإقلـيم، وكان هناك عمـود ثالث للإدارة الفرنسية يتمثل في آل عباس زعماء عشيرة الخياطين الدينية[1].

وضمن تجمّـع أسر الكلبية التي كـانت تنتسب إليهـا عائلة الأسد، كان يوجد وطـنيون، كما كان يوجـد متعاونون مع فرنسـا، وكان اثنان من الشـخصيـات الرئيـسة في العـشيرة، وهمـا: محـمد بك الجنـيد، وصقـر خير بك، قـد قضيـا سنوات الانتـداب متأرجـحين، بين نـزعة الانفـصال الـعلوي، وبيـن الوحدة الـسوريـة، وكان الـنجم الحـقيـقي للكلبـية وأحد شخصـياتها الدينـية الرئيسة هـو الشيخ سليمـان الأحمد عضو المجمع العلمي العربي الذي أُسس في دمشق عام ١٩١٩ خلال العهـد الفيـصلي على قـصره، وكذا ولده مـحمد بن سـليمان الأحـمد الذي ذاع صيتـه كشاعر فذ في جـميع أنحاء الوطن العـربي تحت اسم مستـعار -بدوي الجبل- الذي نشـأ في أول شبابه وطنياً، ثـم سكرتيراً لإبراهيم الكنـج حتى عام ١٩٣٦، فجنح إلـى التعاون مع الفرنـسيين، وقال قـصيـدة مدح في المـفوض الـسامي، ثم عـاد وطنياً عـنيفـاً ضد الفرنسيين، وعـضواً في البرلمان السوري، ثم عمل أستـاذاً للعربية في دار المعلمين الـعالية في بغداد، حيث يقال: إنه أيـد ثورة رشيد عالي الكيـلاني ضـد بريطانـيا عـام ١٩٤١، وهذا يوضح الـمد والجـزر في الولاء العلـوي تحت الانتداب، وفـي هذا السياق سـمعت من الـشيخ

---

(١) الأسد لباتريك سيل: ٣٨ .

محمد المجذوب رحمه الله وكان رفيقاً وصديقاً للشاعر الكبير بدوي الجبل فقال: كان محمد بن سليمان الأحمد والمجذوب ضمن مجموعة من الشباب الذين يناهضون الانتداب الفرنسي، وفجأة نظم -بدوي الجبل- قصيدة في مدح المفوض السامي، فصار أترابه وقرناؤه ينظرون إليه شذراً، فضاقت به أرض الوطن ونزح إلى بيروت، فذهبنا إليه لمعرفتنا بمواقفه الوطنية الرائعة، فذكرناه بماضيه الناصع، وأن عليه أن يستأنفه كمناضل وطني بارز، كما هو العهد به، وعدنا جميعاً ومعنا بدوي الجبل إلى اللاذقية، فصدع بمواقف وأشعار خالدات في التاريخ والوطنية والإشادة بعظماء الصحابة كسيدنا عمر ابن الخطاب، ما خلده في عداد عباقرة الشعر العربي التليد، حتى ظهر من يفضله كشاعر على المتنبي وشوقي أو يرتقي إلى مقامهما الشعري، كما سمعت ذلك من الأديب السعودي راشد المبارك الشخصية المثقفة الشهيرة.

يؤكد باتريك سيل على ما ذكره الوطنيون من مثقفي ومفكري وسياسيي تلك الفترة، أن ثمانين شخصية من وجهاء العلويين وقعوا على رسالة -عريضة- كتبها إبراهيم الكنج إلى رئيس وزراء فرنسا عام ١٩٣٦ قال فيها: إن الغالبية العظمى يرفضون الانضمام إلى سورية، ويرغبون في البقاء تحت الحماية الفرنسية -كما مر معنا من قبل- وقد حدث هذا بينما كان الوفد السوري في باريس يفاوض الفرنسيين على معاهدة تكون خطوة على الطريق لنيل الاستقلال[١].

---

(١) المرجع السابق: ٣٩ .

٥- من المفيد إلقاء نظرة سريعة على الأوضاع الحزبية في سورية، لنتعرف على موقع حزب البعث العربي الاشتراكي منها، وهل كان له دور في الانقلابات العسكرية، والتغييرات في بلاد الشام، ولاسيما في سورية والعراق؟ أم كان غطاء للتسلط العسكري والحكم الدكتاتوري؟

كانت أحزاب -مثل: الحزب القومي السوري والحزب الشيوعي- تتنافس على عقول الشباب، في أواخر الأربعينيات، وكانت جميعها معارضة لزعماء المدن (ذات طابع ريفي)، وللمتعصبين من الإخوان المسلمين حسب تعبير عدنان عمران -ذي الانتماء الطائفي- والذي رشحته سورية ذات حكومة الأقلية، أميناً عاماً مساعداً في جامعة الدول العربية[١].

وقد أحس البعث بغربته عن الجماهير، وعجزه عن نيل ثقة أبناء الأكثرية من الشعب السوري، فحاول الأستاذ عفلق أن يعالج هذه الظاهرة، ويخرج من إطار الإسلامية الدينية والطائفية، فعمد إلى استثارة المسلمين المدنيين، بإيحائه أن الإسلام -على حد تعبير باتريك سيل- كان ثمرة العبقرية العربية أكثر منه وحياً من عند الله، فكان احترامه للإسلام طريقة لمواجهة دعوة الإخوان المسلمين الذين كانوا أخطر منافس له برؤياهم للعصر الذهبي لدولة إسلامية نقية، أما منتقدوه المسيحيون، فقد ذكّرهم بأن الإسلام كان تاريخ العرب وفلسفتهم ومادة قوانينهم وتشريعاتهم، وإرثاً كاملاً يجب أن يتفاخر به

(١) المرجع السابق: ٥٠ .

كل قومي، مسلماً كان أم مسيحياً باعتزاز عظيم[1].

ويرى الأستاذ عفلق -وهو واضع إيديولوجية حزب البعث -على حد تعبير فان دام- الذي استقى ذلك من الطبعة الثالثة من كتاب في سبيل البعث- أن العرب المسيحيين يجب أن لا يشعروا بوجود ما يمنع من كونهم عرباً بأي طريقة، فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذن كعلاقة أي دين بأي قومية، وسوف يعرف المسيحيون العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة، ويسترجعون طبعهم الأصيل، أن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها، فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم[2].

هذه رؤية كاتبين غربيين يأتيان في مقدمة الباحثين والكتاب الذين تناولوا هذه الفترة من تاريخ سورية بكتابات تغلب الموضوعية والدقة على معظمها، ولاسيما لدى الكاتب الدكتور نيقولاوس فان دام سفير هولندا في بغداد، ثم في القاهرة، ورؤيتي للموضوع تختلف من بعض الزوايا عن اقتناع الكاتبين الكبيرين، فمن خلال تقويم الأستاذ محمد المبارك رحمه الله للأستاذ عفلق، وتقويم الأستاذ الدكتور سعيد سلمان صاحب جامعة عجمان في دولة الإمارات، وعبر لقاءاتي مع الأستاذ عفلق في بغداد وباريس، واطلاعي على كتاباته في مجلة الطليعة العربية التي كانت تصدر في باريس، تكونً لديّ اقتناع بأن

---

(١) المرجع السابق: ٥٨ .

(٢) الصراع على السلطة في سورية لمؤلفه نيقولاوس فان دام، الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ١٩٩٥ .

ميشيل عفلق لم يقدم بحوثه عن الإسلام رغبة في جذب المسلمين -وهم أكثرية السوريين- إلى الحزب فقط، وإنما تشكلت لديه -اقتناعات- بعد دراسات استمرت أكثر من خمسين عاماً -أن الإسلام دين عظيم خالد، وأنه قادر على جمع الأمة والنهوض بها، وأنه طريق الخلاص- وقد تتالت كتاباته في هذا الشأن، وازدادت وضوحاً مع الزمن، ولاسيما خلال الفترة التي أمضاها في العراق- كما قال الأستاذ محمد عمارة- وفي فرنسا، وهذا نموذج أثبته هنا لتحديد معالم الفكر الذي تبلور في عقل الأستاذ عفلق وانتهى إليه، ففي الخطاب الذي ألقاه في ٧-٤-١٩٨٤ الذكرى ٣٧ لتأسيس حزبه، ونشرته جريدة الثورة العراقية وغيرها ورد ما يلي: فقد وجد الحزب في معين الإسلام الذي لا ينضب أول ما وجد عروبة الإسلام، كهوية وطبيعة وأرض ولغة وتاريخ، والعروبة كثورة فجرها الإسلام، فأصبحت ثورة إنسانية عالمية، وأعظم ثورة في التاريخ البشري، لأن الإسلام، وهو دين هداية للعالمين قد حمّل العرب مسؤولية نشره قبل غيرهم، وسيظلون مسؤولين عن حمايته، ورفع لوائه، وتجسيد قيمه في نهضتهم الحديثة، وعروبة الإسلام لا تتعارض مع إنسانيته وعالميته ومصدره السماوي، بل تسمو بهذه الحقائق، وتشرف وتزداد قوة، ونعتقد أن أية أمة من الأمم معرضة أن تجنح إلى الإلحاد، ما عدا الأمة العربية التي يدخل الإسلام في نسيج شخصيتها وتاريخها، لأن الإسلام بالنسبة إليها، هو دين وقومية وحضارة، وهل يستطيع شعب أن يهرب من شخصيته، ويتمرد على قوميته، ويتنكر لحضارته؟

ثم قال عفلق في مكان آخر من هذا المقال: ولسوف يجيء يوم

يجد فيه القوميون أنفسهم المدافعين الوحيدين عن الإسلام، ويضطرون لأن يبعثوا فيه معانيه الخاصة إذا أرادوا أن يبقى للأمة سبب وجيه للبقاء.

لم يكن الأستاذ عفلق في تقديري يركب موجة فيما أعلنه على الناس كافة، فقد كان مضى على اعتزاله العمل المباشر أكثر من عشر سنين، وكان يقضي في باريس أكثر أيامه، وقد بلغ من العمر سناً متقدمة بعيدة عن أي طموح يجامل فيه على حساب ما يقتنع به.

لقد جاءت ردود الفعل على هذا الفكر وهذا المآل متفاوتة، فالحوراني تمنى أن يبقى عفلق مسيحياً، كسباً للقومية العربية، كما ذكر ذلك في مذكراته، وبعض المواطنين المسيحيين لم يبدوا ارتياحاً لهذه النهاية، وبعض المسلمين شكك في هذا الموقف دونما دليل أو برهان، والبعض رجح أن ذلك كان لمصلحة العراق في حربها مع إيران، مع أن اعتناق عفلق للإسلام لم يعلن رسمياً إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بين العراق وإيران، وبالرغم من أنني وبعض إخواني سمعنا عن هذا الموضوع مبكراً من الرئيس صدام حسين ومن نائبه طه ياسين، فإن هذه الأوراق لا تتسع لتفصيلاتها التي يطول شرحها وملابساتها.

٦- لم يستطع حزب البعث أن يبني لنفسه قاعدة عريضة في دمشق وحلب ومعظم المدن الكبيرة، كما ذكر ذلك قادته المخضرمون، من أمثال سامي الجندي ومطاع الصفدي، كما رأينا من قبل، بل انتشر في الريف وفي أوساط الأقليات، ثم انتشر في أوساط

الفلاحين بعد اندماجه بالحزب العربي الاشتراكي الذي أسسه الحوراني، وسرعان ما اختلف الاشتراكيون بزعامة الحوراني، والبعثيون بزعامة عفلق والبيطار، وعندما استولت مجموعة الضباط البعثيين ومن تحالف معهم من الناصريين واليساريين على مقاليد السلطة بعد انقلاب ٨-٣-١٩٦٣ في انقلاب عسكري، كان عدد أعضاء حزب البعث المدنيين يقل كثيراً عما يكفي -حوالي ٤٠٠ عضو- لتحمل المسؤولية في تشكيل الحكومة الكبيرة التي أكد العسكريون البعثيون الانقلابيون على المطالبة بها[١].

فالحزب الذي حل نفسه كشرط لقيام الوحدة، لم تقرر القيادة القطرية السورية للحزب إعادة بناء الجهاز الحزبي إلا بعد نصف عام على الانفصال عن الجمهورية العربية المتحدة، ولم ينضم الكثير من البعثيين القدامى لتنظيم الحزب الذي أعيد تشكيله، بل انضموا إلى حركات سياسية أخرى كالناصريين والوحدويين الاشتراكيين، كما أن البعض ظلوا في تنظيم سري بعد حل حزبهم في شباط/ فبراير ١٩٥٨، ولاسيما في دير الزور وحوران واللاذقية، قد لعب هؤلاء دوراً كبيراً بعد ٨ آذار لروابطهم القوية مع التنظيم العسكري للحزب الذي تقلد السلطة[٢].

يقول فان دام: إن العديد من العلويين الذين لم يكن لديهم دوافع أيديولوجية قد اتخذوا البعثية أداة للتسلط، ليستفيدوا من النظام الذي

(١) الصراع على السلطة في سورية: ٤٥ .

(٢) المرجع السابق: ٤١ .

يمثله عدد كبير جداً من أبناء طائفتهم وعشيرتهم وأقاربهم[١]، ويقول أيضاً: حاول حافظ أسد فيما بعد ركوب الموجة الإسلامية (بعد أن أحكم سيطرته على السلطة) في العديد من المناسبات، وبناء صورة دينية تقليدية لنظام البعث العلماني بالصلاة الجهرية -المعلنة- في المساجد السنية أحياناً، بما في ذلك الجامع الأموي الشهير، أو الظهور علانية في صحبة كبار رجال الدين السنيين، أو الاقتباس من آيات القرآن في خطاباته، وقد قام الأسد في تشييد مساجد باسمه في دمشق، وباسم والدته في بلدته القرداحة، إلا أنه من المشكوك فيه أن تكون مثل هذه الأعمال قد بدت مقنعة لمعظم سكان سورية السنيين[٢].

ثاني عشر: أخطر الحلقات الباطنية

تسربت الحركات الباطنية إلى أحشاء المجتمعات العربية والإسلامية في القديم والحديث بسهولة ويسر، وفي غفلة من المسلمين الذين يأخذون الأمور بالظاهر والنية الحسنة، ويحسنون الظن بالآخرين، وهذا أمر حسن إن لم يكن مغلفاً بالسذاجة والغفلة.. لقد رأينا كيف فتك الباطنيون في القرنين الخامس والسادس الهجريين بالمسلمين، وكيف تعاونوا مع الصليبيين الوافدين من الغرب، ومع المغول الزاحفين من الشرق، ورأينا كيف حاولوا قتل صلاح الدين أكثر من مرة بتخطيط محكم، وهو في أوج اشتباكه

---

(١) المرجع السابق: ١٤٣ .

(٢) المرجع السابق: ٢٠٤ .

مع الصليبيين، ولكن الله سلّم، ثم رأينا كيف تحرك الباطنيون في العصر الحديث لدعم فرنسا في احتلالها سورية ولبنان، لتثبيت أقدامها في أرض الوطن، وكيف كانوا قوام القوات الغازية وعمودها الفقري في قمع المناهضين للانتداب والمطالبين في الجلاء والحرية والاستقلال، غير أن أخطر الحلقات الباطنية، يكمن في الدور الذي اضطلع به حافظ أسد مذ كان طالباً في ثانوية اللاذقية، وما أظهره من حقد على طلاب الإخوان كما ذكر هو نفسه في خطبه بعد عام ١٩٦٣ عندما كشر عن أنيابه، وعبّر عن سياساته في وجوب سحق الإخوان المسلمين وإبادتهم، لأن الإجراءات العادية ليست مجدية معهم -حسب تعبيره عام ١٩٦٤ في زيارته لثكنة الشرفة العسكرية في مدينة حماة.

١- انتسب حافظ أسد لحزب البعث مذ كان طالباً في الدراسة الثانوية، وبذل نشاطاً كبيراً حتى غدا مسؤول اللجنة الطلابية في الحزب، ومنذ تلك الحقبة كان يخطط لاستلام الطائفة مقاليد الحكم تحت مظلة البعث الذي اتخذه هو وزملاؤه العلويون ستاراً لتحركهم، وسرعان ما التحق بالكلية العسكرية، لأن الجيش هو أقرب السبل لتحقيق ما يتطلع إليه دون الالتفات إلى الشعب الذي يتحدثون باسمه كثيراً ويزعمون أنهم يعملون لخدمته وبوحي منه!! ولم يكد يتخرج في الكلية حتى عمل جاهداً مع البعثيين على تشكيل خلايا عسكرية في الجيش للإعداد والتهيؤ من أجل القفز على كرسي الحكم، فكان يتحرك على محورين، محور الحزب وتشكيلاته العسكرية، ومحور

التكتل الطائفي من داخل المحور الأول وعلى هامشه، والآخرون سادرون في غفلتهم عن هذا، مستغرقون في الليالي الحمراء والحياة الماجنة، إلا من رحم الله وقليل ما هم.

لقد ملأوا الآفاق صراخاً بشعارات الحرية والوحدة والاشتراكية، واستطاعوا تخدير المواطنين بأنهم عشاق الوحدة ورهبانها، وأنهم لا يرضون عنها بديلاً، وهم مستعدون للاستشهاد في سبيلها، ولما خذلهم الشعب في انتخابات العاصمة المرة تلو المرة ركبوا موجة الناصرية، وتظاهروا أنهم جند مخلصون لعبد الناصر، ولاسيما بعد أن أقدم عبد الناصر على إعدام أئمة الإخوان من أمثال شيخ المجاهدين محمد فرغلي، وشيخ الفدائيين يوسف طلعت، وشيخ المشرعين عبد القادر عودة وإخوانهم، وسحق حركتهم، وإبادة طيف كبير من قياداتهم، فاعتبروه بطلاً، لأنه قضى -حسب تصريحاتهم- على الرجعية والعمالة، فخدعوا عبد الناصر، ووضعوا أيديهم في يده، فوقف معهم منذ انتخابات ١٩٥٧ التكميلية، بين السباعي والمالكي، ودعمهم سياسياً ومالياً وإعلامياً، بل اندفعوا معه في إبرام صك الوحدة بما يشبه الانقلاب، عندما ركب ضباطهم طائرة الفجر باتجاه القاهرة دون استشارة رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ومن دون موافقة البرلمان، فأملى عليهم جمال عبد الناصر شروطاً مطلقة بحكم سورية تشمل التشريع والتنفيذ كما مر معنا تفصيلاً، وعندما تم نقل عدد من الضباط السوريين إلى القاهرة، وكان فيهم حافظ أسد ومحمد عمران وصلاح جديد، وجدوا الفرصة التي طالما انتظروها، ففي

عاصمة الوحدة، وفي ظل قيادة وحكومة الوحدة، بدأ دعاة الوحدة -كما يتظاهرون- بوضع الخطة في بناء مجموعات الضباط من أبناء الطائفة العلوية دون غيرهم، فتشكلت القيادة العليا للجنة العسكرية -البعثية- التي أُسست عام ١٩٥٩ من خمسة ضباط، من بينهم ثلاثة علويين هم: حافظ أسد، وصلاح جديد، ومحمد عمران، وإسماعيليان هما: عبد الكريم الجندي وأحمد المير، وعندما توسعت اللجنة العسكرية أصبح تشكيلها كالتالي: محمد عمران، وصلاح جديد، وحافظ أسد، وسليمان حداد وهو علوي، وعثمان كنعان من علويي الإسكندرون، وإسماعيليان: عبد الكريم الجندي وأحمد المير -الأول من سلمية والثاني من مصياف- ودرزيان هما: سليم حاطوم وحمد عبيد، وستة من السنيين هم: موسى الزعبي، ومصطفى الحاج، وأحمد سويداني -من حوران- واثنان من حلب هما: أمين الحافظ، وحسين ملحم، ومحمد رباح الطويل من اللاذقية، ومعظمهم من أصول قروية -كما يقول فان دام- وقد أسهب عدد من الكتاب في البحث عن جذور أعضاء اللجنة العسكرية، كما ورد في كتاب: تجربتي في الثورة لمحمد عمران، وكتاب التجربة المرة لمنيف الرزاز، والبعث لسامي الجندي وغيرها (وقد ثبت للجميع فيما بعد أن الضباط السنيين لم يكونوا أكثر من مظهر -ديكور- أو غطاء للتنظيم الطائفي الذي يرتكز على الأقليات العلوية والدرزية والإسماعيلية)(١).

---

(١) الصراع على السلطة في سورية للدكتور فان دام: ٥٩ .

ومن الملاحظ أن تسعة من خمسة عشر ينتمون للأقليات، وأن ستة ينتمون للأكثرية دون أن يكون لهم أي تأثير في الذي أقدم عليه الطائفيون من تصفية الجيش من الضباط السنة، وتسريح الألوف، وإلحاق ألوف بديلة جيء بها من أبناء الأقليات الطائفية، وبالرغم من تصميم اللجنة العسكرية على السيطرة التامة على مفاصل القوة بالجيش، وإسنادها إلى أبناء الأقليات، ولاسيما العلويون، وبشكل معلن ومكشوف، فإن ضباط السنة في اللجنة العسكرية لم يحركوا ساكناً، أو بالأصح، كانوا في عجز تام لا يستطيعون فيه أن يحركوا ساكناً أو يوقفوا أو يؤخروا اقتراف هذه الجريمة التي تمهد للسيطرة على الوطن واستعباد الأكثرية من سكانه.

ظلت النواة الأولى للجنة العسكرية محتفظة بتماسكها وسريتها في داخل القيادة العسكرية العليا، وفي كل التشكيلات الأخرى اللاحقة.

٢- بدأت روائح التكتل الطائفي تفوح، وبدأ الحديث عنها في أول الأمر همساً، ثم صار صوتها مسموعاً، حين ظهرت بوادر مادية تسند هذا الاتهام كما قال الدكتور منيف الرزاز الأمين العام للقيادة القومية لحزب البعث[١].

كان أول مزلق خطير أو تصريح صارخ، صدر عن محمد عمران رئيس اللجنة العسكرية الثلاثية جاء فيه: إن الفاطمية يجب أن تأخذ دورها، بغية أن يلعب الضباط المسلمون غير السنيين -أي العلويون

---

(١) التجربة المرة للدكتور منيف الرزاز: ١٥٩ بيروت ١٩٦٧، وحزب البعث، مأساة المولد ومأساة النهاية للأستاذ مطيع الصفدي - بيروت ١٩٦٤ .

والدروز والإسماعليون باعتبارهم جميعاً فاطميين- دوراً على أسس طائفية ضد أبرز منافسيهم من السنيين، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم الفريق أمين الحافظ القائد الأعلى للقوات المسلحة السوري(١).

رأى جديد والأسد في تصريح محمد عمران خطورة كبيرة على المخطط السري الذي يحثان الخُطا على تنفيذه بسرية مطلقة وبغطاء قومي وحدوي اشتراكي.. إلخ دونما تردد أو إبطاء، فأنكرا على عمران ما بدا منه، فعملا على إبعاده من قبل أعضاء آخرين في اللجنة العسكرية بتهمة الترويج للطائفية!! وبناء كتلة علوية طائفية في داخل الجيش، ولكونه المسؤول الأول عن الارتياب الطائفي السائد حينذاك، فكان كبش الفداء في سبيل المشروع الطائفي السري الذي كان يمسك بزمامه جديد والأسد كلاهما. وعندما تورط عمران أكثر من ذلك وكشف سر اللجنة العسكرية الطائفية السرية التي تم تشكيلها في عهد الوحدة، كان القرار بتصفيته سريعاً، فنُفّذ اغتياله في طرابلس (منفاه من لبنان) وشاء القدر أن تكشف هوية الجاني، ليُعلمَ من كان وراء قتله والتخلص منه، وليُعرف عن الأسد واحد من أساليبه الخطيرة في تصفية خصومه ومن يقف في طريق برامجه وطموحاته(٢).

استمر تنفيذ المخطط الطائفي الذي خطط له، وعمل على تنفيذه

---

(١) الصراع على السلطة في سورية للدكتور فان دام: ٧١ .

(٢) التايم الأردنية التي تصدر باللغة الإنجليزية في ٢٦ - ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١ والصراع على السلطة لفان دام: ١٥٨ .

حافظ أسد بالضربات السريعة القاضية على الجيش وفي الدوائر الأخرى، ومن ثم في الحياة المدنية، بل وفي مرافق الحياة كلها، كما سيأتي ذلك في حينه مفصلاً، الأمر الذي أدى إلى إعادة تركيب الجيش والأجهزة الأمنية من جديد، وفي المؤسسات الأخرى.

٣- ولكن، هل كان العلويون جميعاً مندفعين في المخطط الطائفي ومؤيدين له؟

إن الدراسة المعمقة، والتزام الحق والعدل والموضوعية، والأحداث العديدة والمواقف الفكرية والسياسية تدل كلها على أن العلويين لم يكونوا جميعاً مع هذه السياسة الطائفية المدمرة، بل إن شرائح منهم نالهم من الأذى والاضطهاد من حكم أسد الطائفي وعائلته ما نال -فيما بعد- جميع الطوائف الأخرى كالدروز والإسماعيليين والأكثرية من أهل السنة والجماعة.

ذكر عدد من الباحثين المختصين في دراسة الفرق والطوائف أن التطور الذي شهدته سورية في مجالات التصنيع، واستخدام وسائل المواصلات، والتوسع في انتشار التعليم، وتوحيد مناهجه بعد الاستقلال، أدى إلى خروج الطائفة العلوية من عزلتها، وإلى اختلاطها واحتكاكها بالمسلمين والأقليات الأخرى بصورة أكثر فعالية من قبل، ومن ثم ظهور جيل من العلويين يتجاوز أفكار الجيل السابق بآرائه وانعزاله ومواقفه السلبية، ومن ثم تبنيه للتوجهات الوطنية والوحدوية، وإيمانه بها.

روى الأستاذ الأديب محمد المجذوب أحد قادة الإخوان

المسلمين في اللاذقية والساحل السوري رحمه الله، في كتاب أصدره تحت عنوان: الإسلام في مواجهة الباطنية في عام ١٩٨٥، وبتوقيع ابن الهيثم جاء فيه: وهناك كلمة ما أظنني قادراً على نسيانها، سمعتها من فم الصديق والأستاذ الشيخ سليمان الأحمد، وكنت ضيفاً عليه في قرية -السلاطة- من قضاء مدينة جبلة مع نائب سابق، قال الشيخ: أي فلان، إنكم أنتم المسؤولون عن هؤلاء الروافض، فاتقوا الله بهم، وافتحوا إليهم قلوبكم، واجعلوهم يثقون بكم، قال الشيخ ذلك في لهجة مؤثرة، وقد ركّز عينيه العميقتين في وجهي، وقبض بيمناه في مقدمة ثوبي يهزني هزّاً، وكانت مفاجأة أن أسمع من الشيخ كلمة الروافض، فقلت: أوضح لي يا أستاذ إذا شئت، فقال: هؤلاء قوم أغرقهم الجهل، فلا يكادون يعلمون شيئاً، وأنتم أهل السنة ذوو العلم والفكر، فأنتم مسؤولون عنهم، ولن تستطيعوا نفعهم إلا أن تستحقوا -تنالوا- ثقتهم(١).

إن الشيخ سليمان الأحمد زعيم جبل العلويين دينياً وفكرياً وثقافياً ولغوياً غير منازع، وهو والد محمد سليمان الأحمد -بدوي الجبل- الشاعر العبقري الكبير، ووالد الدكتور أحمد سليمان الأحمد -شقيق بدوي الجبل- الشاعر الكبير كذلك، والذي كانت علاقتي به متينة مذ عرفته حتى فارق الحياة باغتيال سيأتي تفصيله في إبّانه.

وفي مكان آخر من كتاب الأستاذ الداعية محمد المجذوب رحمه

---

(١) الإسلام في مواجهة الباطنية: ٦ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

الله يقول: وإن أنسَ لا أنسَ موقف هذا الرهط الكريم أثناء مؤتمر ١٩٣٦ الذي عقد بإشراف وتدبير حاكم طرطوس الاستعماري الشرس -المسيوفيو- الذي أراد أن يتحدى به دعاة الوحدة السورية، ليبرزهم قلة لا قيمة لها، فوجه أعوانه الانفصاليين لعقد مؤتمر تحت منزله، وعلى مقربة من دار الحكومة.. ففوجئ بما لم يكن في الحسبان، إذ خيب الشباب الحر فأله، ورفعوا عقائرهم في وجوه آبائهم وأهليهم الضالعين مع الأجنبي، فما زالوا، وما زلنا معهم، حتى ارتفع صوت الوحدة -السورية- عالياً مجلجلاً لأول مرة في تاريخ الساحل السوري، وإني لا زلت أذكر -يقول المجذوب- موقف أحد هؤلاء الشباب، وهو يحاور عمه الذي يعد أكبر زعماء تلك الفئة، فلم يتمالك الشاب أن صرخ به على مسمع من الجمهور: إن الوحدة آتية لا محالة، ولكن الله يأبى أن يجعل لكم فيها فضلاً[1].

لقد فتك حافظ أسد بشريحة من العلويين بدءاً من رفقاء مخططه السري الذين أودعهم في غياهب السجون مدداً طويلة، خرجوا منها إلى القبر كما فعل بصلاح جديد، واضطهد بعضهم ولاحقهم وألقى القبض على لفيف منهم، فكانوا عرضة للتنكيل والتعذيب، مثل سجناء المعارضة الآخرين سواءً بسواء، بل إن أكثر أعضاء الحزبين الماركسيين المعارضين كانوا من العلويين الذين مكث بعضهم في سجون حافظ أسد زهاء ربع قرن، وهم ينتمون إلى عائلات علوية معروفة مثل عائلة خير بك وغيرها، وكانوا يُعدون بالعشرات وبالمئات

---

(١) المرجع السابق: ٩-١٠ .

يقبعون في معتقلات وسجون الطاغية ما بين عقدين وثلاثة عقود!!

والقول الفصل في المخططات السرية، والتنظيمات الباطنية التي كان حافظ أسد في مقدمتها، ثم على رأسها، لا تشمل كل أبناء الطائفة العلوية، فلا يجوز التعميم في الحكم، فمثل هذا التعميم مناف لروح الشريعة الإسلامية وأحكامها، ويجافي الحق والعدل والنَّصف، ويعد ظلماً كبيراً، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. . .إلخ[1]. ومن الخطأ الفادح مواجهة الظلم بظلم، والتصدي للخطأ الفاحش بخطأ يساويه أو يوازيه.

٤- منذ عدة أشهر زارني معارض سوري لم أكن التقيته من قبل، وعندما دخل المنزل عرَّف بنفسه أنه: ت. د من الطائفة العلوية، وأنه من قرية كذا، ومن عائلة كذا، وأنه قريب لضابط علوي قديم، وبعد عدة لقاءات وزيارات وحوارات قال:

- عليك دور ينبغي أن تضطلع به. وعندما ذكرت له العوائق قال: هذا لا يعفيك من إكمال ما بدأته من معارضة بناءة ومجدية، قلت: وما المطلوب؟ قال: بما تبديه وتبشر به من آراء ومواقف إزاء ما يتعرض له الوطن المنكوب بهذا الحكم الطائفي. قلت: لا أتوانى ولا أتردد في ذلك، قال: فما هي وجهات نظرك لإنهاء هذه الفترة الحالكة الكارثية من تاريخ سورية الحديث؟

عرضت ثلاثة حلول، أولها وأقلها تكاليف وأعباء على المواطنين

---

(١) من حديث قدسي طويل رواه أبو ذر.

السوريين: أن يبادر النظام إلى إصدار عفو عام، ويعوض على المنكوبين والمبعدين والمعتقلين وذوي القتلى والشهداء والأيتام والأرامل والمفقودين، ويلغي أحكام الطوارئ والمحاكم العرفية والاستثنائية وتسلط أجهزة البطش والقمع، ويعيد للقضاء صلاحياته المسلوبة... إلخ فهذا أقرب الحلول وأسرعها، وأعظمها تأثيراً في نفوس المواطنين، تمهيداً لحياة كريمة يتمتع فيها كل مواطن بحريته وكرامته وحقوقه على كل الصُّعد، فقال زائري: ليس هذا ممكناً، فالمتسلطون ثملون بخمرة السلطة، وليسوا مؤهلين لسماع أي معارضة أو نصح، قلت: كلما طال الوقت كانت ردة الفعل رهيبة، لا مكان فيها للعقلاء أو إلى نصح الناصحين، إن العصابة المتسلطة تدفع بأبناء الطائفة إلى التهلكة، وإلى عداء مستحكم بين أبناء الوطن الواحد، ومهما طال الزمن، فإن يدهم على الزناد لن تكون قادرة على الاستمرار، وليقرؤوا التاريخ، وليقلبوا صحائفه، عسى أن يتعظوا مما حل بفرعون وهامان وكل الطغاة والظالمين. إذن فلنحتكم إلى التاريخ، والله غالب على أمره، ثم قلت لزائري: سوف أسجل لك رأيي مكتوباً، وبخط يدي وبتوقيعي، ولك الخيار في نشره أو عرضه على من تريد.

وبعد أسبوع سلمت ضيفي العلوي المعارض رأيي ومطالعتي ووجهة نظري مسجلة بخط اليد، مؤكداً له السماح بنشره أو توزيعه على من يريد، وبالفعل لم يمض على ذلك شهر وبعض شهر حتى اتصل بي وهاتفني الأخ المهندس م. س من كندا مشيراً إلى اطلاعه

عـليـه. ولأهـمـيـة مـا تـبـلور لـدي من الـمـواقـف والأفكـار والآراء والمـقترحـات بعد هذه التـجارب المـرة والمديدة، رأيـت من المفـيد إثبات هـذا المشروع المـتواضع في هذه الـمذكرات، لأنه يمـثل رأيي المعلن دون تحفظ أو غموض، وهذا هو البيان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المرض الطائفي، وكيفية علاجه

أولاً: المرض الطائفي

إذا حل مرض معد كالكوليرا أو الطاعون أو التيفوئيد في بلد، فإنه يقضي على شطر من أهله، يزيدون أو ينقصون حسب خطورة المرض واستـفحـاله، ثم يرحـل عنهم، بـعد أن يكون قـد أهلك مـن أهلك، ويبقى من نجا من المرض على قيد الحياة، أما مرض الطائفية فإنه إذا نزل بساحـة قوم، فإنه يصيب الـجميع دون أن ينجو مـواطن من بلائه وشره.

أ- ليس في الصراعات الطائفية منتصر ومندحر، فالكل خاسرون، والجميع مندحـرون، والوطن هو الخاسر الأكبر، إذ تـتـوقف مسيرته، وتتدنى منزلـته، وتتبدد ثروته، ويصبح صـيداً سهلاً للمتـربصين به من أعـدائه. وعنـدمـا يسـتفـحـل هذا المـرض بالـغـزاة والمـسـتـعـمـرين والمحتلـين، والطامعين الذين يُهـرعون إلى البلد المنكوب، فـيصبون الزيت على النار، ويحـرضون كل فئة ضد الأخرى، حتـى تلتهم النار الطائفيـة الأخضر واليابس، ويكون ذلك إيذاناً بـدمار الشعب، وزوال

الأمة، وضياع الوطن، كالذي حدث في الأندلس في آخر أيامها في ظل حكومات الطوائف، -كان الصراع عائلياً وقبلياً وإقليمياً- وفي الدولة الفاطمية في سنواتها الأخيرة التي سبقت زوالها، عندما كان الوزير شاور يستعين على الوزير ضرغام بالصليبيين، حتى إذا دارت الدائرة على ضرغام، استعان بدوره بالعدو نفسه ليسحق خصمه بسلاح العدو، وهكذا دواليك حتى كان في ذلك زوال الدولة وانتهاؤها، لتمسي أثراً بعد عين. وهذا ما يحدث اليوم في العراق من صراع طائفي بغيض يتنافى كل المنافاة مع مقتضيات الإيمان ومبادئ الإسلام وروح الإنسان، وبديهيات العقل ومنطق الأشياء، ومصلحة الشعوب والأوطان.

ب- كانت سورية في غابر أيامها وسابق تاريخها مثلاً يحتذى في التسامح والألفة والمودة بين سائر أهلها وأبنائها على اختلاف معتقداتهم ومذاهبهم وطوائفهم ومشاربهم، يتوادون ويتزاورون ويتهادون، ويبرُّ بعضهم بعضاً في الأعياد والمناسبات، وفي الأفراح والأتراح، وهذا ما أدى إلى تضامن الجميع وتكاتفهم في وجه الانتداب الفرنسي ودحره، ونيل الاستقلال التام الناجز لشعب لم يكن عدده يزيد على ثلاثة ملايين نسمة، في الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات، لينتصر على دولة كانت إحدى الدول الكبرى يوم قارعها السوريون، وانتزعوا منها حريتهم بوحدتهم وتضحياتهم تحت راية الكتلة الوطنية التي كان من قادتها المسلمون والمسيحيون وأبناء الطوائف الأخرى، وعندما حاول الفرنسيون على مدى ربع قرن أن

يجزئوا الوطن على أسس طائفية، تغلبت الروح الإيمانية والقيم الوطنية على العصبيات العنصرية والنعرات الطائفية.

شهدت سورية في عصرها الحديث، قبيل الاستقلال وبعده مساواة تامة بين المواطنين في الالتحاق بالجيش، وأمام القضاء، وتكافؤ الفرص، وفي الانتخابات إذ يتساوى في التصويت رئيس الجمهورية وأي فلاح في السهل أو الجبل، وفي التمثيل في البرلمان، وفي المشاركة في تشكيل الوزارات، وفي السلك الدبلوماسي... إلخ، وإلا فكيف استطاع العلويون أن يتسلموا قيادات عسكرية كبيرة وبأعداد تفوق نسبتهم السكانية؟

حدثني الأستاذ راشد الكيلاني الذي رغب إليه حافظ أسد أن يضطلع بتأسيس سفارة سورية في أبو ظبي عندما اتجه الأسد إلى تحسين العلاقة مع دول الخليج، ولما حاول راشد الكيلاني الاعتذار بسبب معاناته من مرض في القلب، ألح عليه حافظ الأسد قائلاً: بعد ترسيخ السفارة وافتتاحها، نقبل منك العذر.

لقد كان راشد الكيلاني أول آمر لسلاح الطيران السوري، وفي الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨ قام راشد بقصف المصفاة في حيفا، فأصيبت طيارته بنيران العدو، وأصيب بوجهه، لكن الله سلم، وأعانه على العودة بطائرته المصابة، فترك الجيش، وتمت إحالته إلى السلك الدبلوماسي. ذكر السفير راشد أنه استلم شكوى من الضابط الطيار حافظ الأسد، عندما كان -راشد- آمراً لسلاح الطيران بعد استقباله في مكتبه بطلب من الضابط الأسد، يقول فيها:

- لم تشملني البعثة لدورة في الخارج كضابط طيران، مع أن غيري تجاوزني وأنا أحق بالقدم منه.

قال له راشد الكيلاني: سأبحث في شكواك.

ولم يمض على تقديم الشكوى إلا يوم أو أكثر قليلاً حتى تم استدعاء الضابط الطيار حافظ أسد إلى مكتب قائد الطيران -راشد- الذي أبلغه أنه محق في شكواه، وعليه أن يستعد إلى السفر لتلقي دورة على طيران الميغ في الخارج -الاتحاد السوفياتي- ثم انتهت المقابلة بكلمة آمر الطيران:

- يا ولدي ليس عندنا أي تمييز بين مواطن ومواطن.

فلنسأل حافظ أسد وهو في قبره أو الذين أورثهم حكم سورية: هل من الوفاء لسورية وجيشها تسريح آلاف الضباط الأكفياء من الجيش، والقذف بهم إلى الشارع، وحرمان القوات المسلحة من كفاءاتهم العالية، ودخول الحرب مع العدو من دون خبرات عسكرية وقتالية وفنية، لتكون الهزيمة الشنعاء كما قال ذلك باتريك سيل.

هل يستدرك القائمون على أمر سورية هذا التمييز المشين بين المواطنين على أساس طائفي فيعيدوا سورية إلى سيرتها الأولى في التسامح والعدالة والمساواة؟ أو ينتظروا قارعة تحل بهم وبالوطن فلا ينجو من شرها وشررها واحد من المواطنين.

ج- استمرت سورية في وحدتها الوطنية، وتسامح شعبها المتحضر قبل الاستقلال وبعد نيله، حتى أصابها مرض الطائفية عن

طريق ضباط سوريين، شكلوا لجنة عسكرية في القاهرة أيام الوحدة بين مصر وسورية، من علويين، ضمت إليهم إسماعيليين ودروزاً، ومن انتهازيين مرتزقة من أبناء السنة في وقت لاحق. وقد ركب حافظ أسد جميع الموجات، من بعثية وناصرية وقومية سورية، وشيوعية، حتى تمت له السيطرة على مفاصل الجيش والقوات المسلحة، فشرع في تصفية الجيش من خيرة كفاءاته، بدعوى أنهم ينتمون إلى عائلات برجوازية من سكان المدن السورية، ثم عمد إلى تصفية حلفائه واحداً بعد الآخر، بدءاً من الناصريين، ثم الشيوعيين واليساريين، ثم البعثيين، ثم أبناء الطوائف من الضباط الإسماعيلية والدروز والعلويين، ليُبقي من حوله الانتهازيين والفاسدين والمرتشين والنفعيين من كل الطوائف، فدخل الحرب -كما يقول مؤرخ سيرته الذاتية باتريك سيل-: كان أخطر ضعف يكمن في هيئة الضباط الممزقة التي أقعدتها حملة التطهير التي نفذها الأسد في أواخر عام ١٩٦٦ يوم دخل الحرب في ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وطول الأيام الأربعة الأولى من الحرب ظل موقف سورية سلبياً، وقد يبدو هذا الجمود مثيراً للدهشة في بلد كان نزاعه الحدودي مع إسرائيل فتيل الاشتعال في الحريق كله. وفي صباح العاشر من حزيران سلّم القنيطرة دون قتال، وأذاع راديو دمشق بلاغاً من وزارة الدفاع، أعلن فيه أن مدينة القنيطرة قد سقطت، فراح الجنود يفرون، وعثر على بعضهم يرعون الأغنام في الجبال(١).

---

(١) الأسد، الصراع على الشرق الأوسط، لباتريك سيل: ١٩٥ و٢٢٧ .

د- سقطت سورية الغالية في مستنقع الحكم الطائفي، وخلت الساحة في الحكم لهذه الزمرة التي ارتكبت جميع الجرائم والموبقات في ظل حكم عرفي دائم، من قتل ونهب وتآمر، وتصفية جميع فصائل المقاومة، من سوريين وفلسطينيين ولبنانيين، بدعوى أنه -أي حافظ أسد- يريد أن يعلم الفلسطينيين التعقل -على حد تعبير باتريك سيل- ومنذ أربعين سنة ونيّف، والسوريون يعانون من القهر والكبت ومصادرة حرياتهم والاعتداء على حرماتهم ونهب ثرواتهم حتى نزل أكثر من ثلثيهم تحت خط الفقر، وصار اثنان بالمئة من حواشي النظام وأعوانه وأزلامه يملكون أكثر من ثمانين بالمئة من ثروة البلاد كما يقول المواطن المخلص والاقتصادي الشهير الدكتور عارف دليلة، والذي كلفته غيرته وصدقه وإخلاصه لشعبه ووطنه دخول الزنزانة وصدور الحكم عليه بالسجن عشر سنين، بدعوى أنه يعمل على تغيير الدستور بالقوة، -يا لها من فرية سخيفة-.

هكذا انتهى دور سورية التاريخي وطنياً وعربياً وإسلامياً وحضارياً ودولياً، والمواطنون يتربصون ساعة الانقضاض على هذا الحكم البغيض، وقلوبهم تمتلئ حقداً وضغينة ضد بعضهم البعض، ولا تكاد تلتقي بمواطن، وتصغي إليه من أي اتجاه في أقصى اليمين أو أقصى الشمال، حتى تسمعه يتوعد، وطعم المرارة يملأ فمه، فهل يكتفي أبناء سورية في الجلوس على مقاعد النظارة، والوطن يلفظ أنفاسه في موت بطيء؟!

أولا يسمع السوريون أو يقرؤون ما تنشره المنظمات العالمية

المختصة أو التابعة للأمم المتحدة أن سورية تأتي في مقدمة الدول التي تعاني من انتشار الرشوة والنهب والفساد؟ وأنها في آخر درجات السلم في الاقتصاد والتمنية ودخل المواطن؟ وأنها من أكثر دول العالم مجافاة لحقوق الإنسان ومصادرة لها؟!!!

هل نترك بلادنا وأرضنا الطيبة نهباً للوحوش البشرية الضارية التي تنهش في جسدها؟ وماذا نقول يوم الحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين؟ عندما نُسأل عما قدمناه لشعبنا في محنته منذ دخل السجن الكبير؟ وماذا نقول للتاريخ -العربي والعالمي- ونحن نفرط بحق الوطن والمواطنين؟!!

لابد من وقفة ترضي الله الذي يحرم الظلم ويلعن الظالمين، ويمقت من يجاملهم أو يسكت عن ظلمهم، لابد من وقفة نسجل فيها أن السوريين لا ينامون على ضيم، ولا يسكتون على ظلم، ولا يطأطئون رؤوسهم لباغ أو طاغية، لابد من القيام بالواجب الملقى على عاتقنا كمؤمنين ومواطنين، ولو كلفنا ذلك حياتنا وأرواحنا، وذلك أفضل من أن تحل بنا قارعة، أو نبوء بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

فو الذي نفس محمد بيده، لموت في سبيل الله خير من حياة في معصيته.

ثانياً: كيف نعالج المرض الطائفي

يتوجب على النخبة من المواطنين ذوي الحمية الإيمانية والمروءة العربية والغيرة الوطنية أن يتنادوا لإنقاذ وطنهم من البغاة والطغاة الذين

يعيشون في أرضه فساداً، وفي المواطنين بطشاً واضطهاداً، بدءاً من تشكيل لجنة تحضيرية تمثل كل فئات الشعب ومكوناته في سورية، دون أن تستثني أحداً من المعارضين، يتراوح عددها ما بين خمسة عشر وعشرين مواطناً مخلصاً، لبحث ودراسة ما حل بالوطن من نكبات وكوارث ينوء الإنسان بحملها، ومن أمراض معضلة قاتلة، تنذر بمصير مرعب، يدفع البلاد وشعبها إلى حافة الهاوية أو إلى زوال، وعلى هذه اللجنة التحضيرية العتيدة أن تجمع ولا تفرق، وتوحد ولا تمزق، لا يختلف عليها المواطنون، أياً كانت اتجاهاتهم أو انتماءاتهم أو مناطقهم أو مذاهبهم أو طوائفهم، وتهيِّئ لجملة أمور يأتي في مقدمتها:

أ- تشكيل حكومة تكنوقراط، وتأليف هيئة قضائية تشرف على انتخابات حرة نزيهة، بإشراف عربي ودولي تنبثق عنها هيئة تأسيسية، تبادر إلى وضع دستور خلال فترة أقصاها ستة أشهر، ثم تتحول إلى مجلس نيابي كما حدث لدستور ١٩٥٠، ولجمعيته التأسيسية.

ب- إعادة النظر في توزيع الثروة، عن طريق نظام ضرائبي عادل، ولوائح مالية تستند إلى العدالة الاجتماعية في تأمين حياة كريمة للمواطن في مأكله وملبسه ومسكنه وعلاجه وتعليم أبنائه وضمان شيخوخته وما يتعرض له من كوارث وأحداث طارئة وحوادث مفجعة.

ج- تكافؤ الفرص بين المواطنين في الأعمال والوظائف والأنشطة الاقتصادية من تجارة وصناعة وزراعة، وفي كل مرافق الحياة الأخرى، لتعم المساواة التامة بين المواطنين، وينتفي التمايز بينهم،

بكل المقاييس إلى غير رجعة.

د- تأمين أو صون الحريات العامة في الحياة السياسية، من تشكيل الأحزاب والجمعيات، وضمان حرية التفكير والتعبير والنشر والاجتماع والإضراب والاحتجاج والمعارضة النزيهة بكل صورها، وغير ذلك.

هـ- إعادة الحرمة للقضاء في سورية، كما كان في فجر الاستقلال، نزاهة واستقلالاً وصلاحيات.

و- إعادة اللحمة مع الدول العربية، ولاسيما المجاورة منها، كالأردن ولبنان والعراق، وتركيا، دون المساس بالثوابت والمواقف الوطنية والعربية، والترفع عن التبعية للدول المتجبرة، والحكومات الطامعة في خيرات بلادنا، وبمصيرنا ومقدراتنا.

ز- الدعوة الجادة والصريحة إلى الوحدة العربية، ورفع رايتها، بعد أن سكت عنها أهلها أو تخلى عنها دعاتها ومدَّعُوها جميعاً، وأضحى الحديث عنها مكروهاً إن لم يكن محظوراً -وا أسفاه- لتغرس في نفوس الأجيال الصاعدة، فكرة الشعب الواحد، والأمة الواحدة، والوطن الواحد، ووجوب العمل بعزيمة لا تعرف الملل أو الكلل لقيام وحدة عربية في دولة واحدة، قادرة على استئناف دورها الحضاري على خُطا الأجداد العظام لأمتنا التليدة.

ح- العمل على استعادة ثروات سورية التي قدرها باحثون وخبراء دوليون بمئتي مليار إلى الوطن، لتوظيفها في نهضة اقتصادية

واجتماعية، تعود على المواطنين جميعاً برفع مستوى معيشتهم، وتحسين أوضاعهم في مرافق الحياة كلها.

ط- تشجيع العقول المهاجرة للعودة إلى الديار، ليكونوا حماتها وقادتها والمنقذين لها في شتى مناحي النهضة والازدهار، واللحوق بالركب الإنساني المتقدم، والإسهام في بناء الحضارة العالمية -مادياً وخلقياً- كما كان شأن أمتنا العربية والإسلامية في سابق عهودها الزاهية.

هذا غيض من فيض، من مقترحات وآراء وردت على سبيل المثال لا الحصر، لأن وضع برنامج الإنقاذ كاملاً، يصدر عن اللجنة التحضيرية تمهيداً لموافقة المؤتمر العام عليه.

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب﴾(١).

وجوهر البحث في الموضوع الطائفي:

أ- إن حافظ أسد ومن معه قد بذر في الطائفة بذرة خبيثة أصابت الوحدة الوطنية في الصميم، ومزقت الشعب في سورية -وفي لبنان- شر ممزق، وأحدثت شرخاً عميقاً في جدار الوطن على مستوى الفرد والجماعة والأمة، يحتاج علاجه إلى جهود مضنية وحينٍ من الدهر طويل.

ب- إن الطائفة التي أراد حافظ أسد أن يجعلها في خندق معادٍ،

---

(١) سورة الشورى الآية ١٠ .

وفي مواجهة الشعب، لا تتحمل وزر هذه الجريمة النكراء بحق الوطن والأمة، بل إن شطراً منها عانى من ظلم النظام ما عانته شرائح المجتمع الأخرى.

ج- درج النظام الطائفي على تخويف العلويين من الأكثرية، زاعماً أنهم، يتعرضون للإبادة في حال انهيار نظامه، بالرغم من أنه لا يستطيع أن يقدم دليلاً واحداً على أن مواطناً سورياً من الإخوان صفع مواطناً علوياً على خلفية طائفية في كل تاريخ سورية المعاصر، لا في عهد الانتداب، ولا في العهد الوطني بعد الجلاء، بل كانت ثمة علاقات حميمة بين سنيين وعلويين في كل جنبات الوطن. لقد كانت لنا صداقات مع طلاب علويين في دار المعلمين بحلب عام ١٩٥٠-١٩٥١ من آل جديد ومن آل الخيّر وغيرهم، وكانت لنا علاقات بعد السطو الطائفي لعائلة وحاشية الأسد على مقدرات سورية، كالتي كانت قائمة بيني وبين الدكتور الشاعر أحمد سليمان الأحمد (شقيق بدوي الجبل وابن شيخ العلويين سليمان الأحمد) الذي وفد على بغداد، وانضم إلى المعارضة، وبالرغم من أن بعض البعثيين كانوا متحفظين تُجاهه، فإن الصلة بيني وبينه كانت وثيقة على محاور كثيرة، كنت أصنع له الطعام الخالي من اللحوم التي لا يأكلها في المنزل، وأذهب بها إلى حيث يقيم في فندق الرشيد، وكنا رفقاء في رحلة إلى الجزائر لحضور الدورة الثامنة عشرة لمنظمة التحرير التي أعلن فيها عرفات قيام الدولة الفلسطينية، بدعوة من رئيس المنظمة السيد ياسر عرفات رحمه الله، وقد ذكر الدكتور الشاعر

أحمد سليمان الأحمد ذلك، وأشاد بهذه الصداقة في كتابه -التغربية- وكان له قصائد غر في نكبة حماة ومأساة طرابلس (على يد عصابات الحكم الطائفي بقيادة كبيرهم حافظ أسد) لم نسمع لها مثيلاً في تشخيصها لمأساة أبناء هاتين المدينتين -حماة وطرابلس- المنكوبتين بالجرائم الوحشية التي اقترفتها عصابات الحكم في تلك الفترة الحالكة الظلمة من تاريخ سورية الحديث، والتي ستأتي تفصيلات مذهلة ومرعبة عنها في مكانها من هذا السياق في ظل حكم العائلة الأسدية الباغية.

كذلك استقبلت الشيخ عبد الرحمن الخير (تلميذ الشيخ سليمان الأحمد، وكبير شيوخ الجبل بعد وفاته) في منزلي بأبو ظبي حيث زارني مشكوراً بصحبة ابن أخته وصهره العميد البحري عدنان عبد الله، وقد صعد الشيخ السلم إلى الطابق الخامس على قدميه رغم ما يعانيه من متاعب صحية في القلب، وحرصاً منه على اللقاء، وقد قلت له في هذه الزيارة التي أطلعني فيها على اتصالاته ومراسلاته مع الشخصيات الإسلامية الكبيرة من شيوخ الأزهر، ومن كبار الدعاة، وعلى رأسهم الإمام الشهيد حسن البنا، قلت له: يا شيخ عبد الرحمن لولا أن الحكم بيدكم لذهبنا معاً إلى سفوح جبال العلويين لإجراء حوارٍ معلن ومسموع مع شخصكم وأمثالكم، تأليفاً للقلوب ودرءاً للفتنة، وتقريباً لوجهات النظر فيما بين السوريين أبناء الوطن الواحد، وترسيخاً للوحدة الوطنية، والتعايش النموذجي بين المواطنين من أبناء الطوائف كلها. فقال بوضوح وتأكيد وإصرار: الحكم ليس بأيدينا،

بل بأيدي فئة باغـية، والذين يمسكون بناصيته لا يحـسبون علينا، ولا نعترف بأنهم يمثلون أبناء الطائفة العلوية في سورية.

د- ليس مفيداً أن تطرح المسألة الطائفية في ساحة الحياة السياسية ففي ذلك تمزيق لـلصف الوطني، وإعطاء الفرصة للأعداء الـمتربصين للتسلل والاندساس -كما سبق الـقول- وليس وارداً تجهيل المواطنين بتاريخ وأخطار التحرك الباطني على الصُّعُد الفكرية والعلمية والفقهية، لتـحصـين الأمـة من هذه الـجرثـومة الـقاتلـة، ومن أخطـار الفيـروس الطائـفي اللعـين، إن منهـاجنا في هذا الـموضـوع الخطيـر والمعـقد، يتلخص في سيـاساتنا وتوجهاتنا الفكريـة والعقلية والفلسفيـة كما يقول أمير الـمؤمنين سيـدنا عمر بن الـخطاب رضي الله عنه (لـست بالخب -أي الماكر الغادر- وليس الخب يخدعني).

لقـد سعـى إمامـنا البـنا -رحمـه اللـه وأعلى شـأنه- في الـتألـيف والتقـريب بين أتباع المـذاهب والفرق الإسلامـية، ولاسيما بـين السنة والشيـعة، وأسس مع شـيوخ كرام (دار الـتقريب) لـهذه الغايـة، وقدم جهداً مباركاً في هذا المضمار. كما سعى شيخنا الدكتور السباعي إلى تأليف الشيعة، وبذل على هذا الطريق جهده، فلم تثمر دعوتهما، لأن الشـيعـة فهـمـوا التقـارب على أنـه إقبـال لأهل السـنة على الـتشـيع، وتدريس الفقه الـشيعي -الجعفري- في الأزهر الشـريف، وفي كليات الشريعة السنية، وقد حدث هذا، وأدخل الأزهر دارسة الفقه الجعفري ضمـن مقرراته الـدراسية، فلـم يقابل علـماء الشيـعة هذه الخـطوة من علمـاء السنة، بخطوة مـماثلة، ولم يـدخلوا أيّاً من المـذاهب الفقهـية

السنية (مثل الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي وغيرها) في مدارسهم وكلياتهم في النجف وقم وطهران، الأمر الذي جعل التقارب يراوح في مكانه، دون أن يحقق أي نجاح أو تقدم، وهذا لا يحملنا على اليأس، بل نتابع بذل الجهد التماساً لمرضاة الله في العمل الدؤوب على وحدة المسلمين، أو تقاربهم على أقل تقدير، ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾[1].

هـ- من واجب العلماء والفقهاء والمفكرين والدعاة من أهل السنة والجماعة، أن يبذلوا جهودهم وطاقاتهم لتأليف أبناء الطوائف الأخرى من العلويين والإسماعيليين والدروز وغيرهم، وتبليغهم حقيقة الرسالة الخاتمة وأحكامها التي ترمي إلى إنقاذ الإنسان وإسعاده بالمودة، وبالتي هي أحسن، حتى تحل الثقة محل الشك والريبة، وحتى تقوم المودة بدلاً من البغضاء، تمهيداً لبناء المجتمع المتماسك والمتحاب الذي يستعصي على الكوارث، وعلى الكيد والدس وما يبيته له الأعداء.

ز- منذ التحقت بجماعة الإخوان المسلمين قبل ٦٢ عاماً، لم أر ولم أسمع في قرارات الجماعة، وفي برامجها وإعلامها، وفي الجلسات الرسمية والخاصة والمغلقة إلا ما يؤكد على وحدة الأمة، وتأليف القلوب وتطمين الجميع، والعمل الحازم على إطفاء الفتن الطائفية، ولهذا لم يسجل تاريخ سورية الحديث أن صداماً حدث بين أعضاء جماعة الإخوان وبين آخرين على خلفية طائفية أو تباين

(١) سورة المائدة الآية: ٥٢ .

مذهبي، التزاماً بمبادئ الإسلام التي تكفل للإنسان حريته في الاعتقاد، وتشدد على كل ما يمس المواطن في عقيدته وعبادته وكرامته.

في هذا السياق، وبمناسبة إقامة ندوة في النجف منتصف عام ٢٠٠٢ تحت عنوان: وحدة الأمة الإسلامية، شاركت بإلقاء كلمة في قاعة سيدنا علي رضي الله عنه عن مقومات الأمة الإسلامية، وأتبعتها بتقديم مشروع يتضمن خطة موجزة ومتواضعة على طريق الحوار السني الشيعي، أثبته في هذه الأوراق كمثل على بذل المساعي على درب الوحدة الوطنية والتعايش المذهبي والطائفي. تحت هذا العنوان:

لجنة الوفاق والأخوة الإسلامية

الحوار الذي ينبغي إجراؤه بين علماء وعقلاء وحكماء ومفكري المسلمين -سنة وشيعة- يتيح فرصة ثمينة على طريق التفاهم والتعاون وترسيخ معنى الآية القرآنية الكريمة ﴿إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾[١] والتي لا يجوز التفريط بها، أو التقليل من شأنها، بل ينبغي أن نبذل لها كل طاقة وجهد دون أن نكتفي بعبارات المجاملة، وتطييب الخواطر فقط، بل علينا أن نتهيأ للدخول في صلب الموضوع لمعالجة حقيقته وجوهره، وأن تشمل أعمال المتحاورين لهذه المهمة الشريفة، الخطوات أو المراحل التالية:

أولاً: مقدمة تحتوي على عرضٍ موجز لمبادئ الإسلام في العهد النبوي قبل ظهور الفرق والطوائف في العصر الأموي. وعلى تحذير

(١) سورة الحجرات الآية: ١٠ .

الرسول ﷺ في حجة الوداع من التفرق الذي هو من الكفر، أو الذي يؤدي إلى الكفر، وإلى تحطيم كيان المسلمين وتمزيق صفهم ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[1] وأن وحدة الصف والكلمة تسير مع كلمة التوحيد، وتدور في فلكها، إلى آخر هذه المعاني، وما هو من جوهرها وفي صميمها في هذا التقديم الذي لا بد منه، ولا يستغنى عنه في مثل هذا الحوار.

ثانياً: يشمل هذا الحوار ثلاث ساحات أو مجالات، تضم كل منها بحوثاً وأفكاراً وآراءً وأحكاماً منفصلة عن الساحات الأخرى:

أ- تشمل الساحة الأولى جميع الأحكام والأمور المتفق عليها في الفقهين الشيعي والسني لتشمل كل المعتقدات والمواقف التي يؤيدها الطرفان، ويؤمنون بها، تمهيداً لنشرها وتعميمها على نطاق واسع بعد اعتمادها والتوقيع عليها من كبار رجال الفقهين المتحاورين، لردم الهوة، وتجسير الصلة، وتعليم الناس وجماهير الفريقين أن هذه الأحكام متفق عليها، لأن كثيرين يظنون أنها، أو أن بعضها موضع خلاف، فتضيق الهوة، ويتقلص الخلاف، ويحسن نشر الأحكام المتفق عليها في المجلات والدوريات وجميع وسائل الإعلام المعتمدة لدى الفريقين، مثل فرائض الإسلام، وأحكام العبادات ومبادئ الأخلاق والآداب الإسلامية جميعاً.

ب- تحتوي الساحة الثانية على أمور خلافية قابلة للنقاش، ليصار إلى تحريرها من التزييف والتدليس، وتنتهي إلى تصنيفها بعد دراستها

---

(١) سورة الأنفال جزء من الآية ٤٦ .

تفصيلاً في الساحة الأولى المتفق على موضوعاتها في حال الاتفاق، أو تركها لحوارات لاحقة، أو ضمها إلى الدائرة الثالثة التي يظل الخلاف حولها قائماً، وهذه البحوث أو الموضوعات كثيرة ومتنوعة، تعمد الأطراف إلى تحديدها وتصنيفها وإدخالها إلى دائرة البحث والدراسة، كالزواج المؤقت أو زواج المتعة، والخمس، ومقولة: تاه الأمين، ومصادر السنة، وتحريف الكتاب كالذي يزعمه المستشرقون وبعض علماء أو فقهاء الشيعة.

ثالثاً: ساحة ثالثة تشمل أحكاماً يصعب الاتفاق عليها، أو التنازل عنها، وفي مقدمتها عقيدة الإمامة التي هي في فقه الشيعة ركن من أركان الإيمان كالتوحيد سواء بسواء، وكذا عصمة الأئمة، وتلقيهم الوحي، وقدسية المراقد، وما إلى ذلك، وفي هذه الحالة يتفق الطرفان على أن الخلاف قائم في هذه المعتقدات، وتلك الموضوعات. وعندئذ تبذل المساعي الحثيثة في الحوار بين الفريقين على وجوب التعايش، والإمساك عن التكفير والشتم وسب جيل الخير والقدوة وخلفاء الرسالة وورثة الأنبياء، والمهاجرين والأنصار الذين أثنى الله عليهم في آيات كثيرة بينات، وأحاديث نبوية شريفة، وتعميم هذا المسلك على عامة المسلمين، سنة وشيعة، والتبشير بها في العراق وفي خارج العراق، وفي أرجاء العالم الإسلامي أجمع.

فإذا ما تحقق ذلك، وهو أمر يتفق والأحكام الشرعية التي تنهى عن الشقاق والشتم وبذاءة اللسان وسوء الخلق، ومنطق الضرورة ومصلحة الأمة، ومع الأخلاق المحمدية والآداب النبوية، ومصلحة

الأمة في تماسكها ووحدتها، فإذا ما تم ذلك نكون قد حققنا هدفاً كبيراً، وإنجازاً واجباً كثيراً، ما زال عقلاء الأمة وحكماؤها يتطلعون إليه منذ أمد بعيد، والله المستعان، وعليه التكلان.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

عام ٢٠٠٢ عدنان سعد الدين

ثالث عشر: ٨ آذار ١٩٦٣ أو الطامة الكبرى

وصل حكم الانفصال إلى درجة من الضعف والوهن جعله قابلاً للسقوط لأدنى هزة يتعرض لها، أو بالضربة القاضية التي يعد العدة لها المتربصون، وكان الساسة كلهم أو جلهم منشغلين بالمكاسب الصغيرة، والمناطحات الحزبية، وتبادل التهم، والكيد المتبادل، والوطن يترنح تحت وطأة التآمر الخارجي والضغط الناصري من داخل سورية ومن خارجها، ومن تسلط العسكر على مقدرات البلاد والعباد، وحبك المؤامرات، والاستعداد للقفز على السلطة، وتشييع جنازة الانفصال.

أ- تكلم قائد الجيش زهر الدين في مذكراته، متحدثاً عن الأسباب التي أدت إلى سقوط عهد الانفصال، وذكر منها: المد الوحدوي الذي شكل أعنف ردود الفعل على ضياع الوحدة، واستفزاز الجماهير السورية التي آلمها ضياع الوحدة، وتحطيم هذا الأمل الجميل في وحدة العرب وجمع شملهم، وكذا محاولة القضاء على الخط الاشتراكي، في تعديل قرارات التأمين والإصلاح الزراعي وما يتبع ذلك، وأيضاً المنافع الشخصية للرأسماليين والإقطاعيين وما

بذلوه من جهود كبيرة لاسترجاع امتيازاتٍ فقدوها في أيام الوحدة، أو استرجاع جزءٍ منها، وذكر زهر الدين كذلك ضعف الحكم فقال: ما كان جماعة آذار يتجرؤون على الانقضاض على السلطة لو كان الحكم قوياً، وأخيراً، وليس آخراً، غرام الحكم، على حد تعبير زهر الدين، والرغبة الجامحة لاستلام السلطة، والهيمنة على حكم البلاد[1].

ثم عرَّج زهر الدين على عناصر الانقلاب التي أودت بحكم الانفصال، فحدد أربعة أحزاب تجمعت وتعاونت على الإطاحة بالنظام والإمساك بزمام الحكم، فوصف حزب البعث بالضعف، وبقلة الضباط الموالين له، وكان أبرزهم النقيب سليم حاطوم وعدد قليل من صغار الضباط، وكذا الناصريون الذين لا يملكون تنظيماً قوياً ولا تخطيطاً دقيقاً، ولا عدداً كبيراً من ضباط الجيش، أما القوميون العرب شركاء الانقلابيين، فلم يكن لهم أنصار في الجيش، وكانت فئتهم المدنية ضئيلة، وهكذا كان حال الوحدويين الاشتراكيين المنشقين عن حزب البعث، فكان وجودهم في الجيش معدوماً، وكان أنصارهم في الحياة السياسية أقل من القلة.

إن كلام زهر الدين عن ضعف الحكم غير مسلم به، وإن كان، فهو يتحمل -في الدرجة الأولى- مسؤولية ذلك أكثر من غيره، لأنه كان قائد الجيش، الذي يمكنه ضبط الأمور، ووضع حد للميوعة التي سادت القطعات العسكرية والحياة السياسية، متجاهلاً الأسباب الحقيقية التي أوردها في مذكراته عن الاتصالات السرية بين ممثلين

(١) مذكرات زهر الدين: ٤١٩-٤٢٢ .

عن الجيش وبين عبد الناصر في القاهرة، بعلمه وموافقته واطلاع رئيس الجمهورية الذي وافق مشترطاً اجتماعه بالوفد العسكري قبل سفره إلى القاهرة، غير أن الوفد المكون من ثلاثة ضباط سافر دون أن يلتفت إلى رئيس الجمهورية أو يجتمع به أو يخطره بالسفر.

كان شرط القاهرة لعودة المياه إلى مجاريها القيام بانقلاب يطيح بالحكومة ورئيس الجمهورية وحل المجلس النيابي، واعتقال رموز الانفصال. وإذن فليس التفريط بالقرارات الاشتراكية التي وافقت الحكومة والبرلمان على إقرارها بعد تعديلات طفيفة لا تمس الجوهر، فهذه الأسرار، والاتصالات مع القاهرة، وتآمر العسكر على الحكم، بل على أنفسهم كما حدث لهم فيما بعد جراء هذه السياسات الطائشة والتي وردت في مذكرات العظم والسمان وزهر الدين هي التي سببت هدم أركان الحكم، وكان زهر الدين سبباً مباشراً في ذلك كله، وفي هذه الأحداث التي حلت بالوطن العزيز.

كذلك كان عدد من السياسيين سبباً في انهيار الحكم، والتمهيد لظهور الكتل الطائفية التي استلمت مقاليد السلطة العسكرية والمدنية، وكان في مقدمة هؤلاء رئيس الجمهورية ناظم القدسي وقائد الجيش زهر الدين، وكذا التناحر بين الأحزاب داخل الوزارة، وبين الكتل النيابية في البرلمان، والتحرك الناصري المحموم من القاهرة ولبنان، ومن داخل سورية، وعِبر جميع وسائل الإعلام التي كانت تصك الآذان، والتدخل الأجنبي، ولاسيما الأمريكي والبريطاني. فكل هذا

كان وراء انهيار حكم الانفصال والإطاحة بالحكم، ليقع الوطن كله فريسة سهلة بقبضة العسكر المغامرين والمقامرين بمصير الأمة، دون خشية أو رادع من ضمير.

٢- وجد الناصريون والبعثيون والقوميون العرب والوحدويون الاشتراكيون في العقيد زياد الحريري ضالتهم، فهو الذي يتحرق شوقاً للوصول إلى أعلى المراتب -كما يقول زهر الدين- لقد خططت العناصر الانقلابية لزياد الحريري، وأخذت تقوده خطوة خطوة نحو الثامن من آذار ١٩٦٣[١].

فمن هو زياد الحريري؟

ينتمي زياد الحريري إلى عائلة معروفة في مدينة حماة، عُرفت بتأييدها لأكرم الحوراني، بل كانت من أركان حزبه بلسان كبير العائلة السيد علو الحريري الذي كان من أركان تنظيم الحوراني، والذي جنى بعض المكاسب من هذه المناصرة.

عُرف عن زياد ميله للمرح واللهو والطرب، وكانت له أغنيات شعبية بالعامية من نظمه، وكانت له مجموعة من أبناء بلدته حماة، يأتي إليها كل فترة عبر إجازاته ليمضي معها سهرات التسلية والمرح، ومن هؤلاء اختار وزيراً في أول تشكيلة وزارية بعد قيامه بانقلاب ٨ آذار، وكان من الوجهة السياسية موزعاً بين تيار الحوراني الاشتراكي وبين الناصريين والوحدويين، دون أن يتبنى أحد هذه التيارات ويندمج

---

(١) مذكرات زهر الدين: ٤١٦-٤١٧ .

كلياً في صفوفها.

والعجيب والمدهش أن نشاط زياد الحريري في الجيش وفي الجبهة لم يكن خافياً، وأن تحركه بين الضباط كان مرصوداً ومعروفاً، بل إن زهر الدين والسمان ذكرا بإسهاب، وبمواضع عدة من المذكرات نشاط الحريري، في الاتصال بالضباط، والتكتل معهم تمهيداً لإحداث انقلاب، وبالرغم من ذلك لم يتخذ قائد الجيش زهر الدين قراراً حاسماً بتسريحه أو نقله، أو انتدابه لإحدى السفارات السورية في الخارج، بل تركه يسرح ويمرح كما يشاء، وكلما هم بذلك تراجع عنه، الأمر الذي يجعلنا نجزم أن زهر الدين في ضعفه وتردده كان السبب الأول في انهيار الحكم إبان الانفصال، وليست الأسباب التي أسقط عليها زهر الدين أسباب الانهيار إبان الانفصال: يقول زهر الدين: كانت المؤامرة تحاك بصورة علنية، غير أن رئيس شعبة المخابرات كان ينفي ما يسميه إشاعات، ويحول الأنظار إلى عناصر أخرى مشهورة بإخلاصها وولائها كالعقيد هيثم المهايني!!! إن رئيس شعبة المخابرات العسكرية العقيد عدنان عقيل ومعاونه العقيد مروان كيلاني كانا على علاقة وتفاهم مع زياد الحريري، وكذلك مع اللواء نامق كمال، وقادة ألوية قطنا، ومع المقدم عثمان صالح آغا مدير الشرطة العسكرية.. إلخ.

لقد ضمن الوحدويون نجاح الحركة، بعد أن جلبوا إلى صفوفهم كلاً من زياد الحريري واللواء نامق كمال وقادة قطنا ولواء الكسوة ومدارس الدبابات والشرطة العسكرية، ورئيس حرس القيادة العامة

ودباباته[1].

فهل يوجد قائد جيش يُسند منصب رئيس شعبة المخابرات العسكرية إلى من يخالفه في سياسة الجيش وسياسة الحكومة، ويخفي عنه المعلومات الخطيرة، ويتآمر عليه، وعلى السلطة والانقلابيين، دون أن ينتبه أو يفطن قائد الجيش لهذه الأوضاع، ودون أن يعين أحد الموثوقين لديه في هذا الموقع الخطير؟!! إن زهر الدين هو المسؤول الأول عما حل بسورية، وإن عبد الكريم النحلاوي ومجموعته مسؤولون أكثر من زهر الدين، لأنهم هم الذين جاؤوا به إلى هذا الموقع، الذي لم يستطع ملأه أو الاضطلاع بمهماته الكبيرة، لكن النحلاوي وزمرته كانوا منشغلين بالتآمر على البرلمان والحكومة التي تشكلت بمعرفتهم وإشرافهم، بل التآمر على أنفسهم حينما اتصلوا بالقاهرة، وفاوضوها على إحداث انقلاب، فكانوا في سذاجتهم وغفلتهم أمام عبد الناصر كالأطفال، أو كالكرة التي يتقاذفها اللاعبون، فدفع بهم عبد الناصر إلى حتفهم أو إلى هاوية لم يستطيعوا أن يخرجوا منها.

٣- زارنا أخ لنا في الجيش قبل الانقلاب، وكان ضابطاً في سلاح المدفعية قريباً جداً من صلاح جديد، وكان هذا الأخ عضواً في أسرة عتيدة ضمت إخوة كراماً اضطلعوا بمسؤوليات دعوية كبيرة، ظللت نقيباً لها مدة أربعة عشر عاماً - من ١٩٥٠-١٩٦٤، وقد ضمت هذه الأسرة عشرة إخوة بل دعاة، كان منهم مروان حديد، وعدنان

---

(١) زهر الدين: ٤١٨ .

الزعيم، والمهندس الزراعي محمود نجار والمعلم صاحب الشهامة محمود عون، واللغوي الأديب محمد ضاهر الكبيسي، وقد توفي هؤلاء جميعهم، والشيخ الداعية ن. ع الذي ما يزال على قيد الحياة يؤدي واجبه الدعوي، جاءنا الأخ الضابط م. س، وطلب اللقاء بنا، ، فركبنا سيارته ليلاً إلى خارج المدينة على طريق مدينة حمص، وكنا ثلاثة، أحدهم الأخ الدكتور عبد الكريم عثمان رحمه الله، والأخ م. ص وكاتب هذه السطور، فقال الأخ الضابط: يا إخوة، الضباط يتحركون بنشاط ملحوظ وملموس، للقيام بانقلاب عسكري، والإطاحة بالسلطة، والسيطرة على الحكم، والضباط المتدينون والحياديون يشكلون أكثرية ساحقة، تقدر بأضعاف أضعاف المجموعات التي تحضر للانقلاب، وقد تحدثنا مع رئيس الأركان نامق كمال -شركسي- ليمسك بناصية الأمر، لكنه خائف مذعور، قال معتذراً: أنا أريد أن أصل إلى سن التقاعد قريباً والجلوس في منزلي، وقال لنا الأخ الضابط المدفعي م. س: الضباط المتدينون والحياديون بحاجة إلى غطاء سياسي أو إلى قيادة حيال هذه الأخطار الداهمة، ولهذا فهم في حيرة أو فيما يشبه انعدام الوزن، فهل من منقذ؟ وهكذا ظلّ الجميع فيما يشبه البغتة، ينتظرون مصيرهم، بمن فيهم رئيس الأركان الذي سهل مهمة الحريري والانقلابيين، ورئيس الجيش الذي احتج بجهله في مجريات الأحداث، وبما لدى استخباراته العسكرية من معلومات، فكان حال الجميع كحال جنود الدولة العباسية أمام التتار، عندما كان الجندي التتري يقول للعشرات: قفوا مكانكم لا تغادروه، ليذهب ويحضر خنجره وسلاحه، ويعمل

بالمنتظرين ذبحاً وقتلاً دون أن يقاوموا أو يهربوا أو يحركوا ساكناً.

لكننا لم نستطع أن نفعل شيئاً فيما كان الأخ الضابط يناشد فيه ويتطلع إليه، لأن القيادة العليا كانت لا ترى تحقيق برنامجها عن طريق الانقلاب العسكري، وما شابهه، ولو انتظروا مئات السنين! تُرى هل ما زالوا على اقتناعهم الأول بعد ضياع الوطن، دون أن تشفع لهم مواقفهم -الديمقراطية- أمام خصومهم الانقلابيين الذين يتحدثون كثيراً عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وأيديهم مغموسة بالدماء البريئة، ويتهمون غيرهم بالأصولية والإرهاب ومعاداة الديمقراطية.

وبينما كانت القيادات الإسلامية السياسية منصرفة عن مواجهة هذه المخططات الرهيبة، لم يكن حافظ أسد وتكتله الطائفي مكتفياً بالنشاط العسكري داخل الوحدات العسكرية، ومع الضباط المتقاعدين، بل كان يهيّئ ويعدّ العدّة لإيجاد مظلة عقائدية يكمل بها مخططه، ويدغدغ بها عقول الحزبيين البعثيين وحلفائهم، وجماهير السوريين من غير الحزبيين.

لقد وجد حافظ ضالته في هذا الجانب بالأستاذ زكي الأرسوزي ليحجب به ميشيل عفلق، وينهي دوره، ويبرز الأرسوزي كمفكر وفيلسوف، سبق عفلق وغيره في وضع نظريات القومية العربية والوحدة، وإحياء المشاعر القومية -وأن عفلق سرق منه أفكاره ونسبها إلى نفسه -.

شرع حافظ أسد من أجل الاسترشاد العقائدي في جعل الجيش وقفاً على البعث وحده لميلاد الجيش العقائدي، كما استلهم من الأرسوزي خطاه السياسية الأولى عن طريق الدكتور وهيب الغانم، فكان الأسد -بعد أن أخرج الأرسوزي من عزلته- يصحبه معه في جولاته على معسكرات الجيش، ليحاضر في الوحدات العسكرية، ويلتقي بمجموعات الضباط في داخل ثكنات الجيش(١).

لم تمض شهور على انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣، حتى عُيِّن الأسد آمراً لسلاح الجو السوري، وأُعطي رتبة استثنائية، فرفع من رتبة رائد إلى رتبة لواء دفعة واحدة، متجاوزاً رتب المقدم والعقيد والعميد، ليكون اللواء الطيار آمر سلاح الطيران السوري حافظ أسد!!!

سئل عفلق بُعيد انقلاب ٨ آذار عن الدور الذي يلعبه حزبه في السلطة الجديدة، فقال: حوالي واحد من الألف، أو واحد في المئة، كما نقل ذلك باتريك سيل عن البعثي المخضرم أحمد رستم -من بلدة سرغايا- في مقابلة أجراها معه في ٢٩-٨-١٩٨٤(٢).

فمن هو زكي الأرسوزي؟

مواطن سوري من مدينة الإسكندرون التي ضمتها فرنسا إلى تركيا بأساليب ملتوية، ليكسب الحلفاء تركيا إلى جانبهم في حربهم مع ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، فعارض عرب لواء الإسكندرون

---

(١) باتريك سيل: ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق: ١٦٠ .

ضمه إلى تركيا، وسلخه عن سورية عام ١٩٣٨، وكان من هؤلاء الأستاذ زكي الأرسوزي، وبعد أن فشلت حركتهم، أمام هذه المؤامرة الغادرة، وتعرضوا للضغط والاضطهاد، نزح عدد من سكان اللواء إلى سورية، كان منهم زكي الأرسوزي ووهيب الغانم ومحمد علي الزرقا، وأدهم مصطفى، وسليمان العيسى، وفايز إسماعيل رئيس تنظيم الوحدويين الاشتراكيين، وجميع هؤلاء ينتمون إلى الطائفة العلوية، استقر المقام ببعضهم في مدينة اللاذقية، كما قطن بعضهم مدينة حلب، ثم لعبوا -فيما بعد- أدواراً سياسية في ساحات متباينة، ليس تفصيلها يدخل سياق هذه المذكرات.

كافأت سورية الأرسوزي على موقفه الوطني ونضاله ضد سلخ لواء الإسكندرون عن سورية، فأوفدته للدراسة في فرنسا، وأمضى معظم سنوات الحرب في باريس، ثم عاد منها يحمل ليسانس في الفلسفة، ومن سوء حظه جاء تعيينه مدرساً للفلسفة في ثانوية ابن رشد في مدينة حماة، فأنكر عليه الطلاب وأبناء المدينة اتخاذ القبعة -البرنيطة- لباساً لرأسه، ولم يكن هذا الأمر معروفاً أو مألوفاً في المدينة أو في سورية بشكل عام، كما أنكروا عليه أحاديثه التي يملأ بها ساعات تدريسه في تخوين القادة العرب واتهامهم بالانحراف والعمالة، دون أن يعير المقررات الدراسية أي اهتمام، ولم يستثن من اتهاماته للقادة العرب سوى اثنين، أحدهما الملك غازي بن فيصل ملك العراق الذي يُتهم الإنكليز بقتله بالتعاون مع بعض السياسيين العراقيين الموالين للإنكليز، وفي مقدمتهم نوري السعيد وابنه صباح.

كانت حياة الأرسوزي في السنة التي أمضاها في مدينة حماة مزرية، ذكر عدد من طلابه أنهم لم يتلقوا منه درساً واحداً في الفلسفة التي كانت مادة رئيسة في شهادة البكالوريا شعبة الفلسفة، وعندما قالوا: كيف نتقدم لامتحان البكالوريا دون أن نسمع عن مقررات الفلسفة شيئاً؟ قال الأرسوزي: سوف ألخص لكم المقرر في أسبوعين، فمضى الأسبوعان والعام الدراسي، ولم يسمعوا منه سوى الهجوم على الساسة، ومنهم رئيس الجمهورية شكري القوتلي، وفي أثناء العام الدراسي، لاحظ طلابه أن لباسه -الجاكيت- غير لائق لمدرس.. فجمعوا له ثمن سترة، وسلموه المبلغ، فلم يغير رداءه غير المناسب، ولما سألوه قال: سوف أطبع بالمبلغ كتاباً جديداً بدأ يسرد عليهم مقدمته التي قال فيها: أريد أن أكون عظيماً، أريد أن أكون نبياً، وانقضى العام دون أن يغير لباسه غير اللائق، ودون أن يسمعوا منه درساً واحداً، ودون أن يطبع كتابه الذي يريد أن يكون فيه نبياً(١).

غادر الأرسوزي حماة إلى دمشق، وكان مجلسه اليومي في مقهى الهافانا الشهير الذي تجتمع فيه نخبة من الساسة والمثقفين، لاحظ جلساؤه أن أحاديثه مضطربة ومشوشة، ويغلب عليها الهوس وما يشبه الهستيريا، فكانت جلساتهم معه للتندر والترويح عن النفس والتنكيت والتسلية، وقد سمعت من أحد جلسائه المثقف الكبير الدكتور محسن

---

(١) شهادة أحد طلابه الأستاذ محمد نعسان عرواني المراقب العام للإخوان فيما بعد، مستشهداً بزملائه في الدراسة الذين شاركوه ملاحظاته.

شيشكلي، عن هذه الجلسات غرائب لا تكاد تصدق، فإذا وقع كوب على الأرض، قال الأرسوزي: هذا فعل الاستعمار، وإذا مر شخص أمام طاولتهم قال: هذا مبعوث الاستعمار... وذات يوم تداول الناس عملة جديدة، فقال له محسن: ماذا ترى يا أستاذ في هذه العملة ومن وراءها، أليس الاستعمار!. أجاب الأرسوزي: يحرس دينك (كلمة إشادة وموافقة) لقد كشفت السر؟ وربما أكون قد أطلت في موضوع (سخيف) غير مناسب، غير أن هذا النزر اليسير جداً من سيرة الأرسوزي، أوردته بمناسبة إبراز حافظ أسد له كفيلسوف للأمة العربية، وصاحب النظريات القومية والوحدوية، وقد أقام له تمثالاً، وأجرى له راتباً دائماً، وأطلق لسانه في وحدات الجيش السوري، وفي خلايا البعث، وفي الصحافة السورية، واتخذ منه غطاءً لفلسفة عقائدية يستكمل بها مخططه من جميع جوانبه واتجاهاته[1].

٤- في ليلة ٧ - ٨ من آذار/ مارس ١٩٦٣، تحرك المشاة وأرتال الدبابات للانقضاض على دمشق، بقيادة العقيد زياد الحريري الذي ترك الجبهة مع إسرائيل، وغادرها على رأس لواء سحبه من مواجهة العدو، كما تحرك لواء آخر من السويداء، باتجاه العاصمة، ثم سيطر البعثيون بقيادة محمد عمران على اللواء ٧٠ ذي الأهمية العسكرية البالغة في موقعه من العاصمة، وفي تسليحه، وانتزعوه من آمره الضابط محمد الجلاغي، فعلم الجميع وفي مقدمتهم رئيس الجمهورية بهذا التحرك، فعرض الضابط الطيار هيثم المهايني قائد

(١) الأسد، الصراع على الشرق الأوسط: ١٦٠ .

القوة الرئيسة في الطيران السوري، إيقاف هذا التحرك، والسيطرة عليه، بقصف جوي، أو تهديده بالقصف، لكن القدسي لم يجرؤ على إعطائه هذه الأوامر، كما لم يصادق على إعدام من قتلوا أربعة من خيرة الضباط السوريين، فخرج القتلة زعماء يسيطرون، مع التكتل الباطني، على مقدرات سورية، وهكذا ترك ناظم القدسي سورية لقدرها، وأعلن في وقت لاحق تأييده لحافظ أسد، وانتخابه العلني له رئيساً للجمهورية في انتخابات الـ ٩٩٫٩٩ .

عندما يدرك المواطن الذي يحمل في قلبه هم بلاده وأمته بواطن الأمور، وحقائق الرجال أو بعضهم، لا يستغرب ما حدث، بل يجد التفسير المقنع لهذا الخور وهذه المواقف الهزيلة.

لقد كنا ذات يوم على مائدة غداء أقامها الدكتور علي الحوامدة عضو البرلمان الأردني سابقاً في منزله، وكان ضمن المدعوين الفقيه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله ، فقال أمام المدعوين -حوالي ٢٠ مدعواً- ذكر لنا صديقنا الدكتور ناظم القدسي أنه التحق بالحركة الماسونية، وانتسب إليها، وأنه عضو فيها، وهو يود مصارحتنا بهذا الأمر حتى لا يكون مدلساً أو غاشاً لرفقاء دربه وأقرانه في مسيرته السياسية!! كما ذكر الأستاذ عبدالله الطنطاوي أنه سمع هذا الحديث مباشرة من الشيخ الزرقا رحمه الله.

لقد أسهم السياسيون من كل الاتجاهات فيما حل بسورية، ويأتي في مقدمة من فرط بحق الوطن بخوفه أو تفكيره المحدود أو بانحرافه الدكتور ناظم القدسي رئيس الجمهورية، وقائد الجيش عبد الكريم

زهر الدين، وعبد الكريم النحلاوي ومن معه، الذي لم يعد يجد من ينقلب عليه، فانقلب على نفسه.

استولى النقيب سليم حاطوم على الإذاعة، بيسر وسهولة، وأقام اللواء الذي قاده العقيد زياد الحريري حواجز في العاصمة، وتم احتلال وزارة الدفاع ومقر قيادة الجيش بلا قتال، واعتقل الانقلابيون القائد العام للجيش الفريق عبد الكريم زهر الدين، ورئيس الجمهورية ناظم القدسي وعدداً كبيراً من المسؤولين، واستدعوا عن طريق الإذاعة الضباط المتقاعدين ليلتحقوا على الفور بوحداتهم العسكرية التي سرحوا منها، واستولى الأسد على قاعدة الضمير الجوية الكبيرة بعد حوار مع قادتها سمعته من اللواء غسان حداد الذي انضم إلى الانقلابيين، وشرع بإقناع ضباط القاعدة بالاستسلام!!

اجتمع قادة الانقلاب في مقر قيادة الجيش، لتبادل التهاني بانتصارهم الخاطف، وكأنهم كانوا في نزهة، دونما عناء كبير، ودون مقاومة أو إراقة دماء، ثم شكلوا المجلس الوطني لقيادة الثورة من عشرين ضابطاً، منهم اثنا عشر ضابطاً بعثياً، وثمانية ضباط ناصريين ومستقلين، وفي صبيحة الانقلاب كلف العسكر صلاح البيطار بتشكيل الوزارة، والعجيب في هذا التشكيل، أن العسكريين كانوا على عجل في تعيين الوزراء، وفي حيرة في الاختيار، لعدم معرفتهم الواسعة بالساسة، ولأن الأمر كان مفاجئاً، ولما وصلوا إلى وزارة الأوقاف -كما سمعت ممن حضر هذه الساعات من أنصار الحريري- لم يهتدوا إلى تسمية وزير يناسب عمل الأوقاف والشؤون الإسلامية،

ولما طالت حيرتهم، قال لهم محدثي: ما رأيكم في تسمية الأستاذ درويش العلواني وزيراً للأوقاف؟ ولما لم يجدوا البديل وافقوا على ذلك وضموا العلواني إلى وزارة البيطار، والأستاذ درويش علواني هو مدير ثانوية ابن رشد في حماة، وخريج فرنسا في الاجتماعيات (التاريخ والجغرافيا حسب التسمية الفرنسية لشهادته).

بعد بضعة أيام تم توسيع المجلس العسكري، ليضم عدداً من المدنيين هم: ميشيل عفلق، وصلاح البيطار، ومنصور الأطرش، لكن هؤلاء المدنيين كانوا منذ البداية مجرد صورة رمزية، للعسكريين أصحاب السلطة الحقيقية[1].

وأخيراً -وليس آخراً- ماذا حل بسورية بعد أن نزلت بها هذه الطامة المفجعة؟ ماذا حدث للإسلام وأهله وعلمائه؟ وللجيش وجنده، وللتعليم ورجاله، وللاقتصاد ومؤسساته، وللأحزاب السياسية والصحف اليومية والأسبوعية والشهرية، وللقادة المخضرمين من السوريين الذين عاصروا أحداث سورية الكبرى، ونالت البلاد استقلالها بجهودهم وجهادهم، ماذا حصل للمرأة الملتزمة بالحشمة وآداب الإسلام؟ ماذا واجه الدعاة والمربون في ظل حكم الثامن من آذار ١٩٦٣؟ وماذا جره على البلاد والعباد من أشجان وأحزان، ومن كوارث ومصائب ونكبات؟ ماذا كان مصير الصراع مع العدو المتربص بالوطن كيداً وشراً، بعد أن استمر التعايش معه، وامتد شهر العسل بين الحكم والعدو عقوداً؟

---

(١) الأسد لباتريك سيل: ١١-١٣

هذا ما نعزم بإذن الله وعونه على دراسته وبحثه في المجلد الثالث من هـذه الذكـريات والمـذكـرات في مـوضـوعيـة تامـة وتحـرٍ كـامل للحقيقة، وشهادات صادقة، سيسـألنا الله تعالى عنها في اليوم العسير ﴿ستُكتب شهـادتهم ويُسألون﴾[1] ﴿والله غالب على أمـره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2].

والله المستعان، وعليه التكلان.

---

(١) سورة الزخرف الآية: ١٩ .

(٢) سورة يوسف الآية: ٢١ .

ملحق (1)

الشيخ محمد الحامد
كبير العارفين، وإمام الصادقين

نشأته وحياته

في عام ١٩١٠ للميلاد أطل في مدينة حماة وسط سورية مولود قُدر له أن يقوم بدور رباني كان له الأثر البليغ ليس في حماة أو سورية، بل امتد إلى أرجاء أخرى في الوطن العربي والعالم الإسلامي، انحدر من عائلة مختصة بعلوم الشريعة، متمسكة بأهداب الدين وقيم الفضيلة، فوالده الشيخ محمود الحامد كان عالماً تقياً، لم يلبث الوالد أن رحل عن الدنيا وولده لما يبلغ السادسة، ثم لحقت به الوالدة بعد عام من وفاة زوجها، فأضحى شيخنا يتيم الأبوين وهو في السابعة من عمره المبارك، كانت الأسرة رقيقة الحال تعيش حياة التقشف والفقر والحرمان، ومع ذلك ألحقه أخوه الكبير بدر الدين الحامد بالمدرسة الابتدائية، فكان الأول فيها على أقرانه، استكمل دراسته الابتدائية عام ١٩٢٢، فألحقه أخوه بالمدرسة الإعدادية، فلم ينشرح صدره لها، ولم ينشط في دروسها، فترك المدرسة، والتفت

إلى صناعة الخياطة صباحاً، وإلى دروس العلماء في المساجد مساءً.

في هذه الأثناء فتحت مدرسة دار العلوم الشرعية أبوابها عام ١٩٢٤، فلم يلبث الشيخ أن التحق بها، فظهر فيها نبوغه وتفوقه، وانصرف بكليته إلى علوم الشريعة في المدرسة نهاراً، وبصحبة كبار علماء المدينة في ساعات المساء، من أمثال خاله الشيخ سعيد الجابي، المصلح العالم الديني والزعيم الوطني، والشيخ سعيد النعسان مفتي المدينة والشخصية المرموقة فيها، والشيخ أحمد المراد الذي صاهره شيخنا وتزوج ابنته المرأة التي عُرفت بالصلاح والتقوى.

تخرج الشيخ في مدرسة العلوم الشرعية عام ١٩٢٨م فانتقل إلى حلب، والتحق بالمدرسة الخسروية التي كانت تُعد من أرقى المدارس الشرعية في بلاد الشام، في هذه المرحلة برزت شخصية الشيخ الحامد، وبدت ألمعيته أمام مدرسيه وبين أقرانه، حتى قال عنه أحد معلميه: إنه بحر علم لا تكدره الدلاء.

لمس الناس فيه التواضع والأدب الجم والخلق الرفيع، ألزم نفسه كلمة التقوى في أدق الأمور، تبحر في العلوم الشرعية بكل فروعها، لقد سكن حب العلم فؤاده، وغلب على كل ما عداه، فكان يقول:

«لو أنني خُيِّرتُ بين الملك والعلم لاخترتُ العلم على السلطان والملك».

عاد إلى بلدته عام ١٩٣٥ واستلم الخطبة في جامع الأشقر، وإلقاء الدروس العامة في المسجد الجديد، ثم انتقل إلى جامع

السلطان أشهر مساجد المدينة حيث كلف بالتدريس وخطبة الجمعة فيه، فأضحى المركز الرئيس لنشاطه الدعوي وجهده العلمي، والمحضن التربوي الذي تخرج على يده فيه جيل من الدعاة والمربين والمصلحين والخطباء والفقهاء الذين حملوا لواء الدعوة إلى الله في حماة وفي كثير من الأرجاء على طول الساحة العربية والإسلامية، وكان من أبرز طلابه ومريديه الشيخ سعيد حوى (رحمه الله) والشيخ نافع العلواني والشيخ عبد الحميد طهماز وولده الشيخ محمود بن محمد بن محمود الحامد أمد الله في عمره، والشيخ عبد الحميد الأحدب والشيخ فارس الملّي والشيخ وليد منجد والدكتور أحمد فارس جواد وغيرهم، نسأل الله العمر المديد لهم، والبركة في جهودهم وجهادهم، وأن يجعل الله بفضله أعمالهم خالصة لوجهه.

حملته رغبة علمية لا تقاوم بالسفر إلى مصر والالتحاق بالأزهر الشريف، لكن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في العاصمة المصرية لم يحتملها، فعاد للتو إلى بلده بدافع من ورعه وحساسيته المفرطة في الالتزام بأوامر الإسلام وقيمه السامية، فعاش فترة صراع نفسي بين رغبته في الالتحاق بالأزهر، والبعد عن المظاهر والعادات التي تمس الآداب في الإسلام، بيد أن الرغبة في إكمال الدراسة وضغوط الأهل ونصائح الأحباب والأصحاب حملته على أن يحمل عصا الترحال ثانية، ويولي وجهه شطر الأزهر الشريف أقدم الجامعات الإسلامية تاريخاً، وأعظمها تأثيراً في شعوب الأمة الإسلامية على مدى أكثر من عشرة قرون.

حياة الشيخ في القاهرة

رأى الشيخ في هذه المرة أرض الكنانة على حقيقتها فانقلبت الكآبة إلى أنس، والنفور إلى عشق، حيث تعرف على ثلة من الصالحين، وخالط جمهرة من المتقين، وأقام صداقات وعلاقات مع أعلام العلماء ومشاهير الفقهاء، كما أن هؤلاء وأولئك أحبوا في الشيخ دماثة خلقه وصفاء نفسه وحضور بديهته، وظرف دعابته، فكتب إلى شيخه العارف الكبير في حمص ينبئه أنه وجد في مصر من كان يفتقده من الصالحين، وشاع في أوساط أهل العلم ذكر الشيخ محمد الحامد باسم الشيخ الحموي (نسبة إلى بلدته حماة) انتسب الشيخ إلى الأزهر، وسمع تقريظاً من اللجنة الفاحصة التي تقرر أسماء من سيلتحقون بالدراسة، لقد قالوا له:

- أنت عالم ولست بحاجة إلى الدراسة الجامعية.

كان ممن خالطهم وأحبهم وتعلق قلبه بهم الإمام الشيخ حسن البنا طيب الله ثراه، فلم يعد يطيق فراقه، كما وجد فيه الإمام البنا أنساً كان يفيء إليه من المتاعب والإرهاق جراء انشغاله بأمور الدعوة آناء الليل وأطراف النهار باستثناء ساعات قليلة يأوي فيها إلى فراشه.

كان الشيخ الحامد شاعراً، لمس في المصريين حبهم للفول، فنظم قصيدة بلغت زهاء ألف بيت مطلعها (فول فؤول) فكان البنا كلما رآه يستنشده بعض أبياتها. وقد جاء في قصيدة الفول على سبيل المداعبة:

يا عصبة الفول دمتم لي ودمت لكم — ودام مربعكم بالفول مزدانا

عشقتم الفول أشياخاً وشبانا — وقد أقمتم لهذا الفول برهانا

هذي قدوركم بالفول زاخرة — أزيزها ملأ الأكوان ألحانا

وريحها عطر الأرجاء قاطبة — حتى غدا كل قلب فيه ولهانا

وقد أحبكم من ليس يعرفكم — والأذن تعشق قبل العين أحيانا

يا عترتي يا أهيل الفول مجدكم — سامٍ وحاسدكم قد بات حيرانا

أكلتم الفول حتى جل قدركم — ونلتم بهواه في الملا شانا

يا ويل من لا له في جمعنا صلة — حق له أن يذوق الجوع ألوانا

وكان الشيخ مشهور ضامن مفتي نابلس فيما بعد ثالث الثلاثة في لقاءات الأنس والحب الرباني فيما بين البنا والحامد وضامن (رحمهم الله وأعلى منازلهم في عليين).

وبعد أن لمس الإمام من أليفه الحامد تبحراً بالعلم، وإحاطة بالأحكام، وتحرياً دقيقاً لأمور الحلال، وفهماً متقدماً بشؤون اللغة، كلفه بمراقبة الصحف والمطبوعات ليجيزها قبل أن تأخذ طريقها إلى الطباعة والنشر. وقد حدثنا الشيخ الحامد عن أخيه وقرة عينه حسن البنا، وعن شمائله وسجاياه، ولا سيما التواضع وإيثاره الحق وإصغاؤه للنصح وأخذه بالصواب ولو خالف رأيه، فقال:

«ذكر لي بعض الصحب في حياة الدراسة أن شيخاً يلقي حديثاً أسبوعياً مساء كل ثلاثاء في حي الحلمية، ودعوني إلى سماع

محاضرة له، فلبيت وذهبت بصحبتهم وحضرت الحديث وكان عنوانه: السلام في الإسلام، فكان يتدفق كالسلسبيل، وتتفجر الحِكَم من كلماته التي تأخذ طريقها بدون استئذان إلى قلوب السامعين، غير أني سجلت عليه تسع نقاط أخالفه الرأي الفقهي فيها، وكتبت له رسالة أديت فيها واجب النصح، وجعلتها سرية كي لا يكون حرج عليه أمام تلاميذه ومريديه، وفوجئت -في الثلاثاء التالي- بالبنا (رحمة الله عليه) يقول من فوق المنبر: جاءتني رسالة من أخي الشيخ الحموي يصحح فيها ما جاء في محاضرتي الأسبوع الفائت عن السلام بالإسلام، وقال: قلت كذا وقال كذا والصواب معه، وكرر ذلك في ثماني نقاط قائلاً: والصواب معه، أما التاسعة، فقلت كذا وقال كذا، وكلانا على صواب، ولكن رأي الشيخ الحموي له الرجحان، ومنذئذ ازداد الحامد تعلقاً بالبنا بعد أن لمس فيه هذه الأخلاق العالية، وحبه للحقيقة وتحريه للحق دون أن يجد في نفسه غضاضة أو حرجاً، كما أن البنا ازداد به إعجاباً، فآثره على غيره وقربه إليه، وكلفه بالتدريس مكانه في حال غيابه.

ظهرت للشيخ الحامد -أعلى الله مقامه- في مصر بركات وكرامات، فكان عارفوه يلتمسون البركة في كلماته ودعواته، وذات مرة ذهب الشيخ البنا (رحمه الله) إلى مستشفى قصر العيني في القاهرة ومعه ثلة من أحبائه ليعودوا أخاً مريضاً، وكان الحامد في صحبتهم، فرأوا مريضهم يعاني من مشكلة وقف الأطباء أمامها عاجزين، لقد دخلت إبرة في جسده وسرت مع الدم في عروقه، ولم

تكن الأشعة بأنواعها قد شاعت في الثلاثينيات من القرن الماضي كما هو الحال الآن، فتقدم الحامد صوب المريض، واستغاث بالله وتضرع إليه وأقسم عليه يلتمس من حضرة مولاه الشفاء، وإذا بالإبرة تخرج من الجسم وتستقر في كف الشيخ ويكون الشفاء، فالله وحده الشافي، وإذا مرض عبده واستجار به بحق وحقيق يشفيه من مرضه وسقمه، ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾.

لقد كان أثر الإمام البنا كبيراً في حياة الشيخ الحامد الذي قال فيه:

«والذي أثر في نفسي تأثيراً من نوع خاص، وله يد طولى في تكويني الشخصي سيدي وأخي في الله وأستاذي الإمام الشهيد حسن البنا (رحمه الله) إنه أخي قبل إخوتي في النسب، إنه المرشد الكامل الذي لم يَجُد الزمان بمثله منذ أكثر من ستمائة عام. ولما وافاني نبأ استشهاده قلت: إن موت ولديَّ -ولم يكن لي غيرهما حينئذ- أهون عليّ من وفاة الأستاذ المرشد، وكنت رأيت فيما يرى النائم أننا في معركة مع اليهود، وقد بدأ التقهقر في جندنا، حتى إنني لأمشي منحنياً لئلا يصيبني رصاصهم، وفي النهار ألقى إليّ بعض الناس الخبر، فكان وقعه عليّ أشد من الصاعقة، وكان هذا تأويل رؤياي.

قال الشيخ الحامد عن البنا (رحمة الله عليهما):

«إني أقولها كلمة صادقة لا بأس أن تُروى عني:

إن المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ قرون في مجموع

الصفات التي تحلى بها، لقد عرفه الناس واقتنعوا بصدقه، وكنت واحداً من العارفين به، والذي أقول فيه قولاً جامعاً هو أنه كان لله بكليته، بروحه وجسده، بقلبه وقالبه، بتصرفاته وتقلبه، كان لله فكان الله له، اجتباه وجعله من سادات الشهداء الأبرار. وكان يقول: عندما كنت أنظر إليه كأني أنظر إلى واحد من الصديقين.

عودة الشيخ إلى وطنه

في عام ١٩٤٢ أنهى الشيخ الحامد دراسته متفوقاً، ونال شهادة الإجازة في علوم الشريعة، وتخصص في القضاء الشرعي، وأتاح له الأزهر متابعة الدراسة ونيل درجة الدكتوراه، فأبى الشيخ وفضل العودة إلى بلاده شعوراً منه أن سورية تعاني من ويلات الاستعمار الفرنسي، وأنها بأمس الحاجة إلى جهود أبنائها وإلى جهادهم، ومنذئذ لم يعرف الراحة طوال سني عمره، بدأ جهاده ضدّ المستعمر من فوق منبر المسجد في إلقاء الخطب النارية التي كانت تلهب حماسة المواطنين، كان (رحمه الله) يدعو إلى الجهاد والثورة المسلحة لتحرير الوطن من دنس المحتلين، كان يقول كلمة الحق مدوية لا يخشى في الله لومة لائم، بل كانت خشيته من الله عظيمة إن لم يجهر بكلمة الحق ويقذفها في وجوه الظالمين المستعمرين، شرع بدعوة الناس إلى العودة للإسلام فهو سر حياتهم ومصدر خلاصهم من جميع الشرور والآثام، وكان يؤكد على التربية الجهادية وتنشئة الأجيال على معانيها وأحكامها، وعلى حمل السلاح وقتال الدخلاء، كان (رحمه الله) يقول:

أيهـا المسلـمون أعدوا أنـفسكم للـجهاد، وطـنوها على الـموت، فميتة شريفة خير من حياة تعيسة.

أيها المـواطنون: لقد استـخفت فرنسـا بنا، ونكثت بكل الـعهود، ولم ترع للـمواثيق حـرمة، لقد عـزمت على ترسـيخ أقدامهـا في بلاد الشام الـمباركـة، وعلى استـعباد أهلهـا، فاغضـبوا وثوروا، فلـم يعد السكوت وارداً ولا السكون جائزاً.

أيها المؤمنون: إن الـعالم يرقبكم وينظر باهتمـام وقلق بالغين إلى هذا الصـراع بين حـقنا وبـاطلهم، بـل إن رسول اللـه ﷺ وأصحـابه ينظـرون ما أنتـم فاعلـون بما خـلفوا لـكم من تراث مـجيـد، مزجـوه بدمائهم الزكية، فهل تختلـط دماؤكم بدمائهم في هذه الأرض الطيبة؟ أم تضنون بـها فلا يكون لـكم حظ من هذا السخـاء الشريـف والمـجد المؤثل؟!

ألهـبت خطبـه وكلمـاته حمـاسة الجـماهـير المـؤمنة في سـورية، وأثارت حمـية السكان جمـيعاً، وانتشرت الـثورة المسلحـة في المدن السورية كلـها، وكانت المعركـة في مدينة أبي الفداء عـلى أشدها، لم يتـخلف مواطن واحـد عن خوضـها، توقـفت كل النزاعـات الحزبـية والخلافات السياسية والفوارق الـطبقية، فكنت ترى خصوم الأمس في الخنـدق الواحد، وكلهـم شاكي السـلاح، وترى المواطـن المسيـحي يحمـل البندقية بـجانب المقـاتل المسلم، مـا أجمل تلك الوحـدة وما أروعها، إنها صفحة ناصعة في تاريخ سورية المعاصر.

حشدت فرنسا حشودها، والتحمت مع المجاهدين المرابطين على

أبواب مدينة حماة في منطقة باب البلد، وحمل شيخنا الحامد السلاح ملبياً نداء الجهاد، وقامت ملحمة استمرت يوماً وبعض يوم، أسفرت عن هزيمة المستعمرين، وقتل قائد الحملة الفرنسية. دمر المجاهدون دبابات العدو ومصفحاته، وسحبوا حطامها إلى وسط المدينة لتراها الأجيال الصاعدة، فتسير على درب الآباء والأجداد في التضحية والفداء في سبيل الله دفاعاً عن المبادئ والأوطان، وانطلق المنتصرون إلى الثكنة العسكرية (القاعدة الرئيسة) المشرفة على المدينة، وكان شيخنا الحامد المجاهد يتقدم الصفوف، جلجل صوته بالأذان في ثكنة الشرفة بعد تطهيرها من المحتلين، وأنزل بيده الشريفة العلم الفرنسي، ورفع مكانه العلم السوري ذا الألوان الأربعة التي وصفها الشاعر بقوله:

«بيض صنائعنا، سود وقائعنا، خضر مرابعنا، حمر مواضينا».

واحتفل الشعب كله بيوم الجلاء، وشارك الشيخ محمد الحامد في أفراح الاستقلال ومعه أخوه الشاعر بدر الدين الحامد الذي له يد بيضاء في تربية أخيه اليتيم محمد الحامد، فأنشد الشاعر بدر الدين أجمل قصائده، بيوم الجلاء، ومما جاء فيها:

يوم الجلاء هو الدنيا وزينتها ... لنا ابتهاج وللباغين إرغام

يا راقداً في روابي ميسلون أفق ... جَلَت فرنسا فما في الدار هضام

(غورو) يجيء (صلاح الدين) منتقماً ... مهلاً، فدنياك أقدار وأيام

هذا التراب دم بالدمع ممتزج ... تهبُّ منه على الأجيال أنسام

لم تدم فرحة الجلاء طويلاً، حتى حلت نكبة فلسطين جراء التآمر الاستعماري والكيد الصهيوني وتخاذل القيادات العربية، فدعا الشيخ الحامد إلى الجهاد، وعزم على السفر إلى ساحات القتال في فلسطين، لكن كبار العلماء ووجهاء المدينة أبوا عليه ذلك لحاجة الناس إليه في قيادتهم وتوجيههم وتعبئة الجمهور في هذا الصراع المرير، فانضم (رحمه الله) إلى اللجان التي ترعى شؤون اللاجئين، وتلبي حاجاتهم، فكان يطوف عليهم لإسعافهم ومواساتهم والتخفيف من معاناتهم، وكان (رحمه الله) يستحث الشباب والطلاب على الالتحاق بالحياة العسكرية استعداداً ليوم كريهة وسداد ثغر، وعندما قامت الوحدة بين مصر وسورية وقف مع الوحدة رغم ما كان يأخذه على القادة من أخطاء وتفريط، وجهر برأيه وموقفه عبر إذاعة منقولة على مستوى الجمهورية، ولم يأبه لانتقاد الأصحاب أو عتب الأحباب.

كان الشيخ (رضي الله عنه) يشغل وقته كله، ولا يهدر منه ساعة في ليل أو نهار، شعوراً منه أن الله تعالى سائله عن وقته كيف أنفقه كما جاء في الحديث الشريف، فمنذ الفجر الذي يصليه جماعة في جامع السلطان الذي يبعد عن سكنه مسافة ليست قصيرة، يعطي درساً صباحياً في حلقة دائمة الحضور في جامع الجديد، وإذا أضحى اليوم التحق بالمدرسة الثانوية لتدريس التربية الإسلامية لطلابها، وما بين المغرب إلى ما بعد العشاء، يلقي دروسه في حلقات أخرى، وهكذا كان دأبه طيلة الأسبوع في تدريس القرآن وتفسيره، والفقه الإسلامي

على مذهب الإمام أبي حنيفة، والحديث الشريف والسيرة النبوية لتكون حياة المصطفى ﷺ هادياً للنشء ومناراً لهم، ومن قبل كان قد بدأ حفظ القرآن العظيم منذ العاشرة من عمره المبارك، وبعد أن أتم حفظه كتب إلى شيخه أبي النصر يقول:

«أحمد الله تعالى على أني أتممت حفظ الكتاب المجيد، وتلك نعمة كبرى، وإني عاجز كل العجز على أداء شكرها».

لقد حمل الشيخ نفسه فوق طاقتها من دروس الصباح والمساء والتدريس وخطبة الجمعة التي يجتمع عليها ويصغي إليها المصلون من كل أرجاء المدينة، ومن الردود على الرسائل التي تأتيه من جميع الأقطار الإسلامية، فداهمته الأسقام، وأثقلت جسده، فأرهقه مرض السكري وتشمع الكبد وغير ذلك، فنصحه الأطباء أن يخلد إلى الراحة، فلم يصغ إلى نصائحهم خشية أن يكون قد آثر الراحة على أداء الواجب، وكثيراً ما رغبنا إليه وألححنا عليه أن يجيز نفسه أسبوعاً أو بعض أسبوع فيأبى، لاقتناعه أنه على ثغر من ثغور الإسلام، فلا يؤتين الإسلام من قبله، وذات يوم كنت مع رفقاء الدرب في رحلة إلى لبنان، وحط الإخوة رحالهم على روضة تأخذ بالألباب وتسحر أعين الناظرين، فكتبت للشيخ رسالة أزين له فيها روعة المكان، وأحدثه فيها عن جمال الطبيعة التي كان الشيخ مولعاً بها إلى درجة الاستغراق، وعرجت له فيها على اخضرار السفح ووسوسة الجدول وخرير الشلال وتغريد البلابل، وحفيف الشجر، ونسمة الفجر وندى الصباح، لأغريه بالمجيء عساه أن يأخذ حظاً من الراحة يخفف فيها

من المتاعب التي أثقلت كاهله، فأجاب معتذراً بديباجة نثرٍ بَزَّ فيها العقاد في جزالته والزيات في رومانسيته (وصفه للطبيعة)، فالشيخ (رحمه الله) يجد في كل همسة في الكون أو نسمة في الوجود قدرة الخالق وعظمة البارئ، فيفيض قلبه عشقاً لله وهياماً بحبه جل في علاه.

كان الشيخ صوفياً نقشبندياً، يتحرى النصوص، ويحذر من الشطحات والشذوذات، ويأخذ برأي كبار العارفين من أمثال الجنيد في وجوب الأخذ بالسنة والتأسي برسول الله ﷺ وتجنب البدع، وعدم الثقة بمن يخرج على ذلك ولو رأيناه معلقاً بالغمام أو سائراً على وجه الماء، وهذا الأمر كما يرى الشيخ لا يتحقق إلا بموجهين ومرشدين من علماء الإسلام الذين شربوا من معين الشريعة حتى ارتووا، ثم عملوا بعلمهم، ثم دعوا إلى الله على بصيرة، لا يريدون من الناس جزاء ولا شكوراً، وإذا فقدتم هذا الصنف من المربين، يقول الشيخ: فالبديل هو العمل بتعاليم الإسلام والإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ حيث إن بركات روح الرسول ﷺ تعود على من يكثر الصلاة والسلام عليه وعلى آله فتكون الروح الشريفة مربية لروح هذا المصلي عليه، فيكون التوفيق لها رفيقاً والإسلام لها طريقاً، ثم يستشهد بقول الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾.

والفرقان هو النور الجلي الذي يلقيه الله في قلوب العاملين

بدينه، يفرقون به بين الحق والباطل.

ثم يقول الشيخ: «وليكن لكل منا مجلس مع ربه سبحانه، يتلو كتابه، ويذكره بما يشاء من صيغ الذكر المأثورة، فإن الذكر يصقل القلوب، ويهذب النفوس، وينعش الأرواح، فقساوة القلوب تداوى بذكر الله سبحانه، وصدق الله العظيم:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1].

وكان (رحمه الله) يقرأ في اليوم خمسة أجزاء ليختم القرآن في اليوم السادس، وكان هذا دأبه طيلة سنوات عمره المبارك.

زهده وورعه

كان الزهد سر نجاحه، لقد أخرج حب الدنيا من قلبه، فنبذها وراءه ظهرياً، ولم يتطلع قط إلى عرض من أعراضها أو إلى أي مظهر من زينتها. وضع اليوم الآخر نصب عينيه، وأعد نفسه للحساب في اليوم العسير، اعتذر عن منصب المفتي العام للجمهورية عندما عرضه المسؤولون عليه، ورغب إليه الأعيان والوجهاء بترشيح نفسه للنيابة وأصروا عليه إذ كان نجاحه ميسوراً فأصر على الرفض، كان متقشفاً في مسكنه ومأكله وملبسه، مع حرصه على النظافة والأناقة وحسن الهندام، فضلاً عن ذلك هيبة ووقار أنعم الله بهما عليه. كان كما يفعل بعض السلف من الجيل الأول يترك الحلال خشية الوقوع فيما لا يحل.

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٨ .

أما ورعه، فحدث عن ذلك ولا حرج، بحث عن منزل يأوي إليه، واشترط أن لا يكون الوقف الخيري أو الذري قد شمله في سالف الزمان، فكان طلبه عسيراً، فلم يجد منزلاً إلا وكان في عهود سابقة موقوفاً على جهة خيرية كالمساجد والمشافي وغير ذلك، أو موقوفاً على الورثة الذين لا يحق لهم بيعه أو التنازل عنه، حتى لم يبق عقار أو أرض زراعية إلا ويشملها الوقف الخيري أو الذري عبر العهود السابقة، فألغت الدولة الوقف الذري وقامت بتصفيته، وتوزيع الحصص على الوارثين، فعجز الشيخ عن العثور على منزل لم يكن في سالف الزمان موقوفاً، وأخيراً وجد ضالته في أرض تقع على مرتفع وعر، فبنى عليه منزلاً متواضعاً عانى طيلة حياته من الصعود إليه والانحدار منه كل يوم مرات عدة حتى أرهقه ونال من صحته وعزمه.

كان (رحمه الله) يعتذر عن قبول الهدية خوفاً من أي شبهة تكون وراءها، وكان يعتذر عن المشاركة في جمع المال وطلبه من الناس خشية أن يدفع المتبرع حياءً من الشيخ أو مجاملة له، ويقول: ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام.

الحديث عن ورع الشيخ الحامد يطول، والأمثلة كثيرة يصعب حصرها، حتى إن بعض من عرفوه قالوا: إنه واحد من الجيل الأول، لكنه ظهر في أيامنا وعاش في عصرنا، فكانت حياته محكومة بالضوابط الشرعية الآخذة بالعزائم، فهو على خطا الفاروق الذي كان يقول: كنا نترك تسعة أعشار الحلال لننجو من الحرام، فكل ما يصدر

عن الشيخ يذكر بورع السلف السابقين والأتقياء العارفين.

قال رجل لسعيد بن المسيب شيخ التابعين:

ما رأيت أحداً أورع من فلان.

قال سعيد: هل رأيت علي بن الحسين -زين العابدين-.

قال: لا.

قال: ما رأيت أحداً أورع منه.

وقال وهيب بن الورد: لو قمت قيام السارية، -أي في صلاة قيام الليل- ما نفعك حتى تنظر ما يدخل بطنك، حلال أم حرام.

وقال ابن المبارك: لئن أرد درهماً في شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف.

وقال يوسف بن أسباط: لي أربعون سنة ما حاك في صدري شيء إلا تركته.

وقال حذيفة المرعشي: إياكم وهدايا الفجار والسفهاء: فإنكم إن قبلتموها ظنوا أنكم رضيتم فعلهم.

لقد رأينا الشيخ الحامد وجالسناه واقتربنا منه وزرناه في بيته مراراً، ولبينا دعواته على شرف ضيوف يقصدونه من وراء الحدود من أمثال رفيق عمره الذي تآخى معة في الله الشيخ عبد المعز عبد الستار، ورافقناه في بعض المناسبات وناقشناه في مواقف وأفكار وآراء فقهية مستفسرين ومتعلمين، ولبينا طلبه بالتوجه إلى منزله

ليسمعنا آراءه حيال كتب صدرت من أحباب له مثل كتاب اشتراكية الإسلام، فرأينا منه ولمسنا فيه ما وجدنا في قراءاتنا للسلف الصالح وكبار الصادقين وشيوخ العارفين من أمثال من ذكرت أمثلة عنهم في هذه الأوراق، ولذا نحسبه -والله حسيبه، ولا نزكي على الله أحداً- من كبار العارفين وأئمة الأولياء والصادقين رحمه الله رحمة واسعة، وأعلى مقامه في عليين، وجمعنا به في مستقر جناته، وتغمده بشآبيب رحمته وواسع مغفرته.

كراماته وبركاته

وكما ظهرت للشيخ في القاهرة كرامات كنا قد سمعنا عنها، رأينا رأي العين كرامات للعارف الكبير محمد الحامد ظهرت له في مدينة حماة، أذكر إحداها لمشاهدتي لها:

كان فرد من أسرتنا يعاني من حالة لم تنفع فيها مراجعة الأطباء، فكان يشكو عندما يهم بالنوم من كابوس يجثم على صدره فلا تغمض له عين، وشكونا ذلك إلى من يعنيهم الأمر فلم نجد لذلك حلاً، وذات يوم شكوت الأمر إلى صديق، فابتسم وقال: العلاج لدى الشيخ الحامد، قلت: وكيف، قال: لي أخت كانت تعاني من هذه الحالة، فقصدت الشيخ، فكتب لي رقية، وهذا أمر مشروع مؤيد بالحديث الصحيح، فشفيت وكأن شيئاً من هذا لم يكن، فقصدت شيخنا وتحدثت إليه بالأمر، فكتب لي رقية بالتواضع الذي كنا نعرفه عنه، فجئت بها إلى المنزل، وحملها من كان يخشى من النوم خشيته من الوحش المفترس، فنام ملء جفنيه هادئاً، وعافاه الله من هذه

العلة التي أعيت الأطباء من ذوي الاختصاص، فدفعني الفضول إلى قراءة ما في الرقية من آيات وأحاديث وأدعية، فلم أجد فيها إلا ما نعرفه جميعاً ونقرؤه دائماً من سورة الفاتحة وآية الكرسي وسورة قل هو الله أحد والمعوذتين، فأدركت أن الأمر لا يتعلق بشيء نجهله أو سر يحتفظ الشيخ به ولا نعلمه، وإنما بالنَّفس الطاهر الذي يتلو الآية والحديث، والقلب الكبير الموصول بالله والممتلئ بحبه والتعلق به، فندمت على فتح الرقية، واستغفرت الله مما أقدمت عليه إن كان فيه خطأ أو شطط، وتضرعت إلى المولى أن ينفعنا ببركة الأولياء والصالحين من أمثال سيدي وأستاذي وقرة عيني الشيخ محمد الحامد طيب الله ثراه وأعلى مقامه بالفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

مرضه وفاته

اشتد مرض الشيخ، فنصح أطباء المدينة بحمله إلى بيروت حيث كبار الأطباء من ذوي الشهرة العالمية، فسافر به أحباؤه وأهلوه إلى بيروت، وأنزلوه في مستشفى المقاصد الإسلامية، فهرع إليه علماء لبنان ورجالاتها، فتحولت غرفته إلى مجلس علم وفتوى بالرغم من مرضه الشديد.

غادر شيخنا بيروت عائداً إلى بلده ومستقره حماة المجاهدة، فلم يلبث يومين حتى وافاه الأجل المحتوم، عندما كان القرآن يتلى عند رأسه، ولما وصل القارئ إلى قوله تعالى:

﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾.

فاضت روحه إلى بارئها عام ١٩٦٩، فنعته المدينة عبر مكبرات الصوت في جوامع المدينة ومن فوق مناراتها، وهبت المدينة عن بكرة أبيها تشيع عالمها وصدّيقها إلى مثواه الأخير، فبكته المدينة كلها عبر مكبرات الصوت في جوامع المدينة ومن فوق مناراتها، وبكاه العالم الإسلامي، بل وبكته السماء عندما هطلت الأمطار في غير أوانها وصلى على الجثمان الطاهر والروح الزكية والنفس المطمئنة ولده الشيخ محمود محمد الحامد الذي خلف أباه في الزهد والورع، شيعته ملائكة الرحمن، واستبشر به المقربون، ولسان حال الجميع يتلو قول الرحمن الرحيم:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾.

عند تشييع جنازته: سمع المشيعون تسجيلاً صوتياً له عند خروج الجنازة من المسجد يستسقي به في مناسبة مضت، وإذا بالسماء تجود -بإذن ربها- مطراً. في البداية كان المطر خفيفاً إلى أن تم الدفن انهمر المطر غزيراً وكانت هذه حقيقة شاهدناها، السحاب كالقبة يغطي سماء حماة وحدها.

صلة الشيخ بأحداث مدينة حماة[1]

مما لاشك فيه أن الشيخ رحمه الله تعالى لم يكن لفئة دون أخرى أو لشريحة بخلاف الثانية، بل هو شيخ مدينة حماة وعالمها وفقيهها

(١) هذه الفقرة كتبها أحد طلابه ومريديه الداعية الدكتور أحمد فارس جواد حفظه الله وأجزل له المثوبة.

والمقدم فيها. . رَأسَ كل وفد ورأس كل مجلس وعلاقاته مع أهلها متعددة متجذرة، لا تترك حياً ولا مجلساً ولا مضافة أو وجيهاً أو شيخاً إلا وله معه مودة ومحبة وتواصل.

لكن -والحق يقال: إن الشيخ -كما يقول عن نفسه-: أنا شيخ الإخوان المسلمين ولا فخر. . ويقول: أنا روحي معلقة بهؤلاء الشباب.

وكان جامع السلطان أو قل جامع الشيخ المحضن الأساس للإخوان، فيه يلتقون، ومنه يصدرون خاصة بعد أن أعلنت الجماعة حل نفسها بعد قيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨، فالتف الشباب حول الشيخ ينهلون من معينه العلمي الثر، ويتسابقون لتلقي التوجيهات الروحية السامية بكل أدب وامتثال، ويبادرون لكل نصيحة أو معلومة بالتطبيق والالتزام، حريصون على حضور حلقات الدرس وخطب الجمعة ومجالسة الشيخ ومماشاته، فكان الشيخ بالنسبة إليهم. . الأستاذ والمرشد والوالد، لا يعدلون بحبه والتعلق به حب الولد ولا الوالد ولا الأخ أو الصاحب. . والشيخ رحمه الله يبادلهم حباً بحب وشوقاً بشوق، ويمزج ذلك برحمة تفيض من قلبه الكبير لتتسع إلى الجميع لا تعدلها شفقة الوالد ولا حنان الأم الرؤوم.

ويمارس الإخوان نشاطاتهم الدعوية تحت مظلة الشيخ الوارفة وقد بسط جناحيه ليضمهم إلى دفء جنبيه مدافعاً عنهم مشفقاً عليهم مما يترتب على نشاطهم من تبعات أمام الخصوم والأعداء. . فتارة يقول بأعلى صوته: نحن دعاة حق وسلام نؤمن به وندعو إليه. .

نحن طريقنا العلم والذكر والحرص على الصالح العام، ونرفض الفوضى والعنف والتشويش.. ويبين حقيقة هؤلاء الشباب الذين يعج بهم المسجد وأنه لن يصدر من هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وازدادوا هدى إلا الخير والسهر على مصلحة الأمة والمجتمع.

وعندما وضحت هوية الحكام ولم يبق عندهم ما يخفونه من عداوة للإسلام وحقد على المسلمين.. سأله أحد الإخوة عن التوجه إلى الخدمة الإلزامية بقوله: ألسنا سنقاتل تحت راية جاهلية؟ فأجاب الشيخ رحمه الله: لا تكونوا سبة على التاريخ، فكانت هذه الإجابة مليئة بالدلالات والإشارات.

بدأ نظام الحكم الطائفي التحرش بالشعب واستفزاز مشاعرهم الدينية باضطهاد أساتذة التربية الإسلامية ومتابعة الشباب المتدين في أعمالهم ومنازلهم وفي المساجد. وخاصة بعد اعتقال أحد تلامذة المدارس لكتابة عبارة قرآنية على جدار جامع الأربعين، وهي قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

ثم صدت السلطة مظاهرة سلمية خرجْت من ثانوية عثمان الحوراني صبيحة يوم السبت في ١٠-٤-١٩٦٤ بالحديد والنار، وسقط شهيدان هما فيصل العبدي وعبد الرزاق جواد، فكانت ردة الفعل عنيفة واعتصم جمع من الشباب وعلى رأسهم مروان حديد رحمه الله في جامع السلطان.

طوقت السلطة المسجد بقوات مدججة بكل أنواع السلاح، ونشرت آلتها الحربية في كل أرجاء المدينة، وصبّت حممها على

جـامع السلـطان لتـهدمـه، وتهدمـت مئـذنتـه صبـاح يوم الأربعـاء في ١٤-٤-١٩٦٤ .

توجـهـت لزيارة الـشـيخ رحـمه الـله تـعالـى في مـنزله قـبـل بدء المعركـة. . فأصعدني سطح المنـزل المطل على بقية أرجـاء المدينة، وقال لي: ما الذي يجري في حيّكم؟

قلـت: ها أنـذا قـادم من هـناك ولا شـيء. قـال: بل انـظر فـإذا بدبابات النظام تتـسلق طلوع الزنبقي (حي في مدينة حـماة - الحاضر) وتنهال قذائف الـمدافع والراجمات على جامع الـسلطان الذي يقع في جهـة أخرى من المدينـة، والشيخ يرحـمـه الله في موقف حـرج. قال لي:

- يا ولـدي المسـجد مـسـجدي، والتـلامـيذ تلامـيذي والأفـكار أفكاري. . ولـكني لـم أقل افـعلوا هذا. . (يـشير إلـى طلبه أن يـخرج الشباب المعتصم من المسجد، فلم يخرجوا تلك الليلة).

وللحقيـقة كان المعتصـمون وعلى رأسهم مروان، قـد عزموا على فض الاعتصام في صـباح ذلك اليوم بعد صلاة الفجر، فـسيطر عليهم النوم لأمر يريده الـله، فعاجلتهم السلطـة بالضرب ليستشـهد أربعة من الإخوة في المسجد، ويكتمل عدد شهـداء المدينة إلى سبعة وخمسين شهيداً.

واجه الشيخ يرحـمه الله هذه الأحداث الأليمة برجـولة وشجاعة، وحاور السلـطة بصراحة وحكمـة، بعد أن أصدرت أحكامهـا بالإعدام

على واحد وعشرين من خواص تلاميذ الشيخ، منهم الشيخ مروان حديد، والشيخ عبد الحميد طهماز، وإخوة آخرون.

أخذت هذه القضية على الشيخ مجامع قلبه واهتم لها غاية الاهتمام، ورمى بثقله لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ملتمساً أشرف السبل وأقربها لإنهاء هذه المشكلة دون أن تنال من دينه أو مكانته الشرعية.

كانت أياماً عصيبة مرت على الشيخ وكأنها سنون متطاولة، فلا تراه إلا باكياً حزيناً متألماً، حالاً مرتحلاً، وهو يعلم أنها معركة بين الحق والباطل، بين الإسلام والكفر، وقد سمعته يقول: "إنها معركة دينية قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار".

وقد كلل الله سبحانه جهوده الحثيثة ومساعيه الحميدة بالنجاح وأفرج عن جميع السجناء والمعتقلين، إلا أن هذا كان على حساب صحته وحياته، فقد قال لي مرة: «أخشى أن أقع في مرض عضال لا أشفى منه». وقد كان أصيب في كبده وصار طريح الفراش وأجريت له عملية جراحية يائسة في مستشفى المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، ولكن بعد أن فات الأوان، ثم وافته المنية في منزله في مدينة حماة في الخامس من شهر أيار لعام ١٩٦٩، عليه رحمة الله ورضوانه.



ملحق (2)

الدكتور عبد الكريم عثمان، نجم سطع، وسرعان ما رحل

أثمرت دعوة الإخوان المسلمين في سورية من أربعينيات القرن الماضي جيلاً صاعداً جديداً، سرعان ما أحيا للأمة آمالها، وأيقظها من سباتها، وأعاد إليها ثقتها بعقيدتها وذاتها، وردها بإذن ربها إلى حظيرة الإسلام رداً جميلاً، فامتلأت بهم الساحات، وزخرت بجموعهم المدارس والمعاهد والجامعات، فانحسرت موجة الإلحاد والعلمنة والتغريب التي كانت قبل ذلك تعربد في العشرينيات والثلاثينيات، وتتحدى المجتمع في أفكارها الوافدة، ومذاهبها المستوردة، وتقاليدها المستنكرة، ودعوتها الصريحة السافرة إلى نبذ الإسلام، وخلع ربقته عن الأعناق، فكان الداعون إلى الله في ضيق وحرج أمام هذه الموجة التي أحرزها انتصار الحلفاء الغربيين في الحرب العالمية الأولى على تركيا العثمانية، زاحفين إلى بلادنا وعقر ديارنا بما يملكون من تفوق حضاري وعسكري كاسح.

كبرت الغراس والفسائل التي زرعتها دعوة الإخوان المسلمين،

وظهر جيل على أبواب الثلاثينيات في أعمار الأزهار، رفعوا راية القرآن، ودعوا بثقة وجرأة إلى رسالة الإسلام، وواجهوا تيارات العلمنة والتغريب بقوة وشجاعة، فكسروا أمواجها، وأكدوا بأقلامهم وخطبهم وأنشطتهم وجموعهم الهادرة، أن خلاص أمتهم من الذل والاندحار والتخلف إنما هو رهن في العودة الحميدة والجادة إلى رحاب الإسلام الحنيف، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

كان في طليعة هذا الجيل الناهض فتى نشأ في طاعة الله، تفتحت مواهبه في سن مبكرة، وظهرت علائم النجابة عليه منذ نشأته الأولى، فإذا هو خطيب مفوه، ولما يزل على مقاعد الدراسة في المرحلة الثانوية، انتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين في منتصف عام ١٩٤٥، وعمره ست عشرة سنة إذ هو من مواليد عام ١٩٢٩، فإذا بالفتى الناهض يرتجل الخطب الحماسية في الدعوة إلى انتخاب الشيخ الشهيد محمود عبد الرحمن الشقفة مرشح الإخوان والعلماء للبرلمان عن محافظة حماة، ولما يتجاوز الثامنة عشرة من عمره المبارك.

لفتت مواهبه التي -تفتحت كأزهار الربيع في وقت مبكر- أنظار قادة الإخوان في مركز حماة، فقرروا أن يرعوا هذه الموهبة التي أنعم الله بها، فقرروا إيفاده لدراسة علم الاجتماع في كلية آداب جامعة فؤاد الأول -جامعة القاهرة فيما بعد- ويتحمل أعباء الدراسة عدد من الإخوان برعاية ومساهمة رئيس المركز الشيخ الشهيد عبد الله الحلاق رحمه الله وأجزل له المثوبة والأجر على ما قدم من بذل وصبر

وجهاد، وعلى ما تحمَّلَ من أذى في سبيل الله، دعماً ودفاعاً عن دعوة الإخوان المسلمين.

من هو الداعية عبد الكريم عثمان؟

هو ابن الشيخ محمود العثمان العالم الزاهد الورع، والأستاذ في مدرسة دار العلم والتربية التي أُسست في عهد الملك فيصل الأول الذي لم يطل كثيراً، والتي تخرج فيها قادة كبار، وساسة شهيرون، لعبوا أدواراً كبيرة في الحياة السياسية السورية، أمثال الأستاذ رئيف الملقي قائد الكتلة الوطنية في حماة بعد وفاة توفيق الشيشكلي، والأستاذ أكرم الحوراني وآخرين.

كان الشيخ محمود العثمان عالماً مجاهداً، عمل مع المناضلين ضد فرنسا، وقاوم بخطبه ومواقفه الصلبة الانتداب بجرأة نادرة، وعزيمة صلبة عُرف بهما بين أبناء جيله، ولما سمع عنه الإمام الشهيد حسن البنا وعرف عن صفائه وصدقه وجهاده، راسله وكتب إليه، شاكراً ومشجعاً، وشاداً على يده، لما يبذل في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام والأوطان.

ولربما سمع الإمام عن الشيخ محمود العثمان من رفيق دربه وأنيس قلبه الشيخ محمد الحامد، لأن الإمام كان يستحث العلماء الذين يأنس منهم الخير، ويسمع فضائلهم في كل بلاد المسلمين، ويستنهضهم للقيام بحمل لواء الدعوة إلى الله، والجهاد في الله حق جهاده.

ورث الأخ عبد الكريم عن والده محمود العثمان جملة صفات في حب العلم وصدق الحديث، والصدع بكلمة الحق، والجرأة في مواجهة الباطل بعفوية وقلب سليم، لا تأخذه في الله لومة لائم.

في عام ١٩٤٧ -وبعد أن حمل الشهادة الثانوية -البكالوريا- وقررت إدارة مركز حماة إيفاده إلى مصر لتلقي دراسته الجامعية- التحق بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول -قسم الاجتماع- فكان متفوقاً ومتقدماً على أقرانه في دراسته، وكما حدث للإمام الشيخ محمد الحامد في صلته بالإمام حسن البنا وتعلقه به، كان حال الأخ عبد الكريم الذي أحب الإمام البنا حباً ملك عليه عقله ولبّه وقلبه، فلم يعد قادراً على مفارقته، أو البعد عنه، واستمر هكذا ممسكاً بهذه الصلة الحميمة منذ وصل إلى القاهرة عام ١٩٤٧ وحتى فارق الإمام الحياة في ١٢-٢-١٩٤٩ في موكب الشهداء الذين قضوا في سبيل الله.

عزم عبد الكريم على الزواج من مصر، واعتمد على إخوة له من تنظيم الجماعة ليعينوه على ذلك مشترطاً الحشمة والحجاب الذي كان نادراً في تلك المرحلة في المدن الكبيرة مثل القاهرة والإسكندرية، فوصفوا له فتاة محافظة، وإذا به يراها تخرج مكشوفة الذراع، فصدم وبهت، فقيل له: هذا أفضل ما تطمح إليه، فصرف النظر عن الزواج من مصر، وقرر الزواج من بلده في سورية، ليت عبد الكريم وأبناء جيله من إخوان مصر، يرون ما آلت إليه المرأة المصرية من انتشار الحجاب، ومظاهر الحشمة، واضطلاعها بأعباء الدعوة إلى الإسلام،

واستئناف الحياة بموجبه وعلى قواعده، وتشكيل تيار إسلامي عريض للنساء المسلمات في المدارس والمعاهد والجامعات، وفي الأحياء والمدن والأرياف، حتى صار الطابع العام للشارع المصري في كل أرجاء القطر من أدناه إلى أقصاه، فاكتسح الحركة النسائية التي عمل الإنكليز ودعاة التغريب وتقليد الحياة الغربية على إيجاده وتشجيعه، فأبلس وتراجع القهقرى، فلا يكاد يُرى بجانب تيار الداعيات المسلمات القانتات العاملات لرسالة الإسلام والدعوة إلى الله.

عودة عبد الكريم إلى سورية

عاد الأخ عبد الكريم إلى سورية بعد أن حمل ليسانس الآداب في علم الاجتماع بدرجة امتياز وتفوق، فعمل مدرساً في ثلاث مناطق، درّس الفلسفة في حماة وحلب، فكان تأثيره في طلابه ملموساً، ثم عمل في مدينة دير الزور مدرساً في ثانويتها، وباشر خطبة الجمعة في أحد مساجدها، فأصغى إليه الطلاب وسكان المدينة، وتأثروا به أيما تأثر، والتفوا حوله، وتعلقوا به، وانحازوا إلى جماعة الإخوان في دير الزور، بل وفي الأقضية والنواحي عبر الطلاب الوافدين منها إلى الدير لإكمال دراستهم الثانوية تمهيداً للالتحاق بالكليات الجامعية، ولو رغب أن يمثل عبد الكريم دير الزور في البرلمان، ويترشح في الانتخابات لأيدته المدينة وما خذلته، ولكن هذا الأمر كان بعيداً عن تفكيره وطموحه، ومن أراد أن يعرف المزيد عن الأثر الذي خلفه الداعية عبد الكريم عثمان في دير الزور وفي المنطقة الشرقية من سورية، فليسأل الشيخ دندل جبر الذي سمعت منه أنه كان في أول

نشأته متأثراً بحزب البعث الذي كان الأستاذ جلال السيد -رحمه الله- أحد مؤسسيه -ومنتقديه فيما بعد- والذي كان يجمع ما بين الشيخ دندل والأستاذ جلال الانتماء العشائري، ولكن سرعان ما اتجه الأخ دندل بحزم وعزم إلى جماعة الإخوان بتأثير الداعية الموفق عبد الكريم عثمان، كما سمعت منه قصة انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين الراشدة.

كان عبد الكريم يقضي أشهر الصيف في حماة، فكان رفيق عمره ودربه الأخ الداعية مصطفى الصيرفي وكاتب هذه السطور وعبد الكريم في لقاء مسائي يومي، لا نكاد نفترق، نأكل معاً في مكان بعيد عن الأعين على شاطئ النهر، ونتجاذب أطراف الأحاديث المتنوعة، ومدارها جميعها دعوة الإخوان ونشرها والتبشير بها في أحاديث الجمعة -الأسبوعية- ومجموعات الأسر، والطواف على الأحياء، ومخاطبة الطلاب، وكذا العمال والنقابات، وإحياء الذكريات المباركة، كأيام المولد والإسراء والمعراج والهجرة النبوية ومعركة بدر، بالتعاون مع إدارة المركز، وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الحلاق، والأخ بديع عدي، ورعاية الشيخ محمد الحامد رحمهم الله جميعاً، وكنا نستقبل كبار ضيوف مدينة حماة، ومركز الإخوان المسلمين من الوطن العربي والعالم الإسلامي والمدن السورية، من أمثال أبو الحسن الندوي، وأبو الأعلى المودودي، والمرشد العام حسن الهضيبي ومصطفى السباعي ومحمد المبارك وعادل كنعان وفوزي حمد ومحمد علي الصابوني ومحمد المجذوب وغيرهم،

حتى أضحت المدينة ملاذاً وموئلاً وعريناً لدعوة الإخوان المسلمين المباركة.

ليت الأجيال اللاحقة تحيط علماً بما كان عليه الإخوان في الأربعينيات والخمسينيات من نشاط وعمل دؤوب، وتحرك متصل، وكأنهم خلية نحل، في جو من التعاون والإلفة والحب حتى ترسخت قواعد الجماعة، وأضحت عصية على الاجتثاث بالرغم من كيد ومكر الأعداء الرهيب الذي تزول منه الجبال.

طبيعة الداعية وسيرته

كان الأخ عبد الكريم طاهر السريرة، سليم الصدر، خالي النفس من العقد والوساوس، يألف ويؤلف، يحبه إخوانه الكبار والصغار وأقرانه، عُرف عنه الطيبة، وصفاء النية والشفافية، وبعد أن سطع نجم عبد الكريم في شمالي سورية -حلب- وفي شرقها -دير الزور- وفي وسطها -حماة ودمشق- لحظ المراقب العام الشيخ السباعي موهبة عبد الكريم وألمعيته، فأسند إليه وظيفة نائب مدير المعهد العربي الإسلامي ذي السمعة والشهرة الواسعة في العاصمة، ليكون مساعداً للمربي الكبير مدير المعهد عبد الغني باجقني، بل ليكون المدير التنفيذي والفعلي للمعهد.

في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، وعندما ضيق أديب الشيشكلي الخناق على الشيخ الدكتور مصطفى السباعي مراقب الجماعة وقائدها، وعلى إخوانه من قادة الجماعة، واضطر إلى مغادرة دمشق إلى لبنان، لم يجد شيخنا من يسد فراغه وينوب عنه مثل الأخ

عبد الكريم عثمان ليقوم بمهمة المراقب العام وكالة، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره الميمون.

كانت حركة الانشقاق التي قادها ضابط المخابرات الناصرية نجيب جويفل، ومن التف حوله من دمشق وحمص وإدلب، قد استفحلت، وصارت تشكل خطراً على كيان الجماعة، فرأى المنشقون في الأخ عبد الكريم عثمان سداً في طريقهم، وعقبة أمام تطلعاتهم، وإحباطاً لمخططاتهم، فهدده أحدهم هشام جندل الرفاعي بالتصفية إذا لم يوافقهم، ويذعن لهم، أو على الأقل أن لا يعترض سبيلهم، فإذا بالأخ الوديع ذي الحاشية الرقيقة يتحول بلحظة إلى غضنفر، يواجه شططهم بموقف صلب، وعزيمة غير مألوفة ولا متوقعة، متحدياً المنشقين أن يفعلوا ما يعن لهم، فإذا بهم يرجعون القهقرى، ويرضون من سوء خلقهم بالإياب والتراجع، وطي صفحة التمرد الذي قاده ضابط المخابرات الناصرية نجيب جويفل وعصابته التي تبعثرت، وكأنها لم تكن، أمام صلابة الإخوان، وعلى رأسهم عبد الكريم عثمان والإخوة المخلصون في دمشق، وثباتهم وتلاحمهم، والتفافهم حول قيادتهم، وعلى رأسها فضيلة مراقبهم الفذ الشيخ الدكتور مصطفى السباعي طيب الله ثراه، وتلاشت حركة الضلال، وذهبت أدراج الرياح، ولم نعد نعثر لها على أثر.

صفة الداعية وسيرته

كان الأخ عبد الكريم يلامس -بوداعته ولطفه وتهذيبه وعذوبة حديثه- شغاف القلوب لدى الجميع، كان رحمه الله يألف ويُؤلف،

يحبه إخوانه الكبار منهم والصغار، لمس الكل عنه ومنه الطيبة وصفاء النية، وسلامة الصدر، لا يختلف عليه إخوانه، بل ولا أبناء المدينة من غير الإخوان، فعندما كنا معاً في دمشق نؤدي امتحانات شهادة الحقوق، لنتمكن من العمل الحر إذا أقدمت حكومة (التجمع القومي) على تسريحنا من وظائفنا التعليمية كما تشير النذر، وقررنا دخول انتخابات (الاتحاد القومي) لاعتبارات كثيرة، حملت ترشيحه، أو تفويضاً بترشيحه مؤيداً من الكاتب بالعدل، فتم ذلك، دون أن يكون حاضراً، فكان الثالث في قائمة الفائزين -ذات الثلاثين اسماً- يمثلون ثلث مدينة حماة في شمالي الوسط في سورية، وكان ذلك في عام ١٩٥٩ بعد عام وبضع عام من قيام الوحدة بين مصر وسورية.

في القاهرة مرة أخرى

عاد عبد الكريم إلى القاهرة مرة أخرى، عندما قررت وزارة التعليم العالي أو الجامعة السورية إيفاد من يدرس الفلسفة الإسلامية ويحمل شهادة الدكتوراه بها ليعود إلى دمشق، ويملأ كرسي هذه المادة في كلية آداب الجامعة، فكان عبد الكريم مرشحاً لهذا الإيفاد بالدرجة التي نالها -الامتياز- في الليسانس التي حاز عليها من الجامعة المصرية -جامعة فؤاد الأول- فوقفت مخابرات دولة الوحدة أمام هذه البعثة وقررت إلغاءها، لأن صاحبها يحمل فكراً إسلامياً، غير أن مساعي حثيثة قام بها نفر، كان أخوه العقيد عبد الملك عثمان قائد موقع حماة العسكري واحداً منهم، وكان الخلاف قد دب بين عبد الناصر وبين البعثيين وحلفائهم، فأثمرت هذه الجهود، وألغي

الحظر، فركب متن الطائرة التي أقلته إلى عاصمة الكنانة.

درس الماجستير في التربية وعلم النفس عند الغزالي، وقدم أطروحة الدكتوراه عن القاضي عبد الجبار أحد أئمة المعتزلة، وأصول دعوته وفلسفته بإشراف الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، وفي كل مراحل هذه الدراسات وما سبقها كان متفوقاً ومتقدماً.

كانت هذه الحقبة من أغنى سنوات عمر فقيدنا الدكتور عبد الكريم، بالتزامه ودوامه على دار الكتب المصرية، أشهر مكتبات العالم العربي في أثناء تحضيره رسالتي الماجستير والدكتوراه مع عدد من رفقاء دراسته أمثال الدكتور شاكر الفحام الذي أمسى وزير التعليم العالي في النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي في وزارة البعث.

أجرى عبد الكريم لقاءات، وأقام علاقات بشخصيات علمية شهيرة في الجامعة وخارج الجامعة، واتصل بكبار المفكرين والأدباء والعلماء، وفي مقدمتهم الأديب المفكر الموسوعي، صاحب القلم الجبار، أو قل النحّار محمود محمد شاكر، الذي أسكت وأخرس كل الناعقين ضد القرآن الكريم والسنة الشريفة، واللغة العربية الفصحى، ودعوتهم إلى العامية، من أمثال لويس عوض وأشباهه، المشككين في حقائق الإسلام، والعازمين على إطفاء نوره، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الضالون والملحدون.

كان عبد الكريم حريصاً على حضور ملتقى محمود شاكر حرصه على دراساته الجامعية في منزل الشيخ محمود الذي كانت ترتاده نخبة من المفكرين من مصريين وسوريين، ومن أقطار عربية أخرى في

شرق الوطن العربي ومغربه، غير أن عبد الكريم راعه وصدمه أسلوب الأديب الكبير محمود شاكر في تناول شخصيات عظيمة بأسلوب غير لائق بأمثاله من الكبار، ومن ذلك ما سمعه ذات يوم من تجريح، ومن كلمات نابية -لا أستطيع إيرادها- في الإمام حسن البنا، فلم يقو المحب والمريد للبنا على سماعها، فانقطع عن اللقاء معرباً عن ألمه ونقده وإنكاره لما صدر عن الشيخ محمود شاكر، فأدرك هذا خطأه، واعتذر عما بدر منه، ودعا الأخ عبد الكريم، وطيب نفسه وخاطره، فعادت الأمور إلى مجاريها، وصدق الله العظيم: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾.

وحادثة أخرى ذات شأن، لقد تواعدنا نحن الثلاثة (مصطفى الصيرفي حفظه الله، والدكتور عبد الكريم رحمه الله، والفقير إلى عفو مولاه) في القاهرة، لإحياء أيام الأنس والمودة فيما بيننا في ذات الله، وفي رحاب دعوة الإخوان المسلمين، فقال عبد الكريم: ثمة تزاور بيني وبين عبد الحق شحادة، فهل ترغبون في اللقاء به، فلديه أمور يجدر سماعها، فوافقت على التو، وتحفظ الأخ أبو محمد الصيرفي حيال ذلك، واعتذر عن اللقاء، وقبل الدخول في موضوع اللقاء، لابد من إعطاء صورة عن عبد الحق شحادة التي اكتملت في الذهن قبيل اللقاء وبعده، كان عبد الحق ضابطاً في الجيش السوري في النصف الثاني من أربعينيات القرن الماضي، وفي النصف الأول من خمسينيات القرن، كان من أركان حكم الشيشكلي في الجيش السوري هو وزميله حسين حِدّة.

بعد سقوط حكم الشيشكلي، غادر عبد الحق سورية بعد أن كان قد قاد حملة عسكرية على مقر المرشديين في جبل العلويين، وقضى على بعضهم ومنهم (مجيب) أحد أبناء سليمان المرشد، أقام علاقات مع عدد من دول المنطقة، فأقام بالقاهرة متعاوناً مع مدير المخابرات الفريق الماحي، وأسكنه المصريون إحدى الشقق المصادرة -باسم تصفية الإقطاع- ذات الأثاث الفاخر، وأقام علاقة مع السعوديين، وخصصوا له في مدينة جدة فيللا -وسبق أن زرته بها- فقال: لقد كلف فرشها مئة ألف ريال، وتعاون مع الصوماليين في عهد سياد بري، وحمل جوازاً دبلوماسياً صومالياً.. إلخ..

تم اللقاء مع عبد الحق شحادة في شقته بالقاهرة، فكان حديثه لي وللأخ عبد الكريم عن مصر وسورية، وخلاصته أن الإخوان إذا وقفوا ضد حكومة البعث في سورية، وزعزعوا أركانها، يفرضون وجودهم على الناصريين، الأمر الذي يؤدي إلى تخفيف الضغط عن الإخوان المسلمين في مصر، فقلت: هكذا يكون العلاج والموقف السياسي؟ إن مثل هذا الأمر يحتاج إلى حوار وتنسيق وترتيب بين المعارضين يتناول جميع المراحل، وتحديد المسؤوليات بدءاً من الكلمة الأولى، وحتى سقوط النظام، ليعرف كل طرف أين مكانه ومشاركته في مثل هذا الموضوع الخطير؟ ثم عرّج عبد الحق على تقويمه للحكم في مصر، وقال فيه ما قاله مالك في الخمر!! وذكر أن له كتاباً سينشره فيما بعد، عنوانه: من السبئية إلى الناصرية، جراء موقف الناصرية المعادي من الإسلام.

انتهى اللقاء على أن نلتقي ثانية في وقت لاحق، فاستأنفنا اجتماعنا في كفتيريا حوريس في شارع ٢٦ يوليو، وإذا بي أفاجأ بإنسان آخر غير الذي رأيت وسمعت في الشقة قبل يومين، بدأ عبد الحق بلهجة زاجرة قوله: إلى متى تمسكون العصا من الوسط؟ لماذا لا تعلنون في بيان صريح أنكم مع جمال عبد الناصر إلى آخر هذه الطروح التي كان يضغط بها على وجوب الانحياز إلى عبد الناصر ضد الحكم في سورية الذي يسيطر عليه البعثيون، وقد استنتجت من ذلك أن عبد الحق راجع المخابرات المصرية، وعرض عليهم ما جرى في شقته من أحاديث، فأملوا عليه هذا الموقف، وزودوه بالآراء والأفكار التي كان عليه أن يطرحها بهذه الفجاجة والفظاظة.

لقد استفزنا موقف عبد الحق وتغيير موقفه، واستدارته مئة وثمانين درجة، فقلت على الفور، وبردود فعل غير مناسبة ولا محمودة:

- كل كلامك اليوم ومنذ يومين كنت تمهد له للطلب منا أن نؤيد الصنم؟ لقد كان هذا الحديث الفج مني مصدر إحراج لنا جميعاً، ولاسيما الأخ عبد الكريم الذي كان مقيماً في القاهرة، يتابع دراسته للدكتوراه في الفلسفة الإسلامية، فحاول تلطيف الموقف، وتفسير كلامي بما يخفف من سلبياته وآثاره التي لا نعرف ما سوف تؤول إليه، دون جدوى، ثم افترقنا، وذهب كل منا إلى سكناه، شعرت بالخطأ الفادح الذي وقعت فيه، ففكرت بالمغادرة السريعة، وما هي إلا سويعات، حتى كنت في مطار القاهرة في الطريق لركوب الطائرة

قبل أن تحيط الدوائر المختصة علماً بما جرى في اجتماع حوريس، ولم يمض يومان إلا وكان ضابط برتبة عقيد -إن لم تخني الذاكرة- يقرع باب الشقة التي يقيم بها عبد الكريم عثمان الذي رحب به ودعاه إلى الدخول، فكانت تحقيقات واستفسارات عن اللقاءات والأحاديث والأشخاص.. إلخ، ومرت السحابة الداكنة، بعد أن تأكدوا أن عبد الكريم لم يكن طرفاً في الذي حدث من اللقاءين المنوه عنهما قبل قليل.

هذه الصورة السلبية عن عبد الحق شحادة لم تقنع بعض الإخوة من حلب الذين عرفوا عبد الحق منذ أيامه الأولى، عندما كان عضواً في دار الأرقم -إحدى الجمعيات التي شكلت جماعة الإخوان المسلمين- فظل حسن الظن يغلب عليهم في الرجل، وبعد مرور سنوات، وحدوث الصدام في سورية بين الإخوان والنظام، ظهر عبد الحق في عمان، وزار بعض مقرات الإخوان عبر معارفه السابقة في الجماعة، ثم سافر إلى بغداد والتقى نائب الرئيس العراقي، وعرض عليه التعاون مع السلطة، بعد أن قدم نفسه من دعاة التيار القومي باعتباره أحد المؤسسين في الشمال السوري لحركة التحرير العربي برئاسة السياسي ظافر الرفاعي، ثم عاد إلى عمان، وزار عدداً من الإخوان، وشن حملة أمام الأعضاء على قيادة الجماعة متهماً إياها بالانبطاح -حسب تعبيره- كما شن حملة على العراقيين، وقام بتوزيع مذكرتين بخط يده، تقع إحداهما في ٦٣ صفحة، والثانية في ٢١ صفحة بشكل واسع، فتلقفها عدنان عقلة الذي كان يتربص بالجماعة

ويعتبرها عقبة في طريق طموحاته الثورية ، وشرع بتصويرها وتوزيعها على نطاق واسع في الأردن وأوربا وفي كل مكان استطاع أن يوصلها إليه.

عاد عبد الحق شحادة إلى القاهرة بعد أن قطع حباله مع العراق والإخوان، بعد أن يئس من إقناع الإخوان بوجوب مغادرة الأردن والعراق، فقال الشيخ سعيد حوّى رحمه الله:

- إلى أين يريد أن يقذف بنا عبد الحق؟ رداً على اقتراحه بمغادرة العراق والأردن.

توفي نائب الرئيس العراقي الذي أجرى عبد الحق الحديث معه، وتوفي الشيخ سعيد حوى، وتوفي منذ أسابيع أو أشهر عبد الحق، فالكل انتقل إلى جوار ربه، لنتعظ جميعاً، ونتذكر أن الحياة فانية، وأن العمر فيها ليس أكثر من سحابة صيف، تلوح وسرعان ما تنقشع، رحم الله الجميع وسامحهم وغفر لهم، وتجاوز عنا وعنهم وتغمدهم بالرحمة والغفران.

العودة إلى سورية

عاد الداعية عبد الكريم عثمان من القاهرة، يحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية بامتياز وتفوق، ليشغل مقعد هذه الدراسة التي أوفدته الجامعة ليملأ كرسيها، غير أنه ألفى الأبواب موصدة في وجهه، وأن حكومة الأقلية زاهدة في كل المواهب والاختصاصات إذا لم تكن من المشايعين لها في أفكارها الشاذة، بالرغم مما أنفقته الجامعة على الموفد من تكاليف الدراسة.

كان اختصاصه مطلوباً في الكثير من الجامعات، فاختار التعاقد مع جامعات المملكة العربية السعودية، وسرعان ما طرح في الوسط الجامعي موضوع الثقافة الإسلامية، لتكون مادة مقررة في جميع كليات الجامعات السعودية، يدرسها الطبيب والمهندس والصيدلي وجميع الكليات العلمية، والحقوقي والأديب والمؤرخ والاقتصادي، فوجد اقتراحه قبولاً، وأخذ طريقه للتنفيذ.

عكف الدكتور عبد الكريم على هذا الموضوع، واختار بحوثه ومواده، وأصدر فيه مؤلفات دخلت في المناهج المقررة، يتقدم فيها جميع طلاب الجامعات إلى الامتحان كباقي المواد ذات الاختصاص سواء بسواء، ومنذ ذلك الحين، وبعد حوالي أربعين سنة ما زالت كتب الدكتور عبد الكريم عثمان مراجع للدراسة في فلسفة الغزالي، وفي الفكر المعتزلي، وفي الثقافة الإسلامية، رحمه الله وأجزل له المثوبة.

الرحيل المبكر

في منتصف الستينيات من القرن الماضي، هبطت طائرة في مطار دمشق كان على متنها الأخ عبد الكريم عثمان، فأبلغه موظف الأمن أن قراراً صدر عن الدوائر المختصة يمنع أربعة مواطنين من العودة إلى سورية، وهم: عبد الكريم عثمان، ومصطفى الصيرفي، ونعسان عرواني، وعدنان سعد الدين، وقال الموظف: كل ما أستطيع أن أساعدك به، أن أترك لك وقتاً كافياً لاختيار الطائرة التي ستغادر بها إلى حيث تريد، فاختار طائرة متجهة إلى بيروت، وعندما وصلتُ إلى

لبنان، أخبرني عبد الكريم بقـرار المنع، فوجدنا في لبنان الملاذ الذي كنا نمـضي إجازات الصيف في ربوعـه، ونلتقي على أرضـه بالإخوان من جميع المـدن السورية، ومع الإخوة في لبنان الذين كثـيراً ما كانوا يوجهون إلينا الدعوة إلى مقراتهم ومخيماتهم لنسهم في إلقاء الكلمات وتوجيه أبناء الجماعة الإسلامية في لبنان.

في مطلع السبعينيات حضر الأخ عبد الكريم إلى بيروت، فأنكرت ما رأيتـه فيه من أثر المـرض البادي في صفـحات وجهه وفي مـحياه، وعندما ألح عليه المرض راجع الطبيب المختص في مستشفى الجامعة الأمريكية الدكـتور حداد، فطمأنه بادئ ذي بدء -بعـد إجراء الفحوص الطبيـة اللازمة، ثم طلب منـه بعد فترة قـصيرة إعادة الفـحص بإخراج قزعة من كبده، فـفاجأه أن أيامه محدودة، وعليه القيام بـتصفية أموره سريعاً، فهُرع إلى الكاتب بالعـدل لاستخراج تفويض لأهله في شؤونه المالـية والأسرية، ثـم تدهورت صحتـه بوقت قصـير، ولم يعـد قادراً على الكـلام، فكانت كلماتـه لا تكاد تسمع إلا همـساً، عرضنا عـليه العلاج في أي بلد يريد، لنـرفع من معنوياته وحالته النفسـية، وخيرناه بالـذهاب إلى مـوسكـو أو واشنطـن أو أوربا، فـاختـار الذهـاب إلى النمسا لوجود شـقيق زوجته صلاح الحلاق في فينـا للدراسة بها، فلم يلبث أن عاد منها بعد أن أكد له الأطباء استفحال المرض، فقد كانت حالته تنبئ عن اقـتراب الأجل، فسعى له أصحابه وأحبـابه بالسفر إلى منزل عـائلتـه في مدينـة حماة، ومـا هي إلا أيام حتـى فارق الحـياة، وانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً.

لقد كانت وفاة عبد الكريم صدمة مؤلمة للإخوان جميعاً، ولاسيما لرفقاء دربه ومسيرته الدعوية، وخسارة للجماعة التي كان عبد الكريم عثمان -أبو علاء- من ألمع شبابها وأكبر دعاتها، فشيعته الجموع الحاشدة، وحملت جنازته على الأكف في ٩-٩-١٩٧٢ بحضور عدد من أبناء المحافظات السورية الأخرى.

احتشدت الجموع على قبر الفقيد، فألقى الشيخ سعيد حوّى -رحمه الله- كعادته- كلمة مؤثرة، هيجت الأحزان، وعصرت قلوب المشيعين، ولامست أكبادهم، كما ألقى الشيخ عبد الله علوان رحمه الله كلمة باسم إخوان حلب، فسالت الدموع، وانسكبت العبرات حزناً على فراق زين الشباب، وفخر الرجال، وكان للأخ عبد المنعم نيربية -أبي عرفان- قصيدة نظمها في رثاء الداعية، إلا أن الأخ الذي يغلب على طبعه الحياء والانطواء أمسك عن إلقائها لظروف شخصية وأمنية، بانتظار الساعة المناسبة لنشرها، فجاء الأوان في هذا الملحق عن الفقيد في المجلد الثاني عن الإخوان المسلمين في سورية الغالية.

وهذه قصيدة الرثاء، وقد جاء فيها:

في التياع المُكلّمِ المفجوعِ ... بتُّ أبكي حبيبَ هذي الجُموعِ

عَلَمٌ شامخٌ تلألأ فيه ... مَعدنُ الخيرِ والرشاد البديعِ

مؤمنٌ ثابتُ الجنانِ.. ذكيٌ ... ألمعيٌّ.. إلى العُلا في نُزوعِ

وخطيبٌ يَسبيكَ سِحرُ بيانٍ ... نحوَ مبنى تبيانِهِ المسموعِ

والمعاني موصولةٌ بمَعين هو في ذروةِ البيانِ الرفيع

فيلسوفٌ ما زاغَ فيه فؤادٌ عن صراطِ اللهِ البصيرِ السميع

خاضَ بحرَ الآدابِ خوضَ جَسورٍ لا على اللهِ بل على الترقيع

سَرِقاتُ المستغربينَ الحَيارى لم تُضلله وهي صِنوُ الخُنوع

إنّ مَن صاحَبَ (الغزاليّ) يَجني من ثمارِ الفكرِ العميقِ الضليع

كيف تُغويهِ فلسفاتُ حَيارى سقطوا في مزالقِ التشنيعِ؟!

إيهِ (عبدَ الكريمِ) نبراسَ جيلٍ مؤمنٍ صادقٍ مُنيبٍ مُطيع

عُدتَ من (مصرَ) حاملاً لوسامٍ جامعيٍّ في قمةِ الترفيع

ويحَ قومٍ لم يُكرموا فيكَ عِلماً وخلالاً تزهو كزهرِ الربيع

خوّفتهم مواهبٌ فيكَ عظمى فنَقَوها تَحَكّماً في القَطيع

كيف يَرضَونَ أن تصدَّ شباباً عن طريقِ الإلحادِ والتضييعِ؟!

كيف يَرضونَ أن تُزاحمَ رَهطاً وعدواً وابنِ اليسارِ الشيوعي؟

فلتُسافر إلى (الرياضِ) مُعاراً وحرامٌ عليكَ مرأى الرُّبوع

(أحرامٌ على بلابلنا الدّو حُ حَلالٌ) للبومِ في تشجيع؟

فالكريمُ الأصيلُ يُسجنُ أو يُنفى وذو الموبقاتِ قبلَ الجَميع

وقريباً من منزلِ الوحي جاهَد تَ بعزمٍ في خدمةِ التشريع

تَبذلُ العِلمَ في ظِلالِ اختصاصٍ تَعبدُ اللهَ في لِباسِ الخَشوع

شَهِدَ العارفونَ أنّكَ قد كنتَ كريمَ الأخلاقِ مثلَ الشُّموع

حينَ تُعطي من نورِها بسخاءٍ ... بينما الجسمُ آخذٌ في الرّجوع

لَهفَ نفسي (أبا علاءٍ) على ... الفِكرِ شهيدِ الداءِ العُضالِ المُريع

أحرقَتْكَ الآلامُ تغزو ببطءٍ ... كبداً قد أُصيبَ بينَ الضلوع

فاجأتنا الأخبارُ بالشرِّ تَتْرى ... فأسِفنا على الذُّبولِ السريع

لهفَ نفسي على الدّعاةِ كِباراً ... كمْ مَشينا نَحُفُّهم بالدموع!

كم بدورٍ سَنيةٍ قد فَقَدنا ... وأولو الغَيِّ في ازديادٍ مَنيع

رَبِّ عوِّضْ عنهم بأشبالِ دينٍ ... سوفَ يَفدونَ دينَهم بالنجيع

رَبِّ والطُفْ بالمسلمينَ اليتامى ... رَبِّ رُحماكَ بالوليدِ الرضيع

رَبِّ ألهِم آل الفقيدِ اصطباراً ... رَبِّ أسكنهُ في جِوار الشفيع

حماة - الجمعة ٣٠ رجب ١٣٩٢هـ - ٨-٩-١٩٧٢م

رحم الله الفقيد الغالي، وأسكنه فسيح جناته، وواسع مغفرته، وجمعنا به في مستقر رحمته، تحت لواء المصطفى ﷺ وآل بيته وصحبه، ومن سبقنا إلى رحاب الحنان المنّان الرحمن من أمثال الشهيد الإمام حسن البنا وكبير الدعاة مصطفى السباعي، وشيخ العارفين محمد الحامد، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

انتهى المجلد الثاني

من كتاب الإخوان المسلمين في سورية

المراجع والمصادر

١- مصطفى السباعي، رجل فكر وقائد دعوة للأستاذ عبد العزيز الحاج مصطفى، الطبعة الأولى عام ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م نشر دار عمار.

٢- مصطفى السباعي للدكتور عدنان زرزور، الطبعة الثانية.

٣- الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية، تحرير د. فيصل دراج وجمال باروت ج١.

٤- الحركات الإسلامية في سورية لمؤلفه يوهانس رايسنر، الطبعة الأولى تموز/ يوليو ٢٠٠٥ نشر رياض الريس.

٥- مجلة الشهاب العدد ٧٥ تشرين الثاني ١٩٥٦، وأعداد أخرى من المجلة في مواضع عديدة من الكتاب.

٦- مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه، إعداد محمد مصطفى السباعي، نشر دار الوراق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠م - ١٤٢١هـ.

٧- مجلة حضارة الإسلام -السنة الرابعة- العدد الرابع -تشرين الثاني ١٩٦٣ وأعداد أخرى من المجلة في مواضع عديدة من

الكتاب.

٨- دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر للدكتورة أمل ميخائيل بشور.

٩- أيام عشتها: الانقلابات العسكرية وأسرارها في سورية ١٩٤٩ - ١٩٦٩ لمؤلفه الضابطِ محمد معروف، نشر رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣ .

١٠- وطن وعسكر، مذكرات ٢٨ أيلول ١٩٦١ - ٨ آذار ١٩٦٣ تأليف مطيع السمان، الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥، الناشر: بيسان للنشر والتوزيع.

١١- مذكراتي عن فترة الانفصال ما بين ٢٨ أيلول/ سبتمبر و٨ آذار/ مارس للفريق عبد الكريم زهر الدين.

١٢- مذكرات خالد العظم الجزء الثالث، الطبعة الأولى الناشر: الدار المتحدة للنشر، بيروت.

١٣- التطور السياسي والاقتصادي في سورية، من نيسان ١٩٤٦ وحتى نيسان ١٩٩٠ للدكتور غسان حداد، صدر في نيسان ١٩٩٠ .

١٤- هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، الطبعة الثالثة ٢٠٠٣، نشر دار الفرقان للنشر والتوزيع - عمان.

١٥- البداية والنهاية لابن كثير الجزء ١٢، الطبعة الأولى ١٩٩٦،

طباعة دار أبي حيان - القاهرة.

١٦- الحروب الصليبية كما رآها العرب، لأمين معلوف - الطبعة الأولى لبنان ١٩٩٧ دار الفارابي - بيروت.

١٧- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري - الدولة العباسية.

١٨- تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن، الطبعة الثانية ١٩٥٨ .

١٩- العلويون النصيريون لأبي موسى الحريري طباعة بيروت ١٩٨٠ .

٢٠- النصيريون والنصيرية لمؤلفه رشيد تالقوت، مطبعة دريفل استنبول ١٩٣٨ .

٢١- ميزان الاعتدال للذهبي ج٢.

٢٢- الفتاوى لابن تيمية ج٥.

٢٣- الخطط للمقريزي ج٤.

٢٤- خطط الشام ج٢ لمحمد كرد علي.

٢٥- المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء: أحداث سنة ٥٧١هـ.

٢٦- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ج٧.

٢٧- تاريخ الشعوب الإسلامية، لبروكلمان - لندن ١٩٥٩ .

٢٨- سورية والعهد الفيصلي ليوسف الحكيم.

٢٩- سورية ولبنان وفلسطين ج٢ لفيليب حتي.

٣٠- بلاد الشام للكوثراني، الملحق ١٩، ووثائق مختارة عن بلاد النصيرية بقلم الكولونيل نيجر، نُشرت في مجلة العالم الإسلامي في آذار ١٩٢٢ العدد ٤٩ .

٣١- كتاب قصة الكفاح الوطني في سورية عسكرياً وسياسياً حتى الجلاء لمؤلفه علي رضا.

٣٢- الوثائق التاريخية للسيد حسن الحكيم الوثيقة ٤٣ .

٣٣- المشرق العربي في مواجهة الاستعمار لمؤلفه ذوقان قرقوط.

٣٤- سجلات وزارة الخارجية الفرنسية، سورية ولبنان نقلاً عن مركز البحوث والدراسات - بغداد.

٣٥- تاريخ سورية الحديث للكاتب تيباري - لندن ١٩٦٩ .

٣٦- الصراع على السلطة في سورية، الطائفية والإقليمية والعشائرية في السياسة ١٩٦١ - ١٩٩٥ للدكتور نيقولاوس فان دام، الطبعة الثانية ١٩٩٥، مكتبة مدبولي في القاهرة.

٣٧- الأسد، الصراع على الشرق الأوسط، لمؤلفه بتريك سيل، نشر دار الساقي.

٣٨- كتاب الحكومة الإسلامية للخميني.

٣٩- كتاب كشف الأسرار للخميني.

٤٠- الخمينية: شذوذ في العقائد، شذوذ في المواقف لمؤلفه الشيخ سعيد حوّى، عمان، الأردن. دار عمار.

٤١- التجربة المرة لمؤلفه منيف الرزاز، بيروت ١٩٦٧ .

٤٢- حزب البعث، مأساة المولد، ومأساة النهاية للأستاذ مطيع الصفدي بيروت ١٩٦٤ .

٤٣- الإسلام في مواجهة الباطنية للشيخ محمد المجذوب -أبو الهيثم- الطبعة الأولى ١٩٨٥، طباعة دار الصحوة للنشر.



المحتوى

في هذا الكتاب

كانت حقبة ١٩٥٤-١٩٥٨ من أقسى الحقب على سورية تجاه ما واجهته من مخططات ومؤامرات تمثلت في التدخل في شؤونها ومحاولة فرض الهيمنة على شعبها وأرضها. ثم بلغ التنافس على سورية مداه في هذه الفترة بين شرائح اليسار والناصرية المدعومة من السوفيات والقاهرة، وبين الدول الغربية وأحزاب اليمين في سورية، فدفعت بسورية إلى الوحدة مع مصر دفعاً، لتنجو بنفسها من غزو وشيك، لكن الوحدة التي قامت في ظروف مليئة بالأخطار الفادحة، لم تنقذ سورية من المصير المحتوم، جراء الأخطاء القاتلة التي شارك فيها السوريون والمصريون جميعاً، فهربت إلى الانفصال عن مصر، تنشد النجاة، فإذا بها تقع فريسة سهلة أمام الناصريين الذين انقضوا عليها من مصر ولبنان ومن داخل سورية، ومن اليسار والشيوعيين والاشتراكيين المدعومين من السوفيات والدول الشيوعية الأخرى، في الوقت الذي كان فيه قادتها وساستها يتصارعون على المكاسب الرخيصة العاجلة، لينتهي الحال بالأرض الطيبة والقطر الجميل إلى النفق المظلم، والوقوع بين أنياب ومخالب تنظيم سري باطني حاقد، عملت فيه معاول الهدم منذ أربعين عاماً ونيف، وما تزال.

كل كذلك يجده القارئ تفصيلاً وتوثيقاً في هذا المجلد الثاني من كتاب (الإخوان المسلمون).



الإخوان المسلمون فى سورية
من رحيل الشيشكلى إلى الانفصال ١٩٥٤-١٩٦٣

كانت حقبة ١٩٥٤ - ١٩٥٨ التى سبقت الوحدة من أقسى الحقب على سورية تجاه ما واجهته من مخططات ومؤامرات تمثلت فى التدخل فى شؤونها ومحاولة فرض الهيمنة على شعبها وأرضها. ثم بلغ التنافس على سورية مداه فى هذه الفترة بين شرائح اليسار والناصرية المدعومة من السوفيات والقاهرة، وبين الدول الغربية وأحزاب اليمين فى سورية، فدفعت بسورية إلى الوحدة مع مصر دفعاً ، لتنجو بنفسها من غزو وشيك، لكن الوحدة التى قامت فى ظروف مليئة بالأخطار الفادحة، لم تنقذ سورية من المصير المحتوم، جراء الأخطار القاتلة التى شارك فيها السوريون والمصريون جميعاً، فهربت إلى الانفصال عن مصر، تنشد النجاة، فإذا بها تقع فريسة سهلة أمام الناصريين الذين انقضوا عليها من مصر ولبنان ومن داخل سورية، ومن اليسار والشيوعيين والاشتراكيين المدعومين من السوفيات والدول الشيوعية الأخرى، فى الوقت الذى كان فيه قادتها وساستها يتصارعون على المكاسب الرخيصة العاجلة،